تفسير القرآن الكريم

المسمى

ضياء التأويل

في

معاني التنزيل

تأليف

العلامة أبي محمد عبد الله بن محمد بن عثمان

الملقب بفودي بن عثمان بن صالح

رحمه الله تعالى

الجزء الرابع

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الناشر

الحاج محمد حسن آجي

[illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يس

مكية أو إلا قوله « وإذا قيل لهم أنفقوا » الآية
وهي ثلاث وثمانون آية

(بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ، يسٓ) الله أعلم بمراده به (وَٱلْقُرْءَانِ) أدغم نون يسٓ في واو « والقرآن » ورش وابن عامر والكسائي وهي واو القسم أو العطف إن جعل « يسٓ » مقسماً به (ٱلْحَكِيمِ) ذي الحكمة على معنى النسبة كلابن أو ناطق بالحكمة استعارة مكنية أو المحكم بعجيب النظم وبديع المعاني (إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ) والتأكيد بالقسم وإنّ وغير ذلك للرد على قول الكفار له « لست مرسلا » ، (عَلَىٰ صِرَٰطٍ) خبر ثان أو حال من المستكن في الجار والمجرور وهو متعلق بما قبله (مُّسْتَقِيمٍ) طريق الأنبياء قبلك : التوحيد والهدى والقصد ، ووصف الشرع بالاستقامة صريحاً وإن دل عليه « إنك لمن المرسلين » التزاماً وتنكير « صراط » لتعظيم منهاجه على طرق سائر الرسل لكونه حنيفاً (تَنزِيلُ ٱلْعَزِيزِ) بالرفع خبر محذوف لنافع وابن كثير وأبي عمرو وأبي بكر والمصدر بمعنى المفعول وبالنصب للباقين على المصدر بمقدر أو على المدح (ٱلرَّحِيمِ) وقرئ بالجر على البدل (لِتُنذِرَ) به (قَوْمًا) متعلق بتنزيل (مَّآ) نافية (أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ) الأقربون في زمن الفترة فهي صفة مبينة لشدة حاجتهم إلى إرساله أو « ما » بمعنى الذي أنذر به أو شيئاً أنذر به آباؤهم الأبعدون من العذاب فيكون مفعولا ثانياً لـ« تنذر » أو مصدرية أي إنذار آبائهم (فَهُمْ غَٰفِلُونَ) عن الرشد والإيمان متعلق بالنفي على الأول بمعنى أن سبب غفلتهم عدم إنذار آبائهم أو بقوله « إنك لمن المرسلين » على الوجوه الأخر أي أرسلناك إليهم لتنذرهم فإنهم غافلون (لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ) وجب (عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ) بالعذاب (فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) أي الأكثر بل يموتون على الكفر نتيجة لذلك القول وفيه تسلية لرسول الله (إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا) جمع غل قيد يجمع به الأيدي إلى الذقن ولذلك يقال له الجامعة ويكون ملتقى طرفيه تحت الذقن فيه عمود يمنع المغلول من أن يطأطئ رأسه (فَهِىَ) أي الأغلال عريضة واصلة (إِلَى ٱلْأَذْقَانِ) جمع ذقن وهو مجتمع اللحيين

﴿ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴾ رافعون رءوسهم غاضون أبصارهم لا يستطيعون خفضها وكل هذا تقرير لتصميمهم على الكفر والطبع على قلوبهم بحيث لا تغنى عنهم الآيات بتمثيلهم بالمغلول الذى لا يقدر على النظر خلفه ولا قدامه ، ثم قرر ذلك وأكده بقوله ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سُدًّا ﴾ بضم السين للجمهور وفتحها لحمزة والكسائى وحفص فى الموضعين ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ سُدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ شيئا تمثيل أيضاً لسد طرق الإيمان عليهم ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ لأنهم أهل الطبع ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ ﴾ ينفع إنذارك ﴿ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ القرآن بالتأمل فيه والعمل به ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ﴾ خافه ولم يره ، وفى ذكر الرحمن مع الخشية إشارة إلى أن لا يغتر برحمانيته فإنه شديد العقاب ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ لا منّ فيه ولا تعب ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ للجزاء وعد ووعيد أو الجهال بالهدى ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا ﴾ من الأعمال الصالحة والطالحة ﴿ وَءَاثَارَهُمْ ﴾ الحسنة كعلم علموه والسيئة كإشاعة باطل وتأسيس ظلم ، وقيل الآثار هى الخطا إلى المسجد لما روى جابر أن بنى سلمة أرادوا الانتقال إلى قرب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا بنى سلمة ديارَكم تُكتبْ آثاركم » ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ ﴾ نصبه بفعل يفسره ﴿ أَحْصَيْنَاهُ ﴾ ضبطناه ﴿ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ كتاب بيّن هو اللوح المحفوظ ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا ﴾ مثّل أو اجعل بمعنى اذكر لقومك قصة عجيبة قصة ﴿ أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ﴾ وهى أنطاكية « ومثلا » مفعول أول والثانى « أصحاب » ﴿ إِذْ جَاءَهَا ﴾ إلى آخره بدل اشتمال من « أصحاب القرية » ﴿ الْمُرْسَلُونَ ﴾ رسل عيسى الحواريون بعد رفعه وقيل رسل من قِبل الله . قال ابن عطية : ويرجحه قول الكفرة « ما أنتم إلا بشر مثلنا » فهى محاورة لمن ادعى الرسالة . اهـ . وفى الجواهر : الصحة فى هذه القصة غير متيقنة واللازم من الآية أن الله بعث إلى القرية رسولين للدعاء إلى توحيد الله كما قال تعالى ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ إلى آخره بدل من « إذ » الأولى إلى آخره قيل هما يحيى ويونس ﴿ فَعَزَّزْنَا ﴾ بالتشديد للجمهور أى قوّيناهما والتخفيف لأبى بكر من عزه إذا غلبه وحذف المفعول لدلالة ماقبله عليه ولأن المقصود ذكر المعزز به ﴿ بِثَالِثٍ ﴾ هو شمعون ﴿ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴾ وآية ذلك شفاء كل مريض وإبراء الأكمه وإحياء الموتى فمشى على أيديهم خلق من آمن بهم وكذبهم الأكثر ﴿ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ من الوحى لا عليكم ولا على غيركم ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ فى دعوى الرسالة ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ ﴾ استشهدوا بعلم الله وهو يجرى مجرى القسم وزيد التأكيد به وباللام على ماقبله لزيادة الإنكار فى ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ التبليغ البيّن الظاهر بالأدلة وقد حصل ﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا ﴾ تشاءمنا ﴿ بِكُمْ ﴾ أى بما سمعنا منكم نخاف أن يسخط علينا إلهنا به أو بانقطاع المطر عنا واختلاف كلمتنا بسببكم ﴿ لَئِنْ ﴾ لام قسم ﴿ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ بالحجارة أو الشتم ﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم ﴿ قَالُوا طَائِرُكُمْ ﴾ شؤمكم ﴿ مَعَكُمْ ﴾ بكفركم لا يفارقكم ﴿ أَئِنْ

ذُكِّرْتُمْ ﴾ همزة استفهام دخلت على إن الشرطية أى لئن وعظتم ، وجواب الشرط محذوف أى تطيرتم وتوعدتم بالرجم وهو محل الاستفهام التوبيخى أى أيكون التذكير الذى هو سبب السعادات كلها جالباً للشؤم ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ متجاوزون الحد فى العصيان ولذا جعلتم سبب السعادة من أسباب الشؤم والشقاء أو لذلك جاءكم الشؤم ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ ﴾ هو حبيب النجار أول من آمن بالرسل لما رأى المعجزات ومنزله بأقصى المدينة وقيل كان فى غار يعبد الله فلما بلغه أن القوم عزموا على قتل الرسل سعى إليهم وباح بإسلامه ليشتغلوا به عن الرسل ﴿ يَسْعَى ﴾ يشتد عدواً ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ أضاف القوم إلى نفسه وأطلق الرسل إظهاراً للنصح ﴿ اتَّبِعُوا ﴾ تأكيد للأول ﴿ مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾ على النصح وتبليغ الرسالة ﴿ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ إلى عز الدارين فقيل له : أنت على دينهم ! فقال ﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ خلقنى أى لا مانع لى من عبادته الموجود مقتضيها وأنتم كذلك ، أو المراد وما لكم فتلطف فى الإرشاد بإيراده فى معرض المناصحة لنفسه حتى يعلموا أنه أراد لهم ما أراد لنفسه ولذلك قال ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فى الآخرة فيجازيكم وفيه مبالغة فى التهديد ثم عاد إلى المساق الأول فقال ﴿ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى غيره ﴿ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴾ بالنصر والمظاهرة صفة آلهة ﴿ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ لا يخفى على أحد ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ الذى خلقكم ورزقكم ﴿ فَاسْمَعُونِ ﴾ أى اسمعوا قولى وأطيعوا فقد أرشدتكم بما لا مزيد عليه ، وقيل خاطب الرسل لما قام قومه فى قتله ، أى اسمعوا كلامى واشهدوا لى عند الله ، فرجموه فمات ﴿ قِيلَ ﴾ له عند موته ﴿ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ فلما أقر الله عينه بما رأى من الكرامات ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ، بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي ﴾ بغفرانه لى ﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ ليكون باعثاً لهم إلى الإيمان . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « نصح قومه حياً وميتاً » ، وما مصدرية أو موصولة ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ أى حبيب ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ بعد موته ﴿ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى لم ننزل جنداً من السماء لإهلاكهم تحقير لأمرهم ﴿ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ ملائكة لإهلاك أحد إذ كفى صيحة جبريل بهم وإنزال الملائكة ببدر ونحوه إجلال لقدر رسول الله وبيان لرفعته ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ كَانَتْ ﴾ عقوبتهم ﴿ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ صاح بهم جبريل ﴿ فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ كما تخمد النار استعارة تبعية أى ميتون ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾ هؤلاء ونحوهم من كذبوا الرسل فأهلكوا وهى شدة التألم وتداؤها مجاز أى هذا أوانك فاحضرى أو نصب «حسرة» على المصدر والمنادى محذوف أى يا هؤلاء تحسروا حسرة ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ مسوق لبيان سبب التحسر لاشتماله على استهزائهم المؤدى إلى إهلاكهم المسبب عنه الحسرة ﴿ أَلَمْ يَرَوْا ﴾ أى أهل مكة القائلون للنبى لست مرسلا والاستفهام للتقرير أى علموا ﴿ كَمْ ﴾ خبرية بمعنى كثيرا معمولة لما بعدها معلقة ما قبلها عن العمل لأن أصلها الاستفهام والمعنى أنا ﴿ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ ﴾ كثيرا ﴿ مِنَ الْقُرُونِ ﴾

الأمم (أنهم) أي المهلكين (إليهم لا يرجعون) وأنهم إلى آخره بدل مما قبله برعاية المعنى المذكور أي أو لم يروا كثرة إهلاكنا من قبلهم وكونهم غير راجعين إليهم (وإن) مخففة أي (كل) الخلائق مبتدأ (لما جميع) مجموعون (لدينا) في الموقف بعد بعثهم (محضرون) للحساب وقوله لما جميع بتخفيف الميم خبر المبتدأ واللام هي الفارقة وما زائدة ومحضرون خبر ثان هذه قراءة الجمهور ولابن عامر وعاصم وحمزة لما بالتشديد بمعنى إلا فتكون إن نافية وجميع بمعنى كل مفعول ولدينا ظرف له أو لمحضرون وإنما جمع بين كل وجميع لإفادة كل معنى الإحاطة وجميع معنى الاجتماع (وآية لهم) على البعث خبر مقدم والمبتدأ (الأرض الميتة) بالتشديد لنافع والتخفيف لغيره (أحييناها) صفة للأرض أو استئناف لبيان كونها آية (وأخرجنا منها حبا) أي جنسه الشامل لأنواع شتى (فمنه يأكلون) قدم الصلة للدلالة على أن الحب معظم ما يؤكل ويعاش به (وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب) من أنواع النخل والعنب ولذا جمعهما دون الحب ولم يذكر التمر مع الحب والأعناب لاختصاص شجر التمر بمزيد النفع وآثار الصنع ، وفي الحديث: أنه مثل المسلم (وفجرنا فيها) شيئا (من العيون) أي بعضها أو من زائدة عند الأخفش (ليأكلوا من ثمره) ثمر ما ذكر من الجنات وما بعده بفتحتين للجمهور ، وبضمتين لحمزة والكسائي (وما عملته) لم تعمل الثمر (أيديهم) وما نافية ويؤيده قراءة الكوفيين غير حفص بحذف الضمير المتصل في عملته أو موصولة أو موصوفة عطف على الثمر أي الذي أو شيء عملته أيديهم بالصنع كالعصير والدبس ونحوهما (أفلا يشكرون) نعمه تعالى عليهم هذا أبلغ من الأمر لأنه إنكار على الترك ثم نزه ذاته عن الشريك بقوله (سبحان الذي خلق الأزواج) الأصناف (كلها مما تنبت الأرض) من الحبوب والشجر وغيرهما (ومن أنفسهم) من الذكور والإناث (ومما لا يعلمون) من الأزواج العجيبة الغريبة مما لم يطلعهم الله عليه ولم يجعل لهم طريقا إلى معرفته (وآية لهم) على القدرة العظيمة (الليل نسلخ منه النهار) نزيله ونكشفه عن مكانه مستعار من سلخ الجلد والكلام في إعرابه ما سبق (فإذا هم مظلمون) داخلون في الظلام (والشمس تجري) إلى آخره من جملة الآية لهم أو آية أخرى والقمر كذلك (لمستقر) أي إلى مستقر زماني أو مكاني (لها) وهو ما ينتهي إليه سيرها في آخر السنة شبه بمستقر المسافر أو منتهى المشارق والمغارب وهو أقصى ما تنتهي إليه منها ثم ترجع أو لحد معين من مسيرها كل يوم أو الوقت الذي ينقطع فيه جريها عند خراب العالم والمكاني هو مستقرها تحت العرش كما في البخاري عن أبي ذر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : «إن الشمس إذا غربت تذهب فتسجد تحت العرش فيقال لها اذهبي فاطلعي حيث كنت تطلعين ويوشك أن تستأذن فلا يؤذن لها ويقال ارجعي حيث جئت فتطلع من مغربها» (ذلك) الجري على هذا المثال (تقدير العزيز) في ملكه (العليم) المحيط علمه بكل معلوم (والقمر) بالرفع لنافع وابن كثير وأبي عمرو على الابتداء وما بعده الخبر أو العطف على السابق فينتظم في سلك الآيات كأنه قال : ومن آياته

الليل والشمس والقمر » وبالنصب للباقين بإضمار فعل يفسره ﴿ قَدَّرْنَٰهُ ﴾ من حيث سيره ﴿ مَنَازِلَ ﴾ ثمانية وعشرين منزلا وتقدمت في غير موضع ﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾ القمر في آخر منازله في رأى العين دقيقا متقوسا مصفرا ﴿ كَٱلْعُرْجُونِ ﴾ عود الشماريخ إذا عتق ﴿ ٱلْقَدِيمِ ﴾ الذي تقادم عهده فإنه يدق وينقوس ويصفر فشبه به من ثلاثة أوجه ، والعرجون فعلون من الانعراج وهو الاعوجاج ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى ﴾ يسهل ﴿ لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ﴾ فتجتمع معه في سلطانة الليل فتطمس نوره وتبطل ما نيط به من الفوائد ﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ فلا يأتي قبل انقضائه والمراد بالليل آيته إذ الكلام في ذلك يدل عليه السابق واللاحق وإنما أوثر طريق الكناية ليدمج فيه الإشارة إلى اختلاف الليل والنهار أيضا ولما ذكر في الشمس الإدراك الدال على أنها طالبة للحاق أردفه بلا ينبغي أي لا يصح لها ذلك ولما نفي السبق في القمر لأنه أسرع أكده بالجملة الاسمية فلم يبق لذكر الابتغاء وجه . قاله في غاية الأماني ﴿ وَكُلٌّ ﴾ تنوينه عوض من المضاف إليه من الشمس والقمر وما أشعر به من النجوم ﴿فِى فَلَكٍ﴾ مستدير ﴿يَسْبَحُونَ﴾ يسيرون سريعا نزلوا منزلة العقلاء . وهذا صريح في أن الحركة للكواكب خلاف ما عليه أهل النجوم ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ على قدرتنا ﴿ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ بالجمع لنافع وابن عامر وبالإفراد للباقين أي أولادهم الذين يبعثونهم إلى تجاراتهم أو ذكر الذرية اضعفهم عن السفر فالنعمة فيهم أمكن ﴿ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ السفن المملوءة من شحن السفينة أوقرها وقيل المراد فلك نوح الذي حمل فيه آباءهم وفي أصلابهم ذرياتهم . والله أعلم ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ مثل الفلك ﴿ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ عليه من الإبل فإنها سفائن البر أو من مثل فلك نوح وهو ما عمل الناس على شكله من السفن والزوارق جمع زورقة : السفينة الصغيرة . بتعليم الله تعالى يركبون فيه ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾ مع اتخاذ السفن ﴿ فَلَا صَرِيخَ ﴾ مغيث ﴿ لَهُمْ ﴾ من الغرق أو فلا إغاثة لهم إذ هو مصدر في الأصل كالصراخ ﴿ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ ينجون من الموت لشيء ﴿ إِلَّا رَحْمَةً ﴾ إلا لرحمة ﴿ مِّنَّا وَمَتَٰعًا ﴾ أي وتمتيع بالحياة ﴿ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ إلى زمان قدر لآجالهم ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ ما تقدم وما تأخر من الذنوب أو نوائب السماء والأرض أو عذاب الدنيا والآخرة أو أمثال ما تقدم من عقوبات الأمم وما تأخر من عذاب الآخرة ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ لتكونوا راجين رحمة الله وجواب إذا محذوف أي أعرضوا دل عليه ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ فدأبهم الإعراض في كل آية اعتادوه وتمرنوا عليه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي قال فقراء الصحابة لهم ﴿ أَنفِقُوا۟ ﴾ علينا وعلى المحاويج ﴿ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ من الأموال ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ استهزاء بهم ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ في معتقدكم أو أرادوا لما كان الله قادرا أن يطعمهم ولم يطعمهم فنحن أحق بذلك ؟ وهذا من فرط جهالتهم ، ولما كان مدار الإيمان على تعظيم الله والشفقة على خلقه سلب الله عنهم الوصفين معا ﴿ إِنْ أَنتُمْ ﴾ في قولكم لنا ذلك مع معتقدكم هذا ﴿ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ بين وهذا على

أنه من قول الكفار، وقيل إنه جواب المؤمنين أى إن أنتم إلا فى ضلال حيث أمرتمونا بما يخالف مشيئة الله، ويجوز أن يكون جوابا من الله لهم والتصريح بكفرهم موقع عظيم ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ بالبعث ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيه قال تعالى ﴿مَا يَنْظُرُونَ﴾ أى ما ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هى نفخة الفزع وهى الأولى وفى حديث أبى هريرة إن بعدها نفخة الصعق ثم نفخة الحشر وهى التى تدوم مالها من فواق وقيل نفخة الفزع والصعق واحدة وهى نفخة إسرافيل الأولى ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ بفتح الخاء وتشديد الصاد لورش وابن كثير وهشام واختلس فتح الخاء قالون وأبو عمرو وبكسر الخاء وتشديد الصاد لعاصم والكسائى وابن ذكوان وبإسكان الخاء وتخفيف الصاد كيضربون لحمزة فذلك أربع قراءات أى يتخاصمون فى متاجرهم ومعاملاتهم غافلين لا تخطر ببالهم كقوله بل تأتيهم بغتة ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أن يوصوا فى شىء من أموالهم ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ من أسواقهم وأشغالهم بل يموتون فيها حيث أخذتهم وقيل بعد نفخة الفزع تحيط بهم النار وتسوقهم أحياء إلى المحشر تبيت معهم حيث باتوا كما جاء فى الأحاديث الصحاح ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ هو قرن النفخة الثانية للبعث وبين النفختين أربعون سنة ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ أى المقبورون ﴿مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ القبور ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ يخرجون بسرعة ﴿قَالُوا﴾ الكفار منهم ﴿يَا﴾ للتنبيه ﴿وَيْلَنَا﴾ هلاكنا وهو مصدر لا فعل له من لفظه ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ موضع نومنا لما شهدوا أهوال القيامة عدوا عذاب القبر راحة وفيه ترشيح ورمز وإشعار بأنهم لاختلاط عقولهم يظنون أنهم كانوا نياما وقيل يرفع الله العذاب عنهم بين النفختين فيهجعون هجعة لكنه غير صحيح. قاله ابن عطية. والله أعلم. ﴿هَٰذَا﴾ البعث ﴿مَا﴾ الذى ﴿وَعَدَ﴾ به ﴿الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ﴾ فيه ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾ أقروا حين لا ينفعهم الإقرار وقيل يقال لهم ذلك من المؤمنين والملائكة جوابا عن سؤالهم معدولا عن سننه تنبيها لهم بأن الأهم السؤال عن البعث دون الباعث فكأنهم قالوا الباعث معلوم وليس ذلك بالبعث الذى تظنونه بل هو بعث آخر ذو الأهوال والأفزاع الذى جاءت به الرسل والكتب ﴿إِنْ كَانَتْ﴾ النفخة الأخيرة ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ نفخة إسرافيل الأخيرة ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ بمجرد تلك الصيحة وفى كل ذلك تهوين أمر البعث والحشر على الله إذ لا يحتاج إلى أسباب فيقال لهم يومئذ ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا﴾ جزاء ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تصوير لذلك الموعود فى صورة الحاضر تمكينا له فى النفس وترغيبا لطلبه ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ﴾ بسكون الغين لنافع وابن كثير وأبى عمرو وبضمها للباقين أى شغل بالنعيم ﴿فَاكِهُونَ﴾ متنعمون ملتذون فى النعمة وفى تنكير شغل وإبهامه تعظيم لما هم فيه من البهجة والتلذذ وتنبيه على أنه أعلى من أن تحيط به الأفهام ويعرب عن كنهه الكلام ﴿هُمْ﴾ مبتدأ ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾ جمع ظل خبر أى لا تصيبهم الشمس إذ لا شمس، ولحمزة والكسائى فى ظلل جمع ظلة وهى الساتر العالى ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ جمع أريكة وهى السرير فى الحجلة أو الفرش فيها جملة مستأنفة أو خبر ثان لهم ﴿مُتَّكِئُونَ﴾ خبر آخر متعلق على ﴿لَهُمْ

فِيهَا فَاكِهَةٌ) ما يتفكهون به تلذذا لأن الأكل هناك ليس لدفع الجوع (وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ) يتمنون لأنفسهم من الملاذ ، و « ما » موصولة أو موصوفة (سَلَامٌ) بدل من ما أى لهم سلام خالص لا شوب فيه (قَوْلًا) مصدر مؤكد أى يقال لهم قولا كائنا (مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ) والمعنى أن الله يسلم عليهم بواسطة الملائكة أو بغير واسطة تعظيما لهم وذلك مطلوبهم ومتمناهم ، ويحتمل نصب قولا على المدح وهو أحسن الوجوه . قاله فى غاية الأمانى (وَ) يقول (امْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) انفردوا عن المؤمنين وذلك حين يسار بهم إلى الجنة والإنشاء فمعنى الخبر كقوله « يومئذ يتفرقون . فأما الذين آمنوا .. الآية » وأوثر صورة الطلب لأنه أبلغ فى التهويل (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ) آمركم (يَا بَنِي آدَمَ) على لسان رسلى (أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ) لا تطيعوه (إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) ظاهر العداوة تعليل للنهى (وَأَنِ اعْبُدُونِي) عطف على أن لا تعبدوا أى وحدونى وأطيعونى (هَٰذَا) الذى عهد إليكم (صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ) والتنكير للتعظيم والجملة استئناف لبيان المقتضى للعهد (وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا) بكسر الجيم والباء وتشديد اللام لنافع وعاصم جمع جبلة بمعنى الخليقة وبضمهما والتخفيف لابن كثير وحمزة والكسائى جمع جبيل بمعنى مجبول كسبيل وسبل وبالضم والإسكان مخففاً لأبى عمرو وابن عامر بيان لمعاداة الشيطان بوضوح إضلاله (كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) عداوته وإضلاله وما حل بمن أضلهم من العذاب فتؤمنون ، ويقال لهم فى الآخرة إذا برزت الجحيم للغاوين (هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) بها (اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ) أى ذوقوا حرها بكفركم فى الدنيا (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ) أى الكفار لمنعها من الكلام (وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم)وغيرها (بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) فكل عضو ينطق بما صدر منه (وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ) لأعميناها طمساً (فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ) ابتدروا إليه ذاهبين كعادتهم والصراط نصب بنزع الخافض أو تضمين الاستباق معنى الابتدار أو على الظرف أى استبقوا فى الطريق أو مفعول به أى جاوزوه من قولهم استبق الصراط خلفه (فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ) حينئذ أى لا يبصرون يعنى أن الله سلب بصائرهم فضلوا عن طريق الآخرة ولو شاء لسلب أبصارهم فلم يقدروا على الاهتداء إلى مقاصدهم الدنيوية لكن لم يفعل ذلك لاقتضاء الحكمة إمهالهم (وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ) بتغيير صورهم إلى أقبح منها كقردة وخنازير أو حجارة أو إبطال قواهم بجعلهم زمنى (عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ) مكانهم فيجمدون فيه ، وقرأ أبو بكر مكاناتهم أى فى منازلهم (فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا) ذهاباً (وَلَا يَرْجِعُونَ) أى ولا رجوعاً فوضع الفعل موضعه للفواصل ، وقرئ مِضيا بكسر الميم إتباعاً للضاد وإيثار المضارع للدلالة على الاستمرار (وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ) من نطل عمره نقلبه فيه ونرده من قوة الشباب إلى ضعف الهرم . وقرأ عاصم وحمزة ننكسه مضارع التفعيل إشارة إلى كثرة المراتب من الصبا إلى الشباب إلى الكهولة إلى الشيوخة إلى الهرم (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) بالخطاب لنافع وابن ذكوان التفاتاً

وبالغيبة للباقين : أي من قدر على إنشاء هذه الأطوار قادر على الطمس والمسخ ولذلك عطف عليه عطف العلة على المعلول ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ أي محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ الشِّعْرَ ﴾ الكلام الموزون المتوخى به التخييلات المرغبة والمنفرة ونحوهما لأن ما أتاه كلام مشتمل على أمر المبدإ والمعاد وأخبار القرون الخالية متضمن للمنافع الدينية والدنيوية على أسلوب ألحم كل شاعر منطيق فهو ردٌّ لقولهم أن ما أتى به شعر ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ لا يليق به الشعر لبعده عن مخائل الشبه ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي ليس الذي أتى به ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ عظة ﴿ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ واضح إعجازه أو مظهر للأحكام وغيرها والعطف باعتبار الصفات أي هو ذكر لما فيه من الموعظة والإرشاد ، والقرآن كتاب سماوي متعبد بلفظه يتلى في الصلوات وغيرها ويعمل بما فيه من الأحكام النظرية والعملية ﴿ لِتُنْذِرَ ﴾ بالخطاب لنافع وابن عامر وبالغيبة للباقين : أي لينذر القرآن ﴿ مَنْ كَانَ حَيًّا ﴾ عاقلا ساعياً في أمر الآخرة إذ الغافل المعرض كالميت أو من كان مؤمناً في علم الله فإن الحياة الأبدية بالإيمان وتخصيص الإنذار به لأنه المنتفع به ﴿ وَيَحِقَّ الْقَوْلُ ﴾ تجب كلمة العذاب ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ المصرين على الكفر فهم كالميتين لا يعقلون ما يخاطبون به ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ يعلموا والاستفهام للتقرير والواو الداخلة عليه للعطف ﴿ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ ﴾ في جملة الناس ﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ﴾ أي ما عملناه بلا شريك ولا معين وذكر الأيدي على طريق التمثيل وزيادة التصوير وفي جمعها إشارة إلى كمال الاقتدار ﴿ أَنْعَامًا ﴾ هي الإبل والبقر والغنم خصها بالذكر لكثرتها عندهم ولما فيها من بدائع الفطرة وكثرة المنافع ﴿ فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ لا يزاحمهم فيها أحد ولهم في ذلك عز وسرور أو متمكنون من ضبطها بتسخيرنا ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا ﴾ سخرناها ﴿ لَهُمْ ﴾ منقادة ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴾ مركوبهم تحمل أثقالهم ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ أي ما يأكلون لحمه : تفريع على كونها مذللة ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ أخر من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها ﴿ وَمَشَارِبُ ﴾ من اللبن جمع مشرب بمعنى شرب أو موضعه أو ما يتخذ من جلودها من الروايا والقرب والمزاود ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ المنعم بها عليهم فيؤمنون أي ما فعلوا ذلك ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ غيره ﴿ آلِهَةً ﴾ أي لم يرضوا بترك الشكر على تلك النعم حتى أشركوا في ألوهيته جمادات ﴿ لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ رجاء أن ينصروهم فيما حزبهم من الأمور والأمر بالعكس لأنهم ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أي آلهتهم نزلوا منزلة العقلاء ﴿ نَصْرَهُمْ وَهُمْ ﴾ أي المشركون في الدنيا ﴿ لَهُمْ ﴾ أي لآلهتهم ﴿ جُنْدٌ ﴾ يخدمونهم ويذبون عنهم وهذا كمال السفاهة ، أو الآلهة جند وأتباع لهم يوم القيامة ﴿ مُحْضَرُونَ ﴾ في النار معهم ليكونوا وقودها عليهم ﴿ فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ﴾ لك لست مرسلا وغير ذلك ، بضم الياء لنافع وفتحها للباقين ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ ﴾ من العقائد ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ من الأقوال والأفعال فنجازيهم على ذلك وكفى بذلك أن تتسلى به وهو تعليل للنهي ثم سلاه ثانياً بقوله ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ ﴾ المنكر للبعث أبيّ أو أمية أو العاصي . قال في الجواهر : والصحيح في سبب نزول الآية : هو ما رواه وهب عن مالك أن

أبيّ بن خلف جاء بعظم رميم ففته فى وجه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : من يحيي هذا يا محمد ؟ قال تعالى « أولم ير الإنسان » {أنّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ} منيّ إلى أن صيرناه قويا {فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ} شديد الخصومة لنا {مُبِينٌ} بيّنها فى نفي البعث {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا} أمرا عجيبا فى ذلك بأن شبهنا بالمخلوقين حيث سلب القدرة عنا على الإعادة {وَنَسِيَ خَلْقَهُ} من تلك النطفة التى لم تكن فيها حياة قط وخلقه أغرب من مثله {قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ} بالية والرميم اسم لما بلى من العظام وليس بصفة ولذا لم يؤنث وفيه دليل على أن فى العظم حياة فينجس بالموت لأن كل محل تحله الحياة ينجس بالموت خلافا للحنفي روى أن أبيًّا أخذ عظما رميما ففته وقال للنبي أترى يحيي الله هذا بعدما بلى ورمّ فقال صلى الله عليه وسلم : نعم ويدخلك النار {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ} فإن نسبة القدرة لاتختلف {وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ} مخلوق {عَلِيمٌ} كامل العلم بأجزائه وصفاته مجملا ومفصلا قبل خلقه وبعده فيعلم أجزاء الأشخاص المتفتتة المتبددة أصولها وفصولها ومواقعها وطريق تمييزها وضم بعضها إلى بعض على النمط السابق وإعادة الأعراض والقوى التى فيها أو إحداث مثلها ، ثم انتقل من الدليل العقلي إلى المحسوس الذى لا يمارون فيه بقوله {الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ} فى جملة الناس {مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ} المرخ والعفار ونحوهما {نَارًا} بأن يسحق المرخ على العفار وهما خضراوان يقطر منهما الماء فينقدح النار {فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ} فمن قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من المائية المضادة لها كان أقدر على البعث ، ثم ترقى إلى دليل آخر أجلى وأظهر من كل جلي فقال {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ} فى الصغر والحقارة بالإضافة إليهما أو مثلهم فى أصول الذات وصفاتها وهو المعاد {بَلَى} جواب من الله لتقرير ما بعد النفي مشعر بأنه لاجواب سواه {وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} كثير المخلوقات والمعلومات أي بالوصفين اللذين هما العمدة فى الإيجاد وهما الاقتدار الكامل والعلم الشامل ، ثم أشار إلى أن إيجاد الأشياء الذى يستبعدونه لا توقف له إلا على إرادته واقتضاء حكمته بقوله {إِنَّمَا أَمْرُهُ} شأنه {إِذَا أَرَادَ شَيْئًا} أي خلق شيء {أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} فهو يكون ، ولابن عامر بالنصب عطفا على يقول فكلمة كن مجاز عن سرعة التكوّن بعد تعلق الإرادة {فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ} أي ملك {كُلِّ شَيْءٍ} والتاء للمبالغة فى الاستيلاء على ما يطلق عليه اسم الشيء فى العالم العلوي والسفلي فالكل تحت قهره وسلطانه آخذ بناصيته وهذا تنزيه وتعجيب عما قالوا من نفي قدرته على الإعادة مع هذه البراهين {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} فى الآخرة للجزاء ، وعيد ليس فوقه وعيد ، ولذلك التفت إلى الخطاب مكافحاً به .

[تم تفسير سورة يس]

سورة الصافات

مكية ـ مائة واثنتان وثمانون آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۔ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴾ أقسم بالملائكة الصافين فى العبادة أو أجنحتها فى الهواء تنتظر ما تؤمر به ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴾ الملائكة تزجر السحاب فى سوقه أو الناس عن المعاصى بإلهام الخير أو الشياطين عن التعرض لهم ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ آيات الله من كتبه المنزلة وغيرها يتلونه تعبداً أو تلذذاً ويتلونه على الأنبياء . أو أقسم بطوائف العلماء الصافين فى العبادات الزاجرين عن الكفر والفسوق بالحجج والنصائح . التالين آيات الله وشرائعه أو بطوائف الغزاة الصافين عند اللقاء الزاجرين الخيل فى الكر والفر التالين لذكره لا يشغلهم عنه مبارزة العدو ، أو الصافات الطير والزاجرات كل من زجر عما نهى الله عنه ، والتاليات كل من تلا كتاب الله ، والعطف لاختلاف الصفات أو الذوات والفاء تفيد الترتيب فى الرتبة . الفضل للصف ثم للزجر ثم للتلاوة : أدغم أبو عمرو وحمزة التاءات فيما يليها لتقاربها فإنها من طرف اللسان وأصول الثنايا ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ جواب القسم والفائدة فيه تعظيم المقسم به وتأكيد المقسم عليه على ما هو المألوف من كلامهم ﴿ رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ والمغارب للشمس لها كل يوم مشرق ومغرب ومشارقها حينئذ ثلثمائة وستون وبحسبها المغارب أو مشارق الكواكب ومغاربها وهو دليل على تحقق المقسم عليه لأنهم مسلمون أنه المنفرد بخلق السموات والأرض وجميع المشارق ، واكتفى بالمشارق دون المغارب لأنه أبلغ فى النعمة وأكمل فى القدرة ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا ﴾ القربى منكم ﴿ بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ﴾ بضوئها أو بها والإضافة للبيان وهى من إضافة المصدر إلى المفعول بأن زان الله الكواكب وحسنها فزينت السماء بحسنها أو إلى الفاعل بأن زانت الكواكب السماء وقرأ حمزة وحفص بزينةٍ الكواكبِ بالتنوين وجر الكواكب على أنه عطف بيان أو بدل والزينة على هذا اسم ما يزان به أو جعلت الكواكب نفس الزينة مبالغة ، وأبو بكر بالتنوين ونصب الكواكب على أنها مفعول المصدر أو على أن الزينة اسم والكواكب بدل على الموضع أو نصب بأعنى ، ولا يلزم أن تكون السماء الدنيا محل الكواكب لعدم توقف الزينة على ذلك ﴿ وَحِفْظًا ﴾ عطف على المحل أو مصدر لمقدر أى حفظناها بالشهب ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ ﴾ متعلق بالمقدر ﴿ مَارِدٍ ﴾ عات خارج عن الطاعة ﴿ لَا يَسَّمَّعُونَ ﴾ بسكون السين للجمهور وحمزة والكسائى وحفص بتشديد الميم والسين أصله يتسمعون أدغمت التاء فى السين

أى الشياطين مستأنف وسماعهم هو فى معنى المحفوظ عنه أو صفة كل شيطان على معنى لا يمكنون من السماع مع الإصغاء ﴿ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ ﴾ الملائكة فى السماء وعدى السماع بإلى لتضمنه معنى الإصغاء ، سمى ملائكة السماء الدنيا فما فوقها بالملإ الأعلى لأن كلا منهم أعلا بالإضافة إلى الملإ الأرضى الذى هو أسفل ﴿ وَيُقْذَفُونَ ﴾ بالشهب ﴿ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾ من جوانب السماء إذا أرادوا صعوداً ﴿ دُحُورًا ﴾ مصدر دحره أى طرده وأبعده وهو مفعول له أو مصدر «يقذفون» كقعدت جلوساً أو حال بمعنى مدحورين ﴿ وَلَهُمْ ﴾ فى الآخرة ﴿ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ دائم من وصب الأمر دام أو شديد من الوصب وهو المرض ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ ﴾ أى المرة استثناء من واو يسمعون ومن بدل منه والخطف الاختلاس والمراد اختلاس كلام الملائكة مسارقة ولذلك عرف الخطفة أى لا يسمع إلا شيطان اختلس كلمة من الملائكة استراقاً ﴿ فَأَتْبَعَهُ ﴾ لحقه ﴿ شِهَابٌ ﴾ كوكب ﴿ ثَاقِبٌ ﴾ مضيء يثقبه أو يحرقه أو يخبله ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ استخبر كفار مكة بعد ما تلوت عليهم هذه الآيات إنكاراً أو توبيخاً ﴿ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا ﴾ أى أصعب إنشاء بعد الرفات ﴿ أَم مَّنْ خَلَقْنَا ﴾ من الملائكة والسموات والأرض وما بينهما والمشارق والكواكب والشهب الثواقب و « من » لتغليب العقلاء . وقيل من خلقنا من عاد وثمود وسائر الأمم الدارجة المهلكة للتكذيب كأنه قال لهم انتظروا الهلاك كمن كان قبلكم ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ لازج يلصق باليد فكيف ينكرون الإعادة وهى فى تلك الأجزاء المائية والأرضية والمقتدر الذى أنشأ أشد منهم هو المعيد ﴿ بَلْ ﴾ إضراب عن الاستفتاء لأنهم لا يجيبون بما هو الحق أى بل أنت ﴿ عَجِبْتَ ﴾ بفتح التاء للجمهور خطاباً للنبى صلى الله عليه وسلم من تكذيبهم إياك مع تلك الدلائل الدالة على كمال الاقتدار ، وبضمها على صيغة التكلم لحمزة والكسائى أى استعظمت إنكارهم قدرتى ﴿ وَ ﴾ هم ﴿ يَسْخَرُونَ ﴾ من تعجبك وتقريرك للبعث ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا ﴾ وعظوا بالقرآن وكل شيء ﴿ لَا يَذْكُرُونَ ﴾ لا يتعظون لبلادتهم وقلة فكرهم ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً ﴾ معجزة تدل على صدق القائل به ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ يبالغون فى السخرية ويقولون إنه سحر أو يستدعى بعضهم من بعض أن يسخر منها . قال فى الجواهر : نزلت هذه الآية فى ركانة ونظرائه كان من أشداء قريش قد صرع النبيَّ صلى الله عليه وسلم أباه فى الجاهلية فوجده النبى صلى الله عليه وسلم يرعى غنما له فقال : يا ركانة إن صرعتك أتؤمن ؟ قال : نعم . فصرعه رسول الله ثلاثاً ثم عرض عليه آيات من دعاء شجرة وإقبالها ونحو ذلك مما اختلفت فيه ألفاظ الحديث ولم يؤمن وقال يا بنى هاشم إن صاحبكم أسحر أهل الأرض ﴿ وَقَالُوا ﴾ فى الآية ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ بيّن وإذا كان حالهم فى المحسوسات بالأبصار هكذا فلا يبعد منهم إنكار البعث كما قالوا ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ بطرح الهمزة الثانية لنافع والكسائى وطرح الأولى لابن عامر وإثباتهما على الأصول للباقين والأصل أنبعث إذا متنا ؟ فبدلوا الفعلية بالاسمية وقدموا الظرف وكرروا الهمزة على قراءة الباقين مبالغة فى الإنكار وإشعاراً بأن

البعث مستنكر فى نفسه وفى هذه الحال أشد استنكاراً ﴿أَوَ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ بفتح الواو للجمهور والهمزة للاستفهام عطف على محل إن واسمها أو على المستكن فى «مبعوثون» والفاصل همزة الاستفهام وبسكون الواو لابن عامر وقالون عطف بأو على معنى الترديد ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ تبعثون وللكسائى بكسر العين ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ صاغرون أذلاء لا كما تزعمون إن كان بعث فنحن أحسن حالا من صعاليك المؤمنين ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ ضمير مبهم يفسره ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أى صيحة وهو جواب شرط مقدر أى إذا كان ذلك فإنما البعثة صيحة واحدة وهى النفخة الثانية ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ الخلائق أحياء ﴿يَنظُرُونَ﴾ مايفعل بهم ﴿وَقَالُوا﴾ أى الكفار ﴿يَا﴾ للتنبيه ﴿وَيْلَنَا﴾ هلاكنا ﴿هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ الجزاء الذى أنكرناه وكذبنا فيه الرسل، وقيل تقول لهم الملائكة ذلك وكذا فى قوله ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ بين الخلائق ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ هو كلام بعضهم لبعض أو كلام الملائكة لهم، ويقال للملائكة ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالشرك ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أشباههم وأضرابهم وهم قرناؤهم من الشياطين ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأوثان أى احشروهم من مقامهم إلى الموقف أو من الموقف إلى الجحيم كما قال ﴿فَاهْدُوهُمْ﴾ دلوهم وسوقوهم ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ طريق النار ليسلكوها ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ فى الموقف أو عند الصراط ﴿إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ عن جميع أقوالهم وأفعالهم ومعتقداتهم والواو لا توجب الترتيب وتقديم الحشر إلى النار فى الذكر لأنه أشق وأوحش على السمع من الوقوف للسؤال مع جواز أنها مواقف متعددة ويقال لهم توبيخاً ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ لاينصر بعضكم بعضاً كحالكم فى الدنيا تهكم بهم إذ كانوا فى الدنيا يقولون نحن جميع منتصر ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ منقادون أذلاء لعجزهم وانسداد أبواب الحيل عليهم ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ يتلاومون ويتخاصمون ﴿قَالُوا﴾ أى الأتباع منهم للمتبوعين بيان للتساؤل الواقع بينهم وهو ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ عن أقوى الوجوه وأيمنه أو عن جهة الخير كأنكم تنفعوننا نفع السانح فتبعناكم وهلكنا، مستعار من يمين الإنس الذى هو أقوى الجانبين وأشرفه وأنفعه أو عن القوة والقهر فتقهروننا أو عن الحلف لأنهم كانوا يحلفون لهم أنهم على الحق ﴿قَالُوا﴾ المتبوعون لهم ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ إنما يصدق الإضلال منا أن لو كنتم مؤمنين فرجعتم عن الإيمان إلينا أى كنتم ضالين فى أنفسكم ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ قهر وإجبار على متابعتنا ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ متجاوزين عن الحق بعدم الاكتراث به مثلنا ﴿فَحَقَّ﴾ وجب ﴿عَلَيْنَا﴾ جميعاً ﴿قَوْلُ رَبِّنَا﴾ بالعذاب أى قوله «لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين» ﴿إِنَّا﴾ جميعاً ﴿لَذَائِقُونَ﴾ العذاب بذلك القول، بينوا أن ضلالهم جميعاً ووقوعهم فى العذاب كان أمراً مقضياً لامحيص لهم عنه ونشأ عنه قولهم ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾ دعوناكم إلى الغى المضلل بقولهم ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ قال تعالى ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ جميعاً ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ لاشتراكهم فى الغواية ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الفعل ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ بكل

بجرم منهم ومن غيرهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الإقرار بكلمة التوحيد بيان لإجرامهم ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ أى لأجل محمد قال تعالى ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ الأبلج ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الجائين بالتوحيد رد على قولهم إن ماجاء به شعر بأن ماجاء به من التوحيد حق قام به البرهان وتطابق عليه المرسلون ﴿إِنَّكُمْ﴾ فيه التفات ﴿لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ بالإشراك وتكذيب الرسول ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من إنكار الحق بعد ظهوره بالبرهان القاطع ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ المؤمنين استثناء منقطع أى لكن المخلصون من عباده بخلاف هؤلاء فذكر جزاءهم بقوله ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ﴾ فى الجنة ﴿رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ بكرة وعشيا أو معلوم خصائصه من الدوام وكونه للتلذذ لا للتقوت ودفع ألم الجوع ﴿فَوَاكِهُ﴾ بدل أو بيان للرزق وهى ما يؤكل تلذذاً لا لحفظ صحة لأن أهل الجنة مستغنون عن حفظها بخلق أجسادهم للأبد ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ فى نيل ثواب الله يصل إليهم من غير تعب وسؤال ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ظرف مكرمون أو حال من مستكنه أو خبر لأولئك ثان ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ حال أو خبر ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ لا يرى بعضهم قفا بعض لتكمل لذتهم بالمشاهدة ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾ على كل منهم ﴿بِكَأْسٍ﴾ هو الإناء بشرابه ﴿مِنْ مَعِينٍ﴾ من شراب جار أو ظاهر للعيون وهو صفة للماء من عان الماء إذا نبع وصف به خمر الجنة لأنها تجرى كالماء ﴿بَيْضَاءَ﴾ أشد بياضاً من اللبن ﴿لَذَّةٍ﴾ لذيذة ﴿لِلشَّارِبِينَ﴾ وهما صفتان لكأس ووصفها بلذة : إما للمبالغة ، أو لأنها تأنيث لذّ بمعنى لذيذ بخلاف خمر الدنيا فإنها كريهة عند الشرب ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ سلب عقل وصداع تقرير للذتها وتقديم الظرف للاختصاص أى لا كخمر الدنيا من غاله أفسده ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ بضم الياء وفتح الزاى يسكرون للجمهور من أنزفه الخمر أسكره وبكسر الزاى لحمزة والكسائى من أنزف الرجل سكر ونفد عقله وأصله النفاد بخلاف خمر الدنيا ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ حابسات الأعين على أزواجهن لا ينظرون إلى غيرهم لحسنهم عندهن ﴿عِينٌ﴾ نجل العيون أى ضخامها حسانها ﴿كَأَنَّهُنَّ﴾ فى اللون ﴿بَيْضٌ﴾ للنعام ﴿مَكْنُونٌ﴾ مصون فى الكن عن الغبار ونحوه ولونه وهو البياض فى صفرة أحسن ألوان النساء ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾ بعض أهل الجنة ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ عما جرى لهم فى الدنيا وهو معطوف على يطاف عليهم أى يشربون فيتحادثون على الشراب كما هو عادة الندامى . قال الشاعر :

وَمَا بَقِيَتْ مِنَ اللَّذَّاتِ إِلَّا • أَحَادِيثُ الْكِرَامِ عَلَى الْمُدَامِ

والتعبير عنه بالماضى للتأكيد فيه فإنه ألذ تلك اللذات إلى العقل ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ فى مكالمتهم ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ جليس فى الدنيا ينكر البعث ﴿يَقُولُ﴾ لى تبكيتا ﴿أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ بالبعث منكرا علىّ ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ مجزيون محاسبون ﴿قَالَ﴾ ذلك القائل لإخوانه ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾ معى إلى النار لأريكم ذلك القرين فننظر حاله وقيل القائل هو الله أو بعض الملائكة يقول

لهم هل تحبون أن تطلعوا على أهل النار لأريكم ذلك القرين ﴿فَاطَّلَعَ﴾ ذلك القائل من بعض كوى الجنة ﴿فَرَءَاهُ﴾ رأى قرينه ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ وسط النار ﴿قَالَ﴾ له تشميتا ﴿تَاللَّهِ﴾ قسم فيه تعجب حيث نجا منه ﴿إِنْ﴾ مخففة من الثقيلة ﴿كِدْتَ﴾ قاربت ﴿لَتُرْدِينِ﴾ لتهلكنى بإغوائك ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ علىّ بالتوفيق والعصمة ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ معك فى النار، ويقول أهل الجنة ﴿أ﴾ نحن مخلدون منعمون ﴿فَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ أى بمن شأنه الموت وهو عطف على محذوف كما قدرنا ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ﴾ التى فى الدنيا ونصبها على المصدر من اسم الفاعل وقيل على الاستثناء المنقطع ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ هو استفهام تلذذ وتحدث بنعمة الله من تأبيد الحياة وعدم التعذيب ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذى ذكر لأهل الجنة ﴿لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يحتمل أن يكون من كلام القائل أو الكل أو كلام الله تعالى وكذا قوله ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ أى لنيل مثل هذا يجب أن يعمل العاملون لا للحظوظ الدنيوية المشوبة بالآلام السريعة الانصرام ﴿أَذَٰلِكَ﴾ الرزق المعلوم المعد نزلا لأهل الجنة ﴿خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ ما يعد للنازل ونصبه على التمييز أو الحال وهو أوجه لأن المفاضلة بين الرزقين فى هذه الحال لا بين الوصفين ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ التى ثمرها نزل أهل النار وفيه دلالة على أن ما ذكر من النعيم لأهل الجنة بمنزلة ما يقام للنازل ولهم من وراء ذلك ما تقصر عنه الأفهام وكذلك الزقوم لأهل النار وهو اسم شجرة صغيرة الورق دفرة مُرَّة مسمومة لها لبن إن مس جسم أحد تورم ومات منه فى أغلب الأمر. وهى من أخبث الشجر المرتهامة ينبتها الله فى الجحيم ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً﴾ محنة ﴿لِّلظَّالِمِينَ﴾ عذابا لهم فى الآخرة وسبب ضلالهم فى الدنيا إذ قالوا النار تحرق الشجر فكيف تنبته ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ فى قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها فى مقابلة طوبى لأهل الجنة ﴿طَلْعُهَا﴾ حملها مستعار من طلع التمر ثمر النخلة لمشاركته إياه فى الشكل أو الطلوع من الشجر أو استعير لها تخييلا على وجه التهكم ﴿كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ فى تناهى القبح ونهاية الكراهة لما تقرر فى النفوس أن الشيطان أقبح الأشياء. وهو من تشبيه محسوس بغير محسوس اعتمادا على العرف من اعتقاد الناس قبح صور الشياطين وإن لم يروها وقيل المراد بالشياطين حيات هائلة قبيحة المنظر ولذا سميت بها ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أى الكفار ﴿لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾ من الشجرة أو من طلعها مع قبحها لشدة جوعهم أو لإجبارهم على ذلك ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ بعد ما شبعوا منها وغلبهم العطش ﴿لَشَوْبًا﴾ شرابا من غساق أو صديد مشوبا بماء ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ حاز بالغ غاية الحرارة يقطع أمعاءهم بعد ما اختلط بالمأكول وصار شوبا له أيضا ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ مصيرهم بعد الأكل والشرب ﴿لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ إلى دركاتها أو إلى نفسها لأن الزقوم والحميم نزل يقدم إليهم قبل الاستقرار فى دركاتها وقيل يخرجون إلى أكل الزقوم وشرب الحميم ثم يردون إلى الجحيم لأن عذابهم فى النار أنواع. والله أعلم ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا﴾ وجدوا ﴿ءَابَاءَهُمْ ضَالِّينَ ۝ فَهُمْ عَلَىٰ ءَاثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ يزعجون إلى اتباعهم فيسرعون إليه تعليل لاستحقاقهم

تلك الشدائد بتقليد الآباء فى الضلال والبناء للمفعول للمبالغة كأنهم يزعجون قهرا فلا التفات لهم بالتأمل والنظر ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ أى قومك ﴿أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ من الامم الماضية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ من الرسل ينذرونهم من العواقب ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ من العذاب تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتحذير لقومه فإنهم سمعوا أخبارهم وشاهدوا آثارهم ثم استثنى من الأولين قوله ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ بفتح اللام لنافع والكوفيين وبكسرها للباقين أى المؤمنين فإنهم نجوا من العذاب لأن الله أخلصهم أو لإخلاصهم فى العبادة . ثم شرع فى تفصيل القصص بعد إجمالها بقوله « ولقد أرسلنا فيهم منذرين » وأورد مشاهير الرسل مع المكذبين وبدأ بنوح لأنه أبو البشر ثانيا وأول رسول عذب قومه بقوله ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ﴾ بقوله «إنى مغلوب فانتصر» حين أيس من قومه فأجبناه أحسن الإجابة ﴿فَلَنِعْمَ﴾ أى فوالله لنعم ﴿الْمُجِيبُونَ﴾ له نحن حذف ماحذف لقيام مايدل عليه والفاء تدل على سرعة الإجابة فأهلكنا قومه بالغرق ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ الغرق وأذى قومه ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ لم يبق أحد ممن كان معه فى السفينة إلا بنوه الثلاثة وهم : سام : أبو العرب وفارس والروم ، وحام : أبو السودان ، ويافث : أبو الترك والخزر ويأجوج ومأجوج وماهنالك ، إذ فنى من كان مع نوح من المؤمنين فى السفينة وبقى بنوه متناسلين إلى يوم القيامة ﴿وَتَرَكْنَا﴾ أبقينا ﴿عَلَيْهِ﴾ ثناء حسنا ﴿ فِى الْآخِرِينَ﴾ من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة يقولون ﴿ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ﴾ أى يسلمون عليه تسليما أو هو سلام من الله عليه ﴿ فِى الْعَالَمِينَ﴾ متعلق بالجار والمجرور كأنه قيل ثبت الله السلام وأدامه عليه فى الملائكة والثقلين جميعاً ، روى أن من قال حين يمسى « سلام على نوح فى العالمين » لم تلدغه عقرب ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ كما جزيناه ﴿نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لإكرامه دلالة على أن موجب ذلك إحسانه ترغيبا فيه ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ تعليل لإحسانه بالإيمان إظهارا لجلالة قدره وأصالة أمره ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ كفار قومه . ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ ﴾ تابعه ممن شايعه فى الإيمان والإحسان وأصول الشريعة ﴿لَإِبْرَاهِيمَ﴾ وإن طال الزمان بينهما وهو ألفان وستمائة وأربعون سنة ، وقيل غير ذلك وكان بينهما هود وصالح ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ﴾ متعلق بما فى الشيعة من معنى المشايعة ، أى تابعه وقت مجيئه ربه ﴿ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من جميع آفات القلوب كالشرك والغل والحقد وغير ذلك ومن جميع العلائق خالصا لله ﴿ إِذْ قَالَ ﴾ فى هذه الحالة المستمرة له ﴿ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ موبخا ﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ وإذ بدل من الأول أو ظرف لجاء أو سليم ﴿ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ أى أتريدون آلهة دون الله إفكا ، وإفكا مفعول له قدم على المفعول به وولى همزة الإنكار لأن الغرض مكافحتهم بأنهم على الباطل ، وقدم المفعول به على الفعل للعناية ويجوز أن يكون « إفكا » مفعول به و « آلهة » بدل منه على أنها نفس الإفك مبالغة أو فى موضع الحال أى آفكين ﴿ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ المستحق للعبادة إذ عبدتم غيره أتظنون أنه يترككم بلا عقاب؟ لا ، أو المعنى أى شىء ظننتم

حتى جوزتم أن تكون الأصنام له شريكا . وكانوا نجامين فخرجوا إلى عيد لهم وتركوا طعامهم عند أصنامهم زعموا أن نبرك عليه فإذا رجعوا أكلوه وقالوا لسيدنا إبراهيم اخرج معنا ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ إيهاماً لهم أنه يعتمد عليها ليعذروه ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ عليل أى سأسقم وكان غالب أسقامهم الطاعون وكانوا يخافون العدوى أو أراد إبراهيم أنه سقيم القلب لكفرهم ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ إلى عيدهم ﴿مُدْبِرِينَ﴾ مسرعين ﴿فَرَاغَ﴾ مال فى خفية ﴿إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ وكانت ستا وسبعين صنما وعندها الطعام ﴿فَقَالَ﴾ استهزاء ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ فلم ينطقوا فقال ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ بجوابى فلم تجب ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ مال عليهم ، والتعدية بعلى للاستعلاء وأن الميل لمكروه ﴿ضَرْبًا﴾ مصدر لراغ لأنه فى معنى ضربهم أو لمضمر تقديره يضربهم ضرباً ﴿بِالْيَمِينِ﴾ بالقوة عبر باليمين لأنها أقوى الجارحتين وقوة الآلة تستلزم قوة الفعل أو اليمين هو الحلف أى بسببه وهو قوله « تالله لأكيدن أصنامكم » ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ يسرعون المشى من زف النعامة ، ولحمزة يُزفون من أزف دخل فى الزفيف كأصبح ، فقالوا له نحن نعبدها وأنت تكسرها ﴿قَالَ﴾ لهم موبخاً ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ من الحجارة وغيرها أصناماً ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ من نحتكم ومنحوتكم فاعبدوه وحده و « ما » مصدرية أو موصولة أو موصوفة ﴿قَالُوا﴾ بينهم ﴿ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا﴾ فاملئوه حطباً وأضرموه بالنار فإذا التهب ﴿فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ أى جحيم ذلك البنيان و « أل » بدل الإضافة والجحيم كل نار عظيمة فى هوّات من الجحمة وهى شدة التأجج ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ بحرقه لما قهرهم بالحجة لئلا يظهر للعامة عجزهم ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ الأذلين بإبطال كيدهم وجعله برهاناً نيراً على علوّ شأنه حيث جعل النار عليه برداً وسلاماً فخرج منها سالماً ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ مهاجراً إليه من دار الكفر إلى حيث أمرنى وهو الشام أو حيث يتأتى لى عبادته ﴿سَيَهْدِينِ﴾ إلى ما فيه صلاح حالى إلى مقصدى وبت القول لسبق وعد الله له بذلك أو لفرط توكله أو لبنائه على عادته معه ولما وصل إلى الأرض المقدسة قال ﴿رَبِّ هَبْ لِي﴾ ولداً ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعينى على الدعوة والطاعة ويؤنسنى فى الغربة ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ هو إسماعيل لأنه الذى وهب إثر الهجرة ولأن البشارة بإسحاق بعد معطوفة على البشارة بهذا الغلام بقوله عليه السلام «أنا ابن الذبيحين» فانطوت البشارة على ثلاث بشارات كون الموهوب له ذكراً وكونه يبلغ أوان الرجال فإن الصبي لا يوصف بالحلم وكونه حليما فيه سرّ من أبيه شاهد لطهارة أصله ولم يوصف من الأنبياء بالحلم غيره وغير أبيه وحالها المذكور بعده يكشف عنه الغطاء ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أن يسعى مع أبيه فى أشغاله وكونه معه أرفق به . قيل بلغ سبع سنين وقيل ثلاث عشرة سنة و « مع » يتعلق بمحذوف دل عليه السعى لا به لأن صلة المصدر لا يتقدمه ولا ببلغ لأن بلوغهما لم يكن معاً والتقدير ولما بلغ السعى يسعى معه ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ﴾ أى رأيت ﴿فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ ورؤيا الأنبياء حق وأفعالهم بأمر الله إذ ليس للشيطان عليهم سبيل يحتمل أنه رأى ذلك

وأنه رأى ما هو تعبيره ﴿ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ من الرأى ، شاوره مع أنه كان أمراً لازماً إمضاؤه ليأنس بالذبح وينقاد للأمر به ولتكون المشاورة سنّة بعده ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ به ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ على ذلك ، وذكر المضارع فى « تؤمر » لتكرر الرؤيا ، إذ روى أنه رآه ليلة الثامن من ذى الحجة فلما أصبح تروّى فسمى يوم التروية فرآه فى التاسع فعرف أنه من الله فسمى عرفة فعزم فى العاشر على نحره فسمى يوم النحر . والله أعلم . ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾ انقادا لأمر الله أو أسلم الذبيح نفسه وإبراهيم ابنه ﴿ وَتَلَّهُ ﴾ صرعه ﴿ لِلْجَبِينِ ﴾ أى عليه ولكل إنسان جبينان بينهما الجبهة وكان ذلك بمنى قبل أمرّ السكين على حلقه فلم تعمل شيئاً لكن لم يصح به النقل والتحقيق نسخ الأمر بالذبح قبل الفعل بعد التهيؤ له هذا بصورة الذابح وهذا بصورة المذبوح فأعطى الذّبح فداء عن ذلك الأمر فى المنام . قاله ابن العربى فى الأحكام . وجواب « لما » محذوف أى كان من الأمر ما ينطق به الحال ولا يحيط به المقال من السرور أو الجواب هو قوله بزيادة الواو ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ بما أتيت به مما أمكنك من أمر الذبح أى يكفيك ذلك . قال ابن العربى : واعلم أن رؤيا الأنبياء وحى فما ألقى إليهم أو نفث به الملك فى روعهم وضرب المثل له عليهم فهو حق وقد بينا حقيقة الرؤيا وأن البارئ تعالى يضربها مثلا للناس فمنها أسماء وكنى ومنها رؤيا تخرج بصفتها ومنها رؤيا تخرج بتأويل وهو كنيتها ، ولما استسلم إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام لقضاء الله أعطى إبراهيم ذبحاً فداء وقيل له هذا فداء ولدك فامتثل فيه ما رأيت فإنه حقيقة ما خاطبناك فيه وهو كناية لا اسم وجعله مصدقاً بمبادرة الامتثال . اهـ . ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ لأنفسهم بامتثال الأمر بإفراج الشدّة تعليل للإفراج واحتج بما تقدم من جوز النسخ قبل وقوع المأمور . قال أحمد بن نصر الداودى : إن نسخ الله المأمور قبل العمل يكون بعد اعتقاد قبوله والعزم عليه وهو عمل . اهـ ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذبح المأمور ﴿لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ الاختبار الجلى الذى يتميز فيه المخلص من غيره ولذا قيل فى حق إبراهيم « الذى وفى » أو المحنة التى لا محنة أشد منها أو النعمة العظمى وهو نجاة الابن ﴿ وَفَدَيْنَاهُ ﴾ المأمور بذبحه وهو إسماعيل على الصحيح كما قدمنا لا إسحاق ﴿ بِذِبْحٍ ﴾ ما يذبح : كبش ﴿عَظِيمٍ﴾ من الجنة وهو الذى قربه هابيل جاء به جبريل عليه السلام فذبحه إبراهيم عليه السلام مكبراً وكان قرنا الكبش معلقين بالكعبة حتى احترقا معها فى أيام ابن الزبير ﴿ وَتَرَكْنَا ﴾ أبقينا ﴿عَلَيْهِ﴾ ثناء حسناً ﴿فِي الْآخِرِينَ ۝ سَلَامٌ﴾ منا ﴿عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ سبق بيانه فى نوح ﴿كَذَلِكَ﴾ كما جزيناه ﴿ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ لأنفسهم ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾ دليل على أن الذبيح غيره ﴿ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أى مقضياً بنبوته مقدراً كونه من الصالحين وبهذا الاعتبار وقعا حالين وفى ذكر الصلاح بعد النبوة تعظيم لشأنه وإيماء بأنه الغاية لها لتضمنها معنى الكمال والتكميل بالفعل على الإطلاق ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ ﴾ على إبراهيم بتكثير ذريته ﴿ وَعَلَى إِسْحَاقَ ﴾ ولده

لجعلنا أكثر الأنبياء من نسله وأفضنا عليهما بركات الدين والدنيا ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ ﴾ بالإيمان والطاعة ﴿ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ بالكفر والمعاصى ﴿ مُبِينٌ ﴾ ظاهر ظلمه لأنه لم يجده فى آبائه وفيه تنبيه على أن النسب لا أثر له فى الهدى والضلال وأن الظلم فى أعقابهما لا يعود عليهما بعيب ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ بالنبوة وغيرها من المنافع الدينية والدنيوية ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾ بنى إسرائيل ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ تعذيب فرعون أو الغرق ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾ على القبط ﴿فَكَانُوا هُمُ الْغَٰلِبِينَ﴾ على عدوهم وهذا أبلغ فى الامتنان من الإنجاء لأن فى هلاك العدو حسم مادة الأوهام والأمن الكلى ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا الْكِتَٰبَ الْمُسْتَبِينَ﴾ البليغ فى تبيانه الأحكام وهو التوراة أو الواضح الجلى ﴿ وَهَدَيْنَٰهُمَا الصِّرَٰطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ دين الإسلام الموصل إلى الحق والصواب ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى الْءَاخِرِينَ﴾ ثناء حسنا ﴿سَلَٰمٌ﴾ منا ﴿عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ إِلْيَاسَ﴾ بن ياسين من سبط هارون أخى موسى بعث بعده ﴿ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وإلياس بهمزة أوله للجمهور اسم عجمى غير منصرف وبتركها لابن ذكوان بخلاف عنه على أن أصله ياس واللام للتعريف أرسل إلى قوم ببعلبك ونواحيها ﴿إِذْ﴾ مفعول لاذكر مقدرا ﴿ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ الله ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ اسم لصنم لهم من ذهب وبه سمى البلد أيضا مضافا إلى بك أى أتعبدونه أو تطلبون منه الخير ﴿ وَتَذَرُونَ﴾ تتركون ﴿ أَحْسَنَ الْخَٰلِقِينَ ﴾ فلا تعبدونه ﴿ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ برفع الثلاثة على إضمار هو للجمهور وبنصبها لحمزة والكسائى وحفص على البدل أو البيان فى الأول والنعت فى الثانى والعطف فى الثالث ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ فى النار ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ ﴾ استثناء من واو كذبوا لا من المحضرين ﴿ الْمُخْلَصِينَ ﴾ بفتح اللام لنافع والكوفيين وكسرها للباقين على ما تقدم أى المؤمنين منهم فإنهم نجوا منها ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْءَاخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰ ءَالِ يَاسِينَ﴾ بمد آل أهله لنافع وابن عامر وبكسر الهمزة وحذف الألف وإسكان اللام للباقين ، هو إلياس المذكور لغة فيه ، وقيل جمع له مراد به هو وأتباعه كالمهلبين ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ كما جزيناه ﴿ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِى الْغَٰبِرِينَ﴾ الباقين فى العذاب ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْءَاخَرِينَ﴾ كفار قومه من الدمار : الهلاك ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾ على منازلهم وآثارهم فى أسفاركم إلى الشام ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ داخلين فى الصباح يعنى النهار ﴿ وَبِالَّيْلِ﴾ وتعيين الوقتين لأنهم كثيرا ما يكون سيرهم أول النهار وبالليل ويستريحون فى أثناء النهار ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما حل بهم فتعتبرون ﴿وَإِنَّ يُونُسَ﴾ هو ابن متى ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال ابن العربى : « قصدت قبره مرارا لا أحصيها بقرية جيحون فى سيرى من المسجد الأقصى إلى قبر الخليل صلوات الله عليه وبت به وتقربت إلى الله بمحبته ودرسنا كثيرا من العلم عنده والله ينفعنا به » : ا هـ ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ هرب من قومه بغير إذن ربه ولذا حسن إطلاق الإباق عليه ﴿ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ المملوء أى أنه كان رسولا زمان إباقه إلى ذلك الفلك فركبه وأبعد فى البحر

ثم ركد الفلك وغيره من السفن تجرى يمينا وشمالا وهم فى لجة البحر ، فقال الملاحون : هنا عبد أبق من سيده تظهره القرعة ﴿ فَسَاهَمَ ﴾ قارع أهل السفينة فخرجت القرعة عليه . فقال أنا الآبق ، ورمى نفسه إلى الماء ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ المغلوبين بالقرعة وأصله المزلق عن مقام الظفر ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ﴾ ابتلعه فأرسل الله إلى الحوت إنا لم نجعل يونس لك رزقا وإنما جعلنا بطنك له حرزا ومسجدا ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ نفسه أوآت بما يلام عليه أوداخل فى الملامة من ذهابه إلى البحر وركوبه السفينة بلا إذن ربه ، واعلم أن القرعة فى مثل هذا لا تجوز فى شرعنا وتجوز فى سفر العبادة مع بعض النساء وفى القسمة للأموال وفى العتق لمن أعتق فى مرضه أعبده جميعا ولا مال له غيرهم فيقرع فيما حمله الثلث . قال ابن العربى : والحق عندى أن تجرى فى كل مشكل ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ الذاكرين الله كثيرا بالتسبيح مدة عمره أو فى بطن الحوت بقوله « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » ، أو لولا كونه من المصلين ، وفيه دلالة على أن العمل الصالح ينفع فى المضائق ، وقد دل عليه حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة فى الغار . رواه البخارى ﴿ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ حيا أو ميتا فيصير بطن الحوت له قبرا وفيه حث على إكثار الذكر وتعظيم شأنه ومن أقبل عليه فى السراء أخذ بيده عند الضراء ﴿ فَنَبَذْنَـٰهُ ﴾ بأمر الحوت بلفظه ﴿ بِالْعَرَاءِ ﴾ بالمكان الخالى عما يغطيه من شجر أو نبت وذلك حين استجيبت دعوته ، روى أن الحوت سار مع السفينة رافعا رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح حتى انتهوا إلى البر فلفظه من يومه أو بعد ثلاثة أيام أو سبعة أو عشرين أو أربعين يوما ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ مما ناله صار بدنه كالطفل يوم يولد وكالفرخ الممعط أى الذى تساقط شعره ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ من شجر ينبسط على وجه الأرض ولا يقوم على ساق يفعيل من قطن بالمكان إذا أقام به والأكثر على أنها القرع أى الدباء غطته بأوراقها عن الذباب لأنه لايقع عليه ويدل عليه أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لتحب القرع قال : وأجل هى شجرة أخى يونس» وقيل هى كل مالا يقوم على ساق من البقول مما يموت من عامه قيل كان القرع تظله بساق على خلاف العادة فيها معجزة له وسخر الله وعلا أو ظبيا تختلف إليه يشرب من لبنها حتى قوى ، ويحكى أن الملك أول ما خلق فى تلك الظبية مكافأة لها ﴿وَأَرْسَلْنَـٰهُ﴾ بعد ذلك كقبله إلى قومه من بنى إسرائيل بنينوى من أرض الموصل ، قال فى غاية الأمانى : وبها قبره يزار فى الموصل يقطع بينهما الشط . قلت : انظر هذا مع ما ذكر ابن العربى فيما تقدم وهو مخالف له . والله أعلم ﴿ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ ﴾ بل ﴿ يَزِيدُونَ ﴾ عشرين أو ثلاثين أو سبعين ألفا وهم قومه الذين هرب منهم وقيل غيرهم ﴿ فَـَٔامَنُوا۟ ﴾ عند معاينة علامة العذاب ﴿ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ تنقضى آجالهم فيه ولم يسلم على لوط ويونس اختصارا وإشارة به إلى إتمام القصص واكتفاء بالتسليم الشامل لكل الرسل فى آخر السورة ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ استخبر كفار مكة توبيخا لهم ﴿أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ﴾ بزعمهم أن الملائكة بنات الله ﴿وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ فيختصون بالأسنى ، وقوله «فاستفتهم» عطف على مثله أول

السورة ومابينهما آخذ بعضه بحجزة بعض وذلك أنه استفتام أولا عن وجه إنكار البعث وساق الكلام في تقريره ذاكرا لما يلائمه من القصص موصولا بعضها ببعض ليعلم المشركين بأنه سيحل بهم ماحل بالمكذبين المنكرين ثم استفتاهم ثانياً عاطفاً على الأول عن وجه القسمة حيث جعلوا له البنات ولأنفسهم البنين مع تنزهه عن الولد مطلقا ثم إنهم أثبتوا له أخس النوعين وهو الأنثى الذى لا يرضى بها أدناهم «وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً» وقد زادوا على الشرك أنواعا من الكفر: التجسيم: فإن الولد يستلزمه وتفضيل أنفسهم عليه ونسبة الملإ الأعلى إلى الأنوثة كما قال لهم ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً﴾ حيث أنثوهم ﴿وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ خلقهم تهكم بهم بأن العلم بالأنوثة إما بإخبار رسول صادق ولم يصدقوا رسولا أو بالاستدلال بالعقل ولا سبيل لهم إليه أو بالمشاهدة ولا يشكون فى انتفائها بل يجترءون على الإفك الذى تكاد السموات يتفطرن منه ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ﴾ كذبهم ﴿لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ﴾ بقولهم الملائكة بنات الله تقرير لسفاهتهم ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيه لعدم مايقتضيه وقيام ما ينفيه ﴿أَصْطَفَى﴾ بفتح الهمزة للاستفهام واستغنى بها عن همزة الوصل لورش فى رواية أبى يعقوب يوسف الأزرق وعبد الصمد وباقى القراء، وبوصل الهمزة وابتدائها بالكسر لإسماعيل الأنصارى عن نافع وورش أيضا فى رواية الأصبهانى أى اختار ﴿الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ إنكار واستبعاد ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم الفاسد الذى لا يرتضيه عقل ولا نقل ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنه منزه عن ذلك ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ برهان واضح ونصٌّ قاطع نزل عليكم من السماء أن الملائكة بناته ولا يمكنكم العدول عنه ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ الذى أنزل عليكم فأرونى ذلك فيه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فى قولكم ذلك ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ﴾ تعالى ﴿وَبَيْنَ الْجِنَّةِ﴾ الملائكة لاجتنانهم أى استتارهم عن الأبصار ﴿نَسَباً﴾ بقولهم الملائكة بنات الله أو الجن بقولهم إن الله صاهر الجن فخرجت الملائكة أو بقولهم الله والشيطان أخوان تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ﴾ أى قائلى ذلك أى الكفرة ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ فى العذاب: النار ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ تنزيه ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الولد والنسب ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ المؤمنين استثناء منقطع أى فإنهم منزهون الله عما يصفه به هؤلاء. ثم عاد إلى خطابهم بقوله ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ من الأصنام ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أى على معبودكم و «عليه» متعلق بقوله ﴿بِفَاتِنِينَ﴾ أحداً بالإغواء تحقير لشأنهم أى أنتم ومعبودكم لا تصدون عن الله بالإغواء ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ الذى خلق للنار مثلكم من قولهم فتن على فلان امرأته: أفسدها. و «أنتم» ضمير الكفار وآلهتهم غلب فيه المخاطب على الغائب ويحتمل أن يكون قوله «سبحان الله» إلى هنا من كلام الملائكة بتقدير «وقالوا» فيكونوا كذبوا من نسبهم إلى الله واستثنوا من ذلك المخلصين ثم هونوا شأن الكفرة بأنهم لا يقدرون إلا على إغواء مثالهم ثم اعترفوا بأنهم عباد الله منقادون لأمره بقوله ﴿وَمَا مِنَّا﴾ معشر الملائكة أحد ﴿إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾

في السموات يعبد الله فيه لا يتجاوزه : اعتراف منهم بالعبودية وردّ على عبدتهم ، ويحتمل أن يكون هذا من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قيل فاستفتهم وقل لهم « وما منا إلا له مقام معلوم » أى أخبرهم مثالبهم فى كفرهم واذكر لهم ما أنت وأصحابك متصف به من أضدادها وموقعه الاستطراد على هذا ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴾ أقدامنا فى الصلاة وأداء الطاعات ومنازل الخدمة فنا قائم وراكع وساجد أو صافون الأجنحة للخشوع والهيبة ، أو صافون حول العرش يستغفرون للذين آمنوا . وفى مسلم عنه عليه السلام : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة إلى أن قال : أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد وقال لأصحابه : ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ؟ قالوا : كيف ذلك ؟ قال : يتمون الصف الأول فالأول ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ المنزهون الله عما لا يليق به فالأول إشارة إلى درجاتهم فى الطاعة وهذا فى المعارف وإن واللام وتوسيط الفصل للتأكيد والاختصاص بأنهم المواظبون على ذلك دائما من غير فترة دون غيرهم ﴿ وَإِنْ ﴾ مخففة إنهم ﴿ كَانُوا ﴾ أى كفار مكة ﴿ لَيَقُولُونَ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا ﴾ كتاباً ﴿ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴾ من الكتب التى نزلت عليهم ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ الممتثلين غير مخالفين أو لأخلصنا العبادة له . قال تعالى ﴿ فَكَفَرُوا بِهِ ﴾ أى بالكتاب الذى جاءهم وهو القرآن الأشرف من تلك الكتب ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة كفرهم ، وفى الفاء دلالة على أنهم كفروا بغتة من غير روية ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا ﴾ بالنصر ﴿ لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ وهى «لأغلبن أنا ورسلى» أو هى قوله ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴾ ولا يقدح فى ذلك ما يقع من الانهزام فى بعض المواضع لأن الأمور بخواتيمها مع أنه لم يهزم نبىٌّ قط فى حرب ﴿ وَإِنَّ جُنْدَنَا ﴾ أى المؤمنين ﴿ لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ للكفار غالباً سواء كان فيهم نبىٌّ أم لا ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ بعد ما أفرغت جهدك فى التبليغ ﴿ حَتَّى حِينٍ ﴾ أى زمان قريب يؤذن لك فيه بالقتال أو هو وقت موتهم أو يوم القيامة ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ ﴾ إذا نزل بهم العذاب والمراد بالأمر الدلالة على أن ذلك كائن قريب بجعل بهم قدام عينيه ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ ما يكون لك من النصر والتأييد كما رأوه يوم بدر ومالك من الدرجات العلى فى الآخرة ، و « سوف » للوعيد لا للتبعيد وقالوا استهزاء : متى هذا العذاب . قال تعالى تهديداً لهم ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ الذى يحق أن يستعاذ منه ﴿ فَإِذَا نَزَلَ ﴾ العذاب ﴿ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ بفناء منازلهم شبهه بجيش هاجمهم فأناخ بفنائهم بغتة وقيل فاعل «نزل» هو الرسول ﴿ فَسَاءَ ﴾ بئس صباحاً ﴿ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ واللام للجنس والصباح من صباح الجيش المبيت لوقت نزول العذاب ، ولما كثرت الغارات فى الصباح سموا الغارة صباحاً وإن وقعت وقتاً آخر وفيه ترشيح الاستعارة ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ • وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تسلية بعد تسلية وتأكيد بعد تأكيد وإطلاق الفعلين للدلالة أن ما يبصر ويبصرون من أنواع المسرة والمساءة مما يضيق عنه نطاق البيان ، وقيل الأول ما يبصرون فى الدنيا وهذا فى الآخرة ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ ﴾ الغلبة وإضافته إليها

لاختصاصها به إذ العزة له جميعاً يندرج تحتها جميع الصفات الثبوتية والسلبية مع الإشعار بالتوحيد وهى من الصفات الجامعة ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ به بما حكى فى السورة لأن الكلام من أولها إلى هنا مسوق لإثبات التوحيد وإزاحة شبه المشركين وإبطال ما نسبوه إلى الله مما تقدس عنه فنزه عن ذلك ذاته المقدسة بهذه الآية التى هى من الجوامع الكوامل فذلكة لذلك ثم أثنى على المرسلين بقوله ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ المبلغين عن الله التوحيد والشرائع تعميم للرسل بعد تخصيص بعضهم ثم ختم السورة بحمده الختام المسكى بقوله ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ على ما أفاض عليهم وعلى من اتبعهم من النعم وحسن العاقبة وهو إشارة إلى اختصاص المحامد كلها به وأن ثناءه عن الرسل بفضل منه فسبحان الذى يعطى ويثنى عليه .

[تم تفسير سورة الصافات]

سورة ص

مكية إجماعاً ست وثمانون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ • ص ﴾ الله أعلم بمراده به ﴿ وَالْقُرْآنِ ﴾ قسم ﴿ ذِي الذِّكْرِ ﴾ أى الشرف أو البيان أو الموعظة أو ذكر ما يحتاج فى الدنيا والدين من الشرائع والقصص والغيوب ، وجواب هذا القسم محذوف تقديره إنه لمعجز أو إنك لمن المرسلين أو ما الأمر كما قال الكفار من تعدد الآلهة ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ ﴾ تكبر عن الحق وحمية ﴿ وَشِقَاقٍ ﴾ خلاف لله ورسوله ولذا كفروا بالقرآن لا لخلل وجدوا فيه وأصل العزة الشدة كناية عن الكبر وتنكير الاسمين مع إيراد «فى» الدال على الاستقرار إشارة إلى كمال اتصافهم بالوصفين واستغراقهم فيهما وإيماء إلى أن من لم يكن بهذه المثابة لا ينكر ذلك الأمر الجلى ﴿ كَمْ ﴾ أى كثيراً ﴿ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ أمة من الأمم الماضية وعيد لهم على كفرهم استكباراً وشقاقاً ﴿ فَنَادَوا ﴾ رفعوا أصواتهم بالاستغاثة حين نزول العذاب بهم ﴿ وَلَاتَ ﴾ الحين

﴿ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ أى نجاة أى ليس الحين حين نجاة أو فرار والتاء زائدة على «لا» التى بمعنى ليس لتأكيد النفى والجملة حال من فاعل نادوا أى استغاثوا والحال أن لا منجى ولا مهرب وما اعتبر بهم كفار مكة ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ ﴾ رسول ﴿ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ من أنفسهم يعرفون صدقه وأمانته يخوّفهم بالنار بعد البعث وهو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ ﴾ وضع فيه الظاهر موضع المضمر ذمّاً لهم وإشعاراً بأن كفرهم جسرهم على هذا القول ﴿ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ فيما يقول على الله ، ولما أسلم « عمر بن الخطاب » شق ذلك على قريش واجتمعوا عند أبى طالب فقالوا له : أنت كبيرنا وقد علمت ما فعل سفهاؤنا وإن ابنك يشتم آلهتنا فلو نهيته ، فبعث إلى النبى أبو طالب فحضر فقال : يا ابن أخى إن قومك يشكونك أنك تشتم آلهتهم ويطلبون منك رفض ذكر آلهتهم ويدعونك وإلٰهك . فقال : إنى أسألهم كلمة تدين لهم بها العرب ويؤدى الجزية إليهم العجم ! قالوا : نعطيك عشراً وما هى ؟ قال : « تقولوا لا إله إلا الله » فقاموا ينفضون ثيابهم يقولون ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ﴾ كيف يسع الخلق كلهم إله واحد ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ بليغ العجب مخالفاً لما أطبق عليه آباؤنا الاولون ﴿ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ ﴾ أى أشرافهم من مجلس اجتماعهم عند أبى طالب يقول بعضهم لبعض ﴿ أَنِ امْشُوا ﴾ و « أن » مفسرة لأن الانطلاق عن مجلس التقاول لا يخلو من القول ﴿ وَاصْبِرُوا ﴾ اثبتوا ﴿ عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ﴾ على عبادتها فلا تنفعكم مكالمته ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ التوحيد أو ما يطلب محمد من الترفع على كافة الخلق ﴿ لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ منا أو مراد كل واحد أو هذا من ريب الدهر الذى أريد بنا فلا بد من وقوعه فاصبروا ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ﴾ ملة عيسى إذ النصارى يثلثون أو الملة التى أدركنا عليها آباءنا ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ كذب مخترع لم يسبق له نظير ﴿ أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ الوحى ﴿ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ وليس بأكبرنا ولا بأشرفنا ولا بأكثرنا مالا ، إنكار لاختصاصه بشرف النبوة مع كونه واحداً منهم وفيهم أكثر منه مالا وولداً وحشما فتبين أن مبدأ تكذيبهم لم يكن إلا الحسد وقصور النظر على الحطام الدنيوى ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ﴾ وحيى : القرآن ؛ لميلهم إلى التقليد وإعراضهم عن الدليل وليس فى عقدهم بتٌّ بكونه ساحراً كذاباً بل هو قولهم بأفواههم إذ الشاك لا بت فيه ثم أضرب عن حسدهم وشكهم متوعداً عليهم بقوله ﴿ بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ بعد فإذا ذاقوه زال شكهم وحسدهم حيث لا ينفعهم والمعنى أنهم لا يصدقون به حتى يمسهم العذاب فيلجئهم إلى تصديقه ﴿ أَمْ ﴾ بل أ ﴿ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ إضراب عن قولهم « أأنزل عليه الذكر من بيننا » ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ الغالب ﴿ الْوَهَّابِ ﴾ للنبوة وغيرها فيعطونها من شاءوا من بعض صناديدهم ؟ وفى وصفه بالعزة والغلبة إشارة إلى إبطال ترفعهم وتجبرهم على من خص بالنبوة لأنهم تحت غالب لا يغالب ، وبالوهاب إلى أن النبوة محض فضل وموهبة ربانية فلا وجه للشقاق وذكر الوهاب يناسب الخزائن وفيه إشارة إلى أن النبوة عطايا جمة لا عطية واحدة ثم رشح ما ذكر بقوله ﴿ أَمْ ﴾ بل أ ﴿ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أى ليس لهم مدخل فى أمر هذا العالم الجسمانى الذى هو جزء يسير من خزائنه فن أين لهم أن يتصرفوا فى أمر النبوة الذى هو من العالم الروحانى الذى هو من خزائن رحمته التى لانهاية لها فإن زعموا أن لهم ملكها ﴿ فَلْيَرْتَقُوا فِى الْأَسْبَابِ ﴾ الموصلة إلى السماء أو العرش فيأتوا بالوحى فيخصوا به من شاءوا ثم حقر شأنهم بقوله ﴿ جُنْدٌ مَا ﴾ أى هم جند حقير و « ما » مزيدة للتقليل ﴿ هُنَالِكَ ﴾ فى المحل الذى وضعوا أنفسهم فيه وهو ظرف لقوله ﴿ مَهْزُومٌ ﴾ والإشارة إلى المحل والرتبة ﴿ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ أى هم جند قليل من الكفار المتحزبين على الرسل مهزوم عما قريب فن أين لهم التدابير الإلهية والتصرف فى الأمور الربانية أو فلا تكترث بما يقولون وقيل الإشارة إلى يوم بدر أو يوم فتح مكة والأول أولى أى فكما أهلكنا أولئك نهلك هؤلاء ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴾ كان يتد لكل من يغضب عليه أربعة أوتاد يشد إليها يديه ورجليه ويعذبه أو الأوتاد مجاز عن الجموع لأن بعضهم يشد بعضاً أو إشارة إلى طول مدة ملكه وثباته كقول الأسود : وَلَقَدْ غَنَوْا فِيهَا بِأَنْعَمِ عِيشَةٍ • فِى ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الْأَوْتَادِ

﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةَ ﴾ على وزن ليلة لنافع وابن كثير وابن عامر اسم قرية أصحاب الحجر والباقين الأيكة بمعنى الغيضة وهم قوم شعيب عليه السلام ﴿ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴾ لقوتهم بالأموال والاسباب وطول الأعمار لا جند مكة ﴿ إِنْ كُلٌّ ﴾ من الاحزاب ﴿ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ لأنهم إذا كذبوا واحداً منهم فقد كذبوا جميعهم ؛ لأن دعوتهم واحدة وهى دعوة التوحيد بيان لما أسند إليهم من التكذيب على الابهام مشتمل على أنواع من التأكيد ليكون تسجيلا على استحقاقهم العذاب ولذا رتب عليه ﴿ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ أى وجب عليهم ﴿ وَمَا يَنْظُرُ هَٰؤُلَاءِ ﴾ ما ينتظر كفار مكة ﴿ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ نفخة القيامة تحل بهم العذاب وقيل المراد بالصيحة العذاب المفاجئ كقولهم :

صَاحَ الزَّمَانُ بِآلِ بَرْمَكَ صَيْحَةً • خَرُّوا لِشِدَّتِهَا عَلَى الْأَذْقَانِ

وتقدم مثل هذا ﴿ مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ بفتح الفاء للجمهور وضمها لحمزة والكسائى أى توقف أو رجوع مأخوذ من فواق الناقة وهو مابين الحلبتين إذ لا تدر دفعة بل تترك أدنى زمان فيرجع اللبن إلى الضرع ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا ﴾ نصيبنا من العذاب الموعود يريدون تكذيبه أو نصيبا من الجنة تؤمن به أو صحيفة أعمالنا ننظر فيها ﴿ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ استعجلوا ذلك استهزاء قال تعالى ﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أى تحمل أذاهم ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ﴾ أى تذكر قصته أو اذكر لهم قصته ﴿ ذَا الْأَيْدِ ﴾ القوة فى العبادة كان يصوم يوما ويفطر يوما ويقوم نصف الليل وينام ثلثه ويقوم سدسه ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ رجاع إلى مرضاة الله تعليل للأيد ودليل على أن المراد به القوة فى الدين ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ ﴾ بتسبيحه إثر صلاته ﴿ بِالْعَشِيِّ ﴾ وقت صلاة العشاء ﴿ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ وقت صلاة الضحى وهو أن تشرق الشمس ويتناهى ضوءها يقال شرقت الشمس شروقا طلعت وأشرقت أضاءت وصفا شعاعها وفى هذين الوقتين كانت

صلاة بنى إسرائيل ، وعن أم هانىء أنه صلى الله عليه وسلم صلى صلاة الضحى وقال : هذه صلاة الإشراق ، وعن ابن عباس : ما عرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية ، وقال ابن العربى : وفى صلاة الضحى أحاديث أصولها ثلاثة الاول حديث أبى ذر وغيره « من صلى الضحى ركعتين لم يكتب من الغافلين ومن صلى أربعا كتب من العابدين ومن صلى ستا لم يلحقه فى ذلك اليوم ذنب ومن صلى ثمانيا كتب من القانتين ومن صلى اثنتى عشرة ركعة بنى الله له بيتا فى الجنة » الثانى : حديث سهل بن معاذ عن أبيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من قعد فى مصلاه حين ينصرف من صلاة الصبح حتى يسبح ركعتى الضحى لا يقول إلا خيراً غفرت خطاياه وإن كانت أكثر من زبد البحر » ، الثالث : حديث أم هانىء : صلى يوم الفتح ثمانى ركعات . اهـ . ﴿وَ﴾ سخرنا ﴿الطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ مجموعة إليه تسبح معه جملة واحدة لأن ذلك أدل على القدرة منه مدرجا ولذلك لم يراع المطابقة بين الحالين إذ معنى يسبحن يحدثنه شيئا فشيئا على التدريج ﴿كُلٌّ﴾ من الجبال والطير ﴿لَهُ أَوَّابٌ﴾ رجاع إلى طاعته بالتسبيح رجوعا بعد رجوع والمعنى كل معه يسبح على الدوام ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ قويناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود والحرس كان يحرس محرابه كل ليلة ثلاثون أو أربعون ألف رجل من ذوى اللامة ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ النبوة وعلم الشرع فكل كلمة وافقت الحق فهى حكمة ، وإتقان العمل ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ مفصوله أو فاصله مصدر بمعنى المفعول أو الفاعل أى البيان الشافى كل قصد المميز بين الحق والباطل ، وقال ابن عطية بمعنى أنه إذا خطب فى نازلة فصل المعنى وأوضحه لا يأخذه فى ذلك حصر ولا ضعف . اهـ . وفى البيضاوى : الكلام المخلص الذى يبين المقصود من غير التباس مراعى فيه مظان الفصل والوصل والعطف والاستئناف والإضمار والإظهار والحذف والتكرار ونحوه . اهـ . وقال ابن عباس : هو فصل القضاء بين الناس بالحق ﴿وَهَلْ﴾ معنى الاستفهام هنا التعجيب والتشويق إلى استماع مابعده ﴿أَتَاكَ﴾ يا محمد ﴿نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ تصعدوا سور الغرفة تفعلٌ من السور كتسنم من السنام والمراد بالسور هنا حائط مسجد داود ، والمحراب : الغرفة و « إذ » تتعلق بالنبأ لأنه وإن كان بمعنى القصة إلا أنه فى الأصل مصدر والظرف يكفيه رائحة من الفعل أو متعلق بمقدر أى تحاكم الخصم لابأتى لأن إتيان النبأ رسولنا لم يكن حينئذ ، والخصم فى الأصل مصدر ولذا أطلق على الجمع وتسوروا : أى علوا سوره لما منعوا الدخول عليه من الباب لأنه فى يوم العبادة ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ﴾ ظرف تسوروا أو بدل من إذ والضمير للخصم ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ لنزولهم من فوق بلا إذن فى يوم الاحتجاب والحرس على الباب لا يتركون من يدخل عليه لأنه قسم زمانه يوماً للعبادة ويوماً للقضاء ويوماً للوعظ ويوماً للاشتغال بحاجته فتسوّر عليه ملائكة على صور الإنس فى يوم الخلوة ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ نحن ﴿خَصْمَانِ﴾ فوجان بدليل تسوروا ودخلوا أو اثنان وجمعا قيل لأن مع كل واحد منهما جماعة . قال فى الجواهر : ولا خلاف بين أهل التأويل أنهم ملائكة بعثهم الله ضربَ مثلٍ لداود فاختصموا فى نازلة

وقعت لهم على الفرض قد وقع هو في نحوها فأفتاهم بفتيا هي واقعة عليه ولما نهم المراد خر راكعاً وأناب . وأما النازلة التي وقع فيها نقيها للقصّاص تعاويل فلم نر سوق جميعها لعدم صحته . اه . وسنبين ما يعتمد عليه إن شاء الله ﴿ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ لا تجر ﴿ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ وسطه الحق الذى لا ميل فيه ﴿ إِنَّ هَٰذَا أَخِي ﴾ أي على ديني ﴿ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ هي الأنثى من الضأن ويكنى بها عن المرأة لضعف بنيتها وكثيراً مايطلق أهل مصر على الرجل الجبان نعجة ﴿ وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ اجعلني كافلها أي مالكها أو اجعلها كفلي أي نصيبي ﴿ وَعَزَّنِي ﴾ غلبني ﴿ فِي الْخِطَابِ ﴾ أي الجدال بأن جاء بحجاج لم أقدر على ردّه لأنه أوجه مني وكلامه أقوى من كلامي وقوته أعظم من قوتي وأتزه الآخر على ذلك ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ ﴾ ليضمها ﴿ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ﴾ والسؤال مصدر مضاف إلى مفعوله وتعديته إلى مفعول آخر بإلى لتضمنه معنى الإضافة ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ ﴾ الشركاء ﴿ لَيَبْغِي ﴾ يتعدى ﴿ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾ « ما » لتأكيد القلة وهذا الكلام منه على طريق الموعظة والترغيب في الانسلاك في ذلك القليل فقال الملكان صاعدين في صورتيهما إلى السماء : قضى الرجل على نفسه ، فتنبه داود أنه ترك الأولى به ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ ﴾ أيقن ﴿ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ ابتليناه بذنبه أو بتلك الحكومة ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ ﴾ لذنبه ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾ ساجداً أو مصلياً ركعتي الاستغفار ﴿ وَأَنَابَ ﴾ رجع إلى الله تعالى بالتوبة ، واعلم أن الله لم يحك ما فعل داود مفصلا بل ستره عليه فنحن أولى أن لا نخوض فيه إلا على أحسن المخارج . وجملته أنه ودّ أن يكون له ما لغيره وكان له أمثاله فنبهه الله بالقضية فاستغفر وأناب ، وما روى في قصة المرأة غاية ما يمكن منه في حقه أنه رأى امرأة رجل فسأله أن ينزل له عنها وكان جارياً في عادتهم يفعلونه فاستحيي منه فنزل وقيل لم يكن أنزله بل خطب على خطبته فعوتب في ذلك وقيل له : ما كان لنبي مثلك أن يمد عينه إلى متاع الدنيا مع ما خوّلناك من الملك وكثرة النساء وهذا إذا صح عنه فليس بذنب لأنه مباح غايته أنه خلاف الأولى وحسنات الأبرار سيئات المقربين وما عدا هذا من قصص القصّاص فأكاذيب لا يرضاها ذو دين . رزقنا الله السلامة في الدارين ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ﴾ الذي استغفر عنه ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ ﴾ لقربة ومكانة بعد المغفرة وزيادة خير لم يحصل له بما فعل تنزُّلٌ ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ مرجع في الجنة وقلنا له ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾ استخلفناك فيها بعد الأنبياء قبلك تدبر أمر الناس ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ الذي أمرناك به في حكم الشرع ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ ﴾ ما تهوى الأنفس ﴿ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ طريقه الموصل إليه من الدلائل التي نصبها على الحق ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ باتباع الهوى ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا ﴾ بنسيانهم ﴿ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ فإن تذكره يقتضي ملازمة الحق ومخالفة الهوى . قال ابن عطية : ولا يقال خليفة الله إلا لرسوله . وأما الخلفاء فكل واحد خليفة

للذى قبله ، وما يوجد فى الشعر من تسمية أحد خليفة الله فذلك غلوّ ، ألا ترى أن الصحابة رضى الله عنهم قالوا لأبى بكر رضى الله عنه : خليفة رسول الله ، فلما ولى عمر رضى الله عنه قالوا : خليفة خليفة رسول الله ، فرأوا أن الأمر فى المستقبل سيكون أكثر فسموه أمير المؤمنين وقصر هذا الاسم على الخلفاء . اهـ. يعنى وكل من جاء بعدهم فهو ملك والله أعلم . قال مادح النبى صلى الله عليه وسلم :

وَلَقَدْ أَقَامَ الدِّينَ مِنْ خُلَفَائِهِ • أَصْهَارُهُ كُلٌّ بِأَحْمَدَ مُقْتَدِ
وَأَتَاكَ بَعْدَهُمُ الْمُلُوكُ فَصَالِحٌ • يَضَعُ الأَمَانَةَ عِنْدَ آخَرَ مُفْسِدِ

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ﴾ أى عبثاً ، أى خلقاً باطلا لا حكمة فيه أو ذوى باطل بمعنى مبطلين عابثين أو للباطل الذى هو متابعة الهوى بل للحق الذى هو مقتضى الدليل من التوحيد والتدرع بالشرع ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ خلق ما ذكر باطلا ﴿ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ «من» بيانية أو ابتدائية بسبب هذا الظن ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ «أم» منقطعة والاستفهام فيها لإنكار التسوية بين الحزبين التى هى من لوازم خلقهما باطلا ليدل على نفيه وكذا التى فى قوله ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ ﴾ من المؤمنين ﴿ كَالْفُجَّارِ ﴾ الفساق منهم ، أنكر التسوية أولا بين المؤمنين والكافرين ثم بين المتقين من المؤمنين والمجرمين منهم ، ردٌّ لقول الكفار إنا نعطى فى الآخرة إن كانت حقاً مثل ما تعطون ﴿ كِتَابٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى هذا كتاب ﴿ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ﴾ نفاع لإرشاده إلى البقاء فى النعيم الدائم ﴿ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ أصله يتدبروا أدغمت التاء فى الدال ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ ﴾ يتعظ به ﴿ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ العقول السليمة المبرءون عن العوائق المؤيدون بالتوفيق الناظرون بنور الله ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ﴾ ابنه ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ ﴾ سليمان ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ رجاع فى التسبيح والذكر فى جميع الأوقات تعليل للمدح أردف قصة الوالد بقصة الولد لأنه فتن مثل ما فتن وأناب مثل ما أناب وعبر عن إعطائه بالهبة إشارة إلى جلالة قدره ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ ﴾ على سليمان ظرف لأواب أو لنعم ﴿ بِالْعَشِيِّ ﴾ بعد الظهر ﴿ الصَّافِنَاتُ ﴾ من الخيل جمع صافنة وصافن وهى القائمة على ثلاث وأقامت الأخرى على طرف الحافر من يد أو رجل وهو من الصفات المحمودة فى الخيل الغالبة فى العراب الخلص ﴿ الْجِيَادُ ﴾ جمع جواد وهو السابق أو جَواد : سريع الجرى أو جيد عتيق أو المعنى أنها إن استوقفت سكنت وإن ركضت سبقت وكانت ألف فرس ذات أجنحة أخرجت له من البحر لم يرثها من أبيه لأن الأنبياء لا يورثون وليست غنيمة إذ لم تحل له عرضت عليه بعد أن صلى الظهر لإرادة الجهاد عليها فعند بلوغ العرض تسعمائة منها غربت الشمس ولم يكن صلى العصر فاغتم ﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ ﴾ المال وهو الصافنات المذكورة والأصل أحببت الخير فأفحم الحب إشارة إلى فرط المحبة كأنه أحبها حتى أحب حبها ﴿ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ﴾ صلاة العصر و«عن» للمجاوزة من شىء إلى شىء ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ ﴾ الشمس ﴿ بِالْحِجَابِ ﴾

ما يحجبها عن الأبصار أى غربت وإضمارها من غير ذكر لدلالة العشى عليه وقيل عرضت عليه وهو فى الصلاة فأشار إلى إزالتها عنه حتى توارت فى إصطبلاتها فقال لما فرغ من صلاته إنى أحببت أى آثرت حب الخير أى ثواب الصلاة بسبب ذكر ربى فشغلنى عن الخيل حتى توارت ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ فردوها ﴿ فَطَفِقَ ﴾ يمسح ﴿ مَسْحًا ﴾ بالسيف أو بالكف ﴿ بِالسُّوقِ ﴾ جمع ساق ﴿ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ فعلى الاول بمعنى ذبحها وقطع أرجلها تقرباً إلى الله حيث اشتغل بها عن الصلاة وتصدق بلحمها فعوضه الله خيراً منها وأسرع وهى الريح تجرى بأمره كيف يشاء وعلى الثانى جعل يمسح بيده أعناقها وسوقها حبًّا لها وتكرمة لها لأنها معدة للجهاد وهذا هو الراجح عند الفخر والجمهور على الأول ويوافق الثانى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمسح أعراف الخيل ويقول والخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة من أعزها أعزه الله ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ بنسيان التعلق بالمشيئة فى حلفه لأطوفن الليلة على تسعين امرأة تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله فقال له الملك : قل إن شاء الله فنسى فما حملت إلا واحدة أتت بشق ولد . الحديث كما قال تعالى ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ﴾ هو شق الولد ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ رجع إلى الله بالتوبة هذا ما جاء فى الصحيح ووراء هذا من القصص أكاذيب لا يرضاها ذو دين وأشبه ما ذكر فى تلك القصص وأقربه ما روى عن سعيد بن المسيب أن سليمان احتجب عن الناس ثلاثة أيام فأوحى الله إليه : احتجبت عن عبادى ولم تنظر فى أمورهم ولم تنصف مظلوماً من ظالم فسقط خاتمه من يده وكان فيه ملكه فأعاده مراراً وهو يسقط فعلم أنه فتن ففر إلى ربه وانفرد للعبادة إلى أن يتوب الله عليه وولى كاتبه « آصف » على ملكه وعياله فأخذ خاتمه ووضعه فى يده فثبت وأقام فى الملك يسير بسيرة سليمان الحسنة أربعة عشر يوماً إلى أن رجع سليمان إلى منزله وقد تاب الله عليه ورد عليه ملكه فجلس على كرسيه وأعطاه آصف خاتمه فأعاده وثبت وعاد إلى ملكه كما كان . اهـ . قال ابن العربى فى أحكامه : وما ذكره بعض المفسرين من أن الشيطان أخذ خاتمه وجلس مجلسه يحكم للخلق فقول باطل قطعاً لأن الشيطان لا يتصوّر بصور الأنبياء ولا يمكن من ذلك حتى يظن الناس أنهم مع نبيهم فى حق وهم مع الشيطان فى باطل ولو شاء ربك لوهب من المعرفة والدين لمن قال هذا القول ما يزعه عن ذكره ويمنعه من سطره حتى يزل به غيره ولو شاء ربك ما قالوه فذرهم وما يسطرون وكن مع الحق على يقين . اهـ . ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي ﴾ ليكون معجزة لى مناسبة لحالى أو لا ينبغى لأحد أن يسلبه منى بعد هذه السلبة وقيل قاله شفقة على إخوانه النبيين حيث رأى الدنيا غدارة . وقال ابن عطية : من المقطوع أن سليمان عليه السلام إنما قصد بذلك قصد برّ لأن للإنسان أن يرغب من فضل الله فيما لا يناله أحد لا سيما بحسب المكانة والنبوة . اهـ ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ لا غيرك تعطى ما تشاء لمن تشاء ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ ﴾ ذللناها لطاعته إجابة لدعوته ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً ﴾ لينة من الرخاء الخصب أو لطيفة كالفرس الذلول لا تخالف مراده ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أراد من قولهم

أصاب الصواب فأخطأ الجواب (وَ) سخرنا له (الشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ) يبنى الأبنية العجيبة (وَغَوَّاصٍ) فى البحار لاستخراج الدرر والجواهر وكل بدل من الشياطين (وَءَاخَرِينَ) منهم (مُقَرَّنِينَ) مشدودين عطف على كل (فِى الْأَصْفَادِ) جمع صفد القيد بجمع أيديهم إلى أعناقهم : قسم الشياطين إلى عملة من بَنَّاء وغواص ومردة قرن بعضهم مع بعض فى السلاسل ليكفوا عن الشر . وقلنا له (هَـٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ) أعط منه من شئت (أَوْ أَمْسِكْ) عن الإعطاء وامنع من شئت (بِغَيْرِ حِسَابٍ) حال كونك غير محاسب بل الأمر مفوض إليك تتصرف كيف تشاء ، وعنه صلى الله عليه وسلم : « خيرنى الله بين أن أكون عبداً نبيا أو نبيا ملكا فاخترت أن أكون عبدا نبيا» ولذلك كان مأمورا لم يطلق له التصرف ولذا قال « إنما أنا قاسم والله يعطى » ولما تواضع ولم يلتفت إلى ملك الدنيا عوضه الله المقام المحمود ، رزقنا الله الاقتداء به (وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا) فى الآخرة (لَزُلْفَىٰ) قربة ومنزل مع ماله من الملك العظيم فى الدنيا (وَحُسْنَ مَـَٔابٍ) هو الجنة (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ) من نسل عيص بن إسحٰق لما ذكر أولى النعم والآلاء أردفهم بذكر ذوى العاهات والبلاء ليعلم أنهم كانوا مع الله فى السراء والضراء ولذا قال فى أيوب كما قال فى سليمان : « نعم العبد » ولذا افترق أهل الحق فى الغنى الشاكر والفقير الصابر أيهما أقرب إلى الله (إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ) بدل اشتمال (أَنِّى) بأنى (مَسَّنِىَ الشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ) تعب وضرّ فى بدنى (وَعَذَابٍ) ألم فى القلب أو الأول فى البدن والثانى فى المال والأولاد وإنما نسبه إلى الشيطان وإن كان كل ذلك بخلق الله تعالى تأدُّبا معه أو لأن ما حصل له من النصب ترتب على وسوسته إذ أعجب بكثرة ماله أو استغاثه مظلوم فلم يغثه أو كانت مواشيه فى ناحية كافر فداهنه ولم يغزه أو لما روى أن الشيطان سأل الله أن يسلطه على بدنه فسلطه فنفخ فيه فحصل المرض بواسطته فقيل له (ارْكُضْ) اضرب (بِرِجْلِكَ) الأرض فضرب فنبعت عين ماء فقيل (هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ) ماء تغتسل به (بَارِدٌ وَشَرَابٌ) تشرب منه فاغتسل وشرب فذهب عنه كل داء كان بظاهره وباطنه وقدم البارد لأنه أهم للمريض المحرور إذ قيل نبعت له عينان حارّة وباردة فاغتسل من الحارّة وشرب من الباردة (وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ) أحيى الله له من مات من أولاده ورزقه مثلهم (رَحْمَةً مِّنَّا) عليه (وَذِكْرَىٰ) تذكيرا (لِأُولِى الْأَلْبَـٰبِ) لينتظروا الفرج بالصبر والالتجاء إلى الله والعلم بأن كل شىء له آخر والصبر نعم الناصر (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا) عطف على اركض ، والضغث : الحزمة الصغيرة من الحشيش ونحوه (فَاضْرِب بِّهِۦ) زوجتك ليّا بنت يعقوب وقيل رحمة بنت أفرائيم بن يوسف حلف ليضربنها مائة ضربة لإبطائها عليه أو حين لقيت شيطانا فى صورة إنسان طبيب فقالت له : هنا مبتلى هل لك أن تداويه، فقال : نعم على شرط إن شفيته يقول لى أنت شفيتنى لا أريد منه غير ذلك فأخبرت أيوب بذلك ، فقال: ذلك شيطان ، لله علىّ إن شفانى الله أن أجلدك مائة جلدة (وَلَا تَحْنَثْ) بترك ضربها فأخذ مائة عود من الإذخر أو غيره فضربها ضربة وهذه الرخصة باقية فى الحدود عند الحنفية والشافعية خلافا للمالكية فى

حلف أن يضرب عبده مائة سوط لجمعها ضغثا فضربه بها ضربة واحدة لم يبر قال فى الجواهر جمهور العلماء على قول مالك: بأن الحدود والبر فى الأيمان لا تقع إلا بتمام عدد الضربات . اهـ . ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ أيوب ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ رجاع إلى الله بالذكر والتوبة ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا﴾ بالجمع للجمهور والإفراد لابن كثير لقصد الجنس ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي﴾ أصحاب القوة فى الطاعة ﴿وَالْأَبْصَارِ﴾ البصائر فى الدين ، وعبر بالأيدى عن الأعمال لأن أكثرها بها ، وبالأبصار عن المعارف لأنها أقوى مبادئها وفيها تعريض بالبطلة الجهال بأنهم كالزمنى والعمى ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم﴾ جعلناهم خالصين ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ بخصلة خالصة لاشوب فيها هى ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾ بإضافة خالصة إلى ذكرى بيانية لنافع وهشام وبتركها للباقين والدار الآخرة لأنها الدار حقيقة والدنيا معبر ، أى أن خلوصهم فى الطاعة سببها تذكرهم فى الآخرة دائما لأن مطمح نظرهم جوار الله والفوز بلقائه فنزع ذلك حب الدنيا من قلوبهم ولاهمّ لهم إلا فى الآخرة ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ﴾ المختارين ﴿الْأَخْيَارِ﴾ جمع خير بالتشديد أو التخفيف وأردف المصطفين به إذ المختار قد لا يكون خيرًا ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ﴾ هو ابن أخطوب استخلفه إلياس على بنى إسرائيل ، واللام فيه زائدة لازمة ﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾ ابن عم اليسع أو هو بشر بن أيوب واختلف فى نبوّته قيل لقب به لأنه كفل مائة نبىّ فروا إليه من القتل ﴿وَكُلٌّ﴾ أى كلهم ﴿مِّنَ الْأَخْيَارِ ۝ هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما تقدم من أمورهم ﴿ذِكْرٌ﴾ شرف لهم أو نوع من الذكر وهو القرآن ثم شرع فى بيان ما أعد لهم ولأمثالهم فقال ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الشاملين لهم ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ مرجع فى الآخرة ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ بدل أو عطف بيان لحسن مئاب وهو من الأعلام الغالبة ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ منها حال من جنات عدن والعامل فيها ما فى المتقين من معنى الفعل . قاله البيضاوى . وقال فى غاية الأمانى بدل اشتمال بلا رابطة المعنى كقولك فى بدل البعض ضرب زيد اليد أو الرجل ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾ على الأرائك ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ حالان مترادفان من ضمير لهم أو متداخلان وإيثار المضارع فى الثانية دون الأولى لتجدد الدعاء بها دون الاتكاء والاقتصار على الفاكهة والشراب لأن مايتناول فى الجنة إنما هو للتلذذ لا لدفع ألم الجوع ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ حابسات الأعين على أزواجهن ﴿أَتْرَابٌ﴾ لدات أى متفقات فى السن لأن التحاب بين الأقران أثبت وهن بنات ثلاث وثلاثين سنة ﴿هَٰذَا﴾ المذكور ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ بالخطاب التفاتاً للجمهور وبالغيبة لابن كثير وأبى عمرو ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أى لأجله فإن الحساب لأجل الوصول إلى الجزاء ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ انقطاع والجملة حال من « رزقنا » أو خبر ثان لـ « إن » أى دائماً أو دائم ﴿هَٰذَا﴾ خذ هذا المذكور للمؤمنين أو الأمر هذا أو هذا كما ذكر ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ مستأنف ﴿لَشَرَّ مَآبٍ ۝ جَهَنَّمَ﴾ بدل أو بيان ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها حال من جهنم ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ مهادهم مستعار من فراش النائم ﴿هَٰذَا﴾ العذاب المفهوم ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾

أى ليذوقوا هذا فليذوقوه أو «هذا» مبتدأ خبره ﴿ حَمِيمٌ ﴾ ماء حار محرق ﴿ وَغَسَّاقٌ ﴾ بالتخفيف للجمهور والتشديد لحمزة والكسائى وحفص : ما يسيل من صديد أهل النار وعلى التأويل الثانى فقوله «فليذوقوه» اعتراض وعلى الأول لحميم خبر محذوف أى هو حميم وغساق عطف عليه وهو من غسق الدمع نطف، وقيل هو شراب يحرق بالبرودة كما أن الحميم يحرق بفرط الحرارة . وعن الحسن : عذاب لا يعلمه إلا الله ﴿ وَآخَرُ ﴾ بالإفراد للجمهور أى ومذوق آخر أو عذاب آخر وبالجمع لأبى عمرو مبتدأ خبره «أزواج» ومن شكله صفته ﴿ مِنْ شَكْلِهِ ﴾ من مثل هذا المذوق أو العذاب فى الشدة والقبح ﴿ أَزْوَاجٌ ﴾ أصناف صفة للثلاثة على قراءة الجمهور أو لآخر فقط لأنه ضروب وأجناس ولا يخفى ما فى إبهام آخر من التهويل ويقال لهم عند دخولهم النار بأتباعهم ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ ﴾ جمع ﴿ مُقْتَحِمٌ ﴾ داخل ﴿ مَعَكُمْ ﴾ النار بشدة وعنف كما اقتحموا معكم فى الضلال فيقول المتبعون الرؤساء ﴿ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ﴾ أى لا سعة عليهم دعاء أو صفة فوج أو حال أى مقولا فيهم لا مرحباً بهم ﴿ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ ﴾ داخلوها بأعمالهم مثلنا ﴿ قَالُوا ﴾ أى الاتباع للرؤساء ﴿ بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ ﴾ أى الكفر ﴿ لَنَا ﴾ بالإغواء والإغراء فأنتم أحق بهذا الدعاء ﴿ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ لنا ولكم النار ﴿ قَالُوا ﴾ أيضاً ﴿ رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا ﴾ مضاعفاً أو ذا ضعف بأن تزيد على عذابه مثله فيصير ضعفين للضلال والاضلال ﴿ فِي النَّارِ وَقَالُوا ﴾ أى الطاغون من كفار مكة وغيرهم وهم فى النار ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ ﴾ فى النار ﴿ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ ﴾ فى الدنيا ﴿ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴾ يعنون فقراء المسلمين الذين كانوا يسترذلونهم ويسخرون بهم استفهام تعجب وتحسر ﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ ﴾ بهمزة الاستفهام مغنية عن همزة الوصل لنافع وابن عامر وابن كثير وعاصم إنكار على أنفسهم وتأنيب كيف اتخذوا ﴿ سُخْرِيًّا ﴾ من كان أعلى شأناً منهم وبالإخبار للباقين صفة أخرى لرجالا «سخريا» بضم السين لنافع وحمزة والكسائى وكسرها للباقين ثم أضربوا إلى قولهم ﴿ أَمْ ﴾ منقطعة أى بل ﴿ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴾ فلا نراهم وهم فيها أو متصلة ومعادلها اتخذناهم على إنكار الأمرين جميعاً على قراءة الاستفهام كأنهم قالوا منكرين على أنفسهم أى الفعلين فعلنا بهم السخرية أو الازدراء والتحقير وفى إسناد الزيغ إلى الأبصار إشارة إلى شدة الازدراء بهم كأنهم لفرط كراهتهم تمجهم الأعين وتخصيص الضمير لصناديد قريش لادليل له فالوجه التعميم فى كل طاغ . قاله فى غاية الأمانى وغيره ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ الذى حكينا عنهم ﴿ لَحَقٌّ ﴾ كائن لامحالة وهو ﴿ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ كما تقدم وكان الظاهر إن ذلك التخاصم لحق فقدم «لحق» اهتماما ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لمشركى مكة ﴿ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ ﴾ أنذركم عذاب الله لا ساحر كذاب ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ أى إنى مبعوث بهذين الأمرين الإنذار والدعوى إلى التوحيد أو المعنى إنما أنا منذر ليس لى علم بمقدار عذاب من هذا شأنه فالإنذار هو المبعوث به وهذا تحقيق له والأول هو الوجه لقوله ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ منه خلقها وإليه أمرها فالتعقيب بهذه الصفات دليل على كون الدعوة مقصورة

ولأن هذا ملخص ما تقدم فى جواب قولهم أجعل الآلهة إلها واحدا (الْعَزِيزُ) الغالب على أمره (الْغَفَّـٰرُ) لأوليائه وفيه وعد ووعيد للموحدين والمشركين (قُلْ) لهم (هُوَ) أى ما أنبأتكم به من أنى نذير من عقوبة من هذه صفاته وأنه واحد فى ألوهيته (نَبَؤٌا عَظِيمٌ) وقيل الضمير للقرآن أو يوم القيامة (أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ) مع قيام الأدلة عليه أما التوحيد فأدلته ما تقدم وأما النبوة فقوله (مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰٓ) الملائكة أى بكلامهم فى ذلك الوقت (إِذْ يَخْتَصِمُونَ) فى قولهم «أتجعل فيها من يفسد فيها ... الخ» وإنما علمته بأخبار من الله فهذا دليل على رسالته وقيل اختصام الملائكة فى الكفارات وغفران الذنوب ونحو ذلك فإن العبد إذا فعل حسنة اختلف الملائكة فى قدر ثوابه حتى يقضى الله بما شاء ويؤيده حديث أن النبى عليه السلام قال له ربه فى نومه أتدرى فيم يختصم الملأ الأعلى قلت لا قال اختصموا فى الكفارات والدرجات فأما الكفارات فى إسباغ الوضوء فى الغداة الباردة ونقل الأقدام إلى الجماعات وانتظار الصلاة بعد الصلاة وأما الدرجات فى إفشاء السلام وإطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام ... الحديث. قال ابن العربى فى أحكامه قد رواه الترمذى صحيحا وفيه قال: سل قل اللهم إنى أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لى وترحمنى وإذا أردت فتنة فى قوم فتوفنى غير مفتون وأسألك حبك وحب من يحبك وعملا يقرب إلى حبك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنها حق فادرسوها ثم تعلموها. اه. ويؤيد التأويل الأول قوله «إذ قال ربك» كما يأتى (إِن) ما (يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠) أى بأنى (نَذِيرٌ مُّبِينٌ) بيّن الإنذار أى لم أومر إلا بهذا الإنذار دون الهداية (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ) هو آدم، وإذ: بدل من «إذ يختصمون» مبين له فإن القصة التى دخلت إذ عليها مشتملة على تقاول الملائكة وإبليس فى خلق آدم واستحقاقه الخلافة والسجود على ما مر فى البقرة غير أنها اختصرت اكتفاء بذلك واقتصارا على ما هو المقصود هنا من إنذار المشركين على استكبارهم على النبى صلى الله عليه وسلم بمثل ما حاق بإبليس على استكباره على آدم عليه السلام وإنما جاز أن يكون إذ قال بدلا من إذ يختصمون مع كونه ظرفا لكلام الملائكة وهذا كلام الله لأن ذلك الزمان ممتد وقع فيه الفعلان ووصف الملأ وهو اسم جمع بالمفرد نظراً إلى لفظه (فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ) عدلت خلقه وأتممته (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى) أى أحييته والإضافة للتكريم إشارة إلى شرفه وطهارته (فَقَعُوا لَهُۥ سَـٰجِدِينَ) سجود تحية بالانحناء وتقدم (فَسَجَدَ الْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ) فيه تأكيدان (إِلَّآ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ) تعظم (وَكَانَ مِنَ الْكَـٰفِرِينَ) باستكباره عن أمر الله أو كان منهم فى علم الله ولم يذكر إباءه هنا لأن الاستكبار يستلزمه (قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ) أى توليت خلقه وهو تشريف لآدم وذكر اليد تمثيل وتصوير وتثنيته للدلالة على كمال الاعتناء (أَسْتَكْبَرْتَ) ترفعت من غير استحقاق عن السجود استفهام توبيخ (أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ) ممن علا واستحق التفوق وقيل استكبرت الآن أم لم تزل كنت

من المتكبرين ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ إبداء المانع ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ دليل على المانع مردود عليه بأن المالك المتصرف أن يأمر الأشرف بخدمة الأخس وإن الحسن ما حسّنه وقد تقدم بأبسط من هذا ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا ﴾ من الجنة أو السماء ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ مطرود من الرحمة ومحل الكرامة ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ الجزاء ذكر بعده عن جوار الله بعد الرجم إشارة إلى كمال خسرانه لبعده من الله وحرف الغاية ليس للانقطاع بل لأنه يرى بعدها من العذاب ما هو أعظم ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ وقت النفخة الأولى ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ﴾ بصفة جلالك وسلطانك وقهرك ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ الذين أخلصتهم بالعصمة والطاعة وأخلصوا قلوبهم لله على اختلاف القراءتين على ما تقدم ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴾ بنصب الاسمين للجمهور على أن الأول مفعول مطلق أى أحق الحق أو على الإغراء أى الزموا الحق أو على حذف حرف القسم وإيصال الفعل ، والجواب « لأملأن » والجملة بينهما اعتراض والثانى نصب بأقول ورفع الأول مبتدأ خبره « لأملأن » لحمزة وعاصم أو مبتدأ محذوف الخبر أى فالحق منى أو قسم وجواب القسم ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ ﴾ بذريتك ﴿ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ من الناس ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ تأكيد للضمير المجرور فى « منهم » على معنى إنى لا أبالى بمن تبعك من الناس كائناً من كان ، وترك ذكر التابع من الشياطين اكتفاء إذ هم أولى بذلك من الناس أو تأكيد للضمير المجرور فى « من تبعك » يشمل الكل والأول أوجه لأن الكلام بينه تعالى وبين إبليس إنما هو فى شأن عباده الذين عادى أباهم ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ على تبليغ الوحى ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ جُعْلٍ ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ المتقولين القرآن من تلقاء نفسى لا أتصنع بما لست من أهله على ماعرفتم من حالى وليس القصد إعلامهم بفائدة الخبر بل استشهاد بمعرفتهم حاله على صدق مقاله ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أى ما القرآن ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ عظة ﴿ لِلْعَالَمِينَ ﴾ العقلاء الإنس والجن وهو أبلغ من قوله « ذى الذكر » فى أول السورة فانتظمت الخاتمة مع الفاتحة ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ ﴾ يا كفار مكة ﴿ نَبَأَهُ ﴾ خبر صدقه فى وعده ووعيده بإتيان ذلك ﴿ بَعْدَ حِينٍ ﴾ بعد الموت أو القيامة أو ظهور الإسلام وفيه تهديد ووعيد شديد ، وعلم بمعنى عرف ، واللام قبلها لام قسم مقدر أى والله .

[تم تفسير سورة ص]

سورة الزمر

مكية إلا «قل ياعبادي الذين أسرفوا» الآية فمدنية
وهي خمس وسبعون آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ • تَنزِيلُ ٱلْكِتَابِ ﴾ القرآن مبتدأ خبره ﴿ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أو «تنزيل» خبر محذوف أى هذا و «من الله» صلته أو خبر محذوف أو حال عمل فيه معنى الإشارة لأن المقدر كالملفوظ ، والكتاب على الأول القرآن لإطلاق اللفظ وفخامة المعنى وعلى الثاني السورة بقرينة الإشارة والأول أوجه لما ذكرنا من إطلاق اللفظ وفخامة المعنى ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾ يامحمد ﴿ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ملتبساً به أو بسبب إظهاره ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ عن شوب الشرك أى موحداً له ﴿ أَلَا ﴾ تنبهوا أيها السامعون ﴿ لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ لا يستحقه غيره لاتصافه بصفات الجمال والجلال والاطلاع على الأسرار ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ وهم كفار مكة مبتدأ والخبر « يقولون » مقدراً قبل قوله ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ قربى مصدر بمعنى يقربونا أو الخبر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ وبين المسلمين والقول المقدر حال ﴿ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من الدين بإدخال المحق الجنة والمبطل النار ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ﴾ لا يوفق ﴿ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾ بنسبته الولد إلى الله ﴿ كَفَّارٌ ﴾ بعبادة غير الله والإتيان بالمظهر لتعليل الحكم وإيثار صيغة المبالغة في الوصف الثاني لأنه منشأ الأول ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ كما قالوا « اتخذ الرحمن ولدا » ﴿ لَّٱصْطَفَىٰ ﴾ أى لرجع ذلك إلى الاصطفاء ﴿ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ إذ لا موجود سواه إلا وهو مخلوقه والمخلوق لا يماثل الخالق فيقوم مقام الولد له ثم قرر ذلك بقوله ﴿ سُبْحَانَهُۥ ﴾ تنزيهاً له عن اتخاذ الولد ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَاحِدُ ﴾ لا غير فلو كان له ولد لكان شريكا له أو لكان جزءا منفصلا منه والواحد الحقيقي لا يعقل فيه ذلك ﴿ ٱلْقَهَّارُ ﴾ الذى لا يغالب وكل شيء تحت قهره وهذا ينافي الزوال المحوج إلى الولد الذى يقوم مقامه . قال في الجواهر : قوله « لو أراد الله أن يتخذ ولداً » معنى اتخاذه التبني وعلى هذا يستقيم قوله « لاصطفى مما يخلق » وأما الاتخاذ المعهود في الشاهد فمستحيل أن يتوهم في جهته ولا يستقيم عليه معنى قوله لاصطفى مما يخلق ما يشاء . اهـ . ثم استدل على ذلك بقوله ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ متعلق بخلق ﴿ يُكَوِّرُ ﴾ يدخل ﴿ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ ﴾ فيزيد ﴿ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ ﴾ يدخله ﴿ عَلَى ٱلَّيْلِ ﴾ فيزيد ، والتكوير اللف من كار العمامة وكورها لفها على رأسه شبه إحاطة كل منهما بالآخر باللباس الملفوف على صاحبه أو لما كر كل منهما على الآخر كروراً متتابعاً

تتابع أكوار العمامة شبه به ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي ﴾ فى فلكه ﴿ لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ منتهى دوره أو منقطع حركته كما قدمنا فى سورة يس ﴿ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب على أمره المنتقم من أعدائه ﴿ الْغَفَّارُ ﴾ لأوليائه لما كان الدليل الذى ساقه لحسم مادة توهم الولد بل الشركة مشتملا على كمال الاقتدار مدبجاً فيه معنى الرأفة بما أشار إليه من التكوير الذى هو مدار الرأفة والتكسب أردفه بالوصفين ترغيباً للذنب فى التوبة وترهيباً للمصر بالعقاب ولما قدم دليل الآفاق أردفه بدلائل الأنفس فقال ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ آدم ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ حواء و « ثم » عطف على محذوف صفة نفس أى خلقها ثم جعل منها زوجها وفيه ثلاث دلالات على كمال القدرة خلق آدم من غير أب وأم ثم خلق حواء منه ثم تشعيب ما لا يحصى من الخلق منهما وقيل العطف على ظاهره أى أخرجكم من ظهره كالذر قبل حواء ثم خلق منه حواء ، قال عبد الرحمن الثعالبي فى الجواهر : وهذا يحتاج إلى سند قاطع ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ﴾ الإبل والبقر والغنم ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ من كل زوجان ذكر وأنثى كما بيّن فى سورة الأنعام ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ بيان لكيفية خلق ما ذكر : خص الإنسان لأنه المقصود ويعلم حال البواقى منه أو هو على طريق التغليب ﴿ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ بشراً سوياً من بعد عظام مكسوة لحماً من بعد مضغ من بعد علق من بعد نطف ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ ظلمة البطن والرحم والمشيمة ، أو الصلب والرحم والبطن ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ الموصوف ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ مالككم والمستحق لعبادتكم ﴿ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ السلطان دون غيره ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إذ لا يشاركه فى الخلق غيره ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ كيف يعدل بكم بعد هذا البيان إلى الشرك : تعجيب ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ ﴾ عن إيمانكم ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ وإن أراده من بعضهم فالرضى إيثار الشىء مع الاستحسان فهو أخص من الإرادة يقابل السخط والإرادة الكراهة فهما غيران بالضرورة ثم فى العدول من الخطاب إشارة إلى أن كونهم عبيداً له يقتضى أن لا يرضى لهم بذلك رحمة عليهم وأنهم إذا اتصفوا بالكفر خرجوا عن العبودية ثم أشار إلى مزيد الاختصاص بقوله ﴿ وَإِنْ تَشْكُرُوا ﴾ الله فتؤمنوا ﴿ يَرْضَهُ ﴾ أى الشكر ﴿ لَكُمْ ﴾ لأنه سبب فلاحكم باختلاس ضمة الهاء لنافع وعاصم وحمزة وبإسكانه للسوسى وبهما لهشام وبهما مع صلة الضمة بواو للدورى وبالصلة فقط للباقين فهى خمس قراءات ﴿ وَلَا تَزِرُ ﴾ نفس ﴿ وَازِرَةٌ وِزْرَ ﴾ نفس ﴿ أُخْرَىٰ ﴾ أى لا تحمله ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بالمحاسبة والمجازاة ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ بما فى القلوب فلا تخفى عليه خافية من أعمالكم ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ ﴾ تضرع ﴿ مُنِيبًا ﴾ راجعاً ﴿ إِلَيْهِ ﴾ لزوال ضره فلا يخطر بباله غيره تعالى ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ ﴾ أعطاه ﴿ نِعْمَةً ﴾ كال من الخول وهو العطاء الذى لا يقصد به عوض إذا كان له وقع لأن أصله التعاهد والحفظ يقال فلان خائل مال إذا أصلحه وقام بأمره ﴿ مِنْهُ ﴾ تعالى ﴿ نَسِيَ ﴾ ترك ﴿ مَا ﴾ أى الضر الذى ﴿ كَانَ يَدْعُو ﴾ الله ﴿ إِلَيْهِ ﴾ إلى كشفه ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أو « ما » مصدرية : أى نسى

دعاءه إليه فى حال الضرورة ورجع إلى كفره ، أو بمعنى مَن أى نسى ربه الذى كان يتضرع إليه ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ شركاء ﴿ لِيُضِلَّ ﴾ بضم الياء للجمهور وفتحها لابن كثير وأبى عمرو ﴿ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ دين الإسلام والضلال والإضلال لما كانا نتيجة « جعل » صح تعليله بهما وإن لم يكونا غرضين ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ﴾ بقية أجلك : أمر تهديد فيه إشعار بأن الكفر نوع تشهّ لا سند له وإقناط للكافرين من التمتع فى الآخرة ، ولذا علله بقوله ﴿ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ على سبيل الاستئناف للمبالغة ﴿ أَمَّنْ ﴾ بتخفيف الميم موصول دخلت عليه همزة الاستفهام لنافع وابن كثير وحمزة ، وبتشديدها بإدغام ميم «أم» فى «من» للباقين ﴿ هُوَ قَانِتٌ ﴾ قائم بوظائف الطاعات ﴿ آنَاءَ اللَّيْلِ ﴾ ساعاته لأن القيام فيها أشق وأبعد من الرياء وأقرب إلى الإجابة ، وأم متصلة بمحذوف تقديره : الكافر خير أم من هو قانت ، أو منقطعة ، والمعنى : بل أمن هو قانت كمن هو ضده ، والمعنى على قراءة الجمهور : أمن هو قانت كمن هو عاص ﴿ سَاجِدًا وَقَائِمًا ﴾ حالان من ضمير « قانت » والواو للجمع بين الصفتين ﴿ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ ﴾ يخاف عذابها ﴿ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ جنته ، و « يحذر » فى موضع الحال أو استئناف للتعليل . قال فى الجواهر : قيل المراد بقوله «أمن هو قانت» عثمان بن عفان ؛ لأنه كان يحيي الليل ، والصحيح أنها عامة فى كل من اتصف بهذه الصفة . وفى هذه الآية تنبيه على فضل قيام الليل وروى عن ابن عباس أنه قال : من أحب أن يهوّن الله عليه الوقوف يوم القيامة فليره الله فى سواد الليل ساجداً وقائماً . وعن قبيصة بن سفيان قال : رأيت سفيان الثورى فى المنام بعد موته فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال :

نَظَرْتُ إلى ربِّى عِياناً فقال لِى • هنيئاً رضائى عنكَ يا ابنَ سَعِيدِ
لقد كنتَ قوّاماً إذا الليلُ قد دَجَى • بعبرة مُشْتاق وقَلْب عَمِيد
فدونك فاختر أىَّ قصرٍ تُرِيدُه • وزرنى فإنى منك غيرُ بَعِيد

ورأى اليزيدى شعبة بن الحجاج ومسعر بن كدام فى النوم بعد موتهما فقال لشعبة : ما فعل الله بك ؟ فقال : يا بنيّ احفظ ما أقول :

حَبَانِى إلهى فى الجنانِ بِقُبَّةٍ • لها ألفُ باب من لُجَيْن وجَوْهَرَا
وقال لِىَ الجبارُ يا شعبةَ الذى • تبحر فى جَمْع العُلُوم وأكثرَا
تمتعْ بقُرْبِى إننى عنكَ ذو رِضاً • وعن عبدىَ القوّامِ فى الليلِ مِسْعَرَا
كفى مِسعراً عزّاً بأن سيزورنى • وأكشفَ عن وجهى ويدنو لِيَنْظُرَا
وهٰذى فَعَالِى بالذين تَنَسَّكوا • ولم يألَفُوا فى سالف الدهر مُنْكَرَا

وقال الجوزى : يا أخى ، امتطى القوم مطايا الدجى على مركب السهر ، فما حلّوا ولا حالوا رحالهم حتى السحر ، درسوا القرآن فغرسوا بأيدى الفكر أزكى الشجر ، ومالوا إلى النفوس باللوم فلا تسل عما شجر ،

رجعوا بنيل القبول والنجاة وما عندك خبر، فإذا جاء النهار قدموا طعام الجوع وقالوا للنفس هذا ما حضر، هز الخوف أفنان قلوبهم فالقلب يخشع واللسان يضرع والعين تدمع كالنهر، أين أنت منهم يا نائم كيقظان، كم بينك وبينهم أين الشجاع من الجبان، ما للمواعظ فيك نجح فالقلب باللهو ملآن، يا أخي قف على باب النجاة ولكن وقوف لهفان، واركب سفن الصلاح فهذا الموت طوفان، فالليل والنهار مراحل، ومركب العمر قارب الساحل، فانتبه وازدجر يا غافل، فما أقرب ما ينتظر، وما أقل مكث ما يزول ويتغير. ا هـ. وإنما أطلت فى هذا تنبيها لأمثالنا وهو من مقتضى الحال لنومنا ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى لا يستوى القانتون والعاصون كما لا يستوى العالمون والجاهلون ولا ارتياب لهم فى الثانى لأنه مركوز فى الطباع ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ بأمثال هذه البينات ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أى عذابه بأن تطيعوه، إذ قد علمتم أن الطائع ليس كالعاصى ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ أخلصوا الدين لله ﴿فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا﴾ مثوبة ﴿حَسَنَةٌ﴾ فى الآخرة هى الجنة أو فى الدنيا بالنصر والعافية ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ فمن تعسر عليه الإحسان والتوقى فى وطنه فليهاجر إلى حيث يتمكن منه فهاجروا من بين الكفار وأهل المنكرات والكل واجب دفعا لما عسى أن يتعلل به ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ﴾ على الطاعة وهجرة الأوطان وما يبتلون به ﴿أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير مكيال ولا ميزان أى لا يهتدى إليه حساب، وفى الحديث « تنصب الموازين يوم القيامة لأهل الصلاة والصدقة والحج فيوفون بها أجورهم ولا تنصب لأهل البلاء بل يصب عليهم الأجر صبا حتى يتمنى أهل العافية أن أجسادهم تقرض بالمقاريض» ﴿قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ موحدا له ﴿وَأُمِرْتُ﴾ بذلك الإخلاص ﴿لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أى مقدمهم فى الدنيا والآخرة حائزا قصب السبق أو اللام مزيدة، المعنى أمرت بأن أكون أول الذين دعوتهم إلى الإسلام إسلاما فيكون أول مسلم فى زمانه ﴿قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ بترك الإخلاص والميل إلى ما أنتم عليه ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لعظم ما فيه ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ﴾ وحده ﴿مُخْلِصًا لَهُ دِينِى﴾ وليس فيه تكرار لأن الأول للإخبار بأنه مأمور بالإخلاص والثانى أمر بالإخبار باختصاصه تعالى به دون غيره ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ غيره تهديد وخذلان ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ الكاملين فى الخسران ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بتخليد الأنفس فى النار وبعدم وصولهم إلى الحور المعدة لهم فى الجنة لو آمنوا أو خسروا أهليهم بأن فارقوهم مفارقة لا التقاء بعدها إن كانوا من أهل النار وأهليهم من أهل الجنة ﴿أَلَا﴾ للتنبيه ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ فيه مبالغات بالتصدير بحرف التنبيه وجعل المبتدأ اسم إشارة وتوسيط الفصل وتعريف الخسران ووصفه بالمبين ثم زاد عليه بقوله ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ﴾ طباق ﴿مِنَ النَّارِ﴾ شرح لخسرانهم ﴿وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ منها هى ظلل الآخرين لكن يرد عليه أهل الدرك الأسفل بل المعنى أنها محيطة بهم من جميع الجهات وإطلاق الظلل على الأطباق السفلى من إطلاق اسم الضد عليه أو المماثل لتساويهما فى الحرارة

(ذَٰلِكَ) العذاب هو الذى (يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ) المؤمنين ليتقوه دل عليه (يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ) لا تتعرضوا لما يوجب سخطى (وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا ٱلطَّٰغُوتَ) البالغ غاية الطغيان فعلوت منه بتقديم اللام على العين بنى للمبالغة فى المصدر كالرحموت ثم وصف به للمبالغة فى النعت وقلب لذلك إذ لا يصار إلى القلب إلا للمبالغة غالبا ولذا غلب فى الشيطان لأنه رأس الضلال ويطلق على غيره مجازا (أَن يَعْبُدُوهَا) بدل اشتمال منه (وَأَنَابُوا) أقبلوا (إِلَى ٱللَّهِ) بكليتهم عما سواه (لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ) بالجنة من الله على لسان الرسل أو على لسان الملائكة عند حضور الموت (فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) الأفضل فالأفضل أى فبشرهم وإيثار المظهر لبيان تعدد موجب الاستحقاق (أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَاهُمُ ٱللَّهُ) لدينه (وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو ٱلْأَلْبَٰبِ) العقول الخالصة عن شوائب الوهم ثناء عليهم بأنهم لم يدنسوا الفطرة بالوهم والعادة (أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ) أى لأملأن جهنم الآية جملة شرطية معطوفة على محذوف أى أأنت مالك أمرهم فمن حق عليه العذاب (أَفَأَنتَ تُنقِذُ) تخرج (مَن فِى ٱلنَّارِ) أى أفأنت تنقذه فكررت الهمزة فى الجزاء لتأكيد الإنكار والاستبعاد لأن الشرط والجزاء جملة واحدة والاستفهام إنما يتوجه إلى ما مضى من الجملة ووضع من فى النار موضع الضمير للاستبعاد والدلالة على أن من حكم عليه بالعذاب كالواقع فيه لامتناع الخلف ويجوز أن يكون «أفأنت تنقذ» جملة مستأنفة للدلالة على ذلك والإشعار بالجزاء والأصل: أفمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تخلصه أفأنت تنقذ من فى النار (لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ) بأن أطاعوا (لَهُمْ غُرَفٌ مِن فَوْقِهَا غُرَفٌ) أى قصور عالية بعضها فوق بعض مقابل لقوله «لهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل» (مَبْنِيَّةٌ) محكمة لا كمنازل الدنيا التى تكون أضعف من الأسافل بل كلها بنيت بناء المنازل على الأرض (تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ) أى من تحت الغرف الفوقانية والتحتانية لأن الماء الجارى جالب للسرور (وَعْدَ ٱللَّهِ) مصدر مؤكد لأن قوله «لهم غرف» فى معنى الوعد منصوب بفعله المقدر (لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ) وعده لأنه كذب أو عجز تعالى الله عن ذلك ثم أمر بالاعتبار بما ذكر فى قوله (أَلَمْ تَرَ) تعلم (أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً) هو المطر أو سائر المياه لما روى أنه ينزل تحت الصخرة ثم يقسمه الله (فَسَلَكَهُ) أدخله (يَنَٰبِيعَ) أمكنة النبع (فِى ٱلْأَرْضِ) فى أعماق الأرض حال كونه عيونا تجرى فى المجارى كالعروق فى الجسد نصب على الحال أو المصدر إذ الينبوع جاء للنابع والنبع (ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُ) أى أصنافه من بر وشعير وسائر الحبوب أو أشكاله وهيئاته من السواد والبياض وغيرهما (ثُمَّ يَهِيجُ) ييبس إذا تم جفافه (فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا) من غاية اليبس (ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَٰمًا) فتاتا أى يابسا متفتتا (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ) تذكيرا بأنه لا بد لهذا من صانع حكيم دبره أو ذكرى للبعث من القبور وإحياء الموتى على قياس هذا المذكور أو ذكرى فى مثال الدنيا فى سرعة زوال نعيمها فيكون تنفيرا عنها بعد الترغيب فى الآخرة (لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ) الذين يتذكرون به إذ غيرهم لا يتذكر به (أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَٰمِ) فاهتدى (فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِن رَبِّهِ)

والنور الهداية وهو أشبه شيء بالضوء . قال عليه السلام « إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح . قلنا : يارسول الله وما علامة ذلك ؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزوله » وخبر مَن محذوف أى كالقاسى القلب المعرض عن الإسلام دل عليه ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أى عن قبول القرآن أو من أجل ذكر الله وهو أبلغ من أن يكون «عن» مكان «من» لأن القاسى من أجل الشيء أشد تأبياً عن قبوله من القاسى عنه بسبب آخر فى وإسناد شرح الصدر إليه تعالى والقسوة إلى قلوبهم إشارة إلى سبق رحمته ومبالغة فى وصف أولئك بالقبول وهؤلاء بالامتناع ﴿ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ظاهر بأدنى تأمل ، والآية نزلت فى علىّ وحمزة وأبى لهب وولده . قال الفخر : اعلم أن ذكر الله سبب لحصول النور والهداية وزيادة الاطمئنان فى النفوس الطاهرة الروحانية وقد يوجب القسوة والبعد عن الحق فى النفوس الخبيثة الشيطانية وهو مرض لايرجى زواله فلذا قال «فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله » . اهـ . ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ القرآن وفى الابتداء باسم الله وبناء « نزل » عليه تأكيد للإسناد إليه وتفخيم للمنزّل واستشهاد على حسنه ﴿ كِتَاباً مُتَشَابِهاً ﴾ بدل من أحسن أو حال منه يشبه بعضه بعضاً فى النظم والإعجاز وصحة المعنى والدلالة على المنافع العامة ﴿ مَثَانِيَ ﴾ جمع مثنى مفعول من الثنى أو جمع مثنى من التثنية لأنه يثنى أى يكرر فيه الوعد والوعيد وغيرهما وقد مرّ فى الحجر وصف به «كتاباً » باعتبار تفاصيله كقولك : القرآن سور وآيات والإنسان عظام وعروق وأعصاب ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ ﴾ ترتعد عند ذكر وعيده ﴿ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ وهو تصوير الخوف بذكر آثاره وتشبيه حالة بأخرى على طريقة التمثيل أو ذكر له بذكر لازمه أو هو تحقيق الواقع لأنهم إذا سمعوا القرآن تعتريهم تلك الحالة وهى انقباض الجلد وقفّ الشعر ﴿ ثُمَّ تَلِينُ ﴾ تطمئن ﴿ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ عند ذكر وعده أو إلى رحمته الواسعة وإنما لم تذكر لاستشهاره تعالى بسبق الرحمة فلا يسبق إلى خاطر من ذكر الله غيرها وقد دل عليها لين الجلود والقلوب أيضاً وإنما لم تذكر القلوب أولا لأن اقشعرار الجلد يدل عليها لأن منشأه خشية القلب وقدّم الجلود ثانياً إشارة إلى فرط مسراتها بالرحمة والتعدية بإلى لتضمين معنى السكون والاطمئنان ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الكتاب أو الكائن من الخشية والرجاء ﴿ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ نفس الهداية ﴿ يَهْدِي بِهِ ﴾ يوفق به ﴿ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ولم يقل يهديهم به فعبر بمن يشاء تفخيما لشأنهم كأنهم ممتازون من سائر العباد بكونهم مصب المشيئة ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ ﴾ يخذله ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ يخرجه من الضلال ﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ﴾ أى أشده بأن يلقى فى النار منكوساً مغلولة يداه إلى عنقه فلا يقدر أن يتقى النار إلا بوجهه ، كمن أمن منه بدخول الجنة لحذف الخبر كما حذف فى نظائره ﴿ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ﴾ أى لهم وإيثار الظاهر للتسجيل عليهم بالظلم وإشعار الموجب لما يقال لهم ﴿ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ أى وباله . ثم شرع فى تهديدهم بعد ضرب الأمثال وشرح مبانى الأحوال وما للكافر

من الويل والأهوال فقال ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ رسلهم في إتيان العذاب ﴿فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فجاءهم من جهة لا يتصورون مجيئه منها وذلك أفظع ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ﴾ الذل والهوان من المسخ والخسف والقتل والسبي والإجلاء وغير ذلك ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فهلا يعتبر بهم هؤلاء. فإن لم تكن لهم قلوب يعقلون بها الأمثال فلا أقل من أن يدركوا المحسوس ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ لشدته ودوامه ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ عذابها ما كذبوا أولو كانوا من أولى العلم لاعتبروا بهؤلاء. ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ جعلنا ﴿لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتاج إليه الناظر في أمر دينه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون به لأن المثل تجعل المعقول كالمحسوس وهذا تتميم لما تقدم من الأمثال وتمهيد لما سيضرب به ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ حال مؤكدة لأن ذكر الموصوف للتمهيد كأنه قال عربيا محققا كقولك جاءني زيد رجلا صالحاً فالمقصود الوصف ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أي لبس واختلاف لاعوج فيه بوجه قط لأنه في سياق النفي وهو أبلغ من المستقيم وأخص بالمعاني ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والمعاصي علة أخرى مرتبة على الأولى ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ المشرك والموحد ﴿رَجُلًا﴾ بدل من مثلا ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ متنازعون سيئة أخلاقهم ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾ بفتحتين لنافع وابن عامر والكوفيين ﴿لِرَجُلٍ﴾ مصدر سلم له خلص وصف به مبالغة أو حذف منه ذا وبألف بعد السين للباقين اسم فاعل أي خالصا عن الشركة ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ تميز ولذلك أفرده أي لا يستويان فالأول مثل المشرك على مايقتضيه مذهبه من أن يدعى كل واحد من معبوديه عبوديته ويتنازعوا فيه فهو كعبد تشارك فيه جمع يتجاذبونه في مهامهم المختلفة فهو في تحيره وتوزع قلبه لايدرى على من يعتمد فهو دائما ضائع على أغم الحال مضطرب فهمه شعاع وقلبه أوزاع والثاني مثل الموحد فهو كعبد خالص لواحد فهو فارغ البال رضى الحال أحواله مضبوطة ومقاصده بالنجاح منوطة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وحده لأنه المنعم المالك ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ اختصاصه بالحمد أو مايصيرون إليه من العذاب فيشركون ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ ستموت ويموتون فلا شماتة بالموت ، نزلت لما استبطئوا موته صلى الله عليه وسلم وآثر الميت على المائت مع أن المعنى على الاستقبال لأن من كان الموت طوق عنقه لحياته عين موته وإن طال الأمد ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ أنت وهم وفيه تغليب المخاطب على الغائب أو إنكم أيها الناس جميعا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فتحتج عليهم بالبرهان بأنك كنت على الحق في التوحيد ويعتذرون بما لا طائل تحته كاتباع الآباء وإطاعة السادات والكبراء أو تختصمون أيها الناس فيما بينكم من المظالم وهو المنقول عن جل الصحابة والتابعين وروى الترمذي من حديث عبدالله بن الزبير لما نزلت «ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون» قال الزبير يارسول الله تكر علينا الخصومة بعد الذي كان بيننا في الدنيا . قال : نعم . قال إن الأمر إذاً لشديد ﴿فَمَنْ﴾ أي لا أحد ﴿أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ بنسبة الشريك والولد إليه ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾ ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم جعل نفس الصدق مبالغة ﴿إِذْ جَاءَهُ﴾ من غير تأمل بل عنادا ومكابرة ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾

وذلك يكفيهم مجازاة لأعمالهم واللام تحتمل العهد والجنس ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل المؤمنون بدلالة السياق فى قوله ﴿ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ الله كقوله «ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون» وقيل الجائى هو الرسول والمصدق به أبو بكر رضى الله عنه وذلك يقتضى إضمار الذى وهو غير جائز قاله البيضاوى ، وقيل يقدر قبل الموصول الفوج أو الفريق وأول التأويلات أحسن ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ فى الجنة من أنواع الكرامة ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ على إحسانهم ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ فإذا كفر فغيره أولى أو الأسوأ بمعنى السيئ ﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ يعطيهم ثوابهم ﴿ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فيعد لهم محاسن أعمالهم بأحسنها فزيادة الأجر وعظمه لفرط إخلاصهم فيها أو الأحسن بمعنى الحسن والإضافة فى الأسوإ والأحسن من إضافة الشيء إلى ما هو بعض منه كأعلم قريش والأشج أعدل بنى مروان من غير مشاركة المضاف إليه فى أصل المعنى مع قصد التفضيل أولا ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ محمداً صلى الله عليه وسلم ، بالإفراد للجمهور والجمع لحمزة والكسائى الأنبياء كلهم .و رسول الله والمؤمنين استفهام إنكار للنفى مبالغة فى الإثبات أى هو كاف أىّ كاف والإفراد أوفق بقوله ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ ﴾ إذ الخطاب للرسول ومثله إنا كفيناك وفى كفايته كفاية أمته والواو لقريش ﴿ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى الأصنام أن تقتلك أو تخبلك لأنهم قالوا إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا لعيبك إياها ، وقيل نزلت حين أرسل خالد بن الوليد لكسر العزى فقال له سادنها أحذركها يا خالد فنزل تخويف خالد منزلة تخويفه عليه السلام لأنه الآمر له بما خوف عليه ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ ﴾ حتى غفل عن كفاية الله له وخوف النبى بما لا يضر ولا ينفع ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ إلى الرشاد ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ﴾ إذ لا راد لفعله كما قال ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ﴾ غالب على أمره منيع ﴿ ذِي انْتِقَامٍ ﴾ من أعدائه ؟ بلى ؛ فمالهم يخوفونك بعد علمهم بهذا ، ثم استدل على ذلك بقوله ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ لوضوح البرهان على تفرده بالخالقية ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ ﴾ تعبدون ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى الأصنام ﴿ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾ لا ﴿ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ ﴾ نفع ﴿ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ عنى؟ لا ، بالإضافة فى كاشفات وممسكات للجمهور والتنوين ونصب ما بعده لأبى عمرو وإنما أنث الضمير بعد قوله « بالذين من دونه » تحقيراً وتبعيداً عن رتبة الضرر والنفع لأن الأنوثه تنبئ عن الرخاوة والعجز وقدم الضر لأن دفعه أهم وأهون . روى أنهم لما تلى هذا عليهم سكتوا فنزل ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ أى كافٍ الله فى دفع الضر والإصابة بالخير ﴿ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ لعلمهم بأن الكل منه ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ حالتكم ﴿ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ على حالتى ، المكانة هى المكان استعير للحال استعارة محسوس لمعقول وقرأ أبو بكر بالجمع للتنويع وحذف من الثانى اختصاراً وإشارة إلى أن حاله لا تقف فإنه تعالى يزيده على مر الليالى والأيام قوة ونصراً ولذا توعدهم بكونه

منصوراً عليهم فى الدارين بقوله ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ فى الدنيا ، فخزى أعدائه دليل غلبته وقد أخزاهم الله يوم بدر ﴿ وَيَحِلُّ ﴾ ينزل ﴿ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ دائم فى الآخرة وهو عذاب النار ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ ﴾ لأجل نفعهم فى معاشهم ومعادهم ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ متعلق بأنزل أى ملتبساً بالتوحيد والدين الثابت ﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ﴾ اهتداؤه ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ فتجبرهم على الهدى و إنما أمرت بالإبلاغ وقد أبلغت ، ثم أشار إلى أن الإضلال والهداية كالإحياء والإماتة لا يقدر عليها غيره بقوله ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ يقبضها عن الأبدان ويمنعها التصرف فيها ظاهراً باطناً ﴿وَ﴾ يتوفى ﴿الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ بمنع التصرف ظاهراً لا باطناً ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾ الحقيقى ولا يردها إلى البدن ولحمزة والكسائى « قُضِىَ » على بناء المفعول ﴿ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ ﴾ أى النائمة إلى بدنها عند اليقظة ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ إلى وقت مضروب لموتها . عن ابن عباس : المرسلة نفس التمييز التى بها العقل تبقى بدونها نفس الحياة التى هى الروح بخلاف العكس فيتوفيان عند الموت ونفس التمييز فقط عند النوم وهى للروح كالشعاع للشمس هذا ما فى كتب التفسير ، لكن قال فى الجواهر : أكثرَ الناس فى هذه الآية فى الفرق بين النفس والروح ونفس التمييز ونفس الحياة إلى غير ذلك من الأقوال التى هى غلبة ظن وحقيقة الأمر فى هذا هى مما استأثر الله به وغيّبه عن عباده فقدنطقت الشريعة بقبض النفس فى هذه الآية وبقبض الروح فى حديث بلال الصحيح : « إن الله قبض أرواحنا حين شاء وردها علينا حين شاء » والظاهر أن الخوض فى هذا كله عناء . اه . والأولى هنا للإنسان أن يعتنى بأذكار من أراد النوم الواردة فى الصحيح كحديث جابر بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «إذا أوى الرجل إلى فراشه ابتدره ملك وشيطان فيقول الملك اختم بخير ويقول الشيطان اختم بشرّ ، فإن ذكر الله ثم نام بات الملك يكلؤه فإن استيقظ قال الملك افتح بخير . وقال الشيطان افتح بشر ؛ فإن قال الحمد لله الذى ردّ إلىّ نفسى ولم يمتها فى منامها الحمد لله الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفوراً « الحمد لله الذى يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم فإن وقع من سريره فمات دخل الجنة » . رواه النسائى والحاكم فى المستدرك وقال صحيح على شرط مسلم وزاد آخره الحمد لله الذى يحيى الموتى وهو على كل شىء قدير » وعن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من قال حين يأوى إلى فراشه « لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » غفرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر » رواه ابن حبان فى صحيحه وفى الترمذى عن أبى أمامة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أوى إلى فراشه طاهرا يذكر الله حتى يدركه النوم لم ينقلب ساعة من الليل يسأل الله شيئا من خير الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه » ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ المذكور ﴿ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيعلمون أن القادر على ذلك قادر على البعث والكفار لا يتفكرون ﴿ أَمِ ﴾ بل ﴿ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ آلهة ﴿ شُفَعَاءَ ﴾ تشفع لهم عند الله بزعمهم

﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ أ ﴾ يشفعون ﴿ وَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً ﴾ من الشفاعة وغيرها ﴿ وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ شيئا لأنهم جمادات لا تقدر ولا تعلم ﴿ قُلْ ﴾ ردًّا لما قالوا ﴿ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً ﴾ اختص بها لا يشفع أحد إلا بإذنه ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تقرير لذلك الاختصاص ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يوم القيامة فلا يدعى الملك فيه أحد ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ دون آلهتهم ﴿ اشْمَأَزَّتْ ﴾ نفرت وانقبضت من التوحيد من شمز همزته زائدة ﴿ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى الأصنام ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ فاجتنوا الاستبشار وامتلأوا سروراً حتى تنبسط بشرة وجوههم لفرط افتتانهم بها ونسيانهم حق الله تعالى ، وقد بالغ فى الأمرين حتى بين الغاية فيهما بذكر الاشمئزاز والاستبشار ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ ﴾ أى يا ألله ﴿ فَاطِرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ مبدعهما ﴿ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ ﴾ وحدك ﴿ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من التوحيد والشرك والحق والباطل أى لم يبق لك إلا الالتجاء إلى رب السماء بأن يحكم بينك وبينهم ، وفيه مبالغة فى بذله المجهود وبيان أنهم لفرط عنادهم لا يحكم بينهم وبينه إلا رب السماء ذو الأوصاف الدالة على كمال الاقتدار وإحاطة العلم ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا ﴾ ظهر ﴿ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ يظنون مبالغة فى الوعيد من العذاب الذى لم يخطر على قلب بشر ، وقيل من أعمال عملوها على أنها حسنات فإذا هى سيئات . قال الثورى : ويل لأهل الرياء من هذه الآية ، وفيه إقناط كلى ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ سيئات أعمالهم أو كسبهم حين عرضت الصحائف أو جزاؤها كقوله «وجزاء سيئة سيئة مثلها» ﴿ وَحَاقَ ﴾ نزل وأحاط ﴿ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى جزاؤه وهو العذاب ﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ﴾ لكشفه إخبار عن الجنس بما يغلب فيه عطف على قوله « وإذا ذكر الله وحده . . . الآية » فكان بالفاء لتسبيه عما قبله لبيان مناقضتهم فى التسبب كأنه قال : إذا ذكر الله وحده اشمأزوا فإذا مسهم ضر دعوا الله الذى كانوا يشمئزون من ذكر توحيده ونسوا ما كانوا يستبشرون بذكره وما بينهما اعتراض مؤكد لإنكار ذلك عليهم ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ ﴾ أعطيناه ﴿ نِعْمَةً ﴾ إنعاما تفضلا ﴿ مِنَّا ﴾ لأن التخويل عطاء بلا عوض ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ من الله بأنى له أهل أو علم منى بوجوه كسبه أو بأنى سأعطاه لما لى من استحقاقه وفيه عجب واغترار والضمير فى أوتيته عائد على ما إن كانت موصولة وإلا فعلى النعمة والتذكير لإرادة شىء منها أو إرادة المال ﴿ بَلْ هِيَ ﴾ أى القولة أو النعمة ﴿ فِتْنَةٌ ﴾ بلية يبتلى بها العبد ليمتاز الكافر من الشاكر ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن التخويل استدراج وامتحان ، فيه دليل على أن الإنسان للجنس ﴿ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم كقارون وقومه الراضين بها أو الذين قالوا نحن أكثر أموالا وأولادا ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من تلك الأموال ﴿ فَأَصَابَهُمْ ﴾ بعد المقالة عن قريب ﴿ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أى جزاؤها ﴿ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ بالعتو

(مِنْ هَٰؤُلَاءِ) أى قريش (سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا) كما أصاب أولئك وقد أصابهم ببدر (وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ) بفائتين الله (أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ) امتحانا (وَيَقْدِرُ) يضيقه لمن يشاء ابتلاء حيث بسط لهم الرزق ثم حبس عنهم المطر سبع سنين فيعلموا أن الكل بالمشيئة (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) أن الحوادث كلها من الله بواسطة أو غيرها . ولما شدد فى الوعيد أردفه بما يدل على رحمته الواسعة كل شىء السابقة غضبه بقوله (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ) بالمعاصى والظلم حاملين عليها (لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ) لا تيأسوا من مغفرته أولا وتفضله ثانيا (إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا) لمن تاب من الشرك (إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) بلا اشتراط توبة فيما عدا الشرك ولو بعد بُعد وتقييد الغفران بالتوبة خلاف الظاهر ويدل على إطلاقه فيما عدا الشرك المخرج فى قوله : « إن الله لا يغفر أن يشرك به » تعليله بقوله إنه بالضمير العائد إلى اسم الجلالة الدال على الألوهية المستلزمة للغنى المطلق وقوله هو الغفور الرحيم الدال على المبالغة والحصر والوعد بالرحمة بعد المغفرة وتقديم ما يستدعى عموم المغفرة بما فى عبادى الدال على الترحم والنهى عن القنوط مطلقا عن الرحمة فضلا عن المغفرة وإطلاقها والتأكيد بجميعاً . والله أعلم (وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ) توبوا إلى الله (وَأَسْلِمُوا) أخلصوا العمل (لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ) بمنعه إن لم تتوبوا لأن مغفرته لغير التائب ليست بلازمة ولا موعودة بل مظنونة إن سبقت بها مشيئة والعاقل يفر من مظان الآفة (وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ) هو القرآن لأنه أحسن الحديث أو ما هو أنجى وأسلم كالعزائم دون الرخص وكدوام الإنابة والمواظبة على الطاعة والانتهاء عن المعصية والعفو فى الأمور ومنى من ربكم المربى لكم بالإرشاد إلى الكمال (مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) بوقته قبل إتيانه . بادروا قبل (أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ) أوكراهة أن تقول نفس والتنكير للتكثير (يَا حَسْرَتَا) أصله حسرتى أى ندامتى (عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ) قصرت (فِي جَنْبِ اللَّهِ) طاعته مستعار من الجارحة لما يلزم الشىء (وَإِنْ) مخففة من الثقيلة أى وإنى (كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ) كأنه قال فرطت وأنا ساخر والواو للحال (أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي) بالاهتداء إلى الحق (لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) الشرك والمعاصى (أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً) رجعة إلى الدنيا (فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) فى العقيدة والعمل و « أو » للدلالة على أنه لا يخلو من هذه الأقوال تحيرا وتعللا بما لا طائل تحته ووجه هذا الترتيب أن النفس إذا رأت أهوال يوم القيامة تتحسر على التوبة ثم تتعلل بأن التقصير لم يكن منها ثم تتأمل فتحقق التقصير منها فتأخذ فى تمنى الرجوع ، فإذا تأملت هذا الترتيب علمت أن « أو » هنا مثل « أو » فى « أو كصيب » دالة على أن كل واحد يكفى صارفاً عن الكفر وداعيا إلى اتباع أحسن ما أنزل ثم رد الله تعالى قوله لو أن الله هدانى بقوله (بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي) القرآن وهى سبب الهداية (فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ) تكبرت عن الإيمان

بها ﴿وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وتذكير الخطاب على معنى الشخص وقرئ بالتأنيث للنفس ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ بنسبة الشريك والولد إليه ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ بما ينالهم من الشدة والجملة حال إذ الظاهر أن ترى من رؤية البصر واكتفى فيها بالضمير عن الواو ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ مأوى ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمان ولم يقل لهم إشعارا بالعلية والاستفهام للتقرير أى بلى ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ﴾ من جهنم ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك والمعاصى ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ بفلاحهم ونجاتهم أو مكان فوزهم من الجنة بأن يحملوا فيه ، والمفازة بالإفراد للجمهور والجمع للكوفيين غير حفص مفعلة من الفوز وتفسيرها بالنجاة تخصيصها بأهم أقسامه وبالسعادة والعمل الصالح إطلاق لها على السبب والباء للسببية صلة لينجى على جعل المفازة مصدرا ، والظرفية على جعله مكانا ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ استئناف لبيان الفوز على الوجه الأول وحال على الثانى ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من خير وشر وإيمان وكفر رجوع إلى التوحيد بعد توفية مقام الوعد والوعيد حقه ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ حافظ رقيب أو متصرف فيه كيف شاء ﴿لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مفاتيح خزائنهما من المطر والنبات وغيرهما وهى كناية عن قدرته وحفظه لها وفيها مزيد دلالة على الاختصاص لأن الخزائن لا يدخلها ولا يتصرف فيها إلا من بيده مفاتيحها وهى جمع مقليد أو مقلاد من قلدته إذا لزمته ، وقيل جميع إقليد معرب إكليد على الشذوذ كمذاكير جمع ذكر . وعن عثمان رضى الله عنه أنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن المقاليد فقال : « تفسيرها : لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده وأستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله هو الأول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير » والمعنى على هذا أن هذه الكلمات مفاتيح خير السموات والأرض من تكلم بها من المتقين أصابه ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ دلائل قدرته ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ المخصوصون بكمال الخسران لأن غيرهم له حظ من الرحمة والثواب وهذا متصل بقوله « وينجى الله الذين اتقوا . . . الخ » وما بينهما اعتراض للدلالة على أنه مهيمن على العباد مطلع على أفعالهم مجاز عليها وتغيير النظم للإشعار بأن العمدة فى فلاح المؤمنين فضل الله وفى خسران الكافرين أنفسهم ، والتصريح بالوعد والتعريض بالوعيد قضية الكرم أو متصل بقوله « له مقاليد . . . الخ » كأنه قال : والكافرون بما ذكرهم الخاسرون وهذا أحسن لقربه ﴿قُلْ أَ﴾ ترون هذه الدلائل ﴿فَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ﴾ أى أن أعبد وغير منصوب بأعبد المعمول لتأمرونى بنون واحدة لنافع وبنونين للإعراب والوقاية مع الفك لابن عامر وبإدغام الأولى فى الثانية للباقين . ﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ الأغبياء حيث قالوا للنبى استلم بعض آلهتنا نؤمن بإلهك ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ والله ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ كلام على سبيل الفرض فى الرسل لاتماظ المؤمنين وإقناط الكافرين والإشعار بالحكم فى كل أمة واللام الأولى موطئة للقسم والثانية لجواب القسم الدال على جواب الشرط ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ عطف على ليحبطن عملك من عطف المسبب على السبب

﴿ بَلِ اللَّهَ ﴾ وحده ﴿ فَاعْبُدْ ﴾ ردٌّ لما أمروه ﴿ وَكُن مِّنَ الشَّـٰكِرِينَ ﴾ إنعامه عليك وفيه إشارة إلى موجب الاختصاص ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ما عرفوه حق معرفته أو ماعظموه حق عظمته حين أشركوا به غيره وتقدم لهذا مزيد بيان فى سورة الأنعام ثم نبه على عظمته وكبريائه بقوله ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا ﴾ حال أى السبع أو جميع أبعاض الأرض البادية والغائرة ﴿ قَبْضَتُهُ ﴾ مقبوضة له فى ملكه وتصرفه والقبضة مرة من القبض ، أطلقت على المقبوض بالكف تسمية بالمصدر ﴿ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَالسَّمَـٰوَاتُ مَطْوِيَّـٰتٌ ﴾ مجموعات ﴿ بِيَمِينِهِ ﴾ بقدرته وكل هذا تنبيه على كمال قدرته وعظمته ودلالة على أن تخريب العالم أهون شىء عليه على طريقة التمثيل والتخييل من غير اعتبار القبضة واليمين حقيقة ولا مجازا كقولهم شابت لمة الليل وطريق التمثيل هو أخذ زبدة الكلام من غير التفات إلى معانى المفردات الحقيقية ولا المجازية بالنظر إلى الموصوف المجرى عليه وهو الله تعالى شأنه هنا بأن يراد كمال اقتداره وتحقير الأفعال العظام بالنسبة إلى قدرته ولا يقدم هذا فى استعمال المفردات فى أحد المعنيين لكن لم نلتفت إليه أخذاً لزبدة الكلام تأمله ، وفى البخارى عن ابن مسعود أن حبرا من أحبار اليهود قال : يا محمد إن الله تعالى يحمل السمٰوات على أصبع والأرضين على أصبع والشجر على أصبع والماء على أصبع والخلائق على أصبع فيقول أنا الملك فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قرأ الآية ﴿ سُبْحَـٰنَهُ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ معه من الجمادات . ولما بين أدلة التوحيد بضرب الأمثال فى طرق شتى حتى وضح الصبح لذى العينين شرع فى القيامة وأهوالها بقوله ﴿ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ ﴾ النفخة الأولى التى يموت بها كل الخلائق أو هى نفخة الصعق على ما تقدم ﴿ فَصَعِقَ ﴾ مات أو غشى عليه ﴿ مَن فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾ وتقدم الكلام فيه ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ ﴾ للبعث وتقدم الكلام فى الأخرى وعطف بثم لما روى أن بين النفختين أربعين يوما ﴿ فَإِذَا هُم ﴾ أى جميع الخلائق الموتى ﴿ قِيَامٌ ﴾ قائمون من قبورهم أو واقفون ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ يقلبون أبصارهم كالمبهوتين أو ينتظرون ما يفعل بهم فأول من يحيى بعد الصعق إسرافيل ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ ﴾ أضاءت ﴿ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ من العدل يومئذ استعير النور الذى هو الظاهر فى نفسه المظهر لغيره لأنه يزين البقاع ويظهر الحقوق كما سمى الظلم ظلمة فى حديث : « الظلم ظلمات يوم القيامة » العدل الذى يظهر كل حق ، ويدل على أن العدل هو المراد بالنور إضافته إلى اسمه الرب ثم إضافة اسمه إلى الأرض التى نشر العدل هو رونقها وعطف وضع الكتاب وما بعده عليه لأنها كلها تفاصيل العدل ملائمة له مع ختم الآية بنفى الظلم وقيل هو نور التجلى الجلالى والجمالى لفصل القضاء ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَـٰبُ ﴾ كتاب الأعمال للحساب واكتفى باسم الجنس عن الجمع ﴿ وَجِاىٓءَ بِالنَّبِيِّـۧنَ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ للأمم وعليهم من الملائكة والمؤمنين من أمة محمد يشهدون للرسل بالبلاغ أو من استشهد فى سبيل الله فإنهم كانوا حول العرش طائفين متقلدى السيوف يحضرون ذلك اليوم ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ ﴾ العدل ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ بنقص ثواب أو زيادة عقاب على

ما جرى به الوعد ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ أى جزاءه تقرير لما تقدم لأن القضاء بالحق لا يكون إلا كذلك ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فلا يحتاج إلى شاهد ولا يفوته شيء من أفعالهم. ثم فصل التوفية فقال ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعنف ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ أفواجا متفرقة بعضها فى إثر بعض بعد فصل القضاء على تفاوت أقدامهم فى الضلالة والشرارة تسوقهم الملائكة بالعنف عطاشا عيا، وزمرا جمع زمرة من الزمر وهو الصوت إذ الجماعة لا تخلو عنه ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِّحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ ليدخلوها جواب إذا وحتى هى التى تحكى بعدها الجمل، وقرأ الكوفيون بتخفيف التاء فى فتحت ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ توبيخا ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ من جنسكم: استفهام تقرير ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ القرآن وغيره ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أى لقاء ما فيه من الجزاء، وهذا دليل على أن لا تكليف قبل بعث الرسل ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أى علينا، وذكر المظهر للإشعار بالعلية والكلمة هى: لأملأن جهنم .. الآية ﴿قِيلَ﴾ لهم أبهم القائل لتهويل ما يقال لهم وهو ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ﴾ مقدرين الخلود ﴿فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ مثوى جهنم، واللام للجنس لأن كل من ستر الحق وأنكره فهو متكبر وفى الحديث التكبر هو الترفع على وعظ الحق ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ بلطف على مراكبهم تسوقهم الملائكة إسراعا بهم ﴿إِلَى الْجَنَّةِ﴾ دار الكرامة ﴿زُمَرًا﴾ طوائف على تفاوت مراتبهم فى الشرف: إذ منهم النبيون والشهداء والعلماء والزهاد ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا﴾ وجدوا مالا يوصف ولذا حذف الجواب ﴿وَفُتِّحَتْ﴾ بالتشديد والتخفيف كما مرّ ﴿أَبْوَابُهَا﴾ الواو للحال بتقدير «قد» أى وجدوها مفتوحة الأبواب قبل مجيئهم إكراما وإجلالا ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ لا يعتريكم بعده مكروه ﴿طِبْتُمْ﴾ طهرتم من دنس المعاصى: بالتوبة لبعض، وبالشفاعة لبعض، وبالتمحيص لبعض ويجوز أن يكون دعاء من الملائكة كما تقول لمن يكون مسرورا: طاب عيشك ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ مقدرين الخلود فيها ﴿وَقَالُوا﴾ عطف على الجواب المقدر ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ بالبعث والجنة ﴿وَأَوْرَثَنَا﴾ ملكنا ﴿الْأَرْضَ﴾ أى أرض الجنة التى ترابها مسك ﴿نَتَبَوَّأُ﴾ نتنزل ﴿مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ لغاية اتساعها ينزل كل منا فى أى مكان أراده ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ الجنة: من كلام الله، أو من كلامهم بعد الدخول ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ﴾ حال: محيطين ﴿مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ من كل جانب منه ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ حال من ضمير «حافين» ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ملتبسين به والمعنى ذاكرين فى طوافهم صفات جلاله وجماله ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ بين جميع الخلق ﴿بِالْحَقِّ﴾ بإدخال الكافرين النار والمؤمنين الجنة وبإقامة الملائكة فى مقاماتهم على حسب تفاضلهم ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على جزاء الكل بما يليق به، والقائل المؤمنون أو الملائكة.

[تم تفسير سورة الزمر]

سورة غافر
أو المؤمن

مكية ، إلا « الذين يجادلون ... » الآيتين ، خمس وثمانون آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ حمٓ ﴾ أماله ورش وأبو عمرو بينَ بين ، وابن عامر وحمزة والكسائى وأبو بكر صريحا ، وفخم الباقون . الله أعلم بمراده به ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ القرآن مبتدأ خبره ﴿ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ﴾ المنيع بسلطانه عن أن يتقوّل عليه متقوّل ﴿ ٱلْعَلِيمِ ﴾ بمن صدّق به وكذّب ، وفى الوصفين الإشارة إلى إعجاز الكتاب وشموله الحِكَمَ الدالة على القدرة والحكمة وأن من جحده جاهل مقهور ، وفيهما تهديد للكافرين وبشارة للمؤمنين ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ ﴾ ساتره للمؤمنين ﴿ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ ﴾ لهم إذا رجعوا إليه مصدر كالتوبة أو جمعها والإتيان بالواو للدلالة على جمع التائب بين غفران الذنوب وقبول التوبة ﴿ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ﴾ مشدده أو الشديد عقابه على المخالفين لحذف اللام للازدواج وأمن اللبس ، والثلاث صفات أخر لتحقق ما فيه من الترغيب والترهيب والإضافة فيها حقيقية على أنه لم يرد بها زمان مخصوص بل المراد ثبوتها ودوامها أو إبدال وجعل الأخير وحده بدلا مشوش للنظم ﴿ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾ الفضل الوافر على العارفين أو ذى الغنى عن الكل أو الإنعام بترك تعذيب المستحق وفى توحيد صفة العذاب مغمورا بصفات الرحمة دليل رجحانها لأنه وعيد بين وعدين ولن يغلب عُسْرٌ يسرين وعن أهل الإشارة غافر الذنب فضلا وقابل التوب وعدا شديد العقاب عدلا ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فيجب الإقبال الكلى على عبادته ﴿ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ المرجع للجزاء لا إلى غيره فلا يعبد غيره ، قال بعضهم غافر الذنب وقابل التوب فليرغب إليه ، شديد العقاب فليرهب ، ذى الطول فليشكر ، لا إله إلا هو فليقبل عليه ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ القرآن الذى هو تنزيل إله موصوف بالجلال والجمال بالطعن فيه وإدحاض الحق بالباطل ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ وأما الجدال فيه لإيضاح مشكله وإزاحة الشبه وتكثير الفوائد فهو شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم والراسخين فى العلم ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ للمعاش والرياش سالمين غانمين والفاء لسببية ما قبله أى إذا تبين أنهم كفار عند الله فلا ينبغى لأحد أن يلتفت إلى ما هم فيه من الدنيا فإنهم مأخوذون عما قريب أخذ من قبلهم كما قال ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ رسولهم كما كذبك هؤلاء ﴿ وَٱلْأَحْزَابُ ﴾ الذين تحزبوا على الرسل وناصبوهم العداوة ﴿ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ بعد قوم نوح كعاد وثمود وغيرهما ﴿ وَهَمَّتْ

كُلُّ أُمَّةٍ ﴾ من هؤلاء ﴿ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ قتلا أو أسرا أى ليتمكنوا منه فى ذلك ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ﴾ بما لا حقيقة له ﴿ لِيُدْحِضُوا ﴾ ليزيلوا ﴿ بِهِ الْحَقَّ ﴾ عن مقره وفى لفظ الحق إشارة إلى عدم إمكان إدحاضه ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾ بالإهلاك جزاء لهمهم فلم ينالوا ما راموه بل تسبب ذلك لهم جزاء مشاكلا لما هموا بالرسل ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ لهم تقرير فيه معنى التعجب والتعظيم وليس باستفهام عن كيفية وقوع الأمر ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ كما ثبت لهم العذاب المستأصل فى الدنيا ﴿ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ وعيده لأملأن جهنم أو قضاؤه ﴿ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى عليهم والظاهر لبيان العلة ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ بدل من كلمة ربك بدل الكل أو الاشتمال على إرادة اللفظ أو المعنى ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ مبتدأ وهم ثمانية يتجاوبون بصوت حسن فأربعة يقولون سبحانك وبحمدك على حلمك بعد علمك، وأربعة يقولون سبحانك وبحمدك على عفوك بعد قدرتك ، أرجلهم فى الأرض السفلى ورءوسهم فى العرش خاشعين لا يرفعون طرفهم ﴿ وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ عطف عليه وهم الكروبيون سادة الملائكة ، روى أن حول العرش سبعين ألف صف من الملائكة يطوفون به مهللين مكبرين ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام يهللون ويكبرون ومن ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا الأيمان على الشمائل ما منهم من أحد إلا وهو يسبح بما لا يسبح به الآخر كما قال ﴿ يُسَبِّحُونَ ﴾ خبر المبتدأ أى يذكرون الله بمجامع الثناء من صفات الجلال والإكرام ﴿ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ مع حمده أو ملابسين بالحمد يقولون سبحان الله وبحمده ، وجعل التسبيح أصلا والحمد حالا لأن الحمد مقتضى حالهم دون التسبيح ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ وبوحدانيته تعالى ذكر لإظهار شرف الإيمان وللدلالة على أن إيمانهم كإيمان غيرهم فى كونهما بالدليل والبرهان دون المشاهدة والعيان والمانع خارج عن الطريق السواء، قاله فى غاية الأمانى، يريد الرد على صاحب التقريب. والله أعلم ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ لأن حالهم كحالهم وفيه دليل على أن الاشتراك فى الإيمان يوجب النصيحة والشفقة وإن تباعدت الأماكن والأجناس وفيه بيان لإجمال قوله ويستغفرون لمن فى الأرض وتشريف المؤمنين وتعظيم الرجاء لهم بأن الملائكة الحاملين للعرش والذين حول العرش وهم أفضل الملائكة يستغفرون لهم قائلين ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ أى وسعت رحمتك وعلمك كل شىء وإنما أسند الفعل إلى صاحب الرحمة والعلم وأخرجا منصوبين على التمييز للإغراق فى وصفه بالرحمة والعلم والمبالغة فى عمومهما وتقديم الرحمة لأنها المقصودة بالذات هنا توسلوا برحمته الواسعة وعلمه الشامل لما طلبوا بقولهم ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ منهم من ذنوبهم ولا وجه لذكر الشرك هنا لتقدم ذكر المؤمنين ولأن التوبة عند الإطلاق تنصرف إلى التوبة من الذنوب ﴿ وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾ دين الإسلام أى الذين علمت ما ذكر منهم لأن رحمتك واسعة وعلمك محيط بما أخفوا وما أعلنوا وهما يقتضيان ذلك وفيه إشارة إلى طهارة المدعو لهم من كدر الرياء والهوى وفائدة الدعاء إظهار الشرف كما قدمنا ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾

تصريح بما علم ضمنا فإن المغفور له لا عذاب عليه للتأكيد والدلالة على شدة العذاب ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ﴾ إقامة ﴿ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ ﴾ إياها وأعادوا « ربنا » تلذذا بذكره وتذللا لعزته وتوسلا به إلى ماطلبوه ﴿ وَمَن صَلَحَ ﴾ آمن ﴿ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ و « مَنْ » عطف على « هم » الأول أى أدخلهم ومعهم هؤلاء ليتم سرورهم أو الثانى لبيان عموم الوعد ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ ﴾ الذى لا يمتنع عليه مقدور ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذى لا يفعل إلا ما تقتضيه حكمته ومن ذلك الوفاء بالوعد ﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ﴾ لأنها أسباب الجحيم أو جزاء السيئات فهو تعميم بعد تخصيص لأن عذاب الجحيم من ذلك الجزاء وعلى الأول سؤال للسبب بعد سؤال المسبب ﴿ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ ﴾ فى الدنيا أو فى الآخرة ﴿ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾ فى الآخرة ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ الذى ذكر من الوقاية والرحمة ﴿ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ لأنه ملك الأبد بعمل يسير ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ ﴾ يناديهم الملائكة خزنة النار يوم القيامة إذا دخلوا النار ومقتوا أنفسهم ﴿ لَمَقْتُ اللَّهِ ﴾ إياكم ﴿ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ الأمّارات بالسوء والمقت أشد البغض ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ ﴾ فى الدنيا ﴿ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ وإذ ظرف للمقت الأول ولا يمنعه فصل الخبر للاتساع فى الظروف والمعنى أن مقت الله لكم فى الدنيا حين دعاكم الرسل فكفرتم بالله وكذبتم الرسل أشد من مقتكم أنفسكم الآن ، وإيثار المضارع للدلالة على استمرار الرسل على الدعوة واستمرارهم على الكفر أو مقت الله يوم القيامة أكبر من مقتكم فيه وإذ تدعون تعليل للثانى وقيل ظرف منصوب بفعل دل عليه المقت أى يمقتكم ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ إماتتين عند خلقنا قبل نفخ الروح وبعد انقضاء آجالنا المشار إليه بقوله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴿ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ بعد نفخ الروح وبعد البعث ﴿ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ﴾ التى سببها الاغترار بالدنيا وإنكارنا البعث ﴿ فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ ﴾ من النار أى إلى نوع منه سريع أو بطىء ﴿ مِّن سَبِيلٍ ﴾ فنسلكه أم اليأس واقع دون ذلك وهو كلام لمن غلب عليه اليأس وتحير ولهذا أجيبوا بقوله ﴿ ذَٰلِكُم ﴾ العذاب الذى كنتم فيه ﴿ بِأَنَّهُ ﴾ بسبب أنه فى الدنيا ﴿ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ متوحدا أو يُوَحَّدُ وحده لحذف الفعل وأقيم مقامه فى الحالية ﴿ كَفَرْتُمْ ﴾ بالتوحيد ﴿ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾ بالإشراك مستمرين على ذلك الإيمان ﴿ فَالْحُكْمُ ﴾ اليوم فى تعذيبكم ﴿ لِلَّهِ ﴾ لا شريك له فيه وقد حكم عليكم بالعذاب السرمد ﴿ الْعَلِيِّ ﴾ عن أن يرد قضاؤه أو أن يشرك به ﴿ الْكَبِيرِ ﴾ سلطانه فلا يكون عذابه لمن كفر به إلا سرمدا لوقوع أفعاله على أتم الوجوه وهو اللائق بجبروته ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على التوحيد وسائر ما يجب أن يعلم تكميلا لنفوسكم أو آياته من الريح والسحاب والرعد والبرق والصواعق ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ﴾ أسباب رزق كالمطر الذى هو سبب معاشكم ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ ﴾ يتعظ ويعتبر بالآيات ﴿ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ يرجع عن الإنكار بالإقبال عليها والتفكر فيها لا المعاند ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ ﴾ اعبدوه ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ من الشرك والخطاب للنبيين تقريعا لهم

وتنشيطا أو سبب عن قوله «هو الذى يريكم» فيعم المؤمن والكافر «وما يتذكر إلا من ينيب» اعتراض لإفادة اختصاصه بالانتفاع بالآيات ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ إخلاصكم وشق عليهم ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ رافع درجات الثواب لعباده فى الجنة أو رافع السموات بعضها فوق بعض من رفعه ضد وضعه أو عظيم الصفات من رفع ككرم علا وشرف رفعة بالكسر خبر ثان لهو يدل على علو صمديته أو خبر لمحذوف أى الله رفيع الصفات ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ مالكه خبر ثالث للدلالة على عظمته والخبران يدلان على تفرده بالألوهية فإن من ارتفعت درجاته وكان العرش الذى هو أصل العالم الجسمانى فى قبضة قدرته لايصح أن يشرك به وكذا قوله ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾ الوحى الذى به الحياة الأبدية أو جبريل برسله ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ أى قوله بيان للوحى فالأمر هو الحث على الخير كفًا أو امتثالا لأن تلك الحياة إنما تكون بعد التخلى أو «من» للعلة أى من أجل أمره خبر رابع للدلالة على أن الروحانيات أيضا مسخرات لأمره والتمهيد للنبوة بعد تقرير التوحيد ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يختاره للنبوة ﴿لِيُنْذِرَ﴾ يخوف الله أو الملقى عليه الناس ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ بإثبات الياء وصلا لورش وابن كثير وقالون بخلاف عنه وحذفها للباقين: يوم القيامة لتلاقى أهل السماء والأرض والعابد والمعبود والظالم والمظلوم فيه ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾ بدل من الأول أى خارجون من قبورهم أو ظاهرون لا يسترهم شىء من جبل أو غيره حفاة عراة أو أعمالهم وسرائرهم لقوله «يوم تبلى السرائر» ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ من ذواتهم وصفاتهم وأعمالهم وأحوالهم وهو تقرير لقوله يوم هم بارزون ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ يقوله تعالى ثلاث مرات حين لا أحد يجيبه ثم يجيب نفسه بقوله ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ لخلقه بالموت أو هذا حكاية لما دل عليه ظاهر الحال فى ذلك اليوم من زوال الأسباب ثم أن حقيقتها ناطقة بذلك دائما وقيل ينادى مناد بذلك ويجيبه أهل المحشر بذلك والله أعلم وانتصب اليوم بما دل عليه الظرف أى لمن ثبت له الملك فى اليوم ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ إن خيرا فخيرا، وإن شرا فشرا نتيجة لما سبق ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ بنقص الثواب وزيادة العقاب ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لايشغله شأن عن شأن فيصل إليهم ما يستحقونه سريعا وكل هذا من نتائج تفرده بالملك فى ذلك اليوم والتقييد باليوم لانقطاع العلائق المجازية فيه ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ يوم القيامة من أزف الرحيل قرب أو اللحظة الآزفة وهى حال مشارفتهم دخول النار كقوله «فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا» ويبدل منه ﴿إِذِ الْقُلُوبُ﴾ ترتفع خوفا عن أماكنها فتصير ﴿لَدَى﴾ عند ﴿الْحَنَاجِرِ﴾ الحلوق فلا تعود فيتروحوا بالنفس ولا تخرج فيستريحوا ﴿كَاظِمِينَ﴾ ممتلئين غما أو ممسكين أنفاسهم لئلا تخرج مع قلوبهم حال من أصحاب القلوب على المعنى أو منها وجمعت كذلك لأن الكظم من أفعال العقلاء فعوملت معاملة أصحابها ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ﴾ الكافرين ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ قريب أو محب مشفق ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ يشفع، وضع الظاهر موضع الضمير دلالة على اختصاص ذلك بهم وأنه لظلمهم ولا مفهوم للوصف إذ لا شفيع لهم أصلا ﴿يَعْلَمُ﴾ الله ﴿خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ أى النظرة الخائنة كالثانية إلى غير

تحرّم أو استراق النظر إليه أو خيانة الأعين فهي صفة للنظرة أو مصدر كالعافية وجعله صفة الأعين لا يلائم . على ما قاله في غاية الأماني خلافا لأبي حيان في قوله من إضافة الصفة إلى الموصوف أي الأعين الخائنة . اهـ . قال في الجواهر : وهذه الآية عبارة عن علم الله تعالى بجميع الخفيات فمن ذلك كسر الجفون والغمز بالعين والنظرة التي تفهم معنى . اهـ . ويستعان على حفظ البصر باستحضار العلم أن نظر الله إليه سابق على نظره إلى ما ينظر إليه ﴿ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ من الضمائر والجملة من يعلم خبر خامس للدلالة على أن كل خفي متعلق العلم والجزاء ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴾ لأنه المالك الحاكم على الإطلاق فلا يقضي بشيء إلا وهو حقه ومع ذلك يجازي الحسنة بعشر والسيئة بمثلها وينصف المظلوم من الظالم إلى غير ذلك من أقضيته الحق والعدل ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ بالخطاب لنافع وهشام ، والغيبة للباقين أي يعبدون ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ وهم آلهتهم ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ فكيف يكونون شركاء الله : تهكم بهم ؛ لأن الجماد لا حراك له فضلا عن الحكم ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لأقوالهم ﴿الْبَصِيرُ﴾ بأفعالهم تقرير لعلمه بخيانة الأعين وقضائه بالحق ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون وتعريض بحال ما يدعون من دونه أنه لا يسمع ولا يبصر وإشارة إلى أن شرط القاضي أن يكون سميعا بصيرا ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ حين كذبوا الرسل أي قد ساروا ونظروا فما بالهم لا يعتبرون بهم ﴿ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ ﴾ بالغيبة للجمهور والخطاب لابن عامر ﴿قُوَّةً﴾ قدرة بالإفساد والإعداد وتمكنا وهم، فصل حقه أن يقع بين معرفتين إلا أن أفعل من شبيه المعرفة في عدم دخول أل عليه فأجرى مجراه ﴿وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ كالقلاع والمدائن الحصينة والقصور الرصينة أو المعنى أكثر آثاراً كقولك تقلدت سيفا ورمحا ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ فأهلكهم ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ من عذابه ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأخذ ﴿بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات الظاهرة والأحكام الواضحة ﴿ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ ﴾ متمكن مما يريده غاية التمكن ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لا يؤبه بعقاب دون عقابه وقد دل عليه تلك الآثار ، ولما ذكر أنه أهلك أشد منهم أردفه بأشهرهم عتوا وهو فرعون ، ودهاء وهو هامان ، ومالا وهو قارون فقال ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا ﴾ التسع ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ برهان ظاهر عطف باعتبار الصفات وأريد أشهرها كاليد البيضاء والعصى أفرد تفخيما لشأنه ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا﴾ موسى ﴿ سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ جعلوا أفعاله سحرا وأقواله كذبا وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبيان لعاقبة من هو أشد وأقرب إليهم زمانا ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ بالصدق ﴿ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ أي أعيدوا عليهم ما كنتم تفعلون بهم أولا من قتل الرجال أهل القوة وإبقاء النساء للخدمة والاسترقاق قالوه تخويفا لبني إسرائيل عن مظاهرة موسى ، وعن ابن عباس كان أمر أولا بالقتل خوفا من الولد الذي أخبر به الكهان فلما مضت تلك السنة رفع القتل ولما جاء موسى بالمعجزات أعاد القتل

تخويفا لبنى إسرائيل عن مظاهرته . ا هـ . قاله فى غاية الأمانى ، وقال فى الجواهر : هذا القتل الأخير لم تتم لهم فيه عزمة ولا أعانهم الله تعالى على شىء منه . ا هـ . قلت يدل عليه قوله ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ ضياع أى كيدهم وإيثار المظهر ليوسموا بالكفر ويقاس عليه كيد كل كافر فيعلم أن كيد قريش كذلك ، قال فى الجواهر : عبارة وجيزة تعطى أن الله لم يقدرهم على قتل أحد من بنى إسرائيل ولا نجحت لهم فيه سعاية . ا هـ . لكن فى مدارك التنزيل للنسفى يعنى أنهم باشروا قتلهم أولا فما أغنى عنهم ونفذ قضاء الله بإظهار من خافوا فما يغنى عنهم هذا القتل الثانى وكان فرعون قد كف عن قتل الولدان ثم أعاده عليهم غيظا وظنا منه أنه يصد بنى إسرائيل عن مظاهرة موسى عليه السلام وما علم أن كيده ضائع عليهم فى الكرتين جميعا . ا هـ ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ لملئه ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ كانوا يقولون لما رأوا خوفه من موسى ليس بالذى تخافه وما هو إلا ساحر وإذا قتلته أدخلت الشبهة على الناس واعتقدوا أنك عجزت عن معارضته بالحجة وتعلله بذلك مع أنه كان سفاكا للدماء فى أهون شىء فكيف بمن جاء يثل عرشه ويهدم ملكه دليل بأنه تيقن أن موسى رسول العزيز المقتدر وخاف أن لو هم بقتله أن يعاجله بالوبال ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ ليمنعه منى : تمويه منه بأنه لا يبالى بموسى وربه ﴿ إِنِّي أَخَافُ ﴾ إن لم أقتله ﴿ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ الذى شرعته لكم كان أمرهم باتخاذ أصنام وعبادتها ليتقربوا بها إليه وقال لهم أنا ربكم الأعلى ﴿ وَأَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ ما يفسد دنياكم من التهارج والتحارب وإبطال أسباب المعاش بالواو لنافع وابن كثير وابن عامر وأبى عمرو بقصد الجمع بين الأمرين وبأو للباقين على معنى الخوف من أحد الأمرين يعنى يظهر الفساد فى الأرض بالتقاتل الذى يذهب معه الأمن وتتعطل المزارع والمكاسب والمعايش فيهلك الناس قتلا وضياعا إن لم يقدر أن يبطل دينكم بالكلية وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص بضم ياء يظهر وكسر الهاء ونصب الفساد والباقون بفتحهما ورفع الفساد ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ ﴾ لقومه وقد سمع ذلك ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ عن الإذعان للحق فرعون وغيره ﴿ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ صدر الكلام بإن تأكيدا وإشعارا بأن السبب فى دفع الشر هو العياذ أى اللجأ إلى الله وخص اسم الرب لأن المطلوب هو الحفظ والتربية والرب يراعى أحوال مرباه وإضافته إليه وإليهم حث لهم على موافقته ولم يسم فرعون وذكر وصفا يعمه وغيره لتعميم الاستعانة والدلالة على الحال الحامل له على ذلك القول وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى عذت فيه وفى الدخان بالإدغام ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ ﴾ اسمه سمعان أو حزقيل صاحب سر فرعون قبطى وقيل إسرائيلى ، والأول أظهر لقوله ﴿ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ من أقاربه ابن عمه وقيل من يتعلق بقوله ﴿ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ ﴾ لأن يقول أو وقت أن يقول ﴿ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ وحده فتقصدون قتله من غير روية وتأمل فى أمره ﴿ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بالمعجزات الظاهرات على صدقه ﴿ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ أى فلا وجه لإنكاركم أنه رسول ربكم ثم تنزل معهم

وقال ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ أى ضرر كذبه لا يجاوزه ولا يصيبكم منه شيء ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ به من العذاب عاجلا لأنه وعدهم عذاب الدنيا والآخرة إن لم يؤمنوا وهذا من طريق التقسيم أى أنه لا يخلو من أن يكون كاذبا فلا يضركم كذبه أو صادقا فيصيبكم ما قال وفيه مبالغة فى التحذير وإظهار الإنصاف وعدم التعصب ولذا قدم كونه كاذبا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ متجاوزٌ للحدّ ﴿كَذَّابٌ﴾ يحتمل أنه ترجيح لجانب صدقه بأنه لو كان مسرفا كذابا لما عضده الله بالبينات أو أراد أنه إن كان مسرفا كذابا فسيضمحل أمره عن قريب فلاحاجة لكم إلى قتله ويحتمل أنه أراد المعنى الأول وخيل إليهم الثانى ليلين شكيمتهم ، والشكيمة : الأنفة ، وعرض به لفرعون بأنه مسرف كذاب لا يهديه الله إلى الصواب والنجاة ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ﴾ غالبين عالين ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مصر فلا تفسدوا أمركم بالتعرض لبأس الله بقتل رسوله ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ﴾ عذابه ﴿إِنْ جَاءَنَا﴾ أدخل نفسه معهم إكالا للنصح ليريهم أنه معهم فيما ينصح لهم أى لا ناصر لنا منه إن جاءنا لأجل قتل أوليائه ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ﴾ ما أشير عليكم ﴿إِلَّا مَا أَرَى﴾ من استصواب قتل موسى أو ما أعلمكم إلا ما علمت من الصواب ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ طريق الصواب ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ أى مثل أيام الأمم الماضية يعنى وقائعهم وأغنى عن جمع اليوم جمع الأحزاب مع تفسيرها فى قوله ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ مثل بدل من مثل قبله أى مثل جزاء عادتهم أى ما كانوا عليه دائبا من الكفر وإيذاء الرسل وسائر المعاصى ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ كقوم لوط من إهلاكهم فى الدنيا ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ فلا يعاقبهم بغير ذنب ولا يزيد كلا على قدر ما استحقه ولا يخلى الظالم منهم بغير انتقام وهو أبلغ من قوله « وما ربك بظلام للعبيد » من حيث أن المنفى فيه نفى تعلق إرادته بالظلم وإذا لم يرده فأحرى فعله ، ولما خوّفهم من عذاب الدنيا أردفه بتخويفهم من عذاب الآخرة بقوله ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِي﴾ بإثبات الياء وحذفها على ما تقدم من القراءات فى التلاق وهو يوم القيامة يكثر فيه نداء أصحاب الجنة أصحاب النار و بالعكس والنداء بالسعادة لأهلها والشقاوة لأهلها وغير ذلك ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ﴾ عن موقف الحساب ﴿مُدْبِرِينَ﴾ منصرفين إلى النار ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ من عذابه ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ مانع ودافع زيادة تهديد ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ مرشد تعريض بأنهم ختم على قلوبهم لما رآهم لا تلين قلوبهم بعد ذلك الإرشاد ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ﴾ أى قبل موسى وهو يوسف بن يعقوب عليهما السلام على الأصح على أن فرعون يوسف قد عاش إلى زمن موسى لأنه عمر أربعمائة سنة وأربعين سنة أو على نسبة أحوال الآباء إلى الابناء أو هو سبطه يوسف بن إبراهيم ابن يوسف ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات الظاهرات ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ من الدين ﴿حَتَّى

إِذَا هَلَكَ ﴾ مات ﴿ قُلْتُمْ ﴾ من غير برهان ﴿ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ ضما إلى تكذيب رسالته تكذيب رسالة من بعده أو قلتم بمعنى ظننتم أى أقمتم على كفركم وظننتم أنه لا يجدد عليكم إيجاب الحجة ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل إضلالكم ﴿ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ فى العصيان ﴿ مُرْتَابٌ ﴾ فى المعجزات بغلبة الوهم والانهماك فى التقليد ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ بدل من مَنْ لأنه فى معنى كل مسرف ﴿ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴾ بغير برهان بل بمجرد تقليد واتباع هوى وشبهة داحضة ﴿ كَبُرَ ﴾ جدالهم ﴿ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ويجوز جعل الذين مبتدأ بتقدير مضاف أى جدال الذين والخبر كبر أو بغير سلطان والضمير فى كبر يرجع إلى الجدال المفهوم من يجادلون أو إلى من لأن الموصول بعده بدل منه وأفرد من إعادة للفظه ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أى مثل إضلالهم ﴿ يَطْبَعُ اللَّهُ ﴾ بالضلال ﴿ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ بإضافة قلب إلى متكبر للجمهور وبتنوينه لأبى عمرو وابن ذكوان وما بعده صفته محل الكبر لكن متى تكبر القلب ثم تكبر صاحبه وبالعكس وكل على القراءتين لعموم الضلال جميع أجزاء ذلك القلب ثم أردف وصفه بالتكبر أفعاله الدالة عليه بقوله ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ راجعا إلى المخرقة لما أعيته الحيل فى مقاومة موسى تمويها على قومه أو جهلا منه ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي ﴾ بناء ﴿ صَرْحًا ﴾ عاليا ظاهرا لا يخفى على أحد وإن بَعُدَ من صرح الشىء ظهر ﴿ لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴾ الطرق ﴿ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ ﴾ بيان لها وفى إبهامها ثم إيضاحها تفخيم لشأنها وتشويق للسامع إلى معرفتها يعنى طرقها الموصلة إليها ﴿ فَأَطَّلِعَ ﴾ بالرفع للجمهور عطفا على أبلغ وبالنصب لحفص جوابا لـ « لعل » حملا للترجى على التمنى بجامع عدم التحقيق ﴿ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ أى أنظر إليه ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ ﴾ أى موسى ﴿ كَاذِبًا ﴾ فى أن له إلها غيرى ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أى مثل تزيين ما مرَّ به ﴿ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ جميعا والمزين هو الله تخلية ، أو الشيطان وسوسة ﴿ وَصَدَّ ﴾ فرعون الناس ﴿ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ طريق الهدى بالبناء للفاعل لنافع وابن كثير وابن عامر وأبى عمرو ، والمفعول للباقين والأول أوفق بالمقام لأن الحديث عن فرعون والسوق لعد مثالبه ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ خسار ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ ﴾ من آل فرعون ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ ﴾ بحذف الياء للجمهور وإثباتها لابن كثير وأبى عمرو وقالون على أصولهم المعروفة ﴿ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ وفيه تعريض شبيه بالتصريح أن ما عليه فرعون وقومه سبيل الغىّ أجمل أولا ثم فسر فقدح فى ما أدراه بإيراد الحجج لما لم يرعو فرعون عن غوايته بالإجمال صرح له بمعارضته أنه الدال على سبيل الرشاد دونه ثم شرع فى ذم الدنيا وتحقير متاعها ومدح الآخرة بقوله ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ﴾ شىء يتمتع به يسيرا فيزول ﴿ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ لخلودها ثم ذكر الأعمال سيئها وحسنها وعاقبة كل منها ليثبط عما يتلف وينشط لما يزلف بقوله ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ إن لم يعف عنها فلا مزيد على المثل عدلا من الله تعالى وفيه دليل على أن الجنايات تغرم بمثلها ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ﴾ لأنهما سيان فى جزاء الأعمال لا تفاضل

كما فى الدنيا ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إذ لا عبرة لعمل دونه ﴿فَأُولَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ بالبناء للفاعل للجمهور والمفعول لابن كثير وأبى عمرو وأبى بكر ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير وموازنة بالعمل بل أضعافا مضاعفة فضلا منه ورحمة ﴿وَيَـٰقَوْمِ مَا لِى أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَوٰةِ﴾ الجنة أى إلى أسبابها ﴿وَتَدْعُونَنِى إِلَى النَّارِ﴾ كرر نداءهم لما لاح له أنهم مستغرقون فى بحر الغفلة إيقاظا لهم واهتماما بالمنادى له ومبالغة فى توبيخهم على ما يقابلون به نصحه وأعاد الواو هنا دون قوله ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا . . إلى آخره لأنه بيان لما أجمل قبله لأن ذم الدنيا وتعظيم الآخرة هو عين الإرشاد وأما قوله «ومالى أدعوكم» فموازنة بين دعوته التى ثمرتها الجنة ودعوتهم التى ثمرتها النار فليس من تفسير الإرشاد ولذا عطف ليقتضى التغاير. والله أعلم . ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ بدل أو بيان من الأول فيه تعليل والدعاء كالهداية فى التعدية بإلى واللام ﴿وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِى بِهِ﴾ بربوبيته ﴿عِلْمٌ﴾ والمراد بنفى العلم نفى المعلوم كأنه قال ماليس بإله ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ﴾ الغالب على أمره ﴿الْغَفَّارِ﴾ لمن تاب المستجمع لصفات الألوهية من كمال القدرة والغلبة وما يتوقف عليه من العلم والإرادة والتمكن من المجازاة والقدرة على التعذيب والغفران ﴿لَا جَرَمَ﴾ حق وثبت «ولا» نفى ورد لما دعوه إليه وجرم فعل وفاعله أن ومابعده فى قوله ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِى إِلَيْهِ﴾ لأعبده ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ﴾ إلى نفسه قط لأنه جماد أو ليس له استجابة دعوة ﴿فِى الدُّنْيَا وَلَا فِى الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا﴾ مرجعنا ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ بالموت ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ﴾ بالإشراك والعصيان ﴿هُمْ أَصْحَـٰبُ النَّارِ﴾ ملازموها ملازمة المالك ملكه ﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ إذا عاينتم العذاب ﴿مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ من النصيحة ثم التجأ إلى الله فى دفع مكرهم لما بان لهم أنه على دين موسى بقوله ﴿وَأُفَوِّضُ﴾ أسلم ﴿أَمْرِى إِلَى اللَّهِ﴾ ليعصمنى من كل سوء ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ فيحرسهم أو يجازى كلا على حسب حاله جواب لتوعدهم المفهوم من قوله ﴿فَوَقَـٰهُ اللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا﴾ شدائد مكرهم قيل فر منهم فأمر فرعون بطلبه فوجدوه يصلى والوحوش حوله فهابوا ورجعوا وأخبروا فرعون فقتلهم وقيل أكل السباع بعضهم ورجع بعضهم هاربا فصلبهم فرعون ودخل المؤمن فى جماعة موسى وكان ممن نجا معه فى البحر ﴿وَحَاقَ﴾ نزل ﴿بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾ قومه معه ﴿سُوٓءُ الْعَذَابِ﴾ الغرق أو ﴿النَّارُ﴾ بدل منه أو خبر محذوف أو مبتدأ خبره ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ يحرقون بها من قولهم عرض الأسارى على السيف وذلك لأرواحهم كما روى ابن مسعود أن أرواحهم فى أجواف طير سود تعرض على النار ﴿غُدُوًّا﴾ غدوة ﴿وَعَشِيًّا﴾ وذكر الوقتين يحتمل التخصيص والتأبيد وفيه دليل على بقاء النفس وعذاب القبر هذا مادامت الدنيا ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ يقال ﴿أَدْخِلُوا﴾ بفتح الهمزة وكسر الخاء لنافع وحمزة والكسائى وحفص ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ أمر للملائكة بإدخالهم ﴿أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ النار وبضمهما للباقين وآل منادى حينئذ وعذاب جهنم أشد مما كانوا فيه ﴿وَ﴾ اذكر لقومك ﴿إِذْ يَتَحَاجُّونَ﴾ وقت تخاصم الكفار ﴿فِى النَّارِ﴾ لعلهم يرعوون ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَـٰٓؤُا﴾ الأتباع تفصيل

للحجاج ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا ﴾ هم الرؤساء ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً ﴾ جمع تابع كخدم وخادم أو ذوى تبع مصدر تبع بمعنى اتبع ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ ﴾ دافعون ﴿ عَنَّا نَصِيباً ﴾ جزءا ﴿ مِّنَ النَّارِ ﴾ ونصيبا مفعول لما دل عليه مغنون أو له على التضمين ﴿ قَالَ الَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ نحن وأنتم سواء فكيف تستغيثون بنا ولو قدرنا لاغنينا عن أنفسنا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ بإدخال أهل الجنة الجنة وأهل النار النار لا مبدل لحكمه ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِى النَّارِ ﴾ كلهم التابع والمتبوع لما أيس الاتباع من نصرة الرؤساء وأيسوا من الخروج ﴿ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴾ الموكلين بها وضع الظاهر موضع المضمر للتهويل بلفظ جهنم ﴿ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً ﴾ قدر يوم أو شيئاً ﴿ مِّنَ الْعَذَابِ . قَالُوا ﴾ أى الخزنة بعد مدة طويلة تهكما بهم وتوبيخا على إضاعة أوقات الدعاء ﴿ أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَٰتِ ﴾ المعجزات الظاهرات الدالات على صدقهم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴿ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ أتوا بها فكفرنا بهم ﴿ قَالُوا فَادْعُوا ﴾ أنتم فإنا لا نجترئ فيه إذ لا نقدر على الشفاعة إلا بشرط أن يكون المشفوع له مؤمنا ويؤذن لنا فى الشفاعة ﴿ وَمَا دُعَٰؤُا الْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ ضياع لا تأثير له وفيه إقناط لهم عن الإجابة ، ثم سلى رسوله ومن تبعه من المؤمنين بقوله ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾ بالحجة والظفر من الكفار ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴾ يوم القيامة يعنى ينصرهم فى الدارين والأشهاد جمع شاهد من يقوم يوم القيامة للشهادة على الناس من الملائكة والأنبياء والمؤمنين ، والتعبير عن يوم القيامة بيوم يقوم فيه الأشهاد للتهويل ولذا أبدل عنه ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ﴾ بالياء لنافع والكوفيين وبالتاء لغيرهم ﴿ الظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ عذرهم لو اعتذروا لكن لا يؤذن لهم فيعتذرون ﴿ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ الطرد عن رحمة الله ﴿ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴾ الآخرة أى شدة عذابها تقرير لعدم قبول المعذرة إذ من كان هذا حاله كيف يرجى قبول عذره ، ثم ذكر قصة موسى تسلية لرسولنا عليه السلام وتذكيراً للعرب بما كانت تسمع من أخبار موسى بقوله ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ ﴾ ما يهتدى به فى الدين من المعجزات والتوراة ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ من بعد موسى ﴿ الْكِتَٰبَ ﴾ التوراة يتصرفون فيه تصرف الوارث فى مال مورثه وفى ذكر الكتاب إشارة إلى أن ما عداه ذهب بذهابه عليه السلام وأن الكتاب كاف لقوله ﴿ هُدًى ﴾ هداية أو هاديا ﴿ وَذِكْرَىٰ ﴾ تذكرة أو مذكرا ﴿ لِأُولِى الْأَلْبَٰبِ ﴾ وانتصاب هدى وذكرى على المفعول له أو الحال وفيه بيان نصر المؤمنين فى الدنيا بالحجة بعد ذهاب الأنبياء ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ على أذى المشركين ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ ﴾ بنصر أوليائه ﴿ حَقٌّ ﴾ وأنت ومن تبعك منهم واستشهد بحال موسى وفرعون ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ ما يقع من خلاف الأولى بحالك ليُسْتَنَّ بك وأقبِلْ على أمر دينك والاهتمام بأمر العدا بالاستغفار فإنه كافيك فى النصر وإظهار الأمر ﴿ وَسَبِّحْ ﴾ صل ملتبسا ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِىِّ ﴾ هو من بعد الزوال ﴿ وَالْإِبْكَٰرِ ﴾ أى الصلوات الخمس أو دم على التسبيح

والتحميد لربك فى جميع الأوقات وذكر الوقتين لشرفهما وما قيل كان الواجب بمكة ركعتين بكرة وركعتين عشيا لا سند له مع أنه يوهم أن الخمس وجبت بالمدينة والإجماع أنها وجبت بمكة ليلة المعراج . قاله فى غاية الأمانى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِى ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَـٰهُمْ ﴾ عامّ فى كل مجادل مبطل وإن نزلت فى قريش أو أهل الكتاب ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ﴾ تعظم وهو إرادة التقدم والرياسة وأن لا يكون أحد فوقهم فلذا عادوك ودفعوا آيات الله خيفة أن تتقدمهم ويكونوا تحت أمرك ونهيك لأن النبوة تحتها كل ملك ورياسة لأنهم يرون أن التقدم لا يكون إلا لهم يطمعون فى العلو عليك ﴿مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ﴾ أى ببالغى موجب ذلك الكبر وهو ما تعلقت به إرادتهم من الرياسة ودفع الآيات ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ من شرهم ﴿ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لأقوالكم ﴿ ٱلْبَصِيرُ ﴾ بأفعالكم وأحوالكم ، ولما كانت مجادلتهم فى آيات الله مشتملة على إنكار البعث بل عليه مدارها استدل عليهم بقوله ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ابتداء ﴿ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ مرة ثانية وهى الإعادة فمن قدر على خلقها قدر على إعادة الناس ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ ﴾ أى الكفار ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك لفرط غفلتهم واتباعهم أهواءهم فهم كالأعمى ومن يعلمه كالبصير ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ الغافل والمتبصر ولا بد من ظهور تفاوتهم بعد البعث ﴿ وَ ﴾ لا ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ وهو المحسن ﴿ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ﴾ لا زائدة وعطفا على الأعمى والبصير لتغاير الوصفين أو للدلالة بالصراحة بعد التمثيل ﴿ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ بالياء للجمهور والتاء للكوفيين والضمير للناس أو أكثرهم وهم الكفار أى تذكرا قليلا يتذكرون وقليلا صفة مصدر محذوف و « ما » زائدة لتأكيد القلة ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ فى مجيئها أى لابد منه ليظهر تفاوت المحسن والمسىء ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بها لقصور نظرهم ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ﴾ عطف على الذين يجادلون عطف قصة على أخرى ﴿ ٱدْعُونِىٓ ﴾ اعبدونى ﴿ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ أثبكم بقرينة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى ﴾ ولما روى عن الثورى أنه قيل له : ادع الله فقال : إن ترك الذنوب هو الدعاء وقيل الدعاء والاستجابة على أصلهما وقوله « عن عبادتى » معناه عن دعائى لأن الغرض من العبادة الخضوع ولا شك أن ذلك فى الدعاء أظهر ﴿ سَيَدْخُلُونَ ﴾ بفتح الياء وضم الخاء للجمهور وبالعكس لابن كثير وأبى بكر ﴿ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ صاغرين ، وفى الجواهر فى قوله : « ادعونى أستجب لكم » تفضل ونعمة ووعد لأمة محمد صلى الله عليه وسلم بالإجابة عند الدعاء ، وفى الترمذى : ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها أو صرف عنه من السوء مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم . اهـ . لكن الله ضمن الإجابة فيما يختار للعبد لا فيما يختار العبد لنفسه وفى الوقت الذى يريد لا فى الوقت الذى يريده العبد كما فى الحكم لابن عطاء الله ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ ﴾ باردا مظلما يؤدى إلى ضعف الحركات وهدوء الحواس ﴿ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾ وتستريحوا ﴿ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ يبصر فيه أو به : أسند الإبصار إليه مجازا مبالغة ولذا عدل به

عن التعليل إلى الحال وأشير إلى العلة وهى ابتغاء الفضل رمزا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أى فضل لايوازيه فضل ولذا نكره وآثره على المفضل أو المتفضل ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ نعمة الله لجهلهم بالمنعم وإغفالهم مواقع النعم وتكرير الناس لإيقاع عدم الشكر على صريح اللفظ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الموصوف بصفات الألوهية ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أخبار مترادفة تخصص اللاحقة السابقة وتقررها أو كل بدل من سابقه إن جوز البدل من البدل وإلا فالكل من الأول وقدم «خالق» هنا وأخره فى الأنعام لأن خالقية كل شىء دليل توحيده وقد قدم فى الأنعام قوله «خلق كل شىء وهو بكل شىء عليم» فكان نتيجة المقدمتين لا إله إلا هو ثم أردفه بقوله خالق كل شىء على سبيل التقرير والتوكيد وهنا لم يتقدم مثله فكان حقه أن يقدم لتكون كلمة التوحيد نتيجة له . والله أعلم بأسرار كتابه ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تصرفون عن الإيمان مع قيام البرهان إنكار وتوبيخ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما أفكوا ﴿يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ عنادا عن الحق ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ تستقرون فيها أحياء وأمواتا ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ سقفا استدلال ثان بأفعال أخر مخصوصة ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ بأن خلقكم منتصبى القامة متناسبى الأعضاء ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ لذائذ الأنواع طعاما وشرابا وفاكهة ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وماسواه مربوب مفتقر بالذات معرض للزوال ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ المنفرد بالحياة الذاتية ومن عداه ميت أو فى صدد الموت ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إذ لا موجود يساويه أو يدانيه فى ذاته وصفاته ولأن كل من يعتريه الموت لا يصلح للألوهية ﴿فَٱدْعُوهُ﴾ اعبدوه وحده كما انفرد باستحقاق العبادة ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من الشرك والرياء قائلين ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ • قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ دلائل التوحيد النقلية والعقلية ﴿ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ ﴾ أنقاد وأخلص دينى ﴿ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وكل هذا إشارة إلى أنه لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه ثم أشار إلى بدو خلقهم بعد ما امتن عليهم بخلقهم فى أحسن الصور بقوله ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ الذى هو مادة أبيكم آدم أو مادة كل واحد منكم لما ورد أن النطفة تعجن بالتراب الذى يكون فيه مضجع الميت ثم أشار إلى الانقلابات البديعة الدالة على كمال الاقتدار بقوله ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ منى ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ دم غليظ ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ﴾ أى كل واحد منكم ﴿ طِفْلًا ﴾ أو المراد به الجنس بمعنى أطفالا ﴿ ثُمَّ ﴾ يبقيكم ﴿لِتَبْلُغُوٓا أَشُدَّكُمْ﴾ تكامل قوتكم من الثلاثين سنة إلى الأربعين ﴿ثُمَّ﴾ يبقيكم ﴿لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ بضم الشين لنافع وأبى عمرو وهشام وحفص وكسرها للباقين ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ﴾ أى قبل الشيوخة أو الأشد ، فعل ذلك بكم لتعيشوا ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ وقتا محدودا لموتكم ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما فى ذلك من العبر ودلائل التوحيد والحكم ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ أى القادر الذى ينقل النطفة من تلك الأطوار بعضها إلى بعض هو الذى شأنه الإحياء والإماتة ، ثم هون شأن ذلك بقوله ﴿فَإِذَا

قضى أمراً ﴾ أراد إيجاد شيء ﴿ فإنما يقول له كن فيكون ﴾ بلا احتياج إلى آلة تعمل، بضم النون للجمهور وفتحها لابن عامر بأن يوجد عقب الإرادة التي هي معنى القول المذكور ﴿ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله ﴾ القرآن ﴿ أنى يصرفون ﴾ كيف يصرفون عن الإيمان كرر ذم المجادلة لتعدد المجادل أو المجادل فيه من التوحيد والرسالة والبعث بفنون مختلفة من الأدلة ولما استوفى تلك الفنون ولم تؤثر فيهم عجب السامع من حالهم ﴿الذين كذبوا بالكتاب ﴾ القرآن أو بجنس الكتب السماوية ﴿ وبما أرسلنا به رسلنا ﴾ من التوحيد والبعث ﴿ فسوف يعلمون ﴾ جزاء تكذيبهم ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم ﴾ ظرف ليعلمون إذ المعنى على الاستقبال، والتعبير بلفظ المضي لتيقنه ﴿ والسلاسل ﴾ عطف على الأغلال فتكون في الأعناق أو مبتدأ خبره محذوف أي في أرجلهم أو خبره ﴿ يسحبون ﴾ يجرون بها وعلى الأول حال ﴿ في الحميم ﴾ الماء الشديد الحرارة ﴿ ثم في النار يسجرون ﴾ يوقدون ويحرقون من سجر التنور إذا ملأه بالوقود والمعنى ملئوا ناراً ظاهراً وباطناً ﴿ثم قيل لهم﴾ تبكيتا ﴿أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا ﴾ غابوا عنا وذلك قبل أن تقرن بهم آلهتهم أوضاعوا عنا فلم نجد ما كنا نتوقع منهم ﴿ بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً ﴾ لعدم غنائهم كأنهم ليسوا بشيء أو قالوه كذبا على أنفسهم كقولهم: والله ربنا ما كنا مشركين ثم أحضرت ﴿ كذلك ﴾ مثل ضلال آلهتهم عنهم ﴿يضل الله الكافرين﴾ في الدنيا عن طريق الحق ويقال لهم أيضا ﴿ذلكم ﴾ العذاب ﴿ بما كنتم تفرحون ﴾ فرح بطرو تكبر ﴿ في الأرض بغير الحق﴾ وهو الشرك والطغيان ﴿وبما كنتم تمرحون﴾ تتوسعون في الفرح بالنعم وفيه مع تفرحون الجناس اللاحق والعدول إلى الخطاب لكونه أبلغ في التقريع ﴿ ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين﴾ عن الحق جهنم ولم يقل مدخل المتكبرين للإعلام بالثواء أبدا ﴿ فاصبر ﴾ على أذاهم وجدالهم الباطل ﴿ إن وعد الله ﴾ بهلاك الكفار ونصرك ﴿ حق ﴾ كائن لامحالة ﴿ فإما نرينك ﴾ فيه إن شرطية مدغمة في ما الزائدة لتأكيد معنى الشرط أول الفعل والنون لتأكيد آخره ولذا لاتلحق النون مع إن وحدها ﴿بعض الذي نعدهم﴾ به من العذاب في حياتك وجواب الشرط محذوف أي فذلك ﴿أو نتوفينك﴾ قبل تعذيبهم ﴿ فإلينا يرجعون ﴾ في الآخرة فنعذبهم أشد العذاب جواب أو نتوفينك ويجوز أن يكون جوابا له وما عطف عليه بمعنى إن نعذبهم في حياتك أولم نعذبهم فإنا نعذبهم في الآخرة أشد العذاب لكن التأويل الأول أولى لأن مساق الكلام هنا لإنجاز الوعد بنصر النبي والمؤمنين فاقتضى تقدير الجزاء مستقلا تعجيلا للمسرة ولذا لما كان الكلام في الرعد في إيجاب تبليغه وأنه ليس عليه إلا ذاك كيف مادارت القضية لم يقدر للمعطوف والمعطوف عليه جزاء والله أعلم . ثم رد إنكارهم بعث الرسل بقوله ﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك﴾ وهم خمسة وعشرون رسولا ﴿ومنهم من لم نقصص عليك﴾ إذ روى أبو ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن عدتهم فقال: بعث الله مائة وعشرين ألف نبي

الرسل منهم ثمانية وثلاثة عشر وروى غير ذلك ثم أجاب عن اقتراحهم الآيات بقوله ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ ﴾ منهم ﴿ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ فالمعجزات عطايا قسمها الله بينهم على ما اقتضت حكمته كسائر القسم ليس لهم اختيار فى إيثار بعضها والاستبداد بإتيان مقترحها ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ بالعذاب فى الدنيا أو فى الآخرة ﴿ قُضِيَ بِالْحَقِّ ﴾ بين الرسل ومكذبيها بإنجاء المحق وتعذيب المبطل ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ المعاندون باقتراح الآيات بعد ظهور ما يغنيهم عنها أى ظهر خسرانهم للناس وهم خاسرون فى كل وقت قبل ذلك ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ ﴾ الإبل والبقر والغنم ﴿ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا ﴾ من بعضها ما يصلح للركوب من الإبل والبقر وقيل البقر لا تركب ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ مما ذكر من جميعها ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ أخر من الدر والنسل والوبر والصوف والجلود ﴿ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ﴾ هى حمل الأثقال إلى البلاد ﴿ وَعَلَيْهَا ﴾ فى البر ﴿ وَعَلَى الْفُلْكِ ﴾ فى البحر ﴿ تُحْمَلُونَ ﴾ وإنما قال على الفلك دون فى الفلك للمزاوجة وتغيير النظم فى الجمل الأربع لأن الركوب وبلوغ الحاجة قد يكون فى مهم دينى واجب أو مندوب بخلاف الأكل وسائر الإيضاعات فكانا أولى بدخول اللام الدال على العلية وقيل فرقاً بين العين والمنفعة وإنما جعلا مكتنفين بما خلا عنه إشارة إلى قصوره عنهما ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على كمال قدرته وفرط رحمته ﴿ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ أى أىّ آية من تلك الآيات ﴿ تُنْكِرُونَ ﴾ فإنها لظهورها لا تقبل الإنكار وهو ناصب أى وإنما لم يقل أية لأن التفرقة فى غير الصفات بالتاء نادر وفى أى لإبهامه أندر والاستفهام للتوبيخ ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ ﴾ عدداً ﴿ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾ بدناً ﴿ وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ ما بقى من القصور والمصانع أو آثار أقدامهم فى الأرض لعظمهم لكن هذا الاحتمال بعيد ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ «ما» الأولى نافية أو استفهامية منصوبة المحل بأغنى والثانية موصولة أو مصدرية مرفوعة على الفاعلية به أى مكسوبهم أو كسبهم ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بالمعجزات أو الآيات الواضحات ﴿ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ واستحقروا علم الرسل علم الديانات والمراد بعلمهم العلم بأمور الدنيا وأسباب المعاش وشبههم الداحضة أو سمى جهلهم المفرط علماً تهكما أو المعنى فرح الكفار بما عند الرسل من العلم فرح ضحك واستهزاء ويدل عليه ﴿ وَحَاقَ ﴾ نزل ﴿ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى العذاب وقيل الفرح للرسل فإنهم لما رأوا تمادى الكفار على جهلهم فرحوا بما أوتوا من العلم شكراً لله عليه ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ شدة عذابنا ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ من الأصنام ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ لفوات وقته . الوجه فى ترتيب الفاءات أن قوله « فما أغنى » نتيجة ما كانوا فيه من التكاثر بالأموال والأولاد ، وقوله «فلما جاءتهم رسلهم» إلى قوله «وحاق بهم» إيضاح لذلك المجمل وكيف انقلب الحال بهم إلى عكس ما أملوه ، وقوله « فلما رأوا بأسنا » مرتب على قوله « فلما جاءتهم »

تابع له كأنه قال فلما جاءتهم رسلهم كفروا فلما رأوا بأسنا آمنوا ، إلا أنه فصل ذلك الكفر المشتمل على سوء معاملة الرسل وكفران أعظم نعم الله وكذلك فلم يك ينفعهم مع الإيمان ﴿ سُنَّتَ اللَّهِ ﴾ نصب على المصدر بفعل مقدر من لفظه ﴿ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ﴾ في الأمم أن العذاب نازل بمكذبي الرسل وأن لا ينفعهم الإيمان وقت نزول العذاب ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ تقدم مثله وهنالك اسم مكان استعير لزمان نزول العذاب ، والله أعلم .

[تم تفسير سورة غافر]

سورة فصلت أو السجدة
مكية ـ ثلاث أو أربع وخمسون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۞ حم ﴾ الله أعلم بمراده به ﴿ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ مبتدأ خبره ﴿ كِتَابٌ ﴾ لتخصيصه بالصفة وفيه دلالة على أنه مناط المصالح الدينية والدنيوية ﴿ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ أى بينت بالأحكام والقصص والمواعظ أو جعلت تفاصيل فى معان مختلفة من أحكام وأمثال ومواعظ ووعد ووعيد أو فصلت باختلاف الفواصل ولم ترجع إلى واحدة كالقوافى فى الشعر والسجع . روى أن عتبة بن ربيعة ذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليرجعه عن مخالفة قومه فذكر له ما ذكر فلما فرغ قال له النبي صلى الله عليه وسلم : اسمع منى « بسم الله الرحمن الرحيم ۞ حم ۞ تنزيل من الرحمن الرحيم .. إلى قوله : فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » فأرعد عتبة وناشد النبي بالرحم أن يمسك وقال حين رجع إلى قريش : والله لقد سمعت منه شيئاً ما هو بشعر ولا سحر ولا كهانة ولقد ظننت أن صاعقة العذاب على رأسى ، قالوا : سحرك أبا الوليد ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ حال من كتاب بصفته أو نصب على المدح وفى كونه عربياً امتنان بسهولة تلاوته وفهم معناه لأنه أفصح اللغات ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ العربية أو لأهل العلم والنظر وهو صفة أخرى لقرآناً أو صلة لتنزيل أو لفصلت والأول أولى لوقوعه بين

الصفات ﴿ بَشِيرًا ﴾ للعاملين به ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ للمخالفين له ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ عن تدبره وقبوله فأنكروا إعجازه ولم يقبلوا بشائره ونذره ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ سماع تأمل وطاعة ولا يذعنون له مع العلم أنه الحق ﴿ وَقَالُوا ﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ ﴾ أغطية ﴿ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ من التوحيد ﴿ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ صمم وأصله الثقل جمعوا بين الإعراض وهذا القول مبالغة فى الإنكار ﴿ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ يمنع من التواصل وهو الخلاف فى الدين و « من » للدلالة على أن الحجاب مبتدأ منهم ومنه بحيث استوعب المسافة المتوسطة ولم يبق فراغ لكن بينهم جبل ونحوه فلا تراءى ولا تلاقى تمثيلات لنبوّهم عما جاء به وامتناع موافقتهم له ﴿ فَاعْمَلْ ﴾ على دينك أو إبطال أمرنا ﴿ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ على ديننا أو فى إبطال أمرك ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ فكيف لا تفهمون كلامى ﴿ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا ﴾ على هذا التوحيد والإخلاص متوجهين ﴿ إِلَيْهِ ﴾ وهذا الذى دعوتكم إليه لا تنبو عنه العقول والأسماع فقد دل عليه العقل والنقل ﴿ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ عما أنتم عليه من سوء العقد والعمل من عبادة الجماد ثم هددهم على ذلك فقال ﴿ وَوَيْلٌ ﴾ كلمة عذاب ﴿ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ باستخفافهم حق الله ﴿ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ للشح وعدم الإشفاق على الخلق توكيد للأمر بالاستقامة وترغيب فيه وترهيب عن الشرك ، وتخصيص الزكاة من بين سائر الأعمال لأنها شقيقة الروح ومعيار على الإيمان المستكن فى القلب وقيل المراد ما يزكيهم من الطاعة والظاهر الأول ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ ﴾ تأكيد ﴿ كَافِرُونَ ﴾ حال مشعرة بأن امتناعهم عن الزكاة لاستغراقهم فى طلب الدنيا وإنكارهم الآخرة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ مقطوع أو لا يمن به عليهم ، وقيل نزلت الآية فى المرضى والزمنى والهرمى فإنه يكتب لهم من الأجر على قدر الطاعة حالة العافية ولا يقطع من ذلك شىء . ولما قرر أدلة التوحيد وأمر بالاستقامة أنكر على من يعلم منه هذه الصفات ثم يعدل إلى عبادة غيره بقوله ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ ﴾ بعد هذه الأدلة ﴿ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ الأحد والاثنين ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ﴾ شركاء ولا يصح أن يكون له ندٌّ واحد ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الذى خلق الأرض فى يومين ﴿ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ كلها أى مالكها ومربيها ﴿ وَجَعَلَ ﴾ مستأنف غير معطوف على « خلق » للفصل بما هو خارج عن الصلة ﴿ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالا ثوابت فى مقدار يوم الثلاثاء ﴿ مِنْ فَوْقِهَا ﴾ مرتفعة عليها ليظهر للناظر ما فيها من وجوه الاستبصار وتكون منافعها معرضة للطلاب ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا ﴾ أكثر خيرها بأن جعلها منابع المياه ومنابت الأشجار ومرابع الحيوان ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ أقوات أهلها بأن عين لكل نوع ما يعيش به أو خص كل قطر بنوع من الأقوات لجعل فى كل بلد وفى كل قطر ما ليس فى الآخر ليحتاج بعضهم إلى بعض تحسينا للنظام وكل هذا فى مقدار يوم الأربعاء ولذا قال ﴿ فِي ﴾ تمام ﴿ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ ولم يقل فى يومين للإشعار باتصالها لليومين الأولين والتصريح على الفذلكة ﴿ سَوَاءً ﴾ منصوب على المصدر أى استوت الأربعة مع

ماخلق فيها استواء لا يزيد ولا ينقص أو على الحال بمعنى كوامل مستوية (لِلسَّائِلِينَ) عن خلق الأرض بما فيها متعلق بمحذوف أي هذا الحصر أو بقدر فيها أقواتها ومعنى السائلين على هذا الطالبون لتلك الأقوات المحتاجون إليها من البشر فهم في حكم من سألها الحاجة إليها (ثُمَّ اسْتَوَىٰ) قصد (إِلَى السَّمَاءِ) إلى خلقها (وَهِيَ دُخَانٌ) أي مادتها بخار مرتفع من الماء الذي كان عليه العرش فركبت منه من قولهم استوى إلى مكان كذا توجه إليه توجها لا يلوى على غيره . وعن ابن عباس : أول ما خلق الله جوهرة أذابها بهيبته فصارت ماء فسلط الريح عليه فارتفع منه دخان واجتمع زبدة فوق الماء فجعل الزبدة أرضا والدخان سماء . اهـ . وثم لتفاوت ما بين الخلقتين لا للتراخي في المدة لقوله : « والأرض بعد ذلك دحاها » ودحوها متقدم على خلق الجبال من فوقها والأقوات فيها وقيل ثم على بابها من التراخي زمانا وخلق السماء متأخر عن خلق الأرض ودحوها ، وقوله : «دحاها» ليس حالا لقوله «بعد ذلك» بل هو جملة مستأنفة وهذا التأويل أولى . والله أعلم (فَقَالَ) فيه حذف أي فأوجدها وأكملها فقال (لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا) أبرزا ما أودعتما من الأوضاع المختلفة والكائنات المتنوعة أو لا حذف فالمعنى تكوّنا على أن معنى الخلق أولا التقدير والكلام على التمثيل مثل حالها في سرعة التكون على وفق الإرادة ومقتضى الحكمة بحال المأمور المطيع المبادر إلى امتثال الأمر المطاع (طَوْعًا أَوْ كَرْهًا) في موضع الحال أي طائعتين أو مكرهتين مثل لزوم تأثير قدرته فيهما وامتناع عدم حصول ما أريد منهما والمقصود تصوير كمال عظمته وكبريائه وعدم تخلف مراده في شيء لا إثبات الطوع والكره منهما (قَالَتَا أَتَيْنَا) بمن فينا (طَائِعِينَ) منقادين بالذات فيه تغليب المذكر العاقل أو نزلنا لخطابهما منزلته (فَقَضَاهُنَّ) الضمير للسماء على المعنى أو لمبهم فسر بقوله (سَبْعَ سَمَاوَاتٍ) حال أو تمييز (فِي يَوْمَيْنِ) الخميس خلق فيه السموات والجمعة خلق فيه الشمس والقمر والنجوم وفرغ من خلق العالم العلوي والسفلي في آخر ساعة منه وفيها خلق آدم وفيها تقوم الساعة ، ولذلك لم يقل هناك سواء لعدم كمال اليومين وظهرت بذلك فائدة قوله في أربعة أيام سواء . وفي ما هنا تفصيل ما أجمل في آيات خلق السموات والأرض في ستة أيام (وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا) الذي أمر به من فيها من الطاعة والعبادة (وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ) بنجوم ترى تلألأ عليها (وَحِفْظًا) منصوب بفعله المقدر أي حفظناها من الآفات أو من المسترقة حفظا أو مفعول له كأنه قال وخصصنا السماء الدنيا بمصابيح زينة وحفظا (ذَٰلِكَ) المذكور (تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ) صنع الله البالغ في القدرة الغالب على كل شيء (الْعَلِيمِ) بكل شيء (فَإِنْ أَعْرَضُوا) أي كفار مكة عن الإيمان بعد هذا البيان (فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ) خوفتكم (صَاعِقَةً) عذابا شديد الوقع كأنه صاعقة وهي رعد معه نار (مِثْلَ صَاعِقَةِ) عذاب (عَادٍ وَثَمُودَ) فتهلكون كما هلكوا (إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ) حال من صاعقة عاد ولا يجوز جعله صفة لصاعقة أو ظرفا لأنذرتكم لفساد المعنى (مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ) من كل جانب واجتهدوا في كل حيلة أو

بتحذير ما وقع فى الأمم الماضية وبعذاب الآخرة أو دعوهم إلى الإيمان بما جاء به من تقدم من الرسل ومن يأتى إذ أخبرهم هود وصالح أخبار المتقدمين والمتأخرين داعين إلى الإيمان بهم أجمعين ، ويحتمل أن يكون عبارة عن الكثرة كما فى قوله « يأتيها رزقها رغداً من كل مكان » ﴿ أَنْ ﴾ بأن ﴿ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا ﴾ إرسال الرسل ﴿ لَأَنْزَلَ ﴾ علينا ﴿ مَلَائِكَةً ﴾ برسالته ﴿ فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ على زعمكم ﴿ كَافِرُونَ ﴾ إذ أنتم بشر لا فضل لكم علينا والخطاب لهود وصالح ولمن دعوهم إلى الإيمان به من سائر الرسل . ثم بيَّن ما ذكر من صاعقة عاد وثمود بقوله ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ تعظموا فيها على أهلها واستولوا عليها ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ بغير استحقاق التعظم لأنهم تعظموا بالقوة وعظم الأجرام والاستيلاء على الأرض بغير استحقاق للولاية : ذكر أولا كفرهم ثم بين ما خص كل طائفة ﴿ وَقَالُوا ﴾ لما خوّفوا بالعذاب ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ أى لا أحد ، كان الواحد منهم يقلع الصخرة العظيمة من الجبل يحملها حيث شاء فاغتروا بذلك ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ يعلموا ﴿ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ إذ هم لا يقدرون على خلق شىء والله قادر بالذات على ما لا يتناهى وهم قادرون على بعض الأشياء بإقداره ﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ يعرفون أنها حق وينكرونها عناداً ، وهو عطف على « فاستكبروا » ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ باردة تهلك بشدة بردها من الصر وهو البرد الذى يصر أى يجمع ويقبض أو شديدة الصوت فى هبوبها من الصرير ﴿ فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ ﴾ بسكون الحاء لنافع وابن كثير وأبى عمرو وبكسرها للباقين أى مشئومات عليهم لا علينا فلا شؤم لنا فى كل يوم وهى الثمانية فى قوله تعالى « سبع ليال وثمانية أيام » وكانت آخر شوال من الأربعاء إلى الأربعاء وما عذب قوم إلا فى يوم الأربعاء والناس يكرهون السفر يوم الأربعاء الذى لا يتكرر فى الشهر لذلك ، ويقولون من سافر فيه لا يرجع سالماً وهو كذبٌ منهم بل يوم الأربعاء يوم مبارك قاله ابن العربى ، ثم قال : وقد عين قوم أياماً من الأشهر الشمسية ادعوا فيها الكراهة ولا يحل لمسلم أن يشغل بذلك والله حسيبهم . اهـ ﴿ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ ﴾ الذل : أضاف العذاب إليه على قصد وصفه به وهو فى الأصل صفة المعذب وصف به العذاب على الإسناد المجازى للمبالغة كأن الخزى سرى من المعذب إلى العذاب ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى ﴾ أشد ذلا لكونه أشد وأعم ﴿ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ بدفع العذاب عنهم ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ بينا لهم طريق الهدى بنصب الحجج وإرسال الرسل ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى ﴾ اختاروا الضلالة والكفر ﴿ عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ ﴾ من السماء فأهلكتهم وإضافتها للعذاب ووصفه بـ ﴿ الْهُونِ ﴾ للمبالغة أو الهون بدل منه والهون هو الهوان : المراد العذاب المهين ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من الكفر ﴿ وَنَجَّيْنَا ﴾ منها ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ الله ، ثم بيّن عذاب الكفار فى الآخرة بعد ذكر عذاب الدنيا بقوله ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ﴾ بالنون لنافع وبالياء مبنياً للمفعول للباقين ﴿ أَعْدَاءَ اللَّهِ ﴾ من الأولين والآخرين

(إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) يحبس أولهم على آخرهم لئلا يتفرقوا وهى عبارة عن كثرة أهل النار (حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا) إذا ماحضروها و « ما » مزيدة لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور (شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وذلك حين يجحدون كفرهم وينكرون الشهداء عليهم ويقولون لا نقبل شاهداً إلا من أنفسنا فينطق الله أعضاءهم بما عملوا (وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا) خاطبوا الجلود وحدها لشمولها سائر الأعضاء سؤال تعجب وتوبيخ (قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ) أراد نطقه ولم يكن النطق باختيارنا (وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) للجزاء فلا عجب منه إذا أنطقنا ويحتمل أن يكون استئنافاً من كلام الله تعالى كالذى فى قوله (وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ) أى ما كان استتاركم عند ارتكاب الفواحش خيفة من (أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ) لأنكم منكرون للبعث (وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ) أى لكن كان استتاركم بالحجب عند ارتكاب الفواحش خوفاً من الفضيحة عند الناس لا عند الله لأنكم ظننتم (أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ) من خفيات أموركم فلذلك اجترأتم على ما فعلتم (وَذَلِكُمْ) الظن مبتدأ (ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ) خبر أو بدل من المبتدإ والخبر هو قوله (أَرْدَاكُمْ) أهلككم أى ما أهلككم إلا ذلك الظن الكاذب (فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) داخلين فى زمرة الكاملين فى الخسران ، وعلى العاقل أن يكون فى خلواته أشد حياء من الله وأوفر تحفظاً لعلمه بأنه لم يزل عليه منه تعالى عين كالئة ورقيب مهيمن (فَإِنْ يَصْبِرُوا) على العذاب (فَالنَّارُ مَثْوًى) مَنزلٌ (لَهُمْ) يقاسون حرها وإحراقها لا خلاص لهم منها (وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا) يسألوا العتبى أى الرضى عنهم والرجوع إلى ما يحبون (فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ) المجابين إليها أى لايعطون الرضى والعدول إلى الاسمية مبالغة لإخراجهم عن زمرة المعتبين (وَقَيَّضْنَا) سببنا (لَهُمْ قُرَنَاءَ) من الشياطين يستولون عليهم استيلاء القيض على البيض وهو قشره وقيل أصل القيض : البدل ومنه المقايضة للمعاوضة قاله البيضاوى . وقال صاحب غاية الأمانى : أصل القيض المساواة يقال ثوبان قيضان إذا كانا متكافئين ومنه القيض لقشرة البيض لأنها بقدره وكذا المقايضة لتقدير تساوى الثمن فى البدلين . اهـ . (فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) من أمر الدنيا واتباع الشهوات (وَمَا خَلْفَهُمْ) من أمر الآخرة بقولهم لا بعث ولا حساب أو ما تقدم من قبائحهم وما هم عازمون عليه فى المستقبل (وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) بالعذاب وهو « لأملأن جهنم .. الآية » (فِي) جملة (أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ) عملوا مثل أعمالهم ليكونوا فى العذاب قرناء كما كانوا على العصيان فى الدنيا أخلاء وأحباء (إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ) تعليل لاستحقاق العذاب وإشارة إلى أن ما تقدم نتيجة هذا الخسران والضمير لكفار مكة ومن تقدمهم من الأمم (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا) حين علموا فصاحة القرآن وحلاوته وأن من سمعه وتأمله أيقن أنه من عند الله فآمن (لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ) عارضوه بالخرافات وارفعوا أصواتكم لئلا يفهمهم

ولتشوشوا على القارئ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ قارئه على قراءته فيسكت عنها قال تعالى فيهم ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ وإيقاع الكفر صلة إشارة إلى علة العذاب فيعم هؤلاء اللاغين وغيرهم ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أقبح جزاء عملهم ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى أسوإ الجزاء ﴿ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ﴾ عطف بيان لجزاء الخبر به عن ذلك أو خبر محذوف ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ﴾ الإقامة التي لا انتقال منها وفيه من أنواع البديع التجريد ﴿ جَزَاءً ﴾ منصوب على المصدر بفعله المقدر ﴿ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ يكذبون بها عناداً أو يلغون وذكر الجحود لأنه سبب اللغو ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ في النار ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ إبليس وقابيل سنّا الكفر والقتل ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾ ندوسهما في النار انتقاماً منهما كقوله « هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً » ﴿ لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ ليكونا أشد عذاباً منا لكونهما أشد كفراً للضلال والإضلال ، وقيل المراد شيطانا النوعين الحاملان على الضلالة والعصيان لأن الشيطان جني وإنسي ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ اعترافاً بربوبيته وإقراراً بوحدانيته ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ على العمل حتى ماتوا ولم تزل لهم قدم عن طريق العبودية قلباً وجوارحاً وهذا هو المقام العزيز ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ عند الموت أو في كل ما يعن لهم بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن أو عند الخروج من القبور ﴿ أَلَّا تَخَافُوا ﴾ ما تقدمون عليه من الموت وغيره ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ على ما خلفتم من أهل وولد وغير ذلك فنحن نخلفكم فيه « وأن » مصدرية أو مخففة مقدرة بالباء أو مفسرة ﴿ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا على لسان الرسل : قيل تبشر الملائكة في ثلاثة مواطن عند الموت وفي نزول القبر وعند البعث ، والظاهر أن ما في الآية هو الأول لقولهم ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بالحفظ من الشياطين وإلهام الخير بدل ماتفعل الشياطين بالكفار ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ بالشفاعة والتلقي بالإكرام فنكون معكم حتى تدخلوا الجنة في مقابلة القرناء الكفار ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ ﴾ من اللذائذ ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ تطلبون وهو أعم من الأول ﴿ نُزُلًا ﴾ رزقاً مهيئاً لكم حال من الضمير في « لكم » لأنه خبر « ما تدعون » أي المدعى كائن لكم حال كونه نزلا ، لا من المحذوف العائد إلى « ما » لأن الادعاء ليس في حال كونه نزلا وفيه إشارة إلى أن لهم بعد النزل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ أي الله ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ ﴾ أي لا أحد أحسن ﴿ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾ إلى توحيده وعبادته وهو النبي صلى الله عليه وسلم وكل من دعا إلى الله من الأنبياء والمؤمنين ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ فيما بينه وبين ربه فوافق قوله فعله ﴿ وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ليصرح بالانقياد لله واتخاذ الإسلام ديناً ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ﴾ في جزئياتهما لأن بعضها فوق بعض أو لا تستويان في الجزاء وحسن العاقبة فلا الثانية على هذا التأويل مزيدة لتأكيد النفي والأول أولى لأن الحسنات تتفاوت إلى حسن وأحسن وكذلك السيئات إلى سيئ وأسوأ ﴿ ادْفَعْ ﴾ السيئ والاسوأ ﴿ بِالَّتِي ﴾

بالخصلة التي ﴿ هِيَ أَحْسَنُ ﴾ الحسنتين كما إذا قدرت على من أساء إليك فالحسنة أن تعفو عنه والإحسان أن تحسن إليه مثل أن يذمك فتمدحه ويقتل ولدك فتفتدي ولده من يد عدوه ولم يقل : ادفع بالحسنة السيئة كالغضب بالصبر والجهل بالحلم لأن من دفع بالأحسن هان عليه الدفع بالحسن ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ ﴾ ذو قرابة ﴿ حَمِيمٌ ﴾ شفوق : فيصير عدوك كالصديق القريب في محبته إذا فعلت ذلك « فالذي » مبتدأ « وكأنه » الخبر « وإذا » ظرف لمعنى التشبيه وهذه آية جمعت مكارم الأخلاق ومن عمل بها عصم من الشيطان وخضع له أعداؤه ومبدؤها السلام عند اللقاء ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا﴾ ما يعطى هذه السجية وهي مقابلة الإساءة بالإحسان ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ حبسوا أنفسهم على ما تكره ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ من الخير وكمال اليقين وقيل الحظ العظيم الجنة ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ﴾ ينخسنك أو يصرفنك ﴿ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ نخس أريد به وسوسته وبعثه على الشر وهو الانتقام والدفع بالأسوإ أو أريد به نازغ وصفا للشيطان بالمصدر على طريق التجريد أي صارف عن الخير ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ من شره ولا تطعه جواب الشرط وجواب الأمر محذوف أي يدفعه عنك ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لاستعاذتك ﴿الْعَلِيمُ﴾ بقصدك وصلاحك وبنزغ الشيطان ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ في تعاقبهما على حد معلوم وتناوبهما على قدر مقسوم ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ تدل على أن لا أحسن قولا ممن دعا إلى عبادة خالقها ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ لأنهما مخلوقان مأموران مثلكم كانوا في الجاهلية يسجدون للكواكب على قصد التقرب إلى الله فنهوا عن ذلك ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ أي الآيات الأربع فإنه المستحق للعبادة وحده ولم يقل خلقها لأنها جماعة قلة لما لا يعقل لجمع ضميرها أفصح ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي إن كنتم موحدين غير مشركين فإن السجود بعض العبادة وهذا موضع السجود عندنا المالكية ، وعند الشافعية لاقتران الأمر به وعند أبي حنيفة آخر التالية لأنه تمام المعنى ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾ عن الامتثال ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ ملائكته المقربون ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي دائما لقوله ﴿وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ لايملون ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ ذليلة يابسة لا نبات فيها وأصل الخشوع الانخفاض فاستعير لحال الأرض عند قحطها ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ﴾ تحركت بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾ انتفخت وعلت وصارت كالمختال في زينته بعدما كانت كالذليل في أطمار رثة ﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كامل الاقتدار ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ من ألحد للجمهور ولحد لحمزة : مال عن الاستقامة استعير لصرف الكلام عن وجهه كالطعن في الآيات والتحريف والتأويل الباطل فيها ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ فنجازيهم على إلحادهم بالإلقاء في النار ﴿ أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ تمثيل للكافر والمؤمن ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ حين علمتم مالها ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تهديد لهم شديد ووعيد بالمجازاة ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾ القرآن ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أول ما قرع سمعهم من غير

تدبر وهو بدل من إنّ الذين يلحدون إشارة إلى أن الحامل على الإلحاد مجرد الكفر أومستأنف وخبر إن محذوف مثل هالكون أو معاندون أو نجازيهم وهو تمهيد للحديث عن كمال الكتاب بقوله ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ شريف جم المنافع أو منيع لا يتأتى إبطاله وتحريفه لقوله ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ لا يتطرق إليه التبديل والتناقض من جهة من الجهات أو بما فيه من الأخبار الماضية والأمور الآتية مثّل حاله بحال الشيء المحميّ من جميع الجوانب فلا يمكن للعدو الوصول إليه وفيه إشارة إلى أنه محفوظ من حين النزول إلى آخر الدهر وأن إلحاد الملحدين فيه كالرقم على الماء ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ﴾ أى حكيم ﴿حَمِيدٍ﴾ أفعاله وأقواله على وجه الإتقان والكمال فكيف يتطرق الباطل إلى وحيه ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ ما يقول لك كفار قومك ﴿إِلَّا﴾ مثل ﴿مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ فاصبر كما صبروا وفيه إيجاز بليغ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لأوليائه ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأعدائه وصف العقاب دون المغفرة لأن الكلام فى الترهيب ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ﴾ أى الذكر ﴿قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ أى لو فرض كذلك كما طلبوا ﴿لَّقَالُوا﴾ تعنتا ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُ﴾ بينت بلسان نفهمه والمقصود الإعلام أن تعنتهم لا سبيل إلى دفعه ﴿ء﴾ قرآن ﴿أَعْجَمِيٌّ وَ﴾ رسول أو مرسل إليه ﴿عَرَبِيٌّ﴾ ؟ استفهام إنكار منهم بإبدال الهمزة الثانية ألفا أو تسهيلها لورش عن نافع وبتسهيلها فقط لابن كثير وأبى عمرو وابن عامر فى رواية ابن ذكوان وحفص وبتحقيق الهمزتين لحمزة والكسائى وأبى بكر وبإسقاط الأولى لهشام والأعجمى هو الذى لا يفصح ولا يفهم كلامه سواء كان من العرب أو من العجم والعجمى المنسوب إلى العجم فصيحا كان أو غير فصيح وتقدم فى الشعراء والمعنى أن آيات الله على أى طريقة جاءتهم تعنتوا بغيرها لأنهم غير طالبين للحق وإنما يتبعون أهواءهم ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى﴾ إلى الحق ﴿وَشِفَاءٌ﴾ من داء الجهل والشبه ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مبتدأ خبره ﴿فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ صمم فلا يسمعونه ويقدر قبل الجار هو لقوله ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ ظلمة وشبهة لا يفهمونه لتصامهم وتعاميهم عما نريهم من الآيات ومن جوز العطف على عاملين مختلفين عطف الموصول على الموصول قبل : أى هو للذين آمنوا هدى وشفاء وللذين لا يؤمنون وقر وفى آذانهم بيان لمحل الوقر ﴿أُولَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ لا يمكن لحاق الصوت إليهم تمثيل لبعدهم عن الحق وقيل ينادون فى القيامة من كل بعيد بأقبح الأسماء ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ بالتصديق والتكذيب كاختلاف قومك فى كتابك ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير الجزاء إلى يوم القيامة أو بتقدير الآجال ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ باستئصال المكذبين ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ المكذبين به ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ موجب للاضطراب ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ نفعه ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ ضرره ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فيعذب من غير جرم ، وظلام بمعنى ذى ظلم لأنه لا يظلم مثقال ذرة ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ إذا سئل عنها متى تكون ؟ إرشاد للمؤمنين إلى الجواب إن سئل أحدهم عنها بأن يقول لا يعلمها إلا الله ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ بالجمع لنافع وابن عامر وحفص ،

وبالإفراد للباقين ﴿مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ أوعيتها جمع كِمّ بكسر الكاف إلا بعلمه ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ﴾ حملها ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ واقعا حسب تعلقه به، والاستثناء من الكل وما الأولى مزيدة للاستغراق وكذا الثالثة ﴿وَ﴾ اذكر ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ المشركين ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ فى زعمكم، وفيه تهكم وتقريع ﴿قَالُوا آذَنَّاكَ﴾ أعلمناك الآن ﴿مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ شاهد بأن لك شريكا تبرأنا من الشركاء، أو ما من أحد يشاهدهم لأنهم ضلوا عنا، وقيل هو كلام الشركاء أى مامنا من يشهد بما أضافوا إلينا من الشركة ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ﴾ يعبدون ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ فى الدنيا من الأصنام، أى لا ينفعهم أو لا يرونه ﴿وَظَنُّوا﴾ أيقنوا ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ مهرب من العذاب، والنفى فى الموضعين معلق عن العمل، أو جملة النفى سدت مسد المفعولين ﴿لَا يَسْأَمُ﴾ لا يمل ﴿الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ لا يزال يسأل ربه المال والسمة والصحة والجاه وغير ذلك، أى من دعائه الخير حذف الفاعل وأضيف إلى المفعول ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ كالفقر والشدة فى بعض الأوقات ﴿فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ من فضل الله ورحمته وهذا وما بعده فى الكافر فاليأس فعل القلب والقنوط ظهور آثاره على الجوارح وقد بولغ فيه بناء وتنكيراً ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً﴾ صحة وسعة رزق وغنى ﴿مِنَّا﴾ من فضلنا ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ﴾ شدة وبلاء ﴿مَسَّتْهُ﴾ بما كسب ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ حق أستحقه بمالى من الفضل والعمل، أو لى دائما لا يزال لا يتوقع زواله ولا يرى منه المنعم ولا يتلقاه بالشكر وعظم الرحمة بالتنكير والوصف وخص الضراء بلفظ المس إشارة إلى أن رحمته أوسع ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ تقوم، جلب له الاغترار بما ذاق من الرحمة سوء الاعتقاد فى المعاد ﴿وَلَئِنْ﴾ لام قسم ﴿رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي﴾ كما يقول المسلمون ﴿إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ أى الحالة الحسنى من الكرامة والجنة قاس أمر الآخرة على الدنيا لاعتقاده أن ما نال من نعم الدنيا كان مستحقاً به لا ينفك عنه ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ من الأعمال الموجبة للعذاب عكس ما اعتقدوا فيها ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ مفرط فى العظم موافق لجهلهم المفرط لا يمكنهم التفصى عنه واللام فى الفعلين لام قسم ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ الجنس ﴿أَعْرَضَ﴾ عن الشكر ﴿وَنَأَى﴾ بتقدم الهمزة على الألف للجمهور وتأخيرها لابن ذكوان مقلوب الأولى أى انحرف ﴿بِجَانِبِهِ﴾ وثنى عطفه متبختراً وتباعد عن دعاء الله أو ذهب بنفسه وتباعد عن الله تكبراً فالجانب مجاز عن النفس ويحتمل أن ناء على القراءة الثانية ماضى ينوء بمعنى نهض والقلب أولى لتوافق الأولى فى معنى البعد الزائد على الإعراض ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ كثير دائم استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه وهو من صفة الأجرام كما استعير الغلظ لشدة العذاب، والعريض أبلغ من الطويل إذ الطول أطول الامتدادين فإذا كان عرضه على ما ذكر فما ظنك بطوله: ذمه الله أولا على شدة حرصه على الجمع وغاية جزعه على الفقر وثانياً بطيشه المتولد عن الاستكبار عند وجود النعمة والاستكانة سريعاً عند فقدها لا هو فى حالة النعمة شاكر ولا فى حالة الفقر صابر مدمجاً فيه الإشارة إلى غاية حماقته فإن اليأس والقنوط ينافيان الدعاء العريض،

وأين ادعاؤه استحقاقه الحسنى عند الله من هذا بل هو كالمريض القفا في المثل ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أخبروني ﴿ إِنْ كَانَ ﴾ القرآن ﴿ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ من غير نظر واتباع دليل و «ثم» لبيان بعد الكفر بالقرآن ﴿ مَنْ ﴾ أي لا أحد ﴿ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ ﴾ خلاف ﴿ بَعِيدٍ ﴾ عن الحق أوقع هذا موقع من أضل منكم بياناً لحالهم وتعليلا لمزيد ضلالهم أو رجوعاً إلى كلام المنصف حثاً على التأمل واستدراجا إلى الإقرار ثم تمم بقوله ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ عن قريب ﴿ ءَايَاتِنَا ﴾ الدالة على أن القرآن حق والجائي به محق فيما أخبر من الحوادث الآتية وظهور دينه شرقاً وغرباً على الأديان كلها ﴿ فِي الْآفَاقِ ﴾ بفتح البلاد شرقاً وغرباً للنبي صلى الله عليه وسلم ولخلفائه بعده ﴿ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ بما يحل في ساحة العرب مكة وسائر الحجاز ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ﴾ أي القرآن أو الرسول ﴿ الْحَقُّ ﴾ لتحقق صدق ما أخبر به وقوة الإسلام ووهن الباطل وحزبه وبه يتميز أنه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويحتمل أن مراد الآية سنريهم آياتنا الدالة على التوحيد وكمال القدرة في الآفاق أي أقطار السموات والأرض من النيرات والنبات وفي أنفسهم من لطائف الصنع وبدائع الحكمة حتى يتبين لهم أن القرآن الجائي بالتوحيد والبعث والجزاء حق فيعاقبون على كفرهم به وبالجائي به ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ ﴾ فاعل «يكف» والمفعول محذوف والباء صلة للتأكيد ولا تكاد تزاد في الفاعل إلا مع كفى أي أو لم يكفهم أو يكفك ربك ﴿ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ بدل منه أي أولم يكفهم ردعاً شهادة ربك على كل شيء أو أولم يكفك شهادته على كل شيء فهو يشهد أمرك فإظهار الآيات الموعودة أو علمه الأشياء علماً شهودياً يستوي عنده كل غيب وشهادة، فشهيد بمعنى مطلع وفي إضافة الرب إليه تشريف لا مدخل للعمل فيه بل هو محض عناية ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ ﴾ لبعدهم في الشقاق ﴿ فِي مِرْيَةٍ ﴾ ظلمة شك ﴿ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ بالبعث والجزاء ﴿ أَلَا إِنَّهُ ﴾ تعالى ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ علماً وقدرة فيجازيهم بكفرهم.

[تم تفسير سورة فصلت]

سورة الشورى
مكية ـ ثلاث وخمسون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۞ حمٓ ۞ عٓسٓقٓ ﴾ الله أعلم بمراده به ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك الإيحاء لما في هذه السورة من المعاني ﴿ يُوحِي إِلَيْكَ ﴾ بكسر الحاء للجمهور وفتحها لابن كثير أى أوحى فى سائر السور وإيثار المضارع لحكاية الحال الماضية للدلالة على استمرار الوحى، وأن إيحاء مثله عادته بقوله ﴿ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ فى سائر الكتب امتناناً، والمعنى أن الله كرر هذه المعانى فى القرآن وفى جميع الكتب السماوية لما فيها من التنبيه البليغ واللطف العظيم لما فى التكرير من التقرير والتذكير والدلالة على أنها أمور مهمة ﴿ اللَّهُ ﴾ فاعل الإيحاء على الأولى وعلى الثانية مرتفع بما دل عليه « يوحى » كأن قائلا قال مَن الموحى فقيل الله ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب فى ملكه ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ المصيب فى صنعه صفتان لاسم الجلالة مقرونان لعلو شأن الموحى به وأنه غالب يختار من يشاء لرسالته حكيم فى أفعاله يوحى إلى رسله ما لعباده فيه خير الدارين ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ خلقاً وملكا وملكا ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ ﴾ شأنه ﴿ الْعَظِيمُ ﴾ سلطانه ﴿ يَكَادُ ﴾ بالتذكير لنافع والكسائى والتأنيث للباقين ﴿ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ ﴾ بالتاء وتشديد الطاء للجمهور وبالنون وكسر الطاء مخففاً لأبى عمرو وشعبة ينشققن من عظمة الله أو ادعاء الولد له ويبدأ الانفطار ﴿ مِنْ فَوْقِهِنَّ ﴾ من جهتهن الفوقية بأن تنشق كل واحدة فوق التى تليها وقيل الضمير للأرض لأن المراد بها الجنس أى من فوق الأرضين ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ ﴾ مداومين على تقديسه وتمجيده ملابسين ﴿ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ على ما أولاهم أو يقدسونه من إضافة الولد إليه حامدين له على ما عصمهم من موجبات سخطه ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ من المؤمنين بالنطق أو بالسعى فيما يستدعى مغفرتهم من الشفاعة والإلهام وإعداد الأسباب المقربة إلى الطاعة أو بأن لا يعاجلهم الله بالعقاب عسى أن يتوبوا فحينئذ يعم من فى الأرض من الكفار ﴿ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ ﴾ لمن استغفره ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ به: فيه حث على الاستغفار وأن الناس أولى بذلك من الملائكة ولذا صدر الكلام بحرف التنبيه وفيه إعلام بأن عدم تعجيل العقاب لهم استغفار الملائكة وفرط غفرانه ورحمته ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ جعلوا له شركاء ﴿ اللَّهُ حَفِيظٌ ﴾ رقيب ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ على أحوالهم وأعمالهم فيجازيهم بها ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ موكول إليه أمرهم تحصل المطلوب منهم ا ما عليك إلا البلاغ وقد

بلغت ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك الإيحاء ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ بلسانك تفهمه أو الإشارة إلى كونه رقيبا وحده وهذا المعنى مكرر في القرآن والكاف حينئذ مفعول به وقرآنا عربيا حال منه ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ ﴾ أهل أم القرى وهي مكة لأن الأرض دحيت من تحتها فهي أصلها ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ من العرب وغيرهم العذاب ﴿ وَتُنذِرَ ﴾ الناس ﴿ يَوْمَ الْجَمْعِ ﴾ يوم القيامة لجمع الخلائق فيه أو الأرواح والأشباح أو العمال والأعمال أفرده بالذكر لعظم أهواله وليوقع فيه لفظ الإنذار صريحا وحذف ثاني مفعولي الأول وأول مفعولي الثاني للتهويل أو التعميم ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ اعتراض لا محل له ثم بعد الجمع والقضاء يتفرقون ﴿ فَرِيقٌ ﴾ منهم ﴿ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ ﴾ منهم ﴿ فِي السَّعِيرِ ﴾ النار والضمير للمجموعين ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ مهتدين أو ضالين ﴿ وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ بالهداية والتوفيق وهم المؤمنون ﴿ وَالظَّالِمُونَ ﴾ باتخاذ الشركاء وهم الكافرون ﴿ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يدفع عنهم العذاب ﴿ أَمِ ﴾ بل ﴿ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ كالأصنام إنكار لاتخاذهم أي ليس المتخذون أولياء ، إن أرادوا وليا بحق ﴿ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ﴾ أي الناصر للمؤمنين جواب شرط مقدر كما قررنا وهو إرشاد لمن يصلح بعد إنكار من لا يصلح وفيه شد لعضد الإنكار ﴿ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تقرير لكونه حقيقا بالولاية ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ ﴾ أنتم والكفار ﴿ فِيهِ مِن شَيْءٍ ﴾ من أمر الدين والدنيا ﴿ فَحُكْمُهُ ﴾ مردود ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ في تمييز المحق من المبطل بالنصر أو بالإثابة والمعاقبة ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ الحاكم بينكم ﴿ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ في مجامع الأمور ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أرجع في المعضلات أو عليه توكلت في رد أعداء الدين وإليه أنيب في كفاية شرهم ﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خبر آخر لذلكم أو مبتدأ خبره ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ من جنسكم نساء ﴿ وَ ﴾ خلق ﴿ مِنَ الْأَنْعَامِ ﴾ أي من جنسها ﴿ أَزْوَاجًا ﴾ إناثا للتوالد والتناسل ﴿ يَذْرَؤُكُمْ ﴾ يكثركم من الذرء البث كالذر يقال ذرأ الله الخلق : بثهم وكثرهم نسلا بعد نسل . قال في الجواهر لفظة ذرأ تزيد على خلق معنى آخر ليس في خلق وهو توالي طبقات الذرء على مر الزمان ﴿ فِيهِ ﴾ في هذا التدبير وهو جعل الناس والأنعام أزواجا يكون بينهم توالد فإنه كالمنبع والتكثير ولذا اختير فيه على به ، وفي ضمير يذرؤكم تغليب العقلاء في الخطاب ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ أي ليس مثله شيء يناسبه والمراد من مثله ذاته وهو نفي لما يماثله على طريق الكناية كقولهم مثلك لا يبخل أي أنت يريدون نفي البخل عن ذاته على الكناية مبالغة في نفيه عنه فإنه إذا نفي عمن يناسبه كان نفيه عنه أولى ونحوه «بل يداه مبسوطتان» فمعناه بل هو جواد من غير تصوير يد ولا بسط لأنه عبارة عن الجود ولذا يستعملونه فيمن لا يد له فلذلك يستعمل هذا فيمن له مثل ومن لا مثل له وقيل ليس كصفته صفة وقيل الكاف زائدة والأول أولى ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ لكل ما يسمع ﴿ الْبَصِيرُ ﴾ لكل ما يبصر من الأقوال والأفعال وغيرهما وهو تقرير لنفي المماثل ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ ﴾ مفاتيح خزائن ﴿ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من المطر والنبات وغيرهما ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ ﴾ بوسعه ﴿ لِمَن يَشَاءُ ﴾ امتحانا ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ يضيقه لمن يشاء ابتلاء ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فيفعله على ما ينبغي ، ثم فصّل

ماأوحى إليه وإلى الذين من قبله من الإلٰهيات التي لا تتبدل بقوله ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ هو أول أنبياء الشريعة وآدم نبيّ إلا أنه لم تفرض له الفرائض ولا شرعت له المحارم . قاله ابن العربي في الأحكام . وفي الصحيح : ائتوا نوحا فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا آخر الأنبياء ، ثم أشار إلى من بينهما من أرباب الشرائع بقوله ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ ثم فسر المشروع الذي اشترك فيه أرباب الشرائع بقوله ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ بدل من مفعول « شرع » أو استئناف بياني والدين الإيمان بما يجب تصديقه والطاعة في أحكام الله إذ التوحيد وما لا يفارقه من الصلاة والصيام ووفاء العهود وأداء الأمانات وصلة الأرحام وتحريم الكفر والقتل والزنا وإذاية الخلق وخرم المروءات كله مشروع دينا واحدا لم يختلف على ألسنة الأنبياء وإن اختلفت كيفيته ولذا قال ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ لا تختلفوا في هذا الأصل أما فروع الشرائع فمختلفة . قال في الجواهر : وهو نهي عن المهالك من تفرق الأنحاء والخير كله في الألفة واجتماع الكلمة . قال عليّ رضي الله عنه : والجماعة رحمة والفرقة عذاب» ﴿كَبُرَ﴾ عظم وشق ﴿عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ﴾ تعالى أي يصطفي ويجلب إليه والضمير لما أو للدين ﴿مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ﴾ بالإرشاد والتوفيق ﴿مَنْ يُنِيبُ﴾ يقبل إلى طاعته ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾ أي أهل الأديان في الدين بأن اتبعه بعض وخالفه بعض ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أن الفرقة ضلال وفساد أو العلم بالتوحيد أو أسباب العلم من الرسل والكتب وغيرهما فلم يلتفتوا إليها ﴿بَغْيًا﴾ عداوة وظلما ﴿بَيْنَهُمْ﴾ لطلب الدنيا ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بتأخير الجزاء أو بإمهالهم ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ يوم القيامة أو آخر أعمارهم ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ باستئصال المبطل من حين افترقوا لعظم ما اقترفوا ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من اليهود والنصارى وهم أعقابهم الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم أو مشركو مكة أورثوا القرآن من بعدما أورث أهل الكتاب التوراة والإنجيل ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ من محمد أو من كتابهم ضموا إلى التفرق الشك في الكتاب الذي هو أصل دينهم ﴿مُرِيبٍ﴾ مقلق أو مدخل في الريبة ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ التوحيد ﴿فَادْعُ﴾ يا محمد الناس أو لأجل تشعب الكفر في الأمم فادع إلى الملة الحنيفية والاتفاق عليها أو لأجل ما أمرت مع الأنبياء من إقامة الدين والنهي عن التفرق فادع : فاللام بمعنى إلى للصلة أو بمعنى التعليل ﴿وَاسْتَقِمْ﴾ على الدعوة ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ كما أمرك الله تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ المختلفة الباطلة ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ أيّ كتاب أنزله فإنهم آمنوا ببعض وكفروا ببعض ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في تبليغ الشرائع والحكومة إن تحاكمتم إليّ : فالأول إشارة إلى القوة النظرية وهذا إلى العملية ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ لا إله غيره وهو متولي أمورنا جميعا ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا﴾ نجازى بها ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ تجازون فانظروا لأنفسكم ﴿لَا حُجَّةَ﴾ أي لا احتجاج بمعنى الخصومة ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ إذ الحق قد ظهر ولم يبق للمحاجة فائدة ولم يبق سوى العناد ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ في المعاد لفصل القضاء ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ للكل لا إلى غيره ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ أي في إبطال دينه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾

بالدخول فى الإسلام ونصره وإظهاره على الدين كله ليردوا الناس إلى أمر الجاهلية ﴿حُجَّتُهُمْ﴾ شبهتهم ﴿دَاحِضَةٌ﴾ زائلة باطلة ساقطة وهم المشركون فى قولهم نحن ولاة البيت وإنا وجدنا آباءنا أواليهود فى قولهم كتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم فنحن خير منكم وأولى بالحق ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ فهم فى طلب ردّ الناس كالراقم على الماء ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ من الله لعنادهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ ملائم لشدة جهلهم وكفرهم ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ القرآن أو جنس الكتاب ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالصدق أى ملتبسا به بعيداً من الباطل أو بما يحق إنزاله من العقائد والأحكام ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ الشرع الذى يوازن به الحقوق ويسوى بين الناس أو العدل بمعنى أمركم بالعدل بينكم أو آلة الوزن أنزله فى زمن نوح لتسوية الحقوق ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ يعلمك ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ إتيانها فاتبع الكتاب واعمل بالشرع وواظب على العدل قبل أن يفجأك اليوم الذى توزن فيه أعمالك وتوفى جزاءك ولعل معلق عن العمل أوما بعده سدّ مسدّ المفعولين وتذكير قريب لأن الساعة فى تأويل البعث أو تقدير المجىء ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ استهزاء يقولون متى هذا الوعد ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ﴾ خائفون ﴿مِنْهَا﴾ غاية الخوف مع اعتناء بالعمل لها لتوقع الثواب ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ الكائن لا محالة تأكيد للإشفاق ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ﴾ يجادلون ﴿فِي السَّاعَةِ﴾ فى وقوعها من المرية أو المرى لأن كلا من المتجادلين يمرى أى يستخرج ما عند صاحبه بكلام فيه شدة ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق لتوافق النقل والعقل على وقوعها ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ﴾ برّ ﴿بِعِبَادِهِ﴾ بصنوف من البر لا تبلغها الأفهام ولذا أخر العذاب عن منكرى الساعة واللطف إيصال نفع له موقع برفق ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ من كل منهم مايشاء فيخص كلا من عباده بنوع من البر على ما اقتضته حكمته ، وفى الحديث « إن من عبادى المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو افتقر لأفسده ذلك وإن من عبادى المؤمنين من لا يُصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك» ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾ على مراده ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره ولما شمل قوله يرزق رزق الدارين قال ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾ بعمله ﴿حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ ثوابها شبه بالحرث أى الزرع أو بذلك الملقى فى الأرض من حيث أنه فائدة تحصل بعمل الدنيا ولذا قيل : « الدنيا مزرعة الآخرة » ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ فى ثواب عمله الحسنة بعشر أمثالها إلى ما شاء الله ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ لاحرص له إلا فيها إذ لم يؤمن بالآخرة ﴿نُؤْتِهِ﴾ شيئا ﴿مِنْهَا﴾ وهو ما قسم له « ومن » للتبعيض إذ ليس كل مايتمناه يدركه ولم يذكر ما للمؤمن من الدنيا لحقارته وأنه ليس مرادا له بل وسيلة إلى المراد كائنا بالعرض ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ إذ لم يزرع لها والأعمال بالنيات ولكل امرئ مانوى ﴿أَمْ﴾ بل أ ﴿لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ شياطينهم من الجن والإنس المغوين لهم لأنهم شركاء لهم فى الكفر ﴿شَرَعُوا﴾ أى الشركاء بالتزيين ﴿لَهُمْ﴾ للكفار الأتباع ﴿مِنَ الدِّينِ﴾ الفاسد والمراد به العوائد ﴿مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ كالشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا وقيل شركاؤهم أوثانهم وإسناد الشرع إليها لأنها سبب ضلالتهم ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ القضاء السابق

بتأخير العذاب أو بأن الجزاء في يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ وبين المؤمنين بالتعذيب لهم في الدنيا ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ بالشرك ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم في الآخرة . ثم هوّل شأنه بقوله ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ في القيامة ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ في الدنيا من السيئات بأن يجازوا عليها ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي وباله لا محالة أشفقوا أولم يشفقوا إذ قد فات وقت التلافي ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ أي في أطيب بقاعها وأنزهها بالنسبة إلى من دونهم أو لأن روضة المؤمن أطيب بقعة فيها وأنزهها ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي ما يشاءون ثابت لهم عند ربهم و «عند» نصب بالظرف لا بيشاءون لئلا تفوت المبالغة والمعنى أنهم إذا وفدوا ينزلون أولا في أنزه الأماكن وأشرفها ثم يقدم إليهم ما يشاءون من اللذائذ والتقريب من رب المنزل ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ الذي يصغر دونه كل فضل في الدنيا ﴿ذَلِكَ﴾ الثواب ﴿الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ﴾ بالتشديد من التبشير لنافع وابن عامر وعاصم وبالتخفيف من بشره كنصره لابن كثير وأبي عمرو وحمزة والكسائي ﴿عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ به حذف الجار ثم العائد ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على تبليغ الرسالة ﴿أَجْرًا﴾ نفعاً منكم ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ﴾ إلا أن تودوني ﴿فِي الْقُرْبَى﴾ لقرابتي منكم إذ لم يكن في قريش بطن إلا كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم قرابة أو المعنى إلا أن تودوا قرابتي وقيل الاستثناء منقطع أي لا أسألكم أجراً لكن أسألكم المودة و «في القربى» حال منها أي ثابتة في حق القرابة ، وإذا كان الحب في الله بين المؤمنين من الإيمان فكيف بحب قرابته صلى الله عليه وسلم فهي أحق بالحب والإيثار على الأرواح اللهم إني أحبهم وأحب من يحبهم أمتني على محبتهم واحشرني في زمرتهم ، وإنما لم يقل إلا مودة القربى أو المودة للقربى لأنهم جعلوا مكاناً للمودة ومقرًّا لها وذلك أبلغ . وفي الجواهر: أي لا أسألكم غرامة ولا شيئاً إلا أن تودوني لقرابتي منكم وتكونوا أولى بي من غيركم . وعن ابن عباس : ما يقتضي أن الآية مدنية نزلت في الأنصار لما جمعوا لرسول الله مالا فرده عليهم . والله أعلم ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ﴾ يكتسب ﴿حَسَنَةً﴾ طاعة سيما حب الرسول وبذل المال في إعانته كما فعل أبو بكر رضي الله عنه ﴿نَزِدْ لَهُ فِيهَا﴾ في الجنة أو في الحسنة ﴿حُسْنًا﴾ بتضعيف الثواب أو بتضعيفها ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب لمن تاب ﴿شَكُورٌ﴾ للقليل لمن أطاع فيضاعفه ثم يوفيه ثوابه ويتفضل عليه بالزيادة ثم أتى بإضراب أطم من الأول بقوله ﴿أَمْ﴾ بمعنى بل أ ﴿يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة القرآن إليه وادعاء الرسالة ؛ فاتباع شرع الشركاء وإن كان شرا لكنه لا يبلغ لخبثه رتبة الافتراء على الله فالاستفهام للتوبيخ كأنه قال أيقدرون على إجراء هذه الكلمة على أفواههم ولا يخافون أن تصيبهم قارعة من السماء ﴿فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ﴾ خذلانك ﴿يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ فتكون مثلهم فتجترئ على الافتراء وهو استبعاد للافتراء عن مثله وإشارة إلى أنه إنما يجترئ عليه من ختم على قلبه وفيه تعريض بهم وقيل معنى يختم : يربط على قلبك بالصبر على أذاهم بهذا القول وغيره وقد فعل ذلك . قلت : ويؤيد التأويل الأول

إتيان إنْ الذى هو فى الغالب لما لا يقع عكس إذا ﴿ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَاطِلَ ﴾ الذى قالوه وغيره وهو استئناف على التأويل الأول يؤكد نفى الافتراء بأنه لو كان مفترى لمحقه إذ من عادته تعالى محو الباطل وإثبات الحق كما قال ﴿ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ ﴾ يثبته ﴿ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ المنزلة على نبيه أو بقضائه ويجوز أن تكون جملة « ويمح الله الباطل » عِدَةً للرسول بالنصر ومحو باطلهم فهى اعتراض لتأكيد كونهم مبطلين ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ مضمراتها فيجازيهم على ما أضمروا من البغض والحسد فضلا عما أظهروا ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ بالتجاوز عما تابوا عنه والقبول يعدى إلى مفعول ثان بمن وعن لتضمنه معنى الأخذ وفيه دعاؤهم إلى التوبة وإشارة إلى أن جرمهم وإن عظم لا يمنع قبول توبتهم وفى إضافتهم إليه إيماء إلى أنهم لم يخرجوا بالذنب عن حوطته ﴿ وَيَعْفُوا عَنِ ٱلسَّيِّئَاتِ ﴾ لمن يشاء صغيرها وكبيرها إلا ما استثناه من الشرك ﴿ وَيَعْلَمُ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ بالياء للجمهور والتاء للكوفيين غير أبى بكر التفاتاً فيجازى ويتجاوز عن إيقان وحكمة ﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ ﴾ يجيبهم إلى ما يسألون أى يستجيب لهم لحذف الصلة واتصال الفعل أو دعاء الذين لحذف المضاف ﴿ وَيَزِيدُهُم ﴾ على ما سألوا ﴿ مِّن فَضْلِهِ وَٱلْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ بدل ما للمؤمنين من الثواب والتفضل ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِ ﴾ جميعهم ﴿ لَبَغَوْا ﴾ لتكبروا وأفسدوا ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ بطراً أو لبغى بعضهم على بعض استيلاء واستعلاء بغياً يختل به نظام العالم جميعاً فلا يرد أن البغى كائن والحالة هذه ، وفى الصحيح : « والله لا الفقر أخشى عليكم ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدنيا فتنافسوا فيها كما تنافس من قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم » أو كما قال ، وكفى بقارون عبرة ﴿ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف لابن كثير وأبى عمرو ﴿ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ﴾ أى بتقديره ، يقال قدره كضربه ونصره قدْراً وقدَراً أى ما اقتضته مشيئته فيبسطه لبعض دون بعض ﴿ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ عالم بخفايا أمرهم وجلايا حالهم فيقدر لهم ما يناسب شأنهم ومع ذلك ما نرى من البسط أكثر لغلبة رحمته ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ﴾ بالتشديد لنافع وابن عامر وعاصم والتخفيف للباقين ﴿ ٱلْغَيْثَ ﴾ المطر الذى يغيثهم من الجدب ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ﴾ يئسوا من إنزاله لبعد العهد وعدم ظهور العلامات ﴿ وَيَنشُرُ ﴾ يبسط ﴿ رَحْمَتَهُ ﴾ مطره وبركاته فى كل من السهل والجبل والنبات والحيوان ﴿ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ﴾ المحسن الذى يتولى عباده بإحسانه ﴿ ٱلْحَمِيدُ ﴾ المستحق للحمد على ذلك ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ ﴾ دلائله الدالة على أنه صانع حكيم ﴿ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَ ﴾ خلق ﴿ مَا بَثَّ ﴾ فرق ونشر ﴿ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ ما يدب فيهما أو المراد الحى على إطلاق اسم المسبب للسبب وماء مرفوع أو مجرور عطف على « خلق » أو « السموات » ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ ﴾ للحشر وفى تغليب العقلاء إشارة إلى كثرة الأنواع ﴿ إِذَا يَشَاءُ ﴾ أى وقت أراد ﴿ قَدِيرٌ ﴾ و « إذا » تدخل على المضارع دخولها على الماضى كقوله « والليل إذا يغشى » ﴿ وَمَآ أَصَابَكُم ﴾ فى الدنيا ﴿ مِّن مُّصِيبَةٍ ﴾ غم وألم وكل مكروه ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ

أيديكم) أى كسبتم من المعاصى بحذف الفاء لنافع وابن عامر استغناء بما فى الباء من معنى السببية وبها للباقين لأن « ما » شرطية أو متضمنة معنى الشرط وحكمة المصيبة تكفير الخطايا للعصاة ورفع الدرجات لغيرهم أو لآبائهم بالصبر فى الأطفال (وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) لا يؤاخذ به (وَمَا أَنْتُمْ) أيها المشركون أو الناس (بِمُعْجِزِينَ) الله هرباً أو بفائتين ما قضى عليكم من المصائب (فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ) غيره (مِنْ وَلِيٍّ) يتولى أمركم (وَلَا نَصِيرٍ) يدفع عنكم عذابه أو ما قضاه الولا لطفه بكم لما عفا عن كثير (وَمِنْ آيَاتِهِ) الدالة على كمال اقتداره (الْجَوَارِ) السفن الجارية (فِي الْبَحْرِ) مسخرة تحت أمره (كَالْأَعْلَامِ) كالجبال فى العظم (إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيَاحَ) وقرئ الريح (فَيَظْلَلْنَ) يصرن (رَوَاكِدَ) ثوابت لا تجرى واقفات (عَلَى ظَهْرِهِ) البحر (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ) التصرف (لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ) فى الشدة (شَكُورٍ) فى النعمة وهو المؤمن لأن الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر فهما حالتاه فى الضراء والسراء (أَوْ يُوبِقْهُنَّ) عطف على يسكن أى يغرقهن بعصف الريح بأهلهن وإسناد الإيباق إليها إشارة إلى أن شؤم معاصيهم قد سرى إليها (بِمَا كَسَبُوا) أى أهلهن من الذنوب (وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ) منها ويخرجها سالمة وذكره فى مقام الانتقام إشارة إلى سبق رحمته (وَيَعْلَمَ) بالرفع لنافع وابن عامر مستأنف وبالنصب للباقين معطوف على تعليل مقدر أى يغرقهم لينتقم منهم ويعلم (الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي) إبطال (آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ) مهرب من العذاب وجملة النفى سدت مسد مفعولى « يعلم » أو النفى معلق عن العمل (فَمَا أُوتِيتُمْ) خطاب للمؤمنين وغيرهم (مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) تتمتعون به مدة حياتكم ثم يزول (وَمَا عِنْدَ اللَّهِ) من الثواب (خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ) أفضل وأدوم (لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) فى أمر الرزق وغيره كأبى بكر حين تصدق بماله كله ثم عطف عليهم (وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ) للجمهور ولحمزة والكسائى كبير الإثم (وَالْفَوَاحِشَ) ما اشتد قبحه كالزنى من عطف الخاص على العام (وَإِذَا مَا غَضِبُوا) لأمر دنيوى (هُمْ يَغْفِرُونَ) يتجاوزون أى هم المخصوصون بالغفران فى حال الغضب وإتيان « هم » وإيقاعه مبتدأ وإسناد يغفرون إليه لهذه الفائدة ومثله هم ينتصرون (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ) أجابوه إلى ما دعاهم إليه من التوحيد والعبادة كالأنصار (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) أداموها (وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ) ذو شورى بمعنى التشاور (بَيْنَهُمْ) لا ينفردون فى رأى ولا يعجلون فيه حتى يجتمعوا عليه ولا ينفرد أحدهم برأى بل يتشاورون فيه حتى يجتمعوا عليه جميعاً وهو دليل على فرط تدبرهم وتثبتهم فى الأمور . وعن الحسن : ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه فى غير الأحكام لأنها منزلة من الله عليه وأما الصحابة بعده فيتشاورون فى الأحكام وغيرها ويستنبطونها من الكتاب والسنة . قال بعض العقلاء : ما أخطأت قط فى أمرى لأنى إذا نزل بى أمر شاورت قومى وفعلت الذى يرون فإن كان صواباً فهم المصيبون أو خطأ فهم المخطئون (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

يُنفِقُونَ ﴾ فى طاعة الله ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ ﴾ الظلم ﴿ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ ينتقمون ممن ظلمهم بمثل ظلمه أى هم مخصوصون بالانتصار وهو الاقتصار على قدر الاستحقاق دون غيرهم فإنهم يعتدون وذلك وصف لهم بالشجاعة بعدوصفهم بسائر أمهات الفضائل ولايخالف وصفهم بالغفران لأنه مبنى على قدرة المعفو إذ الحلم عن العاجز محمود وعن المتغلب مذموم لأنه إجراء له وإغراء على البغى وعليه قوله ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ فى إساءتها بمن تنزل به سميت الثانية سيئة لمشابهتها الأولى فى الصورة فمن قال لك أخزاك الله فإنك تجيبه بقولك أخزاك الله وفيه إشارة إلى أن طريق الانتصار غير مأمون العثار لأنه إنما يحمد فى محله بشرط رعاية الاحتياط وهى عسيرة ولذلك فرع عليه ﴿ فَمَنْ عَفَا ﴾ عن ظالمه ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ الود بينه وبينه بالعفو عنه ﴿ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ لايقادر قدره ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ البادئين بالظلم والمتجاوزين فى الانتقام فيرتب عليهم عقابه ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ ﴾ أى ظلم الظالم إياه ولم يتجاوز وإن كان الظالم محلا للعفو على مانبينه إن شاء الله ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ فى الأخذ بترك الأفضل لا حالا ولا مآلا لأن من آثر الحسن على الأحسن لا عتب عليه . قال ابن العربى فى أحكامه : قد مدح الله الانتصار ومدح العفو ولكلٍّ محل فإن كان الباغى معلنا بالفجور وقحا فى الجمهور مؤذيا للكبير والصغير فالانتقام أفضل وفى مثله قال إبراهيم النخعى لا ينبغى للمؤمنين أن يذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفسّاق . وإن كان فتنته لا يتعدى أو يعترف بالذلة ويسأل العفو فالعفو هنا أفضل ، وفى مثله نزلت « وأن تعفوا أقرب للتقوى » ونحوها ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ ابتداء مستمرين على الإضرار وطلب مالا يستحقون تجبرا عليهم ﴿ وَيَبْغُونَ ﴾ يتكبرون ويفسدون ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ بالمعاصى ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم على ظلمهم ﴿ وَلَمَن صَبَرَ ﴾ فلم ينتصر ﴿ وَغَفَرَ ﴾ لمن ظلمه ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ الصبر والغفران منه ﴿ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ أى معزوماتها بمعنى المطلوبات شرعا وهذا إذا لم يزد طغيان الظالم بالعفو عنه . قاله فى غاية الأمانى . ويدل عليه حديث « دونك فانتصرى » ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ لا أحد يلى هدايته بعد إضلال الله إياه عطف على جملة أولئك كناية عن الظالم تسجيلا عليه بالضلال وما بينهما اعتراض تحذيرا عن الظلم ﴿ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ حين يرونه والماضى لتحقق وقوعه والخطاب عام ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ ﴾ إلى الدنيا ﴿ مِّن سَبِيلٍ ﴾ يسألون ربهم الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا به ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ على النار إذ العذاب يدل عليها ﴿ خَٰشِعِينَ ﴾ متضائلين متذللين ﴿ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾ الذى لحقهم ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ إلى النار ﴿ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ﴾ ضعيف النظر مسارقة لا يقدرون على فتح الأجفان كالمصبور ينظر إلى السيف و « من » ابتدائية أو بمعنى الباء ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ فى الدنيا أو بمعنى يقولون يوم القيامة إذا رأوا الكفار على تلك الصفة ﴿ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ ﴾ بالتعريض للعذاب المخلد أو بعدم وصولهم إلى الحور العين

المعدّة لهم فى الجنة لو آمنوا والموصول خبر إن ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ متعلق بخسروا ﴿ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِى عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴾ دائم من تمام كلام المؤمنين أو تصديق من الله لهم ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى غيره يدفع العذاب عنهم ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ إلى الهدى فى الدنيا وإلى الجنة فى الآخرة ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ ﴾ أجيبوه بالتوحيد والعبادة إذ لم يبق فى البيان اشتباه ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ ﴾ هو يوم القيامة ﴿ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ صلة مرد أى بعد ما قضى به لا رده أو متعلق بيأتى أى إذا أتى لا يقدر أحد على رده ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ ﴾ تلجئون إليه ﴿ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴾ إنكار لذنوبكم بعد شهادة جوارحكم عليكم ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ بعد الدعاء عن الاستجابة ﴿ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ تحفظ أعمالهم حتى تهالك على هدايتهم ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ وقد بلغت ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ نعمة كالغنى والصحة والأمن ﴿ فَرِحَ بِهَا ﴾ فرح بطر لا شكر وأراد بالإنسان الجنس لقوله ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ﴾ أى الأناس ﴿سَيِّئَةٌ﴾ آفة فى الأموال والأبدان ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى قدموه من المعاصى ﴿ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ ﴾ ولم يقل فإنه دلالة على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم ﴿ كَفُورٌ ﴾ بليغ الكفران ينسى النعمة رأساً ويذكر البلية ويعظمها ولا يتأمل سببها وتصدير الشرطية الأولى بإذا والثانية بإن لأن إذاقة النعمة محققة غالبة بخلاف البلية فنادرة بالنسبة الحسنة ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فله أن يقسم النعمة والبلية كيف شاء ويجب عند النعمة الاستكانة شكراً لموليها ويحرم البطر، ويجب عند البلايا الرجوع بالتوبة إلى مبليها ويحرم الجزع ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من غير لزوم، ومجال اعتراض فى الآلاء والبلايا ثم بيّنه بأمر لا يمارون فيه بقوله ﴿ يَهَبُ ﴾ بدل من يخلق بدل البعض ﴿ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ من الأولاد ﴿ إِنَاثًا ﴾ بدأ بهن لكثرتهن لإرادة تكثير النسل ولأن مساق الآية الدلالة على تعلق الأمور بمشيئة الله لا مشيئة الإنسان فالغالب ما لا يهواه ولم يكن بلاء أعظم عند العرب من الإناث ﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ عرف جبراً لما فاته من التصوير إشارة إلى أنه الحاضر فى خواطرهم أول كل حاضر إذا حملت نساؤهم ثم أعطى بعد انقضاء هذا الوطر كلا منهما حقه بقوله ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ﴾ يقرنهم ﴿ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ﴾ ولم يعد لفظ المشيئة لتركبه من الأولين وأعاده فى قوله ﴿ وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ لا يلد ولا يولد له لأنه قسيمهما والخنثى عند الله ذكر أو أنثى وإن أشكل عندنا عند بعضهم أو ذكر أنثى فلم يخرج عن التقسيم ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بمصالح العباد ﴿ قَدِيرٌ ﴾ على تكوين مايصلحهم على مقتضى الحكمة ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا ﴾ أن يوحى إليه ﴿ وَحْيًا ﴾ كلاماً خفياً يدرك بسرعة لأنه تمثيل بإلهام كأم موسى أو بالمنام كإبراهيم فى الذبح ﴿أَوْ﴾ إلا ﴿ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ بأن يسمعه كلامه ولا يراه كما وقع لموسى عليه السلام وليس المراد الحجاب المشاهد ﴿ أَوْ ﴾ إلا أن ﴿ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾ ملكا كجبريل ﴿ فَيُوحِيَ ﴾ الرسول إلى المرسل إليه أى يكلمه ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ أى الله ﴿ مَا يَشَاءُ ﴾ من الوحى كما كثر أحوال رسول الله صلى الله

عليه وسلم . قرأ نافع « أو يرسل » بالرفع خبر مبتدإ : أى هو يرسل وكذا « فيوحى » والباقون بالنصب عطفاً على وحياً وهما مصدران فى موضع الحال لأن « أو يرسل » فى معنى إرسالا و « من وراء حجاب » ظرف فى موضع الحال أيضاً ، والتقدير : وماصح أن يكلم أحداً إلا موحياً أو مسمعاً من وراء حجاب أو مرسلا رسولا ، والله أعلم . وحصر تكليمه لخواص عباده من البشر فى الأوجه الثلاثة على مقتضى المشيئة كما خص من شاء بما شاء من الإناث أو الذكور أو الجميع ﴿ إِنَّهُ عَلِيٌّ ﴾ عن صفات المخلوقين فلذا كان كلامه على ما ذكر ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يضع كل شيء موضعه : فيكلم بواسطة وتارة بغيرها إما عياناً أو من وراء حجاب ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ كما أوحينا إلى الرسل قبلك أو كما أعلمناك مراتب الكلام ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ رُوحاً ﴾ هو القرآن به تحيى القلوب الميتة بداء الجهل ، أو المراد جبريل أرسلناه إليك بالوحى ﴿ مِنْ أَمْرِنَا ﴾ الذى نوحيه إليك واحد الأمور ، ويحتمل أن يكون الأمر بمعنى الكلام و « من » لابتداء الغاية . قاله فى الجواهر ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي ﴾ قبل الوحى إليك ﴿ مَا الْكِتَابُ ﴾ القرآن ﴿ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ أى شرائعه مما لا طريق إليه إلا السمع لكن كان أكمل المؤمنين قبل النبوة فالمنفى العلم بحقيقة الإيمان لا وجوده ، والله أعلم ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ ﴾ أى الروح أو الكتاب ﴿ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ بالتوفيق للقبول والنظر فيه ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي ﴾ تدعو بالوحى إليك ﴿ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ دين الإسلام ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ ﴾ بدل من الأول أى شرعه ﴿ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ خلقاً وملكاً ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ ترجع .

[تم تفسير سورة الشورى]

سورة الزخرف

مكية أو إلا «واسأل من أرسلنا» الآية
وهى تسع وثمانون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ • حمٓ ﴾ الله أعلم بمراده به ﴿ وَالْكِتَابِ ﴾ القرآن ﴿ الْمُبِينِ ﴾ المظهر طريق الهدى وما يحتاج إليه من الشريعة وصدق المرسل به لإعجازه أو الواضح لمن تدبره ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ ﴾ صيرناه ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ أقسم بالقرآن على أنه جعله قرآناً عربياً وهو من بدائع الإيمان لتناسب القسم والمقسم عليه والإشارة إلى أنه لا شيء أعلى منه يقسم به ولا أهم من وصفه فيقسم عليه مثله وجعل بمعنى صير معدى إلى مفعولين أو خلق إلى واحد و«قرآناً عربياً» حالان حينئذ والأول أوفق للمقام إذ الكلام فى كونه على أسلوب كلامهم ليدركوا إعجازه لا فى كونه مخلوقاً ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ تَعْقِلُونَ ﴾ لكى تفهموا معانيه ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ عطف على إنا ﴿ فِي أُمِّ الْكِتَابِ ﴾ فى اللوح المحفوظ أصل الكتب السماوية، وقرأ حمزة والكسائى بكسر همزة «أم» واستعير لفظه للأصل لتمثيل ما ليس مرئياً بمرئى هى حتى يصير كمرئى فينتقل السامع من السماع إلى العيان وذلك أبلغ فى التبيان ﴿ لَدَيْنَا ﴾ بدل من أم أو حال من الكتاب أى عندنا ﴿ لَعَلِيٌّ ﴾ شأنه أى ذو شرف أو عالٍ على الكتب قبله لإعجازه أو عن طرق التحريف والفساد «وإنا له لحافظون» ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة أو محكم لا ينسخه غيره وهما خبران لإنّ و «فى أم الكتاب» متعلق بعلى واللام لاتمنعه للاتساع فى الظروف أو حال منه، ويجوز أن يكون «فى أم الكتاب» خبر إن متعلقاً بمحذوف أى مثبت فى أم الكتاب ﴿أ﴾ نهملكم ﴿ فَنَضْرِبُ ﴾ نذود ﴿عَنكُمُ الذِّكْرَ﴾ القرآن ﴿ صَفْحًا ﴾ إعراضاً وهو مصدر من غير لفظ فعله أو حال أى صافحين أو مفعول له أو ظرف بمعنى الجانب أى ننحيه عنكم جانباً وأصله أن تولى الشيء صفحة عنقك ﴿ إِن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾ بكسر «إن» شرطية لنافع وحمزة والكسائى إخراجا للمحقق مخرج المشكوك استجهالا لهم وما قبلها دليل الجواب وبفتح أن للباقين أى لأن كنتم، وهو فى الحقيقة علة مقتضية لترك الإعراض، ومعنى «مسرفين» مفرطين فى الجهالة ﴿ وَكَمْ ﴾ كثيراً ﴿ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴾ من الامم ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم ﴾ أتاهم ﴿ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ كاستهزاء قومك بك، وهذا تسلية له صلى الله عليه وآله وسلم، وعبر بيأتيهم على حكاية الحال الماضية دلالة على استمرارهم على ذلك ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم﴾ من قومك المسرفين: صرف الخطاب عنهم بعد الإنكار إلى الرسول مخبرا عنهم ﴿بَطْشًا﴾ قوة

﴿وَمَضَىٰ﴾ سبق فى آيات ﴿مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ صفتهم فى الإهلاك الغريبة التى يذبغى أن تسير سير المثل وعاقبة قومك كذلك وعد للرسول ووعيد لهم ﴿وَلَئِن﴾ لام قسم ﴿سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ﴾ الله ﴿الْعَزِيزُ﴾ ذو العزة ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل شىء والوصفان وما بعدهما من الصفات من كلام الله تعالى وهو لازم لقولهم فكأنهم قالوا الله فلزم أن يكون هو الذى اتصف بما بعده إذ خلقها لا يكون إلا من اتصف به ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ بالمد للجمهور والقصر للكوفيين : فراشا كالمهد للصبى ويجوز أن يكون هذا مستأنفا والوصفان قبل من كلامهم ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ تسلكونها ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى مقاصدكم فى أسفاركم أو إلى حكمة الصانع بالنظر فى ذلك ﴿وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ بمقدار واحد ينفع ولا يضر على مقتضى الحكمة ﴿فَأَنشَرْنَا﴾ أحيينا ﴿بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ علاها اليبس وفارقها النضارة ، وتذكير ميتا باعتبار المكان ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل هذا الإحياء ﴿تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم أحياء. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى بفتح التاء وضم الراء ﴿وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ﴾ أصناف المخلوقات ﴿كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ حذف العائد اختصارا وهو مجرور فى الأول أى فيه منصوب فى الثانى وحذف المنصوب هو القياس فيكون من تغليب المتعدى بنفسه على المتعدى بغيره أو المخلوق للركوب على المصنوع له أو الغالب على النادر ولذا قال ﴿لِتَسْتَوُوا﴾ لتستقروا ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ ذكر الضمير وجمع الظهر نظرا للفظ «ما» ومعناها ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا﴾ بالقلب واللسان ﴿نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ حامدين معترفين بها ﴿إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ ولا يفوت وقته بالتراخى لو ذهل عند الركوب ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ مطيقين من أقرن الشىء أطاقه كأنه جعله فى قرن وهو الحبل وشده به وأصله من القرن وهو الجمع ومنه الأقران لاجتماعهم فى الزمان وأتى النبى صلى الله عليه وسلم بدابة فقال لما أراد الركوب : بسم الله ، ولما استوى عليها قال : الحمد لله الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين .. إلى قوله .. لمنقلبون . ثلاثا ، وهلل ثلاثا . وقد أعلمنا الله فى هذه الآية ما يقال عند ركوب الدابة كما علمنا فى أخرى ما يقال فى ركوب السفينة فى قوله : بسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ راجعون واتصاله بذلك لأن الركوب نقلة ليتذكر الراكب النقلة العظمى على الجنازة إلى الله ولأنه خطر ينبغى أن لا يغفل فيه للاستعداد للقاء الله لأنها حالة اغترار والنفس فى ذلك شموخ فيذكرها الموت والرجوع إلى الله عاريا لا مركب له سوى العمل الصالح ﴿وَجَعَلُوا﴾ متصل بقوله «ولئن سألتهم» حال من فاعل ليقولن أى اعترفوا بما مروقد جعلوا ﴿لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ بقولهم الملائكة بنات الله لأن الولد جزء الوالد والملائكة من عباده ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ﴾ القائل بذلك ﴿لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر الكفر لأنه تحقير لأمر عظيم الشأن ﴿أَمِ﴾ بمعنى همزة الإنكار والقول مقدر أى أتقولون ﴿اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ ولم تقنعوا بجعلكم له جزءا حتى خصصتموه بجزء أخس من مخلوقاته عندكم وأبغض الأجزاء إليكم ﴿وَأَصْفَاكُم﴾

أخلصكم ﴿ بِالْبَنِينَ ﴾ اللازم من قولكم السابق فهو من جملة المنكر وفيه تعجيب من فرط جهالتهم ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ﴾ بالجنس الذى جعل ﴿لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ شبه بنسبة البنات إليه لأن الولد يشبه الوالد أو سمى مثلا لأنه بلغ فى الشناعة إلى حيث يكون جديراً بأن يسير به مسير الأمثال ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ﴾ صار ﴿مُسْوَدًّا﴾ أسود فى الغاية لما يعتريه من الكآبة ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء غما كاظم له فكيف ينسب البنات إليه ثم أشار إلى إنكار آخر أشد من الأول لشرحه حال ذلك الأخس بقوله ﴿أَ﴾ تحقرونه ﴿وَ﴾ تجعلون له ﴿مَنْ يُنَشَّؤُا﴾ من تربى ﴿فِي الْحِلْيَةِ﴾ الزينة والثياب، والهمزة للإنكار والواو للعطف لجملة على جملة كما قدرنا ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ﴾ المجادلة ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أى والحال أنه لا يقدر على إقامة البرهان عند الجدال فالأول إشارة إلى ضعف البنية والثانى إلى نقصان العقل: قلّ ما تصدت امرأة إلى محاجة إلا أتت بما هو عليها وقرأ حمزة والكسائى وحفص ينشأ بضم الياء وتشديد الشين يربى وفى الآية أن النشأ فى الزينة من المعايب فى الرجل لأنه من سمات النساء فعلى الرجل أن يجتنب ذلك ويتزين بلباس التقوى ولما كفروا بجهات ثلاث بسبب نسبة الولد إليه وجعله أخس النوعين وجعله من الملائكة المكرمين: بين الأول بقوله وجعلوا له من عباده جزءا والثانى بقوله أم اتخذ إلى آخره والثالث بقوله ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ﴾ منزلة وقربة وعند بنون ساكنة مع فتح الدال لنافع وابن كثير وابن عامر وللباقين عباد بياء موحدة مفتوحة وألف ورفع الدال جمع عبد أى الذين هم عباده المكرمون المقربون اعتقدوهم ﴿إِنَاثًا﴾ فزادوا كفراً على كفر ﴿أَشَهِدُوا﴾ بهمزة مضمومة مسهلة بعد المفتوحة وسكون الشين لنافع أى أأحضروا وللباقين بفتح الشين وترك المسهلة أى أحضروا ﴿خَلْقَهُمْ﴾ فشاهدوهم إناثا فإن ذلك مما يعلم مشاهدة وذلك لم يكن قط ولا دليل لهم عقلا ولا يساعدهم نقل فليس ذلك إلا افتراء وفيه تجهيل لهم وتهكم ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ التى شهدوا بها على الملائكة بالأنوثة ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ عنها فى الآخرة سؤال توبيخ وفيه وعيد ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ أى الملائكة فعبادتنا إياهم بمشيئته فهو راض بها وهذا جهل منه بظن التلازم بين المشيئة والرضى والله تعالى شاء ذلك منهم لكنه لم يرضه ولذا قال ﴿مَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ﴾ المقول من الرضى بعبادتها ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ إذ المشيئة وهى الإرادة ترجيح بعض الممكنات على بعض مأموراً كان أو منهيا ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون فيه ولما نفى عنهم العلم من طريق العقل أضرب عنه إلى إنكاره من النقل بقوله ﴿أَمْ﴾ بل ﴿آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ أى القرآن بعبادة غير الله ﴿فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ لا يقدرون على تركه أى لم يقع ذلك فهو إبطال لطريق النقل فى ذلك بعد إبطال الطريق العقلى ولذا أضرب عنها إلى التقليد بقوله ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ ملة ﴿وَإِنَّا﴾ ماشون ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ بهم وكانوا يعبدون غير الله أى لا حجة لهم عقلا ولا نقلا بل مبنى أمرهم على تقليد آبائهم الضالين، ثم أشار إلى أن هذا الضلال طريقة أمثالهم فى تكذيب الرسل تسلية لرسولنا بقوله ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ متنعموها مثل قول قومك

﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ وفى تخصيص المترفين إشارة إلى أن التنعم يوجب البطالة وعدم النظر للعواقب ﴿قُلْ أَ﴾ تتبعونهم فى ذلك ﴿وَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى﴾ بدين أهدى ﴿مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ وهذا على زعمهم أن آباءهم على هدى إذ لاهداية فى ذلك والمخاطب به «قل» رسول الله صلى الله عليه وسلم أو حكاية أمر ماض أوحى إلى النذير ويؤيده قراءة ابن عامر وحفص: قال أولو جئتكم ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أنت ومن قبلك ﴿كَافِرُونَ﴾ ثابتون على دين آبائنا وإن جئتنا بما هو أهدى وهو إقناط للرسول من أن ينظروا أو يتفكروا فيه، قال تعالى تخويفاً لهم ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ من المكذبين للرسل قبلك بالاستئصال ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ولا تكترث بتكذيبهم فسترى مثله فيمن كذبك فاصبر ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ﴾ برىء ﴿مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ من عبادتكم أو معبودكم، أو اذكر ذلك لقومك ليروا كيف تبرأ أبوهم الأشرف عن التقليد وتمسك بالدليل وهم يفتخرون بالانتماء إليه فهلا اتبعوه إن كانوا لا يتركون تقليد الآباء فالأب الأفضل الأعلم أولى إن لم يكن لهم بدّ من التقليد ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ استثناء متصل لشمول المعبود الحق والباطل أو منقطع أى لكن الذى فطرنى ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ سيثبتنى على الهداية أو يزيدنى ﴿وَجَعَلَهَا﴾ أى كلمة التوحيد وفاعل جعل هو الله أو إبراهيم ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ ذريته فلا يزال فيهم من يوحد الله ومن يدعو إلى توحيد الله الحمد لله الذى جعلنا من ذريته على ما نسمع من نسّاب سلفنا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحّد. والترجى لإبراهيم ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ﴾ المعاصرين للرسول من ذرية إبراهيم وهم قريش ﴿وَآبَاءَهُمْ﴾ بطول العمر وبسط الرزق فاغتروا بذلك وانهمكوا فى الشهوات واشتغلوا بها عن التوحيد والنظر فى دلائله ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ القرآن ﴿وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ واضح الرسالة بالمعجزات أو مبين للتوحيد والأحكام الشرعية بالحجج والآيات ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ القرآن ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ أى زادوا شرا فضموا إلى شركهم معاندة الحق والاستخفاف به بتسميته سحراً والكفر به واستحقار الرسول عليه السلام ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ﴾ من إحداهما مكة أو الطائف ﴿عَظِيمٍ﴾ بالجاه والمال كالوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة بمكة وكعروة بن مسعود الثقفى أو كنانة بن عبد ياليل بالطائف وكانوا ينكرون إرسال بشر، ولما تكررت عليهم الحجج أخذوا فى التحكم والاعتراض على العلام الخبير فقاسوا أمر النبوة على حظوظ الدنيا ولم يعلموا أنها رتبة روحانية تستدعى الكمالات القدسية لا الزخارف الدنيوية، قال تعالى ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ النبوة إنكار وتعجب من تحكمهم ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾ ما يعيشون به ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وفضلنا فيها بعضهم على بعض أى لم نجعل قسمة الأدون الذى هو رزقهم إليهم فكيف النبوة، أو كما فضلنا البعض على البعض فى الرزق فكذلك نخص بالنبوة من نشاء ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ فى المال

والجاه والقوة والضعف فنهم الأغنياء والفقراء والشرفاء والوضعاء والموالى والخدم (لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا) مسخراً بالعمل له بالأجرة وغيرها حتى يتم النظام وإذا كانوا عاجزين عن تدبير منزلهم فكيف بتدبير الدارين الذى نيط فى أمر النبوة أى فى اختيار من يكون واسطة بين الله وعباده فى تدبير أمرهما والياء فى «سخريا» للنسب وقرئ بكسر السين (وَرَحْمَةُ رَبِّكَ) النبوة والدين (خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) من الحطام الفانى فينبغى الزهد عنه أو القناعة فيه . روى ابن المبارك بسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا أراد الله بعبد خيراً أرضاه بما قسم له وبارك له فيه وإذا لم يرد به خيراً لم يرضه بما قسم له ولم يبارك له فيه اهـ . ثم حقر شأن ما هم فيه من الدنيا وزخارفها بقوله (وَلَوْلَا) كراهة (أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً) فى الكفر إذا رأوا الكفار فى سعة وتنعم لحبهم الدنيا فيجتمعوا عليه (لَجَعَلْنَا) لحقارة الدنيا عندنا (لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ) بدل اشتمال من « لمن » (سُقُفًا) بضم السين والقاف للجمهور وبفتح السين وسكون القاف لابن كثير وأبى عمرو فالأول جمع والثانى مفرد لدلالة جمع البيوت على الجمع (مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ) من فضة جمع معرج وهى المصاعد وقرئ معاريج جمع معراج (عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ) يعلون إلى السطح (وَلِبُيُوتِهِمْ) بدل منه أيضاً أو علة كقولك وهبت له ثوباً لقميصه (أَبْوَابًا) من فضة (وَسُرُرًا) من فضة جمع سرير (عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ) فى رفرفها (وَزُخْرُفًا) عطف على « سقفاً » أى زينة من الذهب فى كل شىء من الأوانى والآلات أو عطف على محل «من فضة» أى ذهباً أى بعضها ذهب والمقصود تحقير زهرة الدنيا وفى معناه قوله عليه السلام : لو كانت الدنيا تساوى عند الله جناح بعوضة لما سقى كافراً منها شربة ماء . واستدل بقوله « لبيوتهم سقفاً » على أن السقف لصاحب السفل لأن البيت عبارة عن قاعة وجدار وسقف وباب ، فمن له البيت فله أركانه ولا خلاف أن العلو له إلى السماء واختلف فى السفل فقيل ليس له فى باطن الأرض شىء وقيل له وهو الصحيح ، قاله ابن العربى (وَإِنْ) مخففة من الثقيلة (كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا) بالتخفيف للجمهور فما زائدة وبالتشديد لحمزة وعاصم وهشام بخلاف عنه بمعنى إلا فإن نافية (مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) يتمتع به فيها ثم يزول . وروى الترمذى وصححه أنه عليه السلام قال : مالى وللدنيا ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل فى ظل شجرة ثم راح وتركها (وَالْآخِرَةُ) ثوابها (عِنْدَ رَبِّكَ) باقية فى حكمه (لِلْمُتَّقِينَ) الكفر والمعاصى المعرضين عن حب الدنيا المقبلين على حب المولى (وَمَنْ يَعْشُ) يتعامى ويعرض (عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ) القرآن لفرط اشتغاله بالشهوات ، يقال عشا يعشو إذا تعاشى بلا آفة وعشى يعشى إذا كان فى بصره آفة وقرئ من يعشو على أن من موصولة (نُقَيِّضْ) نسبب (لَهُ شَيْطَانًا) يزين له المعاصى ويوسوس إليه (فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) ملازم لا يفارقه فى الدنيا والآخرة (وَإِنَّهُمْ) أى الشياطين (لَيَصُدُّونَهُمْ) أى العاشين (عَنِ السَّبِيلِ) الموصل إلى الله وجمع الضمير لإرادة الجنس (وَيَحْسَبُونَ) أى العاشون (أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ) باتباع الشياطين (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَانَا) بالتثنية العاشى وقرينه لنافع وابن كثير وابن عامر

وأبي بكر وبالإفراد للباقين أي العاشي ويؤيده ﴿قَالَ﴾ لقرينه ﴿يَا﴾ للتنبيه ﴿لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ بعد ما بين المشرق والمغرب وفيه تغليب الأشرف ﴿فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ أنت لى ، قال تعالى ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ﴾ ما أنتم عليه من التمنى ﴿الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾ بدل من اليوم أى تبين ظلمكم فى الدنيا ﴿أَنَّكُمْ﴾ تعليل أى لأنكم مع قرنائكم ﴿فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ كما اشتركتم فى سببه ويجوز أن يكون فاعل ينفعكم على معنى لا ينفعكم اشتراككم فى العذاب لأن كلا منكم قد حل مالا تبلغه طاقته أوليس لكم ما يجده المكروب من الروح والتأسى إذا رأى من شاركه فى العذاب كقول الخنساء :

يُذَكِّرُنِي طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْرًا • وَأَذْكُرُهُ بِكُلِّ مَغِيبِ شَمْسِ
وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي • عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَلَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ • أُعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّي

ولما شبههم بالعشو نظرا إلى البداية حكم عليهم بالصمم والعمى نظرا إلى النهاية بقوله ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ إنكار تعجيب من أن يكون هو الذى يقدر على هدايتهم بعد تمرنهم على الكفر حتى صار عشاهم عمى مقرونا بصمم ﴿وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ مستغرقا فيه لا يرجى خلاصه عطف على العمى باعتبار تغاير الوصفين وفيه إشارة إلى ذلك الاستغراق وهو علة العمى والصمم ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ بالموت قبل إهلاكهم ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ بعذاب فى الدنيا أو فى الآخرة لا محالة ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ﴾ فى حياتك العذاب ﴿الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ به ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ لأنهم تحت ملكنا لا يفوتوننا ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ من الآيات والشرائع سواء جعلنا لك الظفر أو أخرنا فلا تضجر ﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ لا عوج له وهم على الباطل استئناف فى موضع التعليل ﴿وَإِنَّهُ﴾ أى القرآن مع كونه هاديا إلى سبيل السعادة ﴿لَذِكْرٌ﴾ لشرف ﴿لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ فى الدنيا لنزوله بلغتهم ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ يوم القيامة عن القيام بحقه ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ أى واسأل أممهم وعلماء دينهم ﴿أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ غيره ﴿آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ هل جاء ذلك فى ملة من مللهم وقيل سؤال الرسل على ظاهره بأن جمعوا له ليلة الإسراء ولم يسأل على واحد من التأويلين لأن المراد بالسؤال التقرير لمشركى قريش أنه لم يأت رسول من الله ولا كتاب بعبادة غيره ثم سلى رسوله على قولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم بقصة موسى مع قومه بقوله ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ من القبط ﴿فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كما قلت فكذبوه كما كذبك قومك وافتخروا بما أوتوا من الدنيا كما افتخر به قومك دل على هذا المحذوف قوله ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على رسالته ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ أى فاجأوا وقت مجيئها الضحك منها استهزاء من غير تأمل وفعل المفاجأة المقدر هو عامل النصب فى محل إذا ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ﴾ من آيات العذاب كالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم على ما تقدم ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ قرينتها التى قبلها بمعنى أنها بالغة أقصى الدرجات فى إفادة

المقصود بحيث يحسب الناظر فيها أنها أكبر كقول الحماسى :

مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لاقيتُ سيدَهُمْ ● مثلُ النجومِ التى يسرى بها السارى

أو مفضلة على غيرها بنوع اختصت به ﴿ وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ ﴾ الطوفان وما بعده أجله هنا لأنه بصدد بيان كفرهم لا بيانه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عن كفرهم ﴿وَقَالُوا﴾ لموسى لما رأوا العذاب ﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾ العالم الكامل لأن السحر عندهم علم عظيم ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ﴾ من كشف العذاب عنا إن آمنا أو بعهده عندك بالنبوة أو من استجابة دعائك ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ لمؤمنون ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ بدعاء موسى ﴿عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ فاجأوا نكث عهدهم بلا اهتداء وأصرّوا على كفرهم ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ﴾ فى مجمعهم بعد حشرهم لما كشف العذاب عنهم مخافة أن يؤمن بعضهم ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴾ من الإسكندرية إلى أسوان تفسير للنداء ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ﴾ أنهار النيل ومعظمها أربعة نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تنيس ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ تحت أمرى أو قصورى أو بين يدىّ فى جنانى والواو إما عاطفة للأنهار على الملك فتجرى حال منها أو هذه الأنهار مبتدأ موصوف وتجرى هو الخبر ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ عظمتى ﴿أَمْ﴾ تبصرون فتعلمون ﴿أَنَا خَيْرٌ﴾ فأم متصلة وذلك لأنه لما ذكر أسباب التقدم عقبه بقوله أفلا تبصرون إشارة إلى أنه من الوضوح بحيث لا يخفى على ذى بصر ثم وضع أم أنا خير مكان أم تبصرون دلالة على أن هذا الشق هو الواقع كأنه يحكيه من لسانهم ﴿مِنْ هَذَا﴾ أى موسى ﴿ الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ﴾ حقير لم يستعد للرياسة ويحتمل أن أم للانقطاع والهمزة فيها للتقرير لما تقدم من أسباب فضله ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يظهر كلامه لثغته بالجمرة التى تناولها فى صغره ﴿فَلَوْلَا﴾ هلا ﴿أُلْقِيَ عَلَيْهِ﴾ إن كان صادقا ﴿ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ جمع سوار كأغربة وبه قرأ حفص وذلك كناية عن أسباب الملك وعلاماته كعادتهم فيمن يسودونه أن يلبسوه أسورة ذهب فى ذراعيه ويطوقوه طوق ذهب ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ متتابعين حافين له يمينونه ويصدقونه ويحمونه ﴿ فَاسْتَخَفَّ ﴾ فرعون ﴿ قَوْمَهُ ﴾ أحلامهم ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ فيما يريد من تكذيب موسى ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ ولذا أطاعوا هذا الفاسق ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا ﴾ أغضبونا بالإفراط فى العناد من أسف اشتد غضبه ﴿ انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ أردنا إهلاكهم ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ التابع والمتبوع ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا﴾ سابقين عبرة جمع سالف كخدم وخادم أو مصدر نعت به وقرأ حمزة والكسائى بضم السين واللام جمع سليف ﴿وَمَثَلًا﴾ حديثا عجيبا ﴿لِلْآخِرِينَ﴾ بعدهم، يضرب به المثل حتى أنهم يطلقون فرعون على كل جائر ومسرف ثم أشار إلى باب آخر من كفرهم فقال ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ﴾ جعل ﴿ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ حديثا عجيبا سائرا مسير المثل حين نزل قوله تعالى إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم قال ابن الزِّبَعْرَى من كفار قريش رضينا أن تكون آلهتنا مع عيسى لأنه عُبد من دون الله ﴿ إِذَا قَوْمُكَ ﴾ المشركون ﴿ مِنْهُ ﴾ من المثل أى لأجله ﴿يَصِدُّونَ﴾ عن الحق ويعرضون عنه بضم الصاد لنافع وابن عامر والكسائى وبكسرها للباقين أى

يضجون فرحا وضحكا ترتفع لهم جلبة لما ظنوا من إسكاتك وقيل هما لغتان ﴿وَقَالُوا ءآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أى عيسى فرضى أن تكون معه ، أو محمد فنعبده وندع آلهتنا ﴿مَا ضَرَبُوهُ﴾ أى المثل ﴿لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ خصومة بالباطل لا تمييز للحق من الباطل ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ لك أى أشداء فى الخصام حراص عليه لعلمهم أن «ما» لغير العاقل فلا تتناول عيسى عليه السلام لكن التعصب يغطى على البصائر . وفى الصحيح قال عليه السلام ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ثم تلا هذه الآية ﴿إِنْ هُوَ﴾ ما عيسى ﴿إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بالرسالة ردّ لما ادعته النصارى واليهود فيه على ما تقدم ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ بوجوده من غير أب ﴿مَثَلًا﴾ أمراً عجيباً كالمثل السائر ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يستدل به على قدرة الله على ما يشاء وهو كالجواب عن شبه اليهود والنصارى ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ بدلكم ﴿مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ كما يخلفكم أولادكم أو لجعلنا بمعنى ولّدنا من الإنس ملائكة كما ولّدنا عيسى من غير أب والكل تذييل للدلالة على كمال الاقتدار ﴿وَإِنَّهُ﴾ أى عيسى أو محمدا أو القرآن ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ يعلم دنوها بنزوله أو بإرسال محمد لحديث «بعثت أنا والساعة كهاتين» بمعنى السبابة والوسطى أو يعلم ثبوت مجيئها وأهوالها بالقرآن وفى البخارى مرفوعا «يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام» أو معنى كونه علم الساعة إحياؤه الموتى فإنه يدل على البعث والله أعلم ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ لا تشكوا جاحدين بها ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ على التوحيد ﴿هَٰذَا﴾ الذى آمركم به ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ لا يضل سالكه ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ عن المتابعة ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ بَيِّنُ العداوة من لدن آدم والبغض والحب يتوارثان ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى الحجج أو الشرائع ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ﴾ شرائع الإنجيل لأدعوكم إلى الله ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ من أحكام التوراة من أمر الدين لا غيره من أحكام الدنيا فإن الأنبياء لم تبعث لبيانه ولذا قال صلى الله عليه وسلم أنتم أعلم بأمر دنياكم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ والإشارة إلى مجموع الأمرين التوحيد والتعبد بالشرائع اللذين هما البيان لما أمرهم بالطاعة فيه والإشارة من تتمة كلام عيسى أو استئناف من الله يدل على ماهو المقتضى للطاعة فى ذلك ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾ بعد عيسى وهم الملكانية واليعاقبة والنسطورية ﴿مِن بَيْنِهِمْ﴾ من بين النصارى فى عيسى أهو الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة أو بين المبعوث إليهم من اليهود والنصارى كما اختلف قريش فيك ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بما قالوه فى عيسى وفى غيره ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ هو يوم القيامة وعيد للأحزاب بعد الجواب عن شبههم ثم هدد قريشا بقوله ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ لا ينتظرون شيئا سواها لقيام البراهين وانزياح الشبه ﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾ بدل من الساعة ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وهم غافلون فى اشتغالهم عنها بأمور الدنيا وإنكارها ﴿الْأَخِلَّاءُ﴾ الأحباء على المعصية فى الدنيا ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة متعلق بقوله ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ تنقطع المحابة وتنقلب معاداة يلعن بعضهم بعضا ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾

المتحابين فى الله على طاعته فإنهم أصدقاء تبقى صداقتهم أبد الآباد ويقال لهم ﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ نعت لعباده ﴿بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ مخلصين ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ﴾ مبتدأ ﴿وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ نساؤكم المؤمنات ﴿تُحْبَرُونَ﴾ خبر المبتدأ أى تسرون سرورا يظهر حباره أى أثره على وجوهكم أو تزينون من الحبر وهو حسن الهيئة أو تكرمون إكراما يبالغ فيه من الحبرة المبالغة فيما وصف به الجميل ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ﴾ أوانى المأكل جمع صحفة قصعة تشبع خمسة وهى الوسطى إذ أعظم القصاع الجفنة ثم الصحفة ثم المكيلة ثم القصعة ﴿مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ جمع كوب إناء لا عروة له ليشرب الشارب من حيث شاء ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ﴾ بإثبات العائد لنافع وابن عامر وحفص وحذفه للباقين ﴿الْأَنْفُسُ﴾ تلذذا ﴿وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ بنظره وهذا تعميم بعد تخصيص مابعد من الزوائد فى التنعم والتلذذ ومدرك سائر المشاعر أدرج فى الأنفس ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فإن كل نعيم زول ليس بنعيم :

لاطيبَ للعيشِ مادامتْ منغّصةً ۞ لذاتُه بادّكارِ الموتِ والهرمِ

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا﴾ وتلك مبتدأ إشارة إلى الجنة المذكورة و «الجنة» خبرها و «التى أورثتموها» صفتها أو الخبر ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وعلى التأويل الثانى فالباء يتعلق بمحذوف لا بأورثتموها ، وفى التعبير بالإيراث مبالغة فى إعلام لزوم الملك ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أى بعضها تأكلون لكثرتها ودوام نوعها ومايؤكل يخلف بدله فى شجرها فهى مزينة بالثمار أبداً لاترى شجرة بلاثمر ثم أردف الوعد بالوعيد على الدأب المستمر فقال ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ الكاملين فى الإجرام وهم الكفار ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ خبر إن أو خالدون خبر والظرف متعلق به ﴿لَا يُفَتَّرُ﴾ لا يخفف العذاب ﴿عَنْهُمْ﴾ خبر آخر من فترت الحمى سكن حرها قليلا ومن قال يفتر عنهم فقد كذب القرآن ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ فى العذاب ﴿مُبْلِسُونَ﴾ ساكتون سكوت آيس من النجاة ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بالعذاب ﴿وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ﴾ فصل ﴿الظَّالِمِينَ﴾ بالتعرض للسخط ﴿وَنَادَوْا﴾ قبل الإبلاس ﴿يَا مَالِكُ﴾ هو خازن النار ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ بالموت لنستريح ، ولا ينافى الإبلاس لاختلاف الأوقات ، قاله فى غاية الأمانى . أو الإبلاس اليأس من النجاة ولا ينافى الدعاء بالموت ﴿قَالَ﴾ لهم مالك بعد ألف سنة ﴿إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ فى العذاب دائماً لاخلاص لكم بموت ولا غيره أو القائل هو الله ويؤيده ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ﴾ على لسان الرسل ، وعلى الأول فضمير جئنا للملائكة ومالك منهم إذ هم رسل الله فى إنزال الحق ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ لما فيه من ترك الترؤس والمألوف مع احتمال أعباء التكليف ومع الباطل الدعة ﴿أَمْ﴾ بل ﴿أَبْرَمُوا﴾ أحكموا ﴿أَمْرًا﴾ فى كيد النبى وإبطال الحق ولم يقتصروا على كراهته وهو تهكم بهم لأن ما هم فيه من أنواع المكر والحيل رقم على الماء ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ محكمون كيدنا فى إبطال أمرهم وإهلاكهم ومجازاتهم ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ ما فى أنفسهم قبل التكلم به ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ تناجيهم فى شأن الرسول وغيره ﴿بَلَى﴾ نسمع ذلك ﴿وَرُسُلُنَا﴾ الحفظة

مع ذلك ﴿ لَدَيْهِمْ ﴾ ملازمون ﴿ يَكْتُبُونَ ﴾ كل حركة وسكون وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴿ قُلْ ﴾ للقائلين اتخذ الرحمن ولداً ﴿ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ ﴾ فرضاً ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ المعظمين لذلك الولد لأن النبي أولى بتعظيم ما يجب تعظيمه لا يسبق إليه لكن ثبت عقلا ونقلا أن لا ولد له فانتفت عبادته وهذا نفي للولد بأبلغ وجه كقول سعيد بن جبير للحجاج حين قال له والله لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى لو عرفت أن ذلك إليك ما عبدت إلهاً غيرك .ولحمزة والكسائي وُلْدٌ بالضم وفي الآية تأويلات غير هذا ثم نزه تعالى ذاته عن اتخاذ الولد بقوله ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ عن كونه ذا ولد لأن رب هذه الكائنات لا يكون جسما يولد منه آخر أو لأنها لما كانت أصولا تنزهت عن التوالد فكيف بمبدعها الذي ليس كمثله شيء ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا ﴾ في باطلهم ﴿ وَيَلْعَبُوا ﴾ في دنياهم كالصبيان والبله الذين لا يجرى عليهم القلم إشارة إلى أنهم أهل الطبع ﴿ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ فيه بالعذاب وهو يوم القيامة ﴿ وَهُوَ الَّذِي ﴾ هو ﴿ فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ ﴾ معبود ﴿ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ وكل من الظرفين متعلق بما بعده لكونه بمعنى المعبود والعائد إلى الموصول محذوف لطول الصلة وزادها طولا أن المعطوف داخل في حيز الصلة ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ في صنعه ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ كامل العلم بمصالحه والوصفان كالدليل على ما تقدم ﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ كالهواء ﴿ وَعِنْدَهُ ﴾ وحده ﴿ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ متى تقوم متصل بقوله حتى يلاقوا يومهم مسوق للوعيد ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ بالخطاب التفاتاً تهويلا لنافع وأبي عمرو وعاصم وابن عامر وبالغيبة للباقين ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ يعبدون ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ أي الله ﴿ الشَّفَاعَةَ ﴾ لأحد ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ ﴾ التوحيد بأن قال لا إله إلا الله مخلصاً له في قلبه ولذا قال ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم ، استثناء متصل إن أريد بالموصول كل ما عبد من دون الله لشموله الملائكة وعيسى وعزير وهم المستثنون فإنهم يشفعون للمؤمنين ، ومنقطع إن أريد به الأصنام ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ لتعذر المكابرة فيه من فرط ظهوره ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره بعد هذا الإقرار ﴿ وَقِيلَهُ ﴾ أي وقول الرسول بالنصب للجمهور عطفاً على سؤالهم أو على محل الساعة أو بإضمار فعله أي وقال قيله وبالجر لعاصم وحمزة عطفاً على لفظ الساعة وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ خبره ﴿ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ قال تعالى ﴿ فَاصْفَحْ ﴾ أعرض ﴿ عَنْهُمْ ﴾ آيساً من إيمانهم ﴿ وَقُلْ سَلَامٌ ﴾ متاركة لا تحية ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ بالفوقية لنافع وابن عامر وبالتحتية للباقين تهديد لهم .

[تم تفسير سورة الزخرف]

سورة الدخان

مكية ، إلا « إنا كاشفو العذاب ... الآية »
وهي ست أو سبع أو تسع وخمسون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ حم ﴾ الله أعلم بمراده به ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ القرآن ، والواو للعطف إن كان «حم» مقسما بها وإلا فللقسم والجواب قوله ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ هي ليلة القدر أنزل فيها جملة من اللوح إلى السماء الدنيا ثم أنزل على الرسول نجوما لقوله « إنا أنزلناه في ليلة القدر » وقوله « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » ، وكون ليلة القدر في رمضان كاد أن يتواتر وكونها مباركة لكثرة منافع الدين والدنيا فيها كنزول الملائكة والرحمة وإجابة الدعوة وقسمة النعمة وفصل الأقضية وكفى بإنزال القرآن فيها بركة ، وأما القول بأنها ليلة النصف من شعبان فباطل كما قال ابن العربي إذ نص القرآن على أن ميقات نزوله رمضان فمن زعم أنه في غيره فقد أعظم الفرية وليس في ليلة النصف من شعبان حديث يعوّل عليه ولا في فضلها ولا في نسخ الآجال فيها فلا تلتفتوا إليه ، انظره في أحكامه ، وقال في غاية الأماني : ليس لذلك القول دليل سوى حديث مرسل ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ مخوفين استئناف لتعليل الإنزال ﴿ فِيهَا ﴾ أي في ليلة القدر ﴿ يُفْرَقُ ﴾ يفصل ﴿ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ محكم من الأرزاق والآجال وغيرها التي تكون في سنة إلى مثل تلك السنة كما قال فيها « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر » وهو جواب عن تخصيص الإنزال بتلك الليلة كأنه قال : هي جديرة بذلك لأن الله تعالى آثرها بفصل كل أمر محكم لا يبدل من شئون الكائنات فتدفع نسخة الأرزاق وأسبابها إلى ميكائيل ونسخة الحروب وما يلائمها من الزلازل والصواعق إلى جبريل ونسخة الموت والمصائب إلى عزرائيل ملك الموت ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا ﴿ أَمْرًا ﴾ أي فرقا كائنا ﴿ مِّنْ عِندِنَا ﴾ على ما اقتضاه تدبيرنا نصب على المصدر ليفرق لأنه بمعنى يؤمر كأنه قال فيها يؤمر كل شأن على وجه الحكمة أمرا أو على الحال من فاعل أنزلناه أو مفعوله بمعنى آمرين أو مأمورا والأمر مقابل النهي ، ويجوز أن يكون بمعنى الشأن فيكون حالا من كل أو أمر أو ضميره المستكن في حكيم لأنه موصوف ، وما في «أمرا من عندنا» من التنكير والوصف والاختصاص يزيد فخامة «أمر حكيم» ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ بدل من « إنا كنا منذرين » أي إنا أنزلناه لأن عادتنا إرسال الرسل بالكتب ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ بالمرسل إليهم وضع الرب موضع الضمير للإشعار بأن الربوبية اقتضت ذلك فإنه أعظم أنواع التربية ورحمة وما قبله علة الإنزال ويجوز

أن يكون ما قبله علة أمرا ويكون هو مفعولا به أى صدور الأمر من عندنا لأن من شأننا أن نرسل رحمتنا فالأوامر الإلهية من باب الرحمة ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لأقوال العباد ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأحوالهم وأفعالهم وهذا وما بعده تحقيق لربوبيته وأنها لا تحق إلا لمن هذه صفاته ﴿ رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ بالرفع لنافع وابن كثير وابن عامر وأبى عمرو خبر آخر أو استئناف وبالجر للباقين بدل من ربك ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ فى إقراركم أنه خالقها أو إن كنتم من أهل الإيقان فأيقنوا ذلك التوحيد الذى يقوله محمد أو علمتم أن الأمر كما قلنا ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إذ لا خالق سواه ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ كما تشاهدون ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ والإفضال على الأصل إفضال على الفرع ثم رد أن يكونوا موقنين بقوله ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ ﴾ عما يقرون من أنه الخالق فإقرارهم لم يكن على علم ولذا أشركوا بالله وأنكروا البعث ﴿ يَلْعَبُونَ ﴾ فإقرارهم مخلوط بهزء ولعب ولما قابلوا نعمة المنزل بالكفران أوعدهم بقوله ﴿ فَارْتَقِبْ ﴾ انتظر لهم ﴿ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴾ من شدة الجوع والقحط لأن الهوى يظلم عام القحط لكثرة الغبار بقلة الأمطار والجائع يرى كهيئة الدخان من ضعف بصره وقد دعا عليه السلام على قريش فأصابهم الجهد حتى أكلوا جيف الكلاب وكان الرجل منهم يرى بين السماء والأرض دخانا ويحدث أخاه وهو يسمع صوته ولا يراه ويحتمل إرادة يوم ظهور الدخان المعدود فى أشراط الساعة الذى يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليلة أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكام وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره والأول أشد ملاءمة للسياق ﴿ يَغْشَى النَّاسَ ﴾ يحيط بهم قائلين ﴿ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ، رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ وعدٌ منهم بالإيمان إن كشف ، قال تعالى ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ ﴾ بكشف العذاب أو كيف يتذكرون الإيمان بهذه الحالة ﴿ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴾ واضح البيان بأمر البرهان أو يبين لهم ما هو أعظم من ذلك فى إيجاب الادّكار من الآيات ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ أعرضوا ولم يكتفوا بالإعراض حتى عابوه بما حكى عنهم بقوله ﴿ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ ﴾ يملمه القرآن غلام أعجمى وبعضهم لما رأى أن صدور مثله عن الأعجمى محال قال إنه ﴿ مَجْنُونٌ ﴾ قال تعالى ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ ﴾ أى الجوع عنكم زمنا ﴿ قَلِيلًا ﴾ فكشف عنهم ﴿ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ إلى كفركم لأن وعدكم الإيمان كان لخوف العذاب فعادوا إلى كفرهم . قال تعالى ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ ﴾ يوم بدر أو يوم القيامة ظرف لفعل دل عليه ﴿ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴾ لا لَهُ لأن إنّ حاجز ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ بتوسيع الأرزاق وبالإمهال ﴿ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ ﴾ هو موسى عليه السلام ﴿ كَرِيمٌ ﴾ على الله تعالى أو على المؤمنين أو فى نفسه لشرف نسبه وفضل حسبه ﴿ أَنْ ﴾ أى بأن ﴿ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ﴾ بنى إسرائيل أى أرسلوهم معى كقوله أن أرسل معنا بنى إسرائيل أو المعنى أدوا إلى حق الله من الإيمان وقبول الدعوة يا عباد الله ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ غير متهم على وحى الله لدلالة المعجزات على ذلك وهو علة الأمر ﴿ وَأَنْ

لَا تَعْلُوا ﴾ لا تتكبروا ﴿ عَلَى اللَّهِ ﴾ على شرعه باستهانة رسوله وترك طاعته ﴿ إِنِّي ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ ﴾ برهان ﴿ مُّبِينٍ ﴾ بين على رسالتى علة للنهى ولا يخفى حسن المراعاة فى ذكر الأمين مع الأداء والسلطان مع العلاء فتوعدوه بالرجم فقال ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ بالحجارة أو الشتم ومعنى عذت التجأت إليه وتوكلت عليه وكونه من الحجارة أظهر لأنه الذى أعيذ منه ولم يعذ من الآخر وفيه أن من استعاذ بالله يجب إعاذته كما روى ابن عمر رضى الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من استعاذكم بالله فأعيذوه ومن سألكم بالله فأعطوه ، ومن استجار بالله فأجيروه ، ومن أتى إليكم بمعروف فكافئوه فإن لم تقدروا فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه » رواه أبو داود والنسائى والحاكم وابن حبان فى صحاحهم ، وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴾ لا موالاة بيننا أو كفوا شركم عنى إلى أن يحكم الله بيننا واتركوا أذاى ، فلم يتركوا ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ ﴾ أى بأنّ ﴿ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ تعريض بالدعاء بذكر ما استوجبوه به ولذا سماه دعاء وقيل دعا ربه بقوله « ربنا اطمس . . . الآية » أو ربنا لا تجعلنا فتنة ، وقوله : إن هؤلاء من كلامه تعالى بيانا لما استوجبوا به الدعاء من موسى والاستجابة منه وأنه ما دعا إلا بعد اليأس . قال تعالى ﴿ فَأَسْرِ ﴾ بوصل الهمزة لنافع وابن كثير وقطعها للباقين ﴿ بِعِبَادِي ﴾ بنى إسرائيل ﴿ لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ يتبعكم فرعون وقومه . قال ابن العربى : سير الليل يكون لخوف عدو أو مشقة الدواب والأبدان بحر أو عطش وكان النبي صلى الله عليه وسلم يسرى ويدلج ويرفق ويستعجل بحسب الحاجة وما تقتضيه المصلحة والسرى سير الليل والإدلاج سير السحر ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ ﴾ إذا عبرت أنت وأصحابك ﴿ رَهْوًا ﴾ ساكنا على حاله حتى تدخله القبط أو مفتوحا من رها بين رجليه وسّع ﴿ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ فاطمأن بذلك فأغرقوا . ﴿ كَمْ ﴾ كثيرا ﴿ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ ﴾ بساتين ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ تجرى ﴿ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ ﴾ مجلس ﴿ كَرِيمٍ ﴾ حسن أو منزل مزين ﴿ وَنَعْمَةٍ ﴾ متعة وتنعم ﴿ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴾ ناعمين ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أى مثل ذلك الإخراج أخرجناهم والكاف فى محل النصب أو مرفوعة خبر مبتدأ أى الأمر كذلك ﴿ وَأَوْرَثْنَٰهَا ﴾ عطف على الفعل المقدر أو تركوا أموالهم ﴿ قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ أجانب لا قرابة بينهم وبينهم وهم بنو إسرائيل ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ أى أهلهما أى تمثيل على سبيل التهكم لعدم الاكتراث بهم أو حقيقة لما روى أبو يعلى عن أنس أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا مات العبد المؤمن بكت السماء والأرض عليه » . وعن ابن عباس « يبكى عليه أربعين صباحا مصلاه ومحل عبادته ومصعد عمله ومهبط رزقه ﴿ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ مؤخرين إلى وقت آخر طرفة عين ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَٰءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ قتل الأبناء واستخدام النساء ﴿ مِن فِرْعَوْنَ ﴾ بدل « من العذاب المهين » بتقدير مضاف أى من عذابه أو جعل نفس العذاب لإفراطه ولذا علله بقوله ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا ﴾ متكبرا ﴿ مِّنَ

﴿الْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين في العتو وهو خبر ثان أو حال من الضمير في « عالياً » وقرئ « مَن فرعون » بفتح الميم على الاستفهام للتقرير أي تعرفونه في عتوه كيف كان ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ﴾ أي بني إسرائيل ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منا بحالهم فإنهم أحقاء بذلك وأنهم يزيغون في بعض الأحوال ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ عالمي زمانهم العقلاء لكثرة الأنبياء فيهم ﴿وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ﴾ كفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى ﴿مَا فِيهِ بَلَاءٌ﴾ إنعام ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهر، سمي بلاء لوقوع الاختبار به وحمله على المحنة لا يلائم لأنه في مقام الامتنان ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي قريشاً الذين هم في شك يلعبون إذ قصة موسى مستطردة في الكلام فيهم دلالة على أن قوم موسى مثلهم في الإصرار على الضلالة ﴿لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ﴾ أي لا موت ﴿إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ﴾ التي بعد الحياة الدنيا إنكاراً لموتة القبر وما بعدها لقولهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ بمبعوثين أحياء بعدها والأولى لا تقتضي أن يكون لها ثانية كقولك حج زيد الحجة الأولى، وقتله بأول ضربة وهذا هو الأظهر وقيل المعنى: ما الموتة التي بعدها الحياة إلا موتتنا الأولى ونحن نطف. والله أعلم. ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا﴾ الميتين أحياء كقصيّ لنسألهم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنا نبعث بعد موتنا. قال تعالى ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ في القوة والمنعة ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ وهو تبع الأول الحميري من ملوك اليمن اسمه وأسعد بن كرب» وكنيته « أبو كرب » أسلم واتبع دين موسى عليه السلام وأسلم قومه على يديه ثم بعده كفروا ولذا ذمهم الله دونه، وهو الذي سار بالجيوش شرقاً وغرباً وعاش ملكاً ثلثمائة سنة، وهو أول من كسا الكعبة وحير الحِيَرة وبنى سمرقند، ولما رجع من الشرق أراد تخريب المدينة فأخبر أنها مهاجر نبيّ آخر الزمان اسمه أحمد فانصرف عنها وقال في الإيمان بذلك الرسول شعرا أودعه عند أهلها حتى أدوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صح أنه عليه السلام قال: « لا تسبوا تبعا فإنه كان مسلما » ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كعاد وثمود ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ لكفرهم استئناف لتهديد قريش أو حال بإضمار قد أو خبر عن الموصول إن استؤنف به ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ بيان للموجب الجامع ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ بخلق ذلك من غير حكمة بل لابد من مجازاة، ولاعبين حال ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا﴾ وما بينهما ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ بسببه من الإيمان والطاعة والبعث والجزاء ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لقلة نظرهم ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ بين المحق والمبطل بالجزاء أو بين المرء وأحبابه ﴿مِيقَاتُهُمْ﴾ وقت موعدهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ المتقدمين والمتأخرين ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي﴾ بدل من يوم الفصل أو من ميقاتهم أو ظرف لما دل عليه الفصل لا له للفصل ﴿مَوْلًى﴾ من قرابة أو صداقة أو غيرهما أي لا يدفع ﴿عَن مَّوْلًى﴾ أي مولى كان ﴿شَيْئًا﴾ نزراً يسيرا من الإغناء ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ لو طلبوا النصر والضمير للمولى الأول والجمع باعتبار المعنى لأنه عام ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾ بالعفو عنه وقبول الشفاعة من المؤمنين فبعضهم يشفع في بعض بإذن الله ومحل « مَن » رفع على البدل من الواو أو نصب على الاستثناء ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب لا ينصر من خذله ﴿الرَّحِيمُ﴾ لمن أراد أن يرحمه.

ولما ذكر الزقوم فى طعام أهل النار وكان أهل اليمن يسمون الزبد والتمر زقوماً دعا أبو جهل بزبد وتمر وقال لقريش هلموا إلى ما يخوفكم به محمد ، فنزلت ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ ﴾ الكافر الكثير الآثام كأبى جهل وأصحابه ﴿ كَالْمُهْلِ ﴾ كالحديد أو النحاس الذى أهمل فى النار حتى ذاب أو هو دردى الزيت الأسود خبر ثان ﴿ تَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴾ بتاء التأنيث خبر آخر للجمهور وبياء التذكير لابن كثير وحفص والضمير للطعام حال منه لا من المهل لفساد المعنى ﴿ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴾ الماء الحار الذى انتهى غليانه ﴿ خُذُوهُ ﴾ يقال للزبانية خذوا الأثيم ﴿ فَاعْتُلُوهُ ﴾ بضم التاء لنافع وابن كثير وابن عامر وبكسرها الباقين لغتان : جروه بغلظة وشدة ﴿ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ وسط النار أقبح أماكنها ﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴾ الذى لا يفارقه العذاب فهو أبلغ مما فى آية «يصب من فوق رءوسهم الحميم» بجعل العذاب مصبوباً دون الحميم على طريق الاستعارة لأنه فى مقام الكبرياء وإظهار السخط العظيم وقولوا له ﴿ ذُقْ ﴾ العذاب ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ بزعمك أمر إهانة تهكماً به وإيغاء بحق الحاسة من العذاب لأن الآية نزلت فى أبى جهل حين قال للرسول لما زجره لقد علمت ما بين جبليها أعز وأكرم منى ، وقرأ الكسائى «أنك» بالفتح أى لأنك ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ العذاب الذى ترونه وتذوقونه ﴿ مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ فيه تشكون ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مُقَامٍ ﴾ مكان أصله موضع القيام ثم اتسع فيه فاستعمل فى مطلق المكان وهو بضم الميم لنافع وابن عامر وبفتحها الباقين ﴿ أَمِينٍ ﴾ يأمن صاحبه من كل آفة وانتقال ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ بدل من «مقام» جىء به للدلالة على اشتماله على المآكل والمشارب التى بها قوام الملاذ ﴿ يَلْبَسُونَ ﴾ خبر ثان أو حال من الضمير فى الجار والمجرور أو استئناف ﴿ مِنْ سُنْدُسٍ ﴾ ما رقّ من الحرير ﴿ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ ما غلظ منه وهما معربان ﴿ مُتَقَابِلِينَ ﴾ فى مجالسهم ليستأنس بعضهم ببعض ولا ينظر إلى قفا غيره لدوران الأسرة بهم ﴿ كَذَلِكَ ﴾ الأمر ﴿ وَزَوَّجْنَاهُمْ ﴾ قرناهم ﴿ بِحُورٍ ﴾ بنساء بيض ﴿ عِينٍ ﴾ جمع عيناء أى واسعات الأعين حسانها من نساء الدنيا وغيرهن ﴿ يَدْعُونَ ﴾ يطلبون من الخدم ﴿ فِيهَا ﴾ فى الجنة أن يأتوا ﴿ بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ﴾ من أى نوع أرادوا فى أى وقت كان ﴿ آمِنِينَ ﴾ من انقطاعها ومضرتها ومن كل مخوف حال ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ ﴾ هذا رأس النعم كلها ﴿ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾ التى فى الدنيا والاستثناء منقطع وقيل «إلا» بمعنى بعد ﴿ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ أى والحال أنهم حفظوا من عذاب النار ولا ينافى دخول بعض المؤمنين لأن الكلام فى المتقين ﴿ فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ﴾ أعطوا كل ذلك تفضلا منه مصدر بمعنى تفضلا منصوب بتفضل مقدراً ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ لأنها نعم خالصة لا شوب فيها ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ ﴾ سهلنا القرآن ﴿ بِلِسَانِكَ ﴾ بلغتك لتفهمه العرب. وهو فذلكة السورة تذكيراً لما سلف من إنزال الكتاب وما ترتب عليه وإجمال بعد تفصيل ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يتعظون فيؤمنون لكنهم لا يؤمنون ﴿ فَارْتَقِبْ ﴾ انتظر هلاكهم وعدٌ له ووعيد لهم ﴿ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴾ ما يحل بك .

[تم تفسير سورة الدخان]

سورة الجاثية

مكية ، أو إلا (قل للذين آمنوا يغفروا) الآية
وهي ست أو سبع وثلاثون آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ حمٓ ﴾ الله أعلم بمراده به ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ القرآن مبتدأ خبره ﴿ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ﴾ فى ملكه ﴿ ٱلْحَكِيمِ ﴾ فى صنعه ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أنفسهما أو فى ما خلق فيهما من الكواكب والجبال وسائر الكائنات ﴿ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ دالات على قدرة الله ووحدانيته ﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ ﴾ من نطفة ثم علقة ثم مضغة إلى آخره ﴿ وَ ﴾ خلق ﴿ مَا يَبُثُّ ﴾ يفرق فى الأرض ﴿ مِن دَآبَّةٍ ﴾ ما يدب عليها من الناس وغيرهم ﴿ ءَايَٰتٌ ﴾ بالرفع للجمهور مبتدأ والمجرور قبل خبره ، وبالنصب لحمزة والكسائى عطفاً على لفظ «لآيات» عطف الخاص على العام على التأويل الثانى فى السموات والأرض ﴿ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ بالبعث ﴿ وَ ﴾ فى ﴿ ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ ذهابهما ومجيئهما ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ ﴾ مطر لأنه سبب الرزق ﴿ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ﴾ بالجمع للجمهور والإفراد لحمزة والكسائى أى تقليبها جنوباً وشمالا باردة وحارة ﴿ ءَايَٰتٌ ﴾ فيه القراءتان ويلزمهما العطف على معمولى عاملين مختلفين «فى» والابتداء فى الرفع و «إن» و «فى» فى النصب وقد منعه البصريون وأجازه الكوفيون والرفع والنصب عند الأولين على إضمار هى أو على الاختصاص أو بتقدير فى لتقدمه فى الأولين ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ الدليل فيؤمنون واختلاف الفواصل الثلاث لاختلاف الآيات فى الدقة والظهور على رعى الترقى فى الدليل والمدلول وذلك أن السموات والأرض أظهر الكائنات جعلت دليلا على أصل الإيمان ثم نظرُ الإنسان فى حاله وحال سائر الحيوان لكثرته أدخل فى نفى الشك وأجلب لاطمئنان القلب لجعل دليلا على الإيقان الذى هو أعلى درجات الإيمان . ولما كان التأمل فى الاختلاف والتصريف وما بينهما أدل على استحكام اليقين لأنه يتجدد حيناً فحيناً ويتجدد فيه النظر والاعتبار جعل دليلا على التعقل الذى هو مدار الإيمان واليقين ﴿ تِلْكَ ﴾ الآيات المذكورات ﴿ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ حججه الدالة على وحدانيته وكمال اقتداره ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ حال من الفاعل عاملها معنى الإشارة ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ متعلق بنتلو أى ملتبسين به أو ملتبسة به ﴿ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ ﴾ أى حديثه وهو القرآن ﴿ وَءَايَٰتِهِۦ ﴾ حججه التى فى القرآن أو تقديم الاسم الأعظم تعظيم لآيات الله كقولك أعجبنى زيد وعلمه وعلى التأويل الأول من تقدير المضاف فعطف الآيات على حديثه من عطف المفصل على المجمل ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ بالياء لنافع وابن كثير وأبى عمرو وحفص وبالتاء للباقين أى لا يؤمنون إذ لا بيان أزيد من بيان حديثه

وآياته بل هم مصرون على إفكهم ﴿وَيْلٌ﴾ كلمة عذاب ﴿لِكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذاب ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الإثم ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآن ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ ليتأملها ويؤمن بما فيها ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ على كفره من أصر الحمار أذنيه على علفه ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ متكبرا عن الإيمان ، وثم لاستبعاد الإصرار بعد سماعها ويجوز أن يكون على أصله لأن إصراره يكون بعد تردده ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أى كأنه خففت وحذف ضمير الشأن والجملة فى موضع الحال من فاعل مستكبرا أى يصر مثل غير السامع ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على إصراره والبشارة تهكم على الاستعارة ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا﴾ أى إذا بلغه شىء وعلم أنه منها ﴿ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ لذلك الإصرار من غير أن يرى فيها ما يناسب الهزء ولم يقل اتخذه إشارة إلى إفراطه فى طغيانه بأنه إذا علم شيئاً من الآيات خاض فى الكل ولم يقتصر على ما بلغه أو المعنى إذا علم أدنى شىء من المواضع التى يمكن التلبيس فيها كما فى قصة ابن الزبعرى زعم أن الكل من هذا القبيل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأفاكون الموصوفون بما ذكر ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ذو إهانة لإهانتهم لآيات الله ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أمامهم لأنهم متوجهون إليها أو من خلفهم لأن ذلك بعد آجالهم ، والوراء اسم لما يواريه الشخص من قدام أو خلف ﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا﴾ من الأموال والأولاد ﴿شَيْـًٔا﴾ أى لا يدفع شيئاً من العذاب ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام ﴿أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يحاط بكنهه ﴿هَٰذَا﴾ القرآن ﴿هُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ﴾ حظ ﴿مِّن رِّجْزٍ﴾ أشد العذاب ﴿أَلِيمٌ﴾ موجع بجر الميم للجمهور صفة رجز ورفعها لابن كثير وحفص صفة عذاب ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ بخلقه على وجه يمكن الانتفاع به ﴿لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ بإذنه وتسهيله وأنتم راكبوها ﴿وَلِتَبْتَغُوا﴾ تطلبوا ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ بالتجارة والغوص والصيد وغيرها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من شمس وقمر ونجم وماء وغير ذلك ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من دابة وشجر ونبات وأنهار وغيره أى خلق ذلك لمنافعكم ﴿جَمِيعًا﴾ تأكيد ﴿مِّنْهُ﴾ حال أى سخرها كائنة منه تعالى أو خبر محذوف أى هى منه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها فيؤمنون أو يزدادون إيقانا ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ اغفروا ما وقع من أذى الكفار ﴿يَغْفِرُوا﴾ بالصفح ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ لا يخافون أو لا يتوقعون وقائعه بأعدائه أو الأوقات التى وقتها الله لنصر المؤمنين أو لجزائهم وهذا قبل الأمر بجهادهم وعليه فمنسوخ بآية القتال وقيل محكم . قال ابن عطية : الآية تتضمن الغفران عموما فينبغى أن يقال : إن الأمور العظام كالقتل والكفر مجاهرة قد نسخ غفرانه بآية السيف والجزية وما أحكمه الشرع لا محالة وأن الأمور الحقيرة كالجفاء فى القول ونحو ذلك يحتمل أن تبقى محكمة اهـ. قلت : معنى النسخ هنا التخصيص للعام تأمله ﴿لِيَجْزِىَ﴾ بالياء للأكثر والنون لابن عامر وحمزة والكسائى ﴿قَوْمًا﴾ يعنى المؤمنين ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الغفران للكفار أذاهم والصبر وهو علة للأمر وتنكير قوما للتعظيم أى قوما أى قوم ففى هذا التنكير كمال التعريف إيماء

إلى أنهم لا يخفون عرفوا أو نكروا مع العلم بأن الجزى لا يكون إلا الغافر ومن حمل قوما على الكفار أو على الشيوع فقد استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير . قاله فى غاية الأمانى معترضا للبيضاوى ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ تقدم مثله مرارا ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ به بين الناس فى فصل الخصومات أو الحكمة النظرية ، العملية ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ اذ كثر فيهم الأنبياء مالم يكثر فى غيرهم ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ مما أحل الله من اللذائذ كالمن والسلوى وسائر المآكل والمشارب ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حيث آتيناهم مالم نؤت أحدا غيرهم وهو اجتماع الملك والنبوة ولم يجتمعا فى غيرهم . قاله فى غاية الأمانى ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ﴾ أدلة ﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أمر الدين ويندرج فيه المعجزات الدالة على حقية دينهم ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟﴾ فى ذلك الأمر ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بحقيقة الحال ﴿بَغْيًۢا﴾ أى لبغى أى ظلم وحسد حدث ﴿بَيْنَهُمْ﴾ فجعلوا ما هو سبب الألفة موجبا للاختلاف ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بالمؤاخذة والمجازاة للمبطل والمحق ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ منهاج خاص والتنوين للتعظيم وأصل الشريعة مورد المياه استعيرها الدين لأن الناس يردونه ابتغاء رحمة الله ﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أمر الدين واحد الأمور أو الأوامر ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾ أثبت على سلوكها ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعنى آراء الرجال التابعة للشهوات كقول رؤساء قريش له ارجع إلى دين آبائك ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ﴾ لن يدفعوا عنك ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ من عذابه ﴿شَيْـًٔا﴾ إن خالفت أمره ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ إذ الجنسية علة الانضمام فلا توالهم باتباع أهوائهم ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يتولاهم وانت إمامهم فعليك بموالاته بالتقوى واتباع الشريعة ﴿هَٰذَا﴾ القرآن أى ما فيه من المعارف والحكم ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ لقلوبهم تبصرهم وجه الفلاح كما جعل روحا وحياة ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ من العذاب أونعمة من الله ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يطلبون اليقين ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى همزة الإنكار أ ﴿حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟﴾ اكتسبوا ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الكفر والمعاصى ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ نصيرهم مثلهم ﴿سَوَآءٌ﴾ بالرفع للجمهور خبر ﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ مبتدأ ومعطوف والجملة بدل من الكاف والضميران للكفار والمعنى أحسبوا أن نجعلهم فى الآخرة فى خير كالمؤمنين أى فى رغد من العيش مساو لعيشهم فى الدنيا حيث قالوا للمؤمنين : لئن بعثنا لنعطى من الخير مثل ما تعطون فهو إنكار أن تكون حياتهم ومماتهم سيين فى البهجة والرغد كما هو للمؤمنين ويدل عليه قراءة حمزة والكسائى وحفص سواء بالنصب على الحال من الضمير فى الكاف أو على المفعولية والكاف حال ويحتمل رجوع الضمير للمؤمنين على أن الجملة استئناف يبين المقتضى للإنكار ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حكمهم هذا أى ليس الأمر كذلك فهم فى الآخرة فى العذاب على خلاف عيشهم فى الدنيا والمؤمنون فى الآخرة فى الثواب بعملهم الصالحات فى الدنيا ، وما ، مميز أو فاعل ثم أردفه

بما هو كالدليل عليه بقوله ﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ المقتضى للعدل الذى هو انتصار المظلوم من الظالم وعدم تساوى المسىء والمحسن فلم يقع فى المحيا فلا بد أن يكون بعد الممات ليظهر العدل ﴿ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ عطف على « بالحق » لأنه فى معنى العلة أو على علة محذوفة مثل ليدل بها على قدرته أو ليعدل ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ بنقص ثواب أو زيادة عقاب ولا يساوى الكافر المؤمن ﴿ أَفَرَأَيْتَ ﴾ أخبرنى ﴿ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ ﴾ ما يهواه من حجر بعد حجر يراه أحسن وترك متابعة الهدى ، تعجب من حاله ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ منه تعالى بأنه استحق الإضلال لكونه مخلوقاً للنار أو بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجة عليه ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ ﴾ فلا يبالى بالمواعظ ﴿ وَقَلْبِهِ ﴾ فلا يتفكر فى آياته ، وتقديم السمع على القلب عكس ما فى البقرة لأن الكلام هنا فى المعرض عن الهدى المتبع لما يهواه المستكبر عن الآيات كأن لم يسمعها وما فى البقرة ابتداء كلام منه تعالى إشارة إلى الجبلة ، والقلب هو الأصل فى ذلك ﴿ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ ظلمة لا يبصر الهدى ، وقرأ حمزة والكسائى هنا وغَشوة وهما لغتان والأولى أشهر ولذا اتفقوا عليها فى البقرة ويقدر هنا المفعول الثانى لأرأيت أى أيهتدى ﴿ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ﴾ بعد إضلاله إياه ، استفهام إنكار أى لا أحد ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أن الكل منه تعالى وفيه نهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن تهالكه على إيمانهم ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ ﴾ ما الحياة ﴿ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ التى نحن بها ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ يموت بعضنا ويحيى بعضنا أو نكون نطفاً ونحيى بعد ذلك أو نموت نحن ونحيى بحياة أولادنا. أو يصيبنا الأمراض ، ليس وراء ذلك حياة ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ مرور الزمان كسائر الأشجار والنبات من دهره إذا غلب ﴿ وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ ﴾ المقول ﴿ مِنْ عِلْمٍ إِنْ ﴾ ما ﴿ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ تقليداً لآبائهم بلا دليل عليه ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴾ الدالة على عكس ما يظنونه لعلهم يرشدون ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ واضحات ﴿ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا ﴾ أحياء ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أنا نبعث أى ليس لهم حجة يعارضونها بها إلا هذا ، سماها حجة تهكما أو على زعمهم ﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ﴾ حين كنتم نطفاً ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ ﴾ أحياء ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ للجزاء فيه لا قبله ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ لأن من سلم قدرته على الابتداء والإماتة سلمها على الإعادة وإتيان الآباء ، وعدم إتيانهم فى الدنيا لأن الحكمة اقتضت الجمع للجزاء فيكون الإتيان والجمع يوم الجمع والجزاء ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ ﴾ وهم القائلون ما ذكر ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك لقصور نظرهم على ما يظنون ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تعميم للقدرة بعد تخصيصها أى من كان خالقهما ومدبرهما فالإعادة منه أهون ما يكون ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ ويبدل منه ﴿ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴾ المنكرون لها سماهم مبطلين لأن إنكارها إبطال لحكمته تعالى أى يظهر لهم خسرانهم بأن يصيروا إلى النار ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ ﴾ أهل دين ﴿ جَاثِيَةً ﴾ باركة على الركب أو مجتمعة من شدة الخوف أو للخصومة ومنه قول على رضى الله عنه « أنا أول من يجثو بين يدى الله للخصومة

ويدل لمعنى الاجتماع ما روى ابن عمر أن الناس جثاً كل أمة تتبع نبيها من الجثوة وهي الجماعة ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ كتاب أعمالها ويقال لهم ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ جزاءه ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا﴾ ديوان الحفظة أضافه أولا إليهم لأنه صحيفة أعمالهم وثانيا إليه تعالى لأنه كتب بأمره ﴿يَنطِقُ﴾ يشهد ﴿عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ بما هو ثابت في نفس الأمر من أعمالكم بلا زيادة ولا نقصان ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ نستكتب الملائكة ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من نقير وقطمير تقرير لشهادته بالحق ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ التي من جملتها الجنة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ الجلي الذي لا يحتاج إلى تردد ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيقال لهم توبيخا ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي﴾ القرآن ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي ألم تأتكم رسلي فلم تكن آياتي حذف المعطوف عليه اكتفاء بالمقصود واستغناء بالقرينة ﴿فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ قوما عادتهم الإجرام إشارة إلى علة الاستكبار ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ لكم أيها الكفار ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث ﴿حَقٌّ﴾ كائن لا محالة ﴿وَالسَّاعَةُ﴾ بالرفع للجمهور مبتدأ والنصب لحمزة عطفا على اسم «إن» ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أفردها بالذكر اهتماما بشأنها ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ أي شيء هي استغرابا لها أي تجاهلتم كأنكم ما تعلمون معناها ﴿إِن﴾ ما ﴿نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي ضعيفا قال المبرد أصله ونحن نظن ظنا فأدخل حرفا النفي والاستثناء لإثبات الظن ونفي ما عداه أي ما الثابت إلا ذلك الظن ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أنها آتية ولعل التردد لأنهم سمعوا من آبائهم نفيها ومن الآيات ما يدل عليها ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي جزاؤها من إطلاق السبب على المسبب أو ما يسوؤهم والالتفات إلى الغيبة لحكاية حالهم بعد تمام التوبيخ ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أحاط بهم جزاء ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي العذاب ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ نترككم في النار ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي تركتم العمل للقائه وإضافة اللقاء إلى اليوم من إضافة المصدر إلى ظرفه إما إجراء له مجرى المفعول به أو مجرى الفاعل لأن مالقيته فقد لقيك ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ يدفعون عنكم العذاب ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فحسبتم أن لا حياة سواها ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ﴾ بالبناء للمفعول للجمهور والفاعل لحمزة والكسائي ﴿مِنْهَا﴾ من النار ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لا يطلب منهم أن يرضوا ربهم بالتوبة والطاعة لأنها لا تنفع يومئذ، يقال أعتبه أرضاه بمعنى أزال عتباه التفت إلى الغيبة بعد تمام التقريع كأنه مخبر لغيرهم سوء جزائهم ليعتبروا ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾ أي المحامد كلها نطقا وحالا سواء حمده الحامدون أولا إذ الكائنات كلها منه وبه بقاؤها كما قال ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ و«رب» بدل ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ﴾ العظمة ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إذ ظهر فيهما آثارها لا يشاركه فيها أحد ولا يليق الإجلال جبروته ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يغلب تقرير لكبريائه ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي أحكم وأتقن كل شيء فلا يحمد غيره إذ له الكمال المطلق فاحمدوه وكبروه وأطيعوه.

[تم تفسير سورة الجاثية]

سورة الأحقاف

مكية . أو إلا (قل أرأيتم إن كان من عند الله) وإلا (فاصبر كما صبر أولو العزم) وإلا (ووصينا الإنسان بوالديه) الثلاث آيات ، وهي أربع أو خمس وثلاثون آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ • حمٓ • تَنْزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ • مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ الذى تقتضيه الحكمة المقتضية لإثابة المحسن وعقاب المسىء ﴿ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أى وبتقدير أجل مضروب ينتهى إليه الكل وهو يوم القيامة أو مضروب لكل واحد وهو آخر مدة بقائه والأول أنسب بالمقام ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا ﴾ به من القرآن أو هول ذلك اليوم أو عن الإنذار على أن « ما » مصدرية ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ لا يتفكرون فيه ولا يستعدون لحلوله أو لا يؤمنون به ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أخبرونى عن حال ﴿ مَا تَدْعُونَ ﴾ تعبدون ﴿ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أى الأصنام مفعول أول ﴿ أَرُونِي ﴾ أخبرونى تأكيد ﴿ مَاذَا خَلَقُوا ﴾ مفعول ثان ﴿ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أى من أجزائها أو مما ينشأ منها من النبات والحيوان فاستحقوا العبادة بذلك فيها أشيروا إليه فإنه بمرأى منكم ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ ﴾ مشاركة الله ﴿ فِي ﴾ خلق ﴿ ٱلسَّمَٰوَاتِ ﴾ فأين دليلكم عليه عقلا ﴿ ٱئْتُونِي بِكِتَابٍ ﴾ منزل ﴿ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا ﴾ القرآن شاهد على ما تقولون وهذا الكتاب ناطق بالتوحيد وكذا جميع الكتب المنزلة ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ ﴾ بقية ﴿ مِنْ عِلْمٍ ﴾ يؤثر عن الأولين من الأنبياء وإن لم يكن مكتوباً يدل على استحقاقهم العبادة أو على الأمر بها وهذا استيفاء لأدلة الشرع عقليها وسمعيها ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى دعواكم . ولما بكّتهم نعى عليهم بقوله ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ ﴾ استفهام بمعنى النفى أى لا أحد أضل ﴿ مِمَّنْ يَدْعُو ﴾ يعبد ﴿ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ ﴾ غيره ﴿ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ ﴾ لا يقدر على الجواب لكونه جماداً فضلا عن كشف ملمة أو دفع بلية ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ﴾ وهم الأصنام لا يجيبون عابديهم إلى شىء يسألونه أبداً ﴿ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ ﴾ عبادتهم ﴿ غَافِلُونَ ﴾ لأنهم إما جمادات وإما عباد مسخرون مشتغلون بأحوالهم ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ ﴾ فى الآخرة ﴿ كَانُوا ﴾ أى الآلهة ﴿ لَهُمْ ﴾ لعابديهم ﴿ أَعْدَاءً ﴾ يضرونهم ولا ينفعونهم أو العابدون

المعبودين بلعن بعضهم بعضاً (وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ) جاحدين قائلين كانوا يعبدون الجن أو العابدون يقولون والله ربنا ما كنا مشركين ، ثم أشار إلى نوع آخر من كفرهم بقوله (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا) القرآن (بَيِّنَاتٍ) واضحات حال (قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا) منهم (لِلْحَقِّ) لأجله وفى شأنه والمراد به الآيات (لَمَّا جَاءَهُمْ) من غير تأمل (هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ) ظاهر بطلانه عناداً كما أن كفرهم الأول كان جهلا عبر عن القرآن أولا بالآيات وثانياً بالحق وأتى بالمظهر الدال على علة العناد و « لما » الدال على كفرهم حين جاء من غير تدبر دلالة على إغراقهم فى الكفر (أَمْ) بمعنى بل وهمزة الإنكار (يَقُولُونَ آفْتَرَاهُ) أى القرآن إضراب عن ذكر تسميتهم القرآن سحراً إلى ما هو أشنع منه وإنكار له وتعجيب (قُلْ إِنِ آفْتَرَيْتُهُ) فرضاً (فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ) من دفع عذابه (شَيْئاً) إن عاجلنى بالعقوبة فكيف أجترئ عليه وأعرض نفسى للعقوبة من غير توقع نفع ولا دفع ضر من قبلكم (هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ) تندفعون فيه من غير روية من القدح فى آياته ورسوله (كَفَىٰ بِهِ) تعالى (شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) شهد لى بالصدق والبلاغ وعليكم بالكذب والإنكار وهو وعيد بجزاء إفاضتهم (وَهُوَ الْغَفُورُ) لمن تاب (الرَّحِيمُ) به ترغيب لهم فى التوبة مع الإشعار بكمال حلمه عنهم مع عظيم جريمتهم (قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً) بديعاً كخف وخفيف (مِنَ الرُّسُلِ) أى أول رسول حتى يشتبه عليكم شأنى بل تقدمنى رسل من البشر دعوى الكل واحدة ولا يقدر أحد منهم على إتيان آية إلا بإذن الله (وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ) فى الدنيا مفصلا لأنه غيب «ولا» لتأكيد النفى «وما» بعده موصولة منصوبة أو استفهامية مرفوعة (إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ) لا أتجاوزه وأبتدع من عندى شيئاً ولا قدرة لى على الإتيان بما تقترحون (وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ) من عقاب الله (مُبِينٌ) بيّن الإنذار بالشواهد المبينة والمعجزات المصدقة لا ساحر ولا كذاب ، قيل لما استعجل المسلمون الخروج لأجل أذى المشركين أمر أن يقول لهم «ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم » «أؤمر بالخروج معكم إلى أرض رفعت لى رأيتها فى منامى ذات نخل وشجر أم لا (قُلْ) للكفار (أَرَأَيْتُمْ) أخبرونى ما حالكم (إِنْ كَانَ) القرآن (مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ) جملة حالية أى وقد كفرتم به ويجوز أن تكون الواو عاطفة على الشرط وكذا الواو فى قوله (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ) هو عبد الله بن سلام ولذا قيل إن الآية مدنية لأن إسلامه كان بالمدينة والراجح أن الآية مكية لكن نزل ما سيكون منزلة الواقع وتحقيقه أن مناط الإلزام إيمان شاهد من بنى إسرائيل أى لو وقع ذلك ألستم أضل الناس ثم آمن عبد الله بعد مدة فكان هو ذلك الشاهد وقيل الشاهد هو موسى عليه السلام وشهادته ما فى التوراة من نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (عَلَىٰ مِثْلِهِ) مثل القرآن وهو ما فى التوراة من المعانى المطابقة لما فى القرآن من التوحيد والوعد والوعيد (فَآمَنَ) الشاهد (وَاسْتَكْبَرْتُمْ) عن الإيمان وجواب الشرط بما عطف عليه ألستم ظالمين دل عليه (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) وفيه إشعار

بأن كفرهم به لضلالهم المسبب عن ظلمهم ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ من الفقراء أى لأجلهم وفى حقهم ﴿ لَوْ كَانَ ﴾ الإيمان بمحمد ﴿ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ وهم سقاط فقراء وموالى ورعاة قاله قريش لفقراء المسلمين كعمار وبلال وصهيب ، وقيل قاله غطفان وبنو عامر وأشجع وأسد طوائف من الأعراب لما أسلم غفار وأسلم ومزينة وجهينة ﴿وَ﴾ ظهر عنادهم ﴿ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ﴾ والظرف متعلق بنحو ما قدرنا ولا يجوز تعلقه بقوله ﴿ فَسَيَقُولُونَ ﴾ لتدافع دلالتى المضى والاستقبال وعدم الهداية محقق والسين مانع من تأويل يقولون بقالوا مع أنه مسبب عنه ﴿ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ كقولهم «أساطير الأولين» ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ أى القرآن وهو خبر لقوله ﴿ كِتَابُ مُوسَىٰ ﴾ ناصب لقوله ﴿ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ على الحال أى للمؤمنين به ﴿ وَهَٰذَا ﴾ القرآن ﴿ كِتَابٌ مُصَدِّقٌ ﴾ لكتاب موسى وغيره من الكتب ﴿ لِسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ حال من فاعل «مصدق» وفيه دلالة على أنه كما دل على صدق ما تقدمه من الكتب دل بإعجازه على أنه فى نفسه كلام الله ﴿ لِتُنْذِرَ ﴾ بالتاء لنافع وابن عامر وبالياء القرآن للباقين ﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ علة مصدق ﴿ وَبُشْرَىٰ ﴾ عطف على محله أو التقدير هو بشرى ﴿ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ المؤمنين ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ على العمل لجمعوا بين التوحيد الذى هو خلاصة العلم والاستقامة التى هى منتهى العمل وثم للدلالة على تأخر رتبة العمل ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ من لحوق مكروه فى الآخرة ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ بفوات محبوب عند الموت والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ حال من المستكن فى «أصحاب» ﴿ جَزَاءً ﴾ منصوب على المصدر بفعله المقدر أى جوزوا جزاء ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من الفضائل العملية والعلمية ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ أى أمرناه فعلا ذا حسن وللكوفيين إحساناً أى أن يحسن إليهما إحساناً وأفرد الإحسان إليهما بالذكر بعد اندراجه تحت الاستقامة اهتماماً لأن طاعتهما شقيقة طاعة الله . وفى مدارك التنزيل : أى وصيناه بوالديه أمراً ذا حُسن أى بأمر ذى حسن فهو فى موضع البدل من قوله بوالديه بدل اشتمال ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾ بالفتح لنافع وابن كثير وأبى عمرو وهشام وبالضم للباقين أى على مشقة أى ذات كره أو حملا ذا كره وكذا قوله ﴿ وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ ترجيح لجنابها فى البر على الأب ﴿ وَحَمْلُهُ ﴾ أى مدة حمله ﴿ وَفِصَالُهُ ﴾ من الرضاع كذلك ﴿ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ ستة أقل مدة الحمل والباقى أكثر مدة الرضاع وقيل إن حملت به ستة أو تسعة أرضعته الباقى وهذا كله بيان لمكابدة الأم المشقة إلى هذه المدة ولذا رجح حقها وتخصيص بيان أقل مدة الحمل وأكثر مدة الرضاع لانضباطهما وتحقق ارتباط حكم النسب والرضاع بهما ﴿ حَتَّىٰ ﴾ غاية لجلة مقدرة أى وعاش حتى ﴿ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ أول كمال قوته وعقله ورأيه وهو على الأصح ثلاث وثلاثون سنة ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ أكثر الأشد أى غاية تمام العقل ، قيل ولذا لم يبعث نبى إلا بعد أربعين . وفى الحديث : إن الشيطان يجرى يده على وجه من زاد عن الأربعين ولم يتب فيقول بأبى وجه لا يفلح ﴿ قَالَ ﴾ إن كان من أهل الفلاح أى ينبغى أن يقول ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾

المعنى وأصل الإيزاع الإغراء (أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ) بها (عَلَيَّ) بالتوفيق لدين الإسلام (وَعَلَى وَالِدَيَّ) كذلك لأن النعمة عليهما نعمة على الولد والأولى تعميم النعمة لنعمة الدين وغيره (وَ) المعنى (أَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ) تنكيره للتعظيم أو أراد نوعاً من الجنس يستجلب رضا الله (وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي) اجعل الصلاح سارياً فيهم راسخاً فيهم (إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ) من كل ذنب (وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) المخلصين لك. وما روى أن الآية نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه لايمنع العموم فى غيره قال عبد الرحمن فى جواهره: هذه الآية معناها: هكذا ينبغى للإنسان أن يكون، فهى وصية الله تعالى للإنسان فى كل الشرائع وقول من قال إنها فى أبى بكر وأبويه ضعيف لأن هذه الآية نزلت بمكة بلا خلاف وأبو قحافة أسلم عام الفتح. اهـ. ويؤيده قوله (أُولَئِكَ) القائلون هذا القول (الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ) بمعنى حسن (مَا عَمِلُوا) جميع حسناتهم أو غير المباح فإنه حسن لاثواب عليه (وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ) ذكره لأن قبول العمل لا يستلزم العفو عن الزلل، وقرأ حمزة والكسائى وحفص بالنون فى الفعلين (فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ) حال أى كائنين فى جملتهم من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين (وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ) فى الدنيا ووعد مصدر مؤكد لنفسه لأن نتقبل ونتجاوز وعد (وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا) تقدم معناه والموصول مبتدأ والمراد به جنس العاق الذى هو ضد ذلك الصالح ويدل عليه إخباره بأولئك وما روى أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر قبل إسلامه فكذبٌ لأنه من كبار الصحابة وقد أخبر فى الآية أن هذا حق عليه العذاب (أَتَعِدَانِنِي) بالفك للجمهور والإدغام لهشام (أَنْ أُخْرَجَ) من القبر (وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ) الامم (مِنْ قَبْلِي) ولم يرجع أحد منهم (وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ) يسألانه الغوث له بالتوفيق للإيمان أولهما أن لا يصيبهما شره يقولان الغياث بالله منك (وَيْلَكَ) أى هلاكك بمعنى هلكت (آمِنْ) بالبعث وأصل الويل الدعاء بالهلاك يستعمل للحث على ما يخاف على تركه (إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ) بقيام الساعة والجزاء على الأعمال (حَقٌّ) صدق (فَيَقُولُ) لهما (مَا هَذَا) القول (إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) أكاذيبهم التى يتوارثها الناس (أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ) وجب (عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) بأنهم أهل النار (فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ) كقوله فى ضده فى أصحاب الجنة (إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ) استئناف لتعليل الحكم (وَلِكُلٍّ) من الفريقين (دَرَجَاتٌ) مراتب (مِمَّا عَمِلُوا) من جزاء ما عملوا من الخير والشر أو من أجل ما عملوا فدرجات المؤمنين فى الجنة عالية ودركات الكافرين فى النار سافلة سميت درجات على التغليب أو لكل مؤمن ويعلم حال المقابل منه بأن له دركات (وَلِيُوَفِّيَهُمْ) بالنون لنافع وحمزة والكسائى وابن ذكوان وبالياء أى الله للباقين (أَعْمَالَهُمْ) أى جزاءها (وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) بنقص ثواب أو زيادة عقاب ولام «لنوفيهم» متعلق بمحذوف أى قدرنا جزاءهم على مقادير أعمالهم لنوفيهم ولما كان مبنى السورة على تهديد الكفار ومن يقابلهم بذكر اعتراضاً

شرح حالهم بقوله ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ﴾ أى يعذبون بها كعرضه على السيف قتله به وقيل تعرض النار عليهم بأن تكشف لهم ففيه قلب مبالغة كعرضت الناقة على الحوض ﴿ أَذْهَبْتُمْ ﴾ أى يقال لهم أذهبتم وهو ناصب الظرف وقرأ ابن كثير وابن عامر بالاستفهام أى استوفيتم ﴿ طَيِّبَاتِكُمْ ﴾ لذاتكم باشتغالكم بها ﴿ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ﴾ تمتع الأنعام . قال فى الجواهر : وهذه الآية وإن كانت فى الكفار فهى رادعة لأولى النهى من المؤمنين عن الشهوات واستعمال الطيبات ألا ترى إلى قول عمر ابن الخطاب : أتظنون أنا لا نعرف طيب الطعام ذاك لباب البُرّ بصغار المعز لكنى رأيت الله تعالى نعى على قوم أنهم أذهبوا طيباتهم فى حياتهم الدنيا . وقال جابر بن عبد الله : اشتريت لحماً بدرهم فرآنى عمر فقال أوَكلما اشتهى أحدكم شيئاً اشتراه فأكله أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية « أذهبتم طيباتكم » . والآثار فى هذا المعنى كثيرة فمنها ما روى ابن المبارك من طريق الحسن عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه خرج فى أصحابه إلى بقيع الغرقد فقال السلام عليكم يا أهل القبور لو تعلمون ما نجاكم الله منه مما هو كائن بعدكم ثم أقبل على أصحابه فقال هؤلاء خير منكم لأنهم خرجوا من الدنيا لم يأكلوا من أجورهم شيئاً وإنكم قد أكلتم من أجوركم وما أدرى ما تحدثون بعدى . وفى سنن أبى داود عن ثوبان : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر كان آخر عهده بإنسان من أهله فاطمة وأول من يدخل عليها فاطمة فقدم من غزاة وقد علقت ستراً على بابها وحلت الحسن والحسين بسوارين من فضة فلم يدخل فعلمت ذلك فهتكت الستر وفكت السوارين عنهما فانطلقت بهما إلى رسول الله يبكيان فأخذهما منهما وقال يا ثوبان اذهب بهما إلى آل فلان إن هؤلاء أهلى أكره أن يأكلوا طيباتهم فى حياتهم الدنيا يا ثوبان اشتر لفاطمة قلادة من عصب وسوارين من عاج . انتهى باختصار . وقال ابن العربى : الآية وإن كانت فى الكفار تتناول المسلم لأنها عتاب على التوسع ولأن من اعتاد الطيبات من الحلال واستمرت عليها عادته إذا فقدها استحصلها ولو بالشبهات حتى يقع على الحرام المحض لغلبة العادة ، والذى يضبط هذا الباب أن يكتفى بما وجد طيباً أم لا ؛ فالنبى صلى الله عليه وسلم كان يحب الحلواء والعسل ويأكل منهما ما تيسر ولا يجعله عادة . اه ﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ أى الهوان ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ إذ لم تكونوا أهلا لذلك فالكبرياء رداء الله ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ به أى بسبب الاستكبار بالباطل، والفسوق الخروج عن طاعة الله ﴿ وَاذْكُرْ ﴾ لقومك ﴿ أَخَا عَادٍ ﴾ هو هود عليه السلام أى حاله مع قومه فإن عتوهم وإغراقهم فى الكفر يشبه إغراق أولئك ﴿ إِذْ ﴾ إلى آخره بدل اشتمال ﴿ أَنْذَرَ قَوْمَهُ ﴾ خوفهم ﴿ بِالْأَحْقَافِ ﴾ جمع حقف : الرمل المستطيل الذى فيه انحناء من احقوقف الشىء : أعوجّ، وكانوا يسكنون بين رمال مشرفة على البحر باليمن ﴿ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ ﴾ الرسل ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ إلى أقوامهم قبل هود وبعده والجملة اعتراض بين المفسر والمفسر وهو قوله ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ أى لا تعبدوا أو بأن لا تعبدوا فإن النهى عن الشىء إنذار

عن مضرته . قال فى مدارك التنزيل : والمعنى اذكر إنذار هود قومه عاقبة الشرك والعذاب العظيم . وقد أنذر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه مثل ذلك ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ إن عبدتم غير الله ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا ﴾ لتصرفنا ﴿ عَنْ آلِهَتِنَا ﴾ عن عبادتها ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ من العذاب على ذلك ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فى وعدك ﴿ قَالَ ﴾ هود ﴿ إِنَّمَا الْعِلْمُ ﴾ بوقت مجىء العذاب ﴿ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ولا علم لى بذلك ﴿ وَأُبَلِّغُكُمْ ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف لأبى عمرو ﴿ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾ من الإنذار ما لم يأت العذاب وكنت فيكم ﴿ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ غارقين فى الجهل لا تجدى فيكم الآيات والنذر وهل أجهل بمن يطلب حلول بأس الله به سريعاً . ولما استمروا على التكذيب حبس الله المطر عنهم فاستسقوا عند الكعبة فظهر لهم سحاب ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ ﴾ أى رأوا العذاب المذكور فى « ماتعدنا » أو الضمير مبهم يفسره ﴿ عَارِضًا ﴾ سحاباً عرض فى أفق السماء حال أو تمييز وهو أحسن للإجمال والتفصيل ﴿ مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ متوجهاً نحوها وفرحوا به والإضافة لفظية وكذا فى قوله ﴿ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا ﴾ من إضافة الصفة إلى معمولها أى يأتينا بالمطر قال تعالى ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ﴾ من العذاب أو القائل هود عليه السلام وهو أولى لأن المناظرة كانت بينهم وبين هود وفى الأول فك الضمائر المؤدى إلى التنافر ﴿ رِيحٌ ﴾ بدل من ما أو خبر محذوف أى هى ريح ﴿ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم صفتها وكذا قوله ﴿ تُدَمِّرُ ﴾ تهلك ﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أمرت به من نفوسهم وأموالهم وخص العام بالحس ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ أى بإرادته أى كل شىء أراد إهلاكه بها بأن طارت بذلك بعد الدس فى الرمال سبع ليال وثمانية أيام بين السماء والأرض وقذفته فى البحر وبقى هود ومن معه ، وفى ذكر الأمر والرب وإضافته إلى الريح ما لا يخفى من كونها تحت تصرفه وإرادته وطاعته ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا تَرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ﴾ وقرأ حمزة وعاصم بالياء ورفع مساكنهم ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ كما جزيناهم ﴿ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ الكاملين فى الجرم غيرهم ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ ﴾ أى عاداً ﴿ فِيمَا ﴾ أى فى الذى ﴿ إِنْ ﴾ نافية وهى هنا أحسن من « ما » لأن « ما » لو وضعت هنا التكرر لفظها ولكراهة ذلك قلبت ألفها هاء فى مهما ﴿ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ من القوى والأموال أى لم نعطكم ما أعطينا أولئك من القوة والغنى ومع ذلك نالهم بسبب كفرهم هذا العذاب فأحرى أنتم وأما جعل « إن » شرطية مع تقدير حذف الجواب أى إن مكناكم فيه طغيتم أو كان بغيكم أكثر فتنطع فى التأويل البعيد والأول أظهر وأوفق لقوله كانوا أكثر منكم وأشد قوة وآثاراً ونحوه ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا ﴾ أسماعاً ﴿ وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً ﴾ ليشكروا المنعم بها بطاعته ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أدنى شىء من الإغناء ومن زائدة ﴿ إِذْ ﴾ معمولة لأغنى مشربة معنى التعليل لأن مؤدى الظرف والتعليل واحد فى إذ وحيث من حيث أن الحكم مرتب على ما أضيفا إليه فقولك ضربته لإساءته أو إذ أو حيث أساء واحد خصا بذلك دون سائر الظروف ﴿ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ حججه البينة ﴿ وَحَاقَ ﴾ نزل وأحاط ﴿ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ من العذاب ﴿ وَلَقَدْ

﴿أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ﴾ ياأهل مكة ﴿مِنَ الْقُرَى﴾ من أهلها عاد وثمود وقوم لوط وقوم شعيب باليمن والحجر وسدوم ومدين تمرون على الكل فى أسفاركم ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾ كررنا الحجج عليهم قبل الإهلاك ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن كفرهم فلم يرجعوا فأهلكوا ﴿فَلَوْلَا﴾ هلا ﴿نَصَرَهُمُ﴾ بدفع العذاب عنهم كما يزعمون ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ هم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أى غيره ﴿قُرْبَانًا﴾ متقربا بهم إلى الله كما قالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴿آلِهَةً﴾ معه وهم الأصنام ومفعول اتخذ الأول ضمير محذوف يعود على الموصول كما قدرناه أولا والمفعول الثانى آلهة وقربانا حال أو مفعول له وجعله مفعولا ثانيا وآلهة بدل منه غير سديد لأن المنكر هو اتخاذهم آلهة دون الله يتقربون بها لا اتخاذهم قربانا دون الله إذ ليس من شأن الله أن يكون قربانا حتى يكون التجاوز عنه منكراً قاله فى غاية الأمانى معرضا لما فى البيضاوى وغيره ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ غابوا عن نصرتهم وقت الاحتياج ﴿وَذَلِكَ﴾ الاتخاذ ﴿إِفْكُهُمْ﴾ كذبهم فى أنها شركاء الله ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يكذبون أنها قربان إلى الله تشفع لهم أو المعنى وذلك الامتناع عن نصرهم أثر إفكهم وصرفهم عن الحق وهو الاتخاذ وأثر افترائهم أى ثمرته وما مصدرية أو موصولة والعائد محذوف أى فيه ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا﴾ أملنا ﴿إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾ أى اذكر لقومك وقت صرفنا إليك نفرا من الجن كيف لم يتوقفوا فى الإيمان لما سمعوا القرآن . روى الشيخان عن ابن عباس أنه لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حيل بين الجن وبين خبر السماء فقالوا ما هذا إلا لأمر حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانصرف نفر منهم نحو تهامة فوافوا رسول الله بنخلة فى طائفة من أصحابه عامدين سوق عكاظ يصلى بهم الصبح فلما سمعوه قالوا هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء الحديث وعن ابن مسعود وفد على النبى صلى الله عليه وسلم نفر من الجن فقال إنى أمرت أن أقرأ على الجن الليلة فمن يتبعنى فاتبعته ولم يحضره ليلة الجن غيرى فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة فى شعب الحجون خطّ لى خطا وقال لا تخرج منه حتى أعود إليك ثم افتتح القرآن وسمعت لغطا شديداً فقال لى رسول الله هل رأيت شيئاً قلت نعم رجالا سوداً قال أولئك جن نصيبين وكانوا اثنى عشر ألفا والسورة التى قرأ عليهم « سبح اسم ربك ، والرحمن » .. الحديث ، قال عبد الرحمن فى جواهره : اختلفت الرواة هنا هل هذا الجن هم الوفد أو المتجسسون ، والتحرير فى هذا أن النبى صلى الله عليه وسلم جاءه نفر من الجن دون أن يشعر بهم وهم المتجسسون المرادون بقوله : « قل أوحى إلىّ : الآيات » ثم بعد ذلك وفد عليه وفدهم حسب ماورد فى ذلك من الآثار . اهـ . قلت : فالمراد بالجن هنا على مقتضى قوله هم المتجسسون : إذ هم النفر يطلق فيما دون العشرة قيل كانوا سبعة أو تسعة مقدمهم « زوبعة » ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ استئناف أو حال أى مقدرين استماعهم ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أى القرآن أو الرسول أى كانوا منه بحيث يسمعون كلامه ﴿قَالُوا﴾ قال بعضهم لبعض ﴿أَنْصِتُوا﴾ اسكتوا مستمعين إذ الإنصات هو السكوت لقصد الاستماع وفيه تأدب مع العلم وتعليم كيف يتعلم ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ فرغ من قراءته ﴿وَلَّوْا﴾ رجعوا ﴿إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾

بما فهموا من كلام الله وتفرقوا على البلاد منذرين للجن ﴿قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا﴾ هو القرآن ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ لم يقولوا عيسى لكونهم يهودا أو لكون أكثر أحكام عيسى فى التوراة ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ تقدمه من الكتب السماوية ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ الثابت من العقائد التى لا تبدل ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لاعوج فيه من الشرائع ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ محمدا صلى الله عليه وسلم ﴿وَءَامِنُوا بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم﴾ الله ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ بعضها وهو ما يكون فى خالص حق الله فإن المظالم لا تغفر إلا برضا أربابها وهذا لا ينافى قوله : « إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف » لأنها فى الحربى وهؤلاء كانوا مؤمنين بنبيهم ثم برسول الله والمؤمن لا يسقط عنه تبعات الناس إلا بالأداء أو الاستحلال مع أن غفران البعض لا ينافى غفران الكل فإنه مفهوم اللقب ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ استدل به من قال : إن الجن لا يدخلون الجنة إذ لم يذكر لهم إلا النجاة من العذاب ، ويروى عن الإمام أبى حنيفة . والحق هو ما عليه مالك وغيره من الأئمة : دخولهم لأنهم مكلفون بما كلف به الإنس ولقوله « ولمن خاف مقام ربه جنتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان » ولقوله « لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان » ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إذ لا ينجى منه مهرب ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ﴾ من لم يجب ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ من دون الله ﴿أَوْلِيَآءُ﴾ يمنعونه منه ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ الذين لم يجيبوا ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ بيّن حيث أعرضوا عن إجابة من هذا شأنه ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ لم يعلم منكرو البعث ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ﴾ لم يتعب ولم يعجز ﴿بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ﴾ خبر « أنّ » ، وزيدت الباء فيه لأن الكلام فى قوة أليس الله بقادر ﴿عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ والمقصود إثبات القدرة وإعجاب من عدم رؤيتهم ذلك ، ولذلك أجاب بقوله ﴿بَلَىٰٓ﴾ هو جواب للنفى أى هو قادر على إحياء الموتى ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقرير للقدرة ، صدر السورة بما حقق به المبدأ وختمها بما يحقق المعاد وقرر بينهما التوحيد والنبوة وهذه هى المقاصد فيها وما عداها فروع وتوابع ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنَّارِ﴾ بأن يعذبوا بها والظرف منصوب بقول مضمر مقوله « هو » ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا﴾ أى يقال لهم أليس هذا العذاب ﴿بِٱلْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بكفركم ومعنى الأمر الإهانة بهم والتوبيخ لهم ﴿فَٱصْبِرْ﴾ على أذى قومك ﴿كَمَا صَبَرَ أُولُوا ٱلْعَزْمِ﴾ ذوو الثبات والجد فى الشدائد ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ قبلك فتكون ذا عزم « ومن » للبيان فكلهم ذو عزم ، وقيل : للتبعيض فيراد بهم أصحاب الشرائع لأنهم اجتهدوا فى تقريرها بعد تأسيسها وصبروا على تحمل مشاقها ومعاداة الطاغين فيها وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام أو المبتلى الصابرون على البلاء ، وكان نوح يضرب حتى يغشى عليه وإبراهيم ألقى فى النار وأمر بذبح ولده ، وموسى على طغيان فرعون ، وعيسى لم يضع لبنة على لبنة وعن عائشة صام رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام مواصلا ثم قال : « ياعائشة ما تنبغى هذه الدنيا لمحمد ولا لآل محمد إن الله لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا الصبر وقد كلفنى ما كلفهم فقال :

«فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل» ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ لقومك بنزول العذاب فإنه نازل بهم لا محالة ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب فى الآخرة لطوله ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ فى الدنيا فى ظنهم ﴿إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ من هول العذاب . قال فى الجواهر : وإذا علمت أيها الأخ أن الدنيا أضغاث أحلام كان الحزم اشتغالك الآن لتحصيل الزاد للمعاد بحفظ الحواس ومراعاة الأنفاس ومراقبة مولاك فاتخذه صاحبا وذر الناس جانبا . قال الغزالى : أعلم أن صاحبك الذى لا تفارقه فى حضرك وسفرك ونومك ويقظتك بل فى حياتك وموتك هو ربك ومولاك وسيدك وخالقك ومهما ذكرته فهو جليسك إذ قال «أنا جليس من ذكرنى» فلو عرفته حق معرفته لاتخذته صاحبا وتركت الناس جانباً فإن لم تقدر على ذلك فى جميع أوقاتك فإياك أن تخلى ليلك ونهارك عن وقت تخلو فيه بمولاك وتتلذذ بمناجاته مع آداب الصحبة معه ، وهى : إطراق الطرف ، وجمع الهم ، ودوام الصمت ، وسكون الجوارح ، ومبادرة الأمر ، واجتناب النهى ، وقلة الاعتراض على القدر ، ودوام الذكر ، وملازمة الفكر ، وإيثار الحق ، واليأس من الخلق ، والتوكل على الله . اهـ ﴿بَلَاغٌ﴾ أى هذا الذى وعظتم به أو هذه السورة كفاية فى الموعظة أو تبليغ من الرسول ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ أى لا يهلك عند مجىء العذاب ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن الطاعة بعد هذا البلاغ .

[تم تفسير سورة الأحقاف]

سورة القتال أو محمد

مدنية أو مكية والأول أصح
وهي ثمان أو تسع وثلاثون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ ولا تخفى مناسبة آخر السورة الماضية لأول هذه وهو ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا ﴾ أعرضوا ﴿ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الإسلام أو صدوا غيرهم عنه من صد عنه صدوداً أعرض أو صده عن الأمر صداً منعه كالمطعمين فى السفر إلى بدر والمصرين من قريش وأهل الكتاب ﴿ أَضَلَّ ﴾ أحبط وأبطل ﴿ أَعْمَالَهُمْ ﴾ كإطعام الطعام وصلة الأرحام وعمارة المسجد الحرام وفك الأسارى فلا يرون لها فى الآخرة ثواباً أى جعلها ضالة أى ضائعة بالكفر أو مغمورة فيه كما يضل الماء فى اللبن أو جعلها ضلالا حيث لم يقصدوا بها وجه الله أو الأعمال كيدهم لرسول الله أبطلها بنصره وإظهار دينه على الدين كله ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ من قريش والأنصار وأهل الكتاب وغيرهم ﴿ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﴾ وهو القرآن خصه تعظيما وإشعاراً بأن الإيمان لا يعتبر دونه وأنه الأصل ولذا أكده بقوله ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ الثابت الذى لا يعقبه نسخ ﴿ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ من عنده ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ سترها بالإيمان والعمل الصالح ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ حالهم فى الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إضلال الأعمال وتكفير السيئات مبتدأ خبره ﴿ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ ﴾ أى بسبب اتباع هؤلاء الباطل: الشيطان ﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ ﴾ القرآن ﴿ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ وهذا تصريح بما أشعر به ماقبلها وقيل الباطل كل ما لا ينتفع به والحق خلافه ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك الضرب أو البيان ﴿ يَضْرِبُ اللَّهُ ﴾ يبين ﴿ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ أحوالهم فالكافر يحبط عمله والمؤمن يغفر زلله؛ فاتباع الباطل مثل لعمل الكفار والإضلال مثل لخيبتهم ، واتباع الحق مثلٌ لعمل المؤمنين وتكفير السيئات مثلٌ لفوزهم ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ أى بعد ما علمتم من ضرب المثل إذا حاربتم الكفار فاضربوا الرقاب ضرباً ، حذف الفعل وقدم المصدر وأنيب منابه مضافاً إلى المفعول اختصاراً مع ما يفيده من التأكيد والمراد به القتل كيف كان ، والتعبير به إشعاراً بأنه ينبغى أن يكون القتل بضرب الرقبة حيث أمكن إذ هو الغالب فى القتل مع ما فى اللفظ من الغلظة وتصوير القتل بأبشع صورة وهو إطارة الرأس الذى هو رئيس الأعضاء ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ ﴾ أكثرتم فيهم القتل وأغلظتموه من الثخين وهو الغليظ وأخذتم من بقى ﴿ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ﴾ مايوثق به الأسرى لتحفظوهم ﴿ فَإِمَّا مَنًّا

بعدُ ﴾ مصدر بدل من اللفظ بفعله أى تمنون عليهم بإطلاقهم من غير شيء ﴿وَإِمَّا فِدَاءً﴾ أوهم يفدون فداء ويفكون رقابهم بمال أو أسرى مسلمين فالإمام بعد الأسر مخيرٌ فى رجال الأسارى بين القتل والاسترقاق والمن والفداء يفعل ما هو الأصلح لما روى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل عقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث بعد الأسر ومنّ على ثمامة بن أثال ، وفادى رجلا من المسلمين برجلين من المشركين وأبو حنيفة لايجوّز الفداء بالمال اتفاقا ولا بالأسارى على المشهور من مذهبه لئلا يعودوا حربا علينا وادعى نسخ المن والفداء بآية براءة فاقتلوا المشركين أو أول المنّ بالاسترقاق ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ﴾ أى أهلها ﴿أَوْزَارَهَا﴾ أثقالها من السلاح والكراع بأن تنقضى الحرب ولم يبق إلا مسلم أو مسالم وهو غاية للضرب أو الشد والمن والفداء بمعنى هذهالأحكام جارية فيهم حتى لايكون حرب معالمشركين وذلك عند نزول عيسى لما فى الحديث أن الجهاد ماض فى أمتى حتى يقاتل آخرهم الدجال وقيل إلى يوم القيامة لحديث والخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة، ونزول عيسى إنما يفنى الكافر من أهل الكتاب ويمكن أن يبقى غيرهم . قاله ابن العربى ﴿ذَٰلِكَ﴾أى الأمرفيهم ما ذكر أوافعلوا بهم ذلك إشارة إلى ضرب الرقاب وما بعده ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ لانتقم منهم باستئصال من غير قتال ﴿وَلَٰكِنْ﴾ أمركم بما أمرَ ﴿لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ منهم فى القتال فيصير من قتل منكم إلى الجنة ومنهم إلى النار ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا﴾ بالمد للجمهور والقصر أى استشهدوا لأبى عمرو وحفص إذ روى أنها نزلت فى قتلى أحد ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى جاهدوا أواستشهدوا لإعلاء دينه ﴿فَلَنْ يُضِلَّ﴾ لن يحبط أو يضيع ﴿أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ﴾ فى الدارين إلى ماينفعهم ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ حالهم فيهما وما فىالدنيا لمن لم يقتل فغلب أو مع المقتول بإبدال ما أفسد من أعضائه أعضاء خيراً منها ، كما روى أن الله عوّض لجعفر بن أبى طالب عن يديه المقطوعتين فى الحرب جناحين يطير بهما فى الجنة ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أى طيبها لهم أو بيّنها لهم فيهتدون إلى مساكنهم منها وأزواجهم وخدمهم من غير استدلال . وعنه عليه السلام : « والذى نفسى بيده إن أحدهم لأعرف بمنزله فى الجنة منه بمنزله فى الدنيا » وذلك لأنه يفتح له فى قبره باب إلى منزله فى الجنة فقد رأى منزله مدة متطاولة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ﴾ أى دينه ورسوله ﴿يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ فى المعترك وفى القيام بحقوق الإسلام فلا يعتريكم شكوك وريب ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ﴾ أى عثوراً وسقوطاً فى مقابلة التثبيت للمؤمنين نصب على المصدر بفعله الواجب الإضمار سماعاً والجملة خبر « الذين كفروا » وهى خبر أو دعاء من الله دالّ على استحقاقهم الهلاك وتحققه ويقال فى عكسه والدعاء بالسلامة لعا . قال الأعشى : « فالتعسُ أولى لها مِنْ أن أقولَ لَعَا » . وقال آخر :

تَعَسًا اللهُ قوماً لَمْ يقُولُوا لِعَاثِرٍ ﴿٭﴾ وَلَا لِابْنِ عَمٍّ نَالَهُ الدَّهْرُ لَعْ لَعَا

﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ عطف على ناصب « تعساً » إما دعاء أو على تقدير قضى تعساً لهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ التعس

والإضلال ﴿ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ من القرآن المشتمل على التوحيد والتكاليف المخالفة لما ألفوه واشتهته أنفسهم ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ كرره إشارة إلى شدة لزومه بالكفر بالقرآن لا ينفك عنه بحال ومبالغة فى التحذير ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى قد ساروا وشاهدوا فما لهم لا يعتبرون ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ أهلك واستأصل ما اختص بهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ أى لهم ﴿ أَمْثَالُهَا ﴾ أمثال تلك العاقبة جمعت للدلالة على أن لكل من هؤلاء أمثال عاقبة أولئك لغلظ جنايتهم لأن الكفر بمحمد والقرآن ليس كالكفر بسائر الأنبياء والكتب ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ نصر المؤمنين وسوء عاقبة الكافرين ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ناصرهم على أعدائهم ﴿ وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ يدفع العذاب عنهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ تقرير لتوليه ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ ﴾ بمتاع الدنيا أياماً قلائل ﴿ وَيَأْكُلُونَ ﴾ غافلين عن العاقبة ﴿ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ﴾ ليس لهم همّ إلا بطونهم وفروجهم ولا يلتفتون إلى الآخرة كالأنعام فى معالفها ومسارحها تأكل غافلة عن النحر والذبح ﴿ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ منزل ومقام فى موضع الحال ﴿ وَكَأَيِّن ﴾ كم ﴿ مِّن قَرْيَةٍ ﴾ أريد أهلها ﴿ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ﴾ مكة : أى أهلها ﴿ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ ﴾ بالتسبب روعى لفظ قرية ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ روعى معنى قرية الأولى لما كذبوا الرسل بأنواع العذاب التفت إلى النبى مسلياً بعد بيان ماللفريقين ، وقرأ ابن كثير : وكائن على وزن فاعل ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ يدفع عنهم العذاب وهو كالحال المحكية كأنه قيل فهم لا ينصرون ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ ﴾ حجة وبرهان ﴿ مِّن رَّبِّهِ ﴾ وهو الرسول والبينة القرآن أو كل مؤمن والبينة عام فى القرآن والحجج العقلية ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ من الشرك والمعاصى وهم الكفار ﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴾ فى ذلك بلا شبهة فضلا عن حجة أى لا مماثلة بينهما ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ ﴾ صفتها العجيبة الشأن ﴿الَّتِي وُعِدَ﴾ ها ﴿ الْمُتَّقُونَ ﴾ عن الشرك والمعاصى مبتدأ والخبر «كمن هو خالد» لأنه مرتب على الإنكار السابق فى أفمن كان والمعنى أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد لحذف ماحذف استغناء بجرى مثله ، وقوله ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ ﴾ داخل فى حكم الصلة كالتكرير لها وهو تفصيل الموعود ولذا لم يدخل العاطف أو حال مؤكدة أو هو الخبر وعليه فقوله «كمن هو خالد» خبر محذوف ﴿ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ بالمد للجمهور والقصر لابن كثير أى غير متغير بخلاف ماء الدنيا فيتغير لعارض يقال أسن الماء إذا تغير طعمه وريحه ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ بحموضة أو غيرها أى لم يصر قارصاً ولا حازراً بخلاف لبن الدنيا لخروجه من الضروع يتغير إلى ما ذكر ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ ﴾ لذيذة مؤنث لذّ أو مصدر وُصف به بتقدير ذات لذة ﴿ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ أى لأجل لذة الشاربين أى ما هى إلا للتلذذ الخالص ليس معه ذهاب عقل ولا صداع ولا غول ولا آفة من آفات خمر الدنيا ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ من كل وسخ لأنه خلق كذلك لم يخالطه شمع ولا روائح نور كعسل الدنيا ، وهذا تمثيل

للأشربة وكذا أطعمتها مجردة عما ينقصها وينغصها موصوفة بما يوجب غزارتها كالأشربة ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا ﴾ أصناف ﴿ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ على هذا القياس ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ عطف على المبتدأ المقدر أو مبتدأ خبره محذوف أى لهم مغفرة وهى أجلّ من تلك النعم إذ لا يوازن رضى الله بشىء ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ﴾ تقدم الكلام فى إعرابه وعلى جعله خبر محذوف فالتقدير : أمن هو فى هذا النعيم كمن هو خالد فى النار ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا ﴾ بالغاً فى الحرارة يشوى الوجوه مكان تلك الأشربة ﴿ فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ مصارينهم فخرجت من أدبارهم جمع مِعًى بالقصر وألفه مبدلة من ياء لقولهم مِعَيان ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ من الكفار ﴿ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ فى مجلسك فى الخطبة والتذكير وهم المنافقون ﴿ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ أى لعلماء الصحابة منهم ابن مسعود استهزاء وسخرية وإيذاناً بعدم الاكتراث بما تقول ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴾ بالمد للجمهور والقصر للبزى لغتان أى الساعة أو مبتدئا منصوب على الظرف أو الحال من الضمير فى «قال» . وفى الجواهر : آنفاً معناه مبتدياً كأنه قال : ما القول الذى ائتنفه الآن قبل انفصالنا عنه والمفسرون يقولون آنفاً معناه الساعة الماضية وهذا تفسير بالمعنى . اه . قال أبو حيان : آنفاً بالمد والقصر اسم فاعل والمستعمل من فعله ائتنفت ومعنى آنفاً مبتدئاً فهو منصوب على الحال وأعربه الزمخشرى ظرفاً أى الساعة ولا أعلم أحداً من النحاة عده من الظروف . اه . قلت : يؤيد قول الزمخشرى ما فى القاموس قال : آنفاً كصاحب وكتف وقرئ بهما أى مُذْ ساعة أى أول وقت يقرب منا . اه ، والله أعلم ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ فلا يمكنهم إدراك مقالتك ﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ ولذلها وَنَوا كلامك ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا ﴾ إلى الإيمان وإدراك المعارف والحكم ﴿ زَادَهُمْ ﴾ الله أو قول الرسول ﴿ هُدًى ﴾ بالتوفيق والإلهام والإيمان بما يتجدد من الوحى والأحكام ﴿ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ الخاص بهم وهو ربط السر على الله فكما أن المعاصى تؤدى إلى الطبع والرين فكذلك الطاعات تؤدى إلى الفناء عن غير الله أو جزاء تقواهم أو ألهمهم ما يتقون به النار ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ أى ما ينتظر الكفار ﴿ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ ﴾ بدل اشتمال من الساعة أى إلا إتيانها ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ جمع شرَط بفتح الراء بمعنى العلامة تعليل للانتظار كأنه قال لأن أشراطها قد جاءت ولا بد من مجىء الساعة بعدها ومنها بعث النبى صلى الله عليه وسلم لأنه قال «بعثت أنا والساعة كهاتين» مشيراً إلى أصبعيه الوسطى والتى تليها ومنها انشقاق القمر وكثرة الفتوح للمسلمين وكثرة السبايا وقطع الأرحام وقلة الكرام وكثرة اللئام ، والمعنى ينبغى الخوف منها والاستعداد لها قبل وقوعها ثم عجب من نفع التذكر بعد وقوعها بقوله ﴿ فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ تذكرهم أى لا ينفعهم توبيخ على ترك التشمير لها قبل فوات الوقت ، ولما بيّن حال الفريقين أمر نبيه بالثبات على ما يوجب السعادة بقوله ﴿ فَاعْلَمْ ﴾ أى دم على العلم ﴿ أَنَّهُ ﴾ أى الشأن ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ لأجله أى إذا علمت ما مرّ فدُمْ على موجبات السعادة من

التوحيد وتكميل النفس بإصلاح أحوالها وأفعالها وهضمها بالاستغفار لذنبك وإن كنت معصوما ليستن بك أمتك وقد فعله عليه السلام قال « إنى لأستغفر الله فى كل يوم مائة مرة » (وَ) استغفر ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ بالدعاء لهم والتحريض على ما يستدعى المغفرة لهم ، وفى إعادة الجار دلالة على أن ذنوبهم نوع آخر إذ لا يجوز فى حقه إلا ترك الأولى نادراً وفيه إكرام لهم بأمر نبيهم بالاستغفار لهم ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ ﴾ بالنهار فى حوائجكم ﴿ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ مأواكم بالليل إلى مضاجعكم بمعنى عالم بجميع أحوالكم فاحذروه وراقبوه فى كلها ، أو متقلبكم فى الدنيا فإنها مراحل لا بد من قطعها ، ومثواكم فى العقبى فإنها دار الثواء فاتقوا الله واستغفروه وأعدوا لمعادكم أو متقلبكم فى أعمالكم ومثواكم فى الجنة فأخلصوا له العمل ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءامَنُوا ﴾ قبل الإذن فى القتال حين كانوا مأمورين بالصبر (لَوْلَا) هلا ﴿ نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ فى أمر الجهاد ﴿ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ ﴾ مبينة لا تشابه فيها ولا نسخ ﴿ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ الأمر به ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ شك وهم المنافقون ، أو ضعف فى الدين ﴿ يَنْظُرُونَ﴾ يشخصون أبصارهم ﴿ إِلَيْكَ﴾ جبنا وجزعا ﴿نَظَرَ الْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أى لخوفه وكراهيته فهم يخافون من القتال ويكرهونه ﴿ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ وعيد أى فويل لهم أفعل من الولى وهو القرب أو فعلى من آل ومعناه الدعاء عليهم بأن يليهم الهلاك أى أهلكهم الله إهلاكا أقرب من كل شىء. أو أن يؤول إليه أمرهم وعلى هذا فقوله ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾ استئناف أى أمرهم طاعة ، أو طاعة وقول معروف خيرٌ لهم ويحتمل رفع أَوْلَى بالابتداء وطاعة خبره . قال ابن عطية : وهذا هو المشهور من استعمال أولى وقيل غير هذا . اهـ . وفى الصحاح أولى تهديد ووعيد قال أبو حيان : والأكثر على أنه اسم مشتق من الولاء وهو القرب ، وقال الجرجانى : مأخوذ من الويل فقلب فوزنه أَفْلَعُ . اهـ . قال فى الجواهر : المشهور من استعمال أولى أن تقول هذا أولى لك من هذا أى أحق وقد تستعمل العرب أولى لك فقط على جهة الاختصار . اهـ . ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أى جدّ ولزمهم الجهاد والعزم لصاحب الأمر وإسناده إلى الأمر مجاز وعامل الظرف محذوف أى تخلفوا وقيل ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ ﴾ فيما زعموا من الإيمان أو الحرص على الجهاد ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ وجملة «لو» على الثانى جواب إذا ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ ﴾ أى يتوقع منكم فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب بضرب من التوبيخ ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أعرضتم عن اتباع الرسول ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ﴾ بالعود إلى أمر الجاهلية من التغاور والتقاتل والتناهب ﴿وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ بمقاتلة بعض الأقارب بعضا وأن تفسدوا خبر عسى والشرط اعتراض أو المعنى إن توليتم أمور الناس وتأمرتم أن تفسدوا بالتشاجر على الولاية والتجاذب لها ردّ لقول المنافقين كيف نقاتل العرب وهم من جيرتنا أى لو فوض الأمر إليكم بلا منازع لا يتوقع منكم إلا الإفساد فى الأرض وقطع الرحم ثم كشف عن حالهم بما لا مزيد عليه بقوله ﴿ أُولَٰئِكَ﴾ المذكورون هم ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ طردهم عن مظانّ رحمته ومهاب نسيم لطفه لإفسادهم وقطعهم أرحامهم

﴿ فَأَصَمَّهُمْ ﴾ عن استماع الحق ﴿وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ عن طريق الهداية فلا يبصرون الآيات المبثوثة فى الآفاق والأنفس فهذا التعرير يرشدك أن الكلام فى شأن الكاملين فى النفاق لا فى ضعفاء المؤمنين لما فيه من الغضب الشديد على أن الالتفات لا يقع موقعه إلا إذا كان الكلام مع المنافقين ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ ألفاظه الرائقة ومعانيه المونقة التى لو أنزلت على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله فيعرفون الحق حتى لا يجسروا على ما هم عليه ﴿أَمْ﴾ بمعنى بل والهمزة للتقرير ﴿عَلَى قُلُوبٍ﴾ لهم ﴿أَقْفَالُهَا﴾ لا يصل إليها ذكر وتنكيرها للتهويل وتفظيع شأنها بالقسوة كأنه لا يمكن تعريفها ولا يقادر قدر قسوتها أو لأنها قلوب متميزة عن سائر القلوب وأضيفت الأقفال إليها إشعارا باختصاصها بها ولزومها لا يمكن رفعها أبدا ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ ﴾ إلى ما كانوا عليه من الكفر وهم المنافقون ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ﴾ بالدلائل الواضحة والمعجزات الظاهرة ولم تبق لهم شبهة ﴿ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ زين ذلك وسهله لهم من سوّل كفرح استرخى ﴿وَأَمْلَى﴾ بالبناء للفاعل للجمهور والمفعول لأبى عمرو أى مدّ ﴿لَهُمْ﴾ الشيطان فى الآمال بطول العمر ونيل الأمانى قال ابن عباس الآية نزلت فى بعض المنافقين كانوا أسلموا ثم نافقت قلوبهم وفى الجواهر : والآية تعم كل من دخل فى ضمن لفظها غابر الدهر ، وسول معناه رجّاهم سُوْلَهُمْ وأمانيهم ، ونقل أبو الفتح أنه بمعنى دلاهم من السّوْل وهو الاسترخاء والتدلى وقال القرافى سوّلَ أى زين . اه . وقيل نزلت الآية فى اليهود كفروا بعدما تبين لهم نعت النبى فى كتابهم ﴿ذَلِكَ﴾ أى إضلالهم ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ وهم اليهود أو المشركون ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أى أمر المعاونة على عداوة النبى صلى الله عليه وسلم وتثبيط المؤمنين عن الجهاد معه قالوا ذلك سرًّا فأظهره الله ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْ﴾ بفتح الهمزة للجمهور جمع سِرّ وبكسرها لحمزة والكسائى وحفص مصدر ومن ذلك قولهم هذا ﴿ فَكَيْفَ﴾ حالهم ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ﴾ حال من الملائكة ﴿وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ أى كيف يعملون ويحتالون حينئذ والعرب تكتفى بكيف عن ذكر الفعل معها لكثرة دورها وهذا تصوير لتوفيتهم بما يخافون منه ويجبنون عن القتال له ﴿ذَلِكَ﴾ التوفى على الحال المذكور ﴿ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ من الكفر وكتمان نعت الرسول وعصيان الأمر ﴿ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ﴾ العمل بما يرضيه ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ بذلك أى أسقطها عن درجة الاعتبار ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ يظهر أحقادهم على النبىّ والمؤمنين لهم أى بل أكان حسبانهم ذلك ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ لعرفناكهم بدلائل تعرفهم بها بأعيانهم ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ علامتهم التى أعلمناك واللام لام الجواب كررت فى المعطوفات ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾ الواو لقسم محذوف وما بعدها جوابه ﴿فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ معناه إذا تكلموا عندك فى فلتات اللسان بتهجين أمر المسلمين وأصل اللحن إمالة الكلام من ظاهر إلى نحو من الأنحاء كما فى قول القائل :

وَلَقَدْ لَحَنْتُ لَكُمْ لِكَيْمَا تَفْهَمُوا ٭ وَاللَّحْنُ يَعْرِفُهُ ذَوُو الْأَلْبَابِ

ومنه اللحن فى الإعراب لأنه عدول عن الصواب ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ خيرها وشرها ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بالأوامر والنواهى الدالة على التكاليف الشاقة كالجهاد ﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾ علم ظهور ﴿ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ فى الجهاد وغيره ﴿ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ من طاعتكم وعصيانكم فى الجهاد وغيره وقرأ أبو بكر فى الأفعال الثلاثة بالياء ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ ﴾ خالفوه ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ﴾ وهو معنى سبيل الله ﴿ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ﴾ لا ينقص ذلك من ملكه شيئاً أو رسول الله فى نصره ﴿ وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ من صدقة ونحوها فلا يرون لها فى الآخرة ثواباً نزلت فى المطعمين من أصحاب بدر أو فى قريظة والنضير ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ بالنفاق كما أبطلها هؤلاء أو بالرياء والمن والأذى والعجب بمعنى لا تفعلوا فيها ما يمنع الثواب عليها فعبر عنه بالإحباط مبالغة فى التحذير فلا دليل فيه لمن يقول إن الكبيرة تحبط العمل وشمل « لا تبطلوا أعمالكم » من افتتح نافلة من صلاة أو صوم لا يجوز له تركها وإبطالها عند مالك وأبى حنيفة خلافاً للشافعى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ نزلت فى أصحاب القليب لكنها عامة فى كل من تناولته الصفة ومفهومه أنه قد يغفر لمن لم يمت على كفر سائر ذنوبه ﴿ فَلَا تَهِنُوا ﴾ لا تضعفوا ﴿ وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ ﴾ بفتح السين للجمهور وكسرها لأبى بكر وحمزة : الصلح وترك القتال خوراً وتذللا ﴿ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ ﴾ والحال أنكم الغالبون فى الوقائع والحروب ويحتمل أنه إخبار بمغيب أبرزه إلى الوجود بعد ذلك ﴿ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ بالنصر والإعانة فلا وجه للوهن ﴿ وَلَنْ يَتِرَكُمْ ﴾ لن ينقصكم ﴿ أَعْمَالَكُمْ ﴾ أى ثوابها لأجل نصركم على الكفار بالقتل وإحراز الغنائم دفع لما يتوهم أن النصر إذا كان لا يكون لهم الأجر ، يقال وترت الرجل إذا قتلت له قتيلا قريباً كالولد والأخ فإنه أفردته عن قريب فشبه به الإفراد عن العمل فى عظم المصيبة ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله » ولابد من تضمين معنى السلب ليتعدى إلى المفعول الثانى ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ الاشتغال فيها ﴿ لَعِبٌ ﴾ هو ما يجلب السرور ﴿ وَلَهْوٌ ﴾ هو ما يدفع الغموم والهموم أى تنقطع فى أسرع مدة مثلهما ﴿ وَإِنْ تُؤْمِنُوا ﴾ تدوموا على الإيمان ﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ مخالفة أمره ونهيه ﴿ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ كاملة لأن ذلك من أمور الآخرة ﴿ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ جميعاً بل الزكاة المفروضة فيها من العُشر أو رُبعه عطف على الجزاء وفيه مقابلة حسنة بين إعطاء الأجور كلها وأخذ بعض المال ﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ ﴾ يجهدكم فى طلبها كلها والإحفاء المبالغة وبلوغ الغاية فى كل شىء يقال : أحفاه فى المسألة إذا لم يترك له شيئاً من الإلحاح وأحفى شاربه استأصله ﴿تَبْخَلُوا﴾ بإعطاء جميع المال ﴿وَيُخْرِجْ﴾ البخل أو الله ﴿ أَضْغَانَكُمْ ﴾ لرسوله ودينه المذهب لأموالكم لأنه سبب الأضغان عند الامتناع وعند السؤال ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ ﴾ الموصوفون أى هذا شأنكم أيها المخاطبون ﴿ تُدْعَوْنَ ﴾ استئناف كأنهم قالوا

ما وصفنا ؟ فقال تدعون ، ويجوز أن يكون «هؤلاء» موصولا بمعنى الذين و«تدعون» صلته (لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ) الجهاد وفي الفقراء يعمّ نفقة الغزو والزكاة وغيرهما (فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ) بهذا القدر اليسير من الأموال دليل على أنه لو أحفاكم لبخلتم بالأولى (وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ) إذ ضرره لا يتعداها والبخل لتضمنه المنع والتضييق يعدى بعن نظراً إلى التأويل الأول وبعلى نظراً إلى الثاني ثم قرر ذلك بقوله (وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ) دواماً (وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ) إليه دواماً ، ومنه قول القائل :

فَٱلْفَقْرُ وَصْفٌ لِذَاتِي دَائِمٌ أَبَدًا ＊ كَمَا الْغِنَى أَبَدًا وَصْفٌ لَهُ ذَاتِي

فما يأمركم به فهو لاحتياجكم فإن امتثلتم فلكم وإن توليتم فعليكم (وَإِن تَتَوَلَّوْا) عن طاعته عطف على « وإن تؤمنوا » (يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ) يجعلهم بدلكم مكانكم (ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم) في التولي بل أمثل منكم مطيعين له ، وهم الفرس كما في الحديث ، أو الأنصار ، أو أهل اليمن .

[تم تفسير سورة محمد صلى الله عليه وسلم]

سورة الفتح

مدنية ـ وهي تسع وعشرون آية

(بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا) وعد بفتح مكة والتعبير عنه بالماضي لتحققه أو بما اتفق له في تلك السنة وهي سنة الحديبية سنة ست كفتح خيبر وفدك بعد أو إخبار عن صلح الحديبية وسماه فتحاً لأنه سبب لفتوح كثيرة دخل في الإسلام بسببه ما لا يحصى من العرب لاجتماع المؤمن والكافر حتى سمعوا القرآن وانتشر العلم والإيمان حتى تسبب لفتح مكة وسمى الظفر ببلاد الكفر فتحاً لأنها منغلقة عن المسلمين ما لم يظفر بها فإذا ظفر بها فقد فتحت ، وقيل الفتح هنا بمعنى القضاء أي قضينا لك أن تدخل مكة من قابل لطواف العمرة آمناً (لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ) الذي يصح أن تعاقب عليه وهو خلاف الأولى بك (وَمَا تَأَخَّرَ) بسبب جهادك حتى نلت الفتح ترغيباً لأمتك في

الجهاد ، واللام للعلة الغائية فدخولها مسبب لا سبب فالغفران مسبب عن جهاد الكفار وإعلاء الدين وتخليص الضعفاء من أيدى الظلمة (وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ) بالإسلام (عَلَيْكَ) بإعلاء دينك وفتح البلاد على يديك (وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) لا عوج فيه فى تبليغ الرسالة وإقامة مراسم الرياسة (وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا) قوياً منيعاً لا ذل بعده (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ) الطمأنينة والثبات (فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ) بعد القلق والاضطراب فى بعضهم بسبب الصلح لأنهم لما اصطلحوا أمرهم النبى صلى الله عليه وسلم بنحر الهدى فلم يتحرك أحد منهم حتى قام ونحر هداياه وحلق رأسه فاتبعوه فى ذلك وعلموا أنه الحق ونزل عليهم السكينة ، وقيل معناه أنزل السكون فى قلوبهم إلى ما جاء به من الشرائع (لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا) يقيناً بأن هذا الصلح مما أمر الله به نبيه لمصالح (مَعَ إِيمَانِهِمْ) الراسخ بالتوحيد وأمور الآخرة وجميع مايجب إيمانه (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) يدبر أمرها على ماتقتضيه حكمته فلوأراد إهلاك أعدائه فى طرفة عين لفعل ولكن أجرى الامور على وفق حكمته (وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا) كامل العلم (حَكِيمًا) فى كل مادبر فاتبعوا أمره ودعوا آراءكم (لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ) واللام متعلق بمحذوف أى دبر مادبر ليدخل أو بدل اشتمال من ليزدادوا (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ) الإدخال والتكفير (عِنْدَ اللَّهِ) حال من المستكن فى (فَوْزًا عَظِيمًا) إذ هو غاية الغايات (وَيُعَذِّبَ) عطف على «يدخل» إلا إذا جعل بدلا فيكون عطفاً على المبدل منه (الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ) وتقديم المنافقين على المشركين لأن عز الإسلام كان أغيظ لهم (الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ) بفتح السين للجمهور وضمها لابن كثير وأبى عمرو فى المواضع الثلاثة أى ظن الأمر السوء وهو أن لاينصر رسوله والمؤمنين عليهم وأن لا يعلم كثيرا مما يعملون (عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ) الهلاك فى الدنيا أى ما يتربصونه بالمؤمنين دائر عليهم والدائرة ما أحاط بالشىء من جميع جهاته غلبت فى الشر كغلبة الدولة فى الخير فالإضافة للبيان كشمس النهار (وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) أراد الانتقام منهم (وَلَعَنَهُمْ) طردهم عن رحمته إذ الغضبُ ربما لا يؤدى إلى الطرد ثم أشار إلى مالهم فى الآخرة بقوله (وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ) ولم يعطف الأخيرين بالفاء مع أن كل واحد مسبب عن سابقه إشارة إلى استقلال الكل بالوعيد (وَسَاءَتْ مَصِيرًا) مرجعا (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) فلو شاء لانتقم منهم (وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا) غالبا (حَكِيمًا) فى تأخير العذاب لما فيه من المصالح (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا) على أمتك يوم القيامة حال مقدرة (وَمُبَشِّرًا) لهم فى الدنيا بالجنة على الطاعة (وَنَذِيرًا) بالنار على المعصية (لِتُؤْمِنُوا) بالتاء للجمهور خطاباً للأمة والياء لابن كثير وأبى عمرو فيه وفى الأفعال الثلاثة بعده (بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ) أى تنصروا دينه ورسوله (وَتُوَقِّرُوهُ) تعظموه (وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) بالغداة والعشى لأنها أشرف الاوقات أو بمعنى دائماً والضمائر كلها لله ومن فرقها بجعل الأولين للنبىّ فقد أبعد لأنه يوجب التنافر النافى للفصاحة وتسبحوه من

التسبيح وعن ابن عباس يريد صلاة الصبح والظهر والعصر : من السبحة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ بيعة الرضوان بالحديبية وغيرها والمضارع لتصوير الماضى بصورة الحال ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ لانه المقصود بالبيعة والرسول واسطة بينهم وبينه ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ التى بايعوا بها النبى صلى الله عليه وسلم حال أو استئناف مؤكد أى هو تعالى مطلع على مبايعتهم فيجازيهم عليها وسبب تلك البيعة أنه عليه السلام لما أرسل عثمان إلى قريش وهو بالحديبية ليخبرهم أنه إنما جاء زائرا للبيت لا يريد حربا وأرجف أنهم قتلوه دعا عليه السلام جميع من معه فبايعوه على الموت على قول سلمة بن الأكوع أو على ألا يفروا على قول جابر وهم ألف وثلثمائة أو أربعمائة وقال كلكم فى الجنة إلا صاحب الجمل الأحمر قال جابر فابتدرنا إليه فقلنا له تعال بايع رسول الله فأبى ولما بايع الحاضرون رفع عليه السلام يده وقال هذه يد عثمان ووضعها على الأخرى ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ البيعة ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ إذ لا يعود ضرره إلا إليه قال جابر لم ينكث أحد منا ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَنُؤْتِيهِ﴾ بالنون لنافع وابن كثير وابن عامر والياء للباقين ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يحاط به وهو الجنة ﴿سَيَقُولُ لَكَ﴾ إذا رجعت من الحديبية ﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾ عن المسير معك ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ حول المدينة من بنى لحيان وغطفان والديل ، قيل ومن غفار ومزينة وجهينة وأسلم وأشجع لانه عليه السلام حين أراد المسير عام الحديبية وتقدم فى سورة براءة أن ذلك فى ذى القعدة سنة ست من الهجرة استنفر من حول المدينة من الأعراب ليخرجوا معه خوفاً من تعرض قريش له فتخلفوا واعتلوا بالشغل بأموالهم وأهليهم وقالوا فيما بينهم لن يرجع محمد ولا أصحابه من هذه السفرة ففضحهم الله وأعلم نبيه بقولهم واعتذارهم قبل أن يصل إليهم فلما وصل جاءوا إليه وقالوا ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ لم نجد من يقوم مقامنا فى إشغال ذلك ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ من الله على التخلف وترك الخروج معك قالوه نفاقاً فأكذبهم الله بقوله ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم﴾ من طلب الاستغفار وما قبله ﴿مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فهم كاذبون فى الاعتذار والاستغفار ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ من يمنعكم من مشيئته وقضائه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ بفتح الضاد للجمهور وضمها لحمزة والكسائى لغتان : أى ما يضركم كقتل وخلل فى الأهل والمال وعقوبة على التخلف ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ ما يضاد ذلك وهو تعريض بالرد ولذا ترقى إلى التهديد بقوله ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أى بما كتمتم فى أنفسكم ثم كشف الغطاء عنه بقوله ﴿بَلْ﴾ فى الموضعين للانتقال من غرض إلى آخر ﴿ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ لظنكم أن المشركين يستأصلونهم ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ زينه الشيطان ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ من علو الكفر وظهور الفساد بسبب خذلان الإسلام ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ هالكين عند الله بهذا الظن وغيره جمع بائر أو مصدر وصف به مبالغة ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ﴾ أى لهم ﴿سَعِيرًا﴾ ناراً شديدة وضع الظاهر موضع المضمر إيذاناً بأن من لم يجمع بين الإيمان بالله وبرسوله فهو كافر وأنه

مستوجب للسعير بكفره وتنكير سعيراً للتهويل أو لأنها نار مخصوصة كنار تلظى ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يدبره كيف يشاء ﴿ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ إذ لا وجوب عليه وفيه ترغيب من نافق وتخلف فى التوبة ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ لم يزل متصفاً بذلك فالغفران والرحمة من دأبه والتعذيب داخل تحت قضائه بالعرض ولذا جاء فى الحديث الإلهى « سبقت رحمتى غضبى » ثم إن الله أمر نبيه بعد رجوعه من الحديبية أن يغزو خيبر ووعده بفتحها وأعلمه أن المخلفين سيطلبون الكون معه رغبة فى الغنيمة فكان كذلك كما قال ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ ﴾ المذكورون ﴿ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ﴾ أى مغانم خيبر إشارة إلى سهولة حصولها لوعد الله نبيه بذلك عوض ما فاتهم من غنائم قريش فخرج عليه السلام إليها فى المحرم سنة سبع ففتحها وغنم أموالا كثيرة فخصها بهم إلا أنه عليه السلام أعطى منها جعفر بن أبى طالب ومن قدم معه من الحبشة ووجدوا على رسول الله ثمة ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ لنأخذ منها ﴿ يُرِيدُونَ ﴾ بذلك ﴿ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ ولحمزة والكسائى «كلم الله» جمع كلمة أى مواعيده بغنائم خيبر لأهل الحديبية خاصة ﴿ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا ﴾ نفى فى معنى النهى ﴿ كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ قبل عودنا ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ أن نشارككم فى الغنائم فقلتم ذلك ولم يأمركم الله به يكذبون بذلك كلام الله كما هو دأبهم ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ ﴾ من كلام الله ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ منه أو لا يفهمون إلا فهماً قليلا مما كان فى أمور الدنيا فالإضراب الأول ردٌّ منهم أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم وإثبات الحسد، والثانى ردٌّ من الله لذلك وإثبات لجهلهم بأمور الدين ولذا نسبوا الحسد إلى من طلق الدنيا وزهرتها وما زاغ بصره إلى شىء دون جناب القدس وما طغى ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ كرر هذا الاسم لبشاعته تنفيراً للسامعين ﴿ سَتُدْعَوْنَ ﴾ اختباراً ﴿ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ هم هوازن وثقيف قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفتح أو بنو حنيفة أصحاب اليمامة قوم مسيلمة دعا إلى قتالهم أبو بكر فى خلافته فقاتلهم خالد بن الوليد، وقيل فارس والروم وردّ بأن العرب والمرتدين هم الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف وفارس والروم تقبل منهم الجزية، وقد قال تعالى فى هؤلاء ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ ﴾ حال مقدرة هى المدعو إليها فى المعنى ﴿ أَوْ ﴾ هم ﴿ يُسْلِمُونَ ﴾ فلا يقاتلون، ومن قال هم فارس والروم فسره بينقادون وهو صادق للإسلام أو الجزية. والله أعلم ﴿ فَإِنْ تُطِيعُوا ﴾ إلى قتالهم ﴿ يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ غنيمة فى الدنيا والجنة فى الآخرة ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ عن الحديبية ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ لتضاعف جرمكم. ولما أوعد على التخلف نفى الحرج عن المعذورين استثناء لهم عن الوعيد فقال ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾ فى التخلف عن الجهاد وإن وجد المركب ﴿ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ ﴾ إذا لم يجد مركباً ﴿ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ فى ترك الجهاد، ومع ارتفاع الحرج فجائز لهم الغزو وأجرهم فيه مضاعف وقد غزا ابن أم مكتوم وكان يمسك الراية فى بعض حروب القادسية وقد خرج النسائى هذا المعنى وقد يشير إليه

قوله ﴿ وَمَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فى الجهاد وغيره أياكان ﴿ نُدْخِلْهُ ﴾ بالنون لنافع وابن عامر والياء للباقين ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ﴾ فصل الوعد وأجمل الوعيد مبالغة فى الوعد ثم ختم ذلك بالتكرير على سبيل التعميم فقال ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ نُعَذِّبْهُ ﴾ بالقراءتين ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وإنما كرره لأن الترهيب هاهنا أنفع من الترغيب . واقه أعلم بأسرار كتابه ﴿ لَقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ ﴾ بالحديبية ﴿ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ وهى سمرة أو سدرة وتقدم عددهم وقد خرجوا إلى مكة فى العام القابل ففتشوا عن الشجرة فلم يتفق اثنان عليها وكان ذلك حكمة من الله لئلا يضل بها أقوام ﴿ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ من الصدق والإخلاص والوفاء ﴿ فَأَنْزَلَ ٱلسَّكِينَةَ ﴾ الطمأنينة بالتشجيع أوالسكون والامن بالصلح ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ أو الطمأنينة إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عهد قريش برد من جاءه مسلماً إليهم حتى قال له عمر ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ قال بلى ، قال فلم نعطى الدنية فى ديننا ، قال أنا رسول الله ولن يضيعنى الله فسكن قلبه ﴿ وَأَثَابَهُمْ ﴾ جازاهم ﴿ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ هو فتح خيبر بعد رجوعه إلى المدينة ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ من خيبر إذ كانت أرضاً ذات عقار ونخيل وزروع كثيرة نقسمها الرسول بينهم ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ فيما يحكم به لا يعارض لأنه يراعى مقتضى الحكمة لجازاكم بها حين علم إخلاصكم وحاجتكم ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ من الفتوحات زمن النبى إلى قيام الساعة وذكر الأخذ فى الموضعين للدلالة على سهولة الحصول ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ ﴾ غنيمة خيبر ﴿ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنْكُمْ ﴾ فى عيالكم لما خرجتم وهمت بهم اليهود فقذف الله فى قلوبهم الرعب أو أيدى أهل خيبر وحلفائهم بنى أسد وغطفان أو أيدى قريش بالصلح لتشكروا على ذلك ﴿ وَلِتَكُونَ ﴾ الغنيمة المعجلة أوهذه الكفة عطف على علة مقدرة كاقدرنا ﴿ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فى صدق وعد الرسول لهم غنائم خيبر وفى نصرهم وبأنهم من الله بمكان أوعنوانا على فتح مكة ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ هو الثقة بفضل الله والتوكل عليه إذ وجدتم وعده صادقاً ﴿ وَ ﴾ مغانم ﴿ أُخْرَىٰ ﴾ مبتدأ ﴿ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا ﴾ بعدُ صفة لاخرى والخبر ﴿ قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ﴾ استولى عليها وعلم أنها ستكون لكم وهى غنائم هوازن والروم وفارس ومابعد ذلك إلى قيام الساعة ، ويحتمل نصب «أخرى» بفعل يفسره «أحاط» أى وقضى الله لكم أخرى قد أحاط بها وأما عطفه على قوله «هذه» فتكون من الغنيمة المعجلة ويراد بها غنائم هوازن ومابعدها ففيه بُعْدٌ لكونها بعد فتح مكة وجماعها فتح مكة أبعد إذ لم يكن فيها غنيمة . والله أعلم ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ أى لم يزل متصفاً بذلك ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالحديبية ولم يصالحوكم ﴿ لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبَارَ ﴾ لانهزموا ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا ﴾ يحرسهم ﴿ وَلَا نَصِيرًا ﴾ ينصرهم ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة من هزيمة الكافرين ونصر المؤمنين أى سن الله ذلك سنة ﴿ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾ فى الامم الماضية ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ تغييراً وقد قال « لأغلبن أنا ورسلى » ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ بالحديبية لأنها

منسوبة إلى مكة فكفها بالصلح ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ﴾ أظهركم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لأن ثمانين منهم أو أربعين نزلوا من جبل التنعيم يوم الحديبية يريدون غرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذهم المسلمون وأتوا بهم رسول الله فن عليهم وأطلقهم فكان سبب الصلح . والقول بأن رسول الله بعث خالد بن الوليد إلى الثمانين فهزمهم فيه أن خالدا لم يكن أسلم يوم الحديبية بل كان طليعة للمشركين كما في البخاري وقيل كان هذا الكف والفتح يوم فتح مكة وهو ضعيف لأن السورة نزلت قبله ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بالخطاب للجمهور والغيبة لأبي عمرو ﴿بَصِيراً﴾ لا يخفى عليه ما تعملون من طاعة الرسول والجهاد ومحاسن الأخلاق وما يعملون من الكفر والصد فيجازي الكل ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ عن الوصول إليه ﴿وَ﴾ صدّ ﴿الْهَدْيَ﴾ ما يهدى إلى الكعبة من الأنعام وكان معه عليه السلام سبعون هديا وهو معطوف على كم ﴿مَعْكُوفاً﴾ محبوسا حال ﴿أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ عن بلوغه مكانه الذي يحل فيه نحره والمراد مكانه المعهود وهو منى وأما في الحصار فيحل ذبحه في محل الحصر عند غير الحنفية كما تقدم في البقرة فنحرُهُ عليه السلام بالحديبية حيث حصر يرد عليهم ، والله أعلم . ثم أشار إلى علة صرف المؤمنين عن مكة في ذلك الوقت بقوله ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ﴾ موجودون بمكة مع الكفار ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ لم تعرفوا أعيانهم بصفة الإيمان لاختلاطهم بالمشركين ﴿أَنْ تَطَئُوهُمْ﴾ تهلكوهم بالقتل مع الكفار لو أذن لكم في الفتح بدل اشتمال من هم أو من رجال ونساء ﴿فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ﴾ إثم أو مشقة وكراهة كوجوب الدية بقتلهم والتأسف عليهم وتعيير الكفار بذلك والإثم بالتقصير في البحث عنهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلق بأن تطؤوهم على أنه حال من ضمير المخاطبين أي غير عالمين بهم ولا تكرار لأن عدم العلم في الأول بالإيمان وفي الثاني بالإهلاك وجواب لولا محذوف لدلالة الكلام عليه أي لأذن لكم في الفتح أو لما كف أيديكم عنهم وفي حذفه إشارة إلى شدة غضب الله أي لولا حق المؤمنين ومكانهم عند الله لوقع بمن صدكم عن بيته ما لا يدخل تحت الوصف ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ﴾ علة لما دل عليه كف الأيدي أي كان ذلك الكف ليدخل الله ﴿فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ بأن يسلم المؤمنون من القتل ويدخل في الإسلام من وفقه من المشركين ومن يلدونه ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ تميزوا عن الكفار ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ من أهل مكة حينئذ بأن يأذن لكم في فتحها ﴿عَذَاباً أَلِيماً﴾ مؤلما ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ متعلق بعذبنا أو صدوكم أي اعتقدوا ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾ الأنفة والتعصب ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ التعصب الباطل المانع من اتباع الحق ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ حين رأى بروك ناقته فقال أصحابه خلأت القصواء فقال والله ما خلأت وليس ذلك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل والله لا يسألني قريش خطة يعظمون بها حرمات الله إلا أجبتهم فجاءوا للصلح على أن يرجع من عامه ويعود هو وأصحابه من قابل فتخلو له قريش عن البيت ثلاثة أيام وعلى وضع القتال سنتين أو أكثر على ما مرّ فقال لعلي ابن أبي طالب اكتب بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما صالح عليه رسول الله

أهل مكة فقالوا ما نعرف الرحمن اكتب باسمك اللهم ولوكنا نعرف أنك رسول الله ما صددناك عن البيت اكتب محمد بن عبدالله فقال لعلي امح رسول الله واكتب ما يرون فقال والله لاأمحوه أبدا وهم المؤمنون أن يأبوا الصلح فأنزل الله السكينة عليهم فتحملوا فمحا رسول الله ذلك وكتب محمد بن عبدالله ولم يلحقه هو وأصحابه من الحمية ما لحق الكفار ﴿وَأَلْزَمَهُمْ﴾ أى المؤمنين ﴿كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ لاإله إلا الله محمد رسول الله وقيل بسم الله الرحمن الرحيم اختارها لهم وإن أباها المشركون وأضيفت إلى التقوى لأنها سببها وقيل الوفاء بالعهد ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا﴾ بالكلمة من الكفار ﴿وَأَهْلَهَا﴾ عطف تفسير ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ ومنه استحقاقهم لها ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ رأى صلى الله عليه وسلم فى النوم عام الحديبية قبل خروجه أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين يحلقون ويقصرون فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا فلما خرجوا معه وصدهم الكفار بالحديبية ورجعوا وشق عليهم ذلك وارتاب المنافقون نزلت ، وقوله «بالحق» متعلق بصدق أو حال من الرؤيا وما بعده تفسير لها وهو ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ للتبرك وتعليم العباد الأدب فى العزم على المترقب ﴿ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ﴾ جميعَ شعورها ﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾ حالان مُقدرتان أى كما رآه رسول الله من غير تبديل ولاخلاف أن حلق الرأس فى الحج نسك مندوب إليه وفى غير الحج جائز لامثلة كما قال ابن عبد البر : أجمع العلماء على حسن تقصير الشعر وعلى إباحة حلقه قال القرطبي فى تفسيره وكفى بهذا حجة ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ أبداً بعد ذلك حال مؤكدة أو استئناف ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ من الحكمة فى تأخير ذلك إلى العام القابل ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ﴾ الدخول ﴿فَتْحاً قَرِيباً﴾ هو فتح خيبر وتحققت الرؤيا فى العام القابل وقدم لكم هذا الفتح لتستريح إليه القلوب إلى أن يتيسر الموعود ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ ملتبسا به أو بسببه ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ ليعليه ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ على جميع الأديان بنسخ ما كان حقا وإظهار فساد ما كان باطلا وتسليط المسلمين على أهل الأديان كلها وفيه تأكيد لما وعده من الفتح ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ على نبوة رسوله بالمعجزات وعلى أن ما وعده كائن بالفتوح ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ جملة من مبتدأ وخبر مبينة للمشهود به رادة على الكفار فى منع كتبه ويجوز أن يكون محمد خبر مبتدأ محذوف صرح باسمه العلم دفعا لتوهم غيره من لفظ الرسول أى ذلك الرسول الموصوف محمد ورسول الله عطف بيان منه ولا يكون تركيب أبلغ منه أو محمد مبتدأ ورسول الله نعت أو بيان وقوله ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ معطوف عليه وخبرهما ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ والذين معه هم جميع أصحابه عند الجمهور أو أهل الحديبية وهو جمع شديد أى يغلظون على من خالف دينهم ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ خبر ثان للموصول على جعله مبتدأ أى متعاطفون متوادون بينهم كالوالد مع الولد وصف لهم بكمال الرجولية والحكمة حيث وضعوا كل شيء موضعه وفى الحديث « المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » وقال عليه السلام «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من فى الأرض

يرحمكم من فى السماء» وقال «لا تنزع الرحمة إلا من شقى» ومن التراحم أن تحب لكل مسلم ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك وتلقاه بوجه طلق مع بذل السلام وطيب الكلام وبذل المعروف وفى الآية إشارة إلى ما غلب من الصفات فى كل واحد من الخلفاء كالمعية مع النبى صلى الله عليه وسلم فى أبى بكر والشدة على الكفار فى عمر بن الخطاب وعلىّ بن أبى طالب والرحمة على المؤمنين فى عثمان بن عفان رضى الله عنهم وباقى الصفات الآتية غالبة فى جميع الصحابة والله أعلم، وسيأتى إن شاء الله مثله فى مثالهم (تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا) فى غالب أوقاتهم أى مشتغلين بالصلاة (يَبْتَغُونَ) بأعمالهم (فَضْلًا) ثوابا (مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا) منه وهذا معاملتهم مع الله وما تقدم معاملتهم مع الناس (سِيمَاهُمْ) علامتهم: مبتدأ (فِي وُجُوهِهِمْ) خبره وهى نور وبياض يعرفون به فى الآخرة أنهم سجدوا فى الدنيا (مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ) و«من» بيان أى التى هى أثر السجود، وقيل هى السمة التى تحدث فى جباههم من كثرة السجود وهى فُعلَى من سامه أعلمه وهو متعلق بما تعلق به الخبر أى كائنة، قال عليه السلام: الصلاة نور، وقال شريك بن عبد الله: من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار، وعن مجاهد: هو الخشوع والنور قد يُرى فى وجه من هو أقسى قلبا من فرعون (ذَٰلِكَ) الوصف العجيب (مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ) عطف عليه أى ذلك مثلهم فى الكتابين (كَزَرْعٍ) أى هم كزرع تمثيل مستأنف أو تفسير أو خبر و«مثلهم» مبتدأ. قال فى الجواهر: وأبين التأويلات الأول وما عداه يفتقر إلى سند يقطع الشك (أَخْرَجَ شَطْأَهُ) بسكون الطاء للجمهور وفتحها لابن كثير وابن عامر فى رواية ابن ذكوان: فراخه التى تنبت حول الأصل (فَآزَرَهُ) بالمد للجمهور والقصر لابن ذكوان قواه وأعانه (فَاسْتَغْلَظَ) استحكم غلظة بعد الرقة (فَاسْتَوَىٰ) قوى واستقام (عَلَىٰ سُوقِهِ) قصبه جمع ساق (يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ) أى زراعه لقوته وحسن منظره مثل الصحابة رضى الله عنهم بذلك لأنهم بدأوا فى قلة وضعف فكثروا وقووا على أحسن الوجوه. وحكى النقاش عن ابن عباس أنه قال: الزرع: النبى صلى الله عليه وسلم أشطأه بأبى بكر فآزره عمر فاستغلظ بعثمان فاستوى على سوقه بعلىّ رضى الله عنهم. قال فى الجواهر: وهذا لين الإسناد والمتن، والله أعلم بصحته (لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ) تعليل بما دلّ عليه الكلام أى شبهوا بذلك ليكونوا شجى فى حلوق أعدائهم أو تعليل لقوله (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ) من الصحابة ومن لبيان الجنس لا للتبعيض لأنهم كلهم بالصفة المذكورة (مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) هو الجنة وهما لمن بعدهم أيضا فى آيات والكفار إذا سمعوا ما أعد الله لهم فى الآخرة بعد ما وعدهم به فى الدنيا غاظهم ذلك، وهذه الآية شاملة لجميع الحروف فمن توجه إلى أمر وصلى ركعتين ثم قرأها مائة مرة فإنه يعان على ذلك الأمر بإذن الله قاله أحمد بن عبد القادر بن عقبة والله أعلم.

[تم تفسير سورة الفتح]

سورة الحجرات
مدنية ـ ثماني عشرة آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا ﴾ أمراً حذف المفعول لتذهب النفس كل مذهب أو جعل منسيا كيحيي ويميت لأن المقصود نفي التقديم رأساً أو بمعنى التقدم والأول أبلغ وأشهر أي لا تقدموا قولا ولا فعلا ﴿ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ المبلغ عنه مستعار مما بين الجهتين المسامتتين ليدى الإنسان تهجيناً لما نهوا عنه أو ذكر الله توطئة لأن الكلام مسوق لإجلال رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي ذلك من قوة الاختصاص والمكانة ما لا يخفى ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في التقديم وجميع سوء الآداب ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لأقوالكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأفعالكم والتقوى هي ملاك الأمر . قيل نزلت في مجادلة أبي بكر وعمر لما قدم وفد تميم فأسلموا فقال أبو بكر : أمّر عليهم الأقرع بن حابس ، وقال عمر : القعقاع بن معبد أولى ، فقال له أبو بكر : ما أردت إلا خلافي . فقال : ما أردت خلافك . لكن خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ على ما علم في الأصول . ونزل فيمن رفع صوته عند النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ ﴾ كلامكم ﴿ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ كلامه وحرمة كلامه ميتاً كحرمته حيًّا ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ فضلا عن رفع الصوت فوق صوته إذ من كان مقامه عند الله من القرب ما تقدم كان خفض الصوت والتخافت في الكلام بين يديه أدنى ما يجب له من الإجلال ولذلك أعاد النداء حثًّا على الاستبصار وإيقاظاً عن سنة الغفلة . وفي البخاري : كاد الخيران أبو بكر وعمر أن يهلكا لرفعهما الأصوات عند رسول الله . وقال أبو بكر بعد الآية والله لا أكلمك بعد هذا إلا كأخي السرار وكان عمر إذا خاطبه لا يسمعه حتى يستفهمه ﴿ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ خشية أن تحبط بالرفع والجهر المذكورين لأن فيهما استخفافاً قد يؤدي إلى الكفر المحبط وذلك إذا انضم إليه قصد الإهانة وعدم المبالاة . إذ روى أن ثابت بن قيس كان في أذنيه وقر وكان جهورياً فلما نزلت تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فتفقده ودعاه فقال يارسول الله إني جهير الصوت أخاف أن يكون عملي قد حبط فقال عليه السلام « لست هناك إنك تعيش بخير وتموت بخير وإنك من أهل الجنة » وفي رواية « تعيش حميدا وتموت شهيداً » فاستشهد في اليمامة . ونزل فيمن كان يخفض صوته عند النبي بعد الآية كأبي بكر وعمر وغيرهما من الصحابة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ أي يخفضونها

﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ﴾ اختبر ﴿قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ومرنها عليها أو عرفها كائنة للتقوى خالصة لها فإن الامتحان سبب العرفان واللام صلة محذوف ، أوجزيها بأنواع المحن ليظهر تقواها أو أخلصها للتقوى من امتحن الذهب : أذابه وخلص إبريزه من خبثه ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ هو الجنة والتنكير للتعظيم والجملة خبر ثان لإن أو استئناف لبيان ما هو جزاء الغاضّين إحماداً لحالهم كما أخبر عنهم بجملة مؤلفة من معرفتين والمبتدأ اسم الإشارة المتضمن لما جعل عنواناً لهم والخبر الموصول بصلة دلت على بلوغهم أقصى الكمال مبالغة فى الاعتداد بغضّهم والارتضاء لمن تأدب بهذه الآداب وسلك مع رسوله سبيل الإجلال وتعريضاً بشناعة الرفع والجهر ويكون مرتكبهما على خلاف ذلك ، ونزل فى ناس من بنى تميم مقدمهم الأقرع بن حابس وهم سبعون جاءوا وقت الظهيرة والنبى صلى الله عليه وسلم فى منزله فنادوه باسمه يا محمد أخرج إلينا ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ خلفها أو قدامها من خارجها الداخل فى حريمها أى حجرات نسائك جمع حجرة ما يحجر عليه من الأرض بحائط ونحوه كأن كل واحد منهم نادى وراء حجرة لأنهم لم يعلموه فى أيها أو لأنها لما كانت منصلة فالمنادى وراء إحداها مناد من وراء الكل ناداه الأقرع وعيينة بن حصن فأسند النداء إلى جميعهم لأنهم راضون بذلك ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فيما فعلوا بمحلك الرفيع وما يناسبه من التعظيم لكونهم من جفاة الأعراب ولفظ الأكثر بمعنى الكل أو فيهم من لم يرتض ذلك وفى لفظ الحجرات كناية عن موضع خلوته مع بعض نسائه ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾ أى لو ثبت صبرهم فأن فاعل فعل مقدر أو مبتدأ ﴿حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ بيان لغاية الصبر أن ينبغى أن يكون مُغَيًّا بخروجه وفى « إليهم » إشعار بأنه لو خرج لا لأجلهم بل لأمر آخر لم يكن لهم أن يخاطبوه فضلا أن ينادوه حتى يفاتحهم بالكلام ويتوجه إليهم ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ لكان الصبر خيراً لهم من الاستعجال بالنداء لكن الصبر مرٌّ لا يتجرعه إلا حرٌّ أى لكان خيراً لهم فى الإسعاف إذ وردوا شافعين فى أساراهم فأطلق لهم النصف وفادى النصف ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث اقتصر على النصح والتقريع لهؤلاء المسيئين الأدب التاركين تعظيم الرسول عليه السلام ولم يضيّق غفرانه ورحمته عنهم إن تابوا ترغيب لهم فى التوبة ولما شيد أركان إجلال الرسول بما لا مزيد عليه شرع فى بيان معاملة المؤمنين بعضهم مع بعض فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ﴾ أىّ فاسق ﴿بِنَبَإٍ﴾ أىّ نبأ فتنكيرهما للتعميم ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ صدقه من كذبه بالتوقف وطلب انكشاف حقيقة الأمر ولا تعتمدوا على قوله فإن من لا يتحامى جنس الفسق لا يتحامى عن الكذب الذى هو نوع منه ولا خلاف أن الآية نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى المصطلق مصدقاً وكان بينه وبينهم إحنة فى الجاهلية فلما سمعوا به استقبلوه بصدقاتهم فحسبهم مقاتليه فرجع وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد ارتدوا ومنعوا الزكاة فهمّ بغزوهم فنزلت وجاءوا بعده منكرين ما قاله عنهم وقرأ حمزة والكسائى فتثبتوا من الثبات أى توقفوا حتى تبين لكم الحال

﴿ أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً ﴾ مفعول له أى خشية أن تصيبوهم بمكروه وهم برآء من موجبه ﴿ بِجَهَالَةٍ ﴾ حال من الفاعل أى جاهلين بحالهم ﴿ فَتُصْبِحُوا ﴾ تصيروا ﴿ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ ﴾ من الخطإ بالقوم ﴿ نَادِمِينَ ﴾ مغتمين غما لازما وتركيب هذه الأحرف الثلاثة دائر مع الدوام ومنه النديم والدمنة والإدمان كدوران حروف الفسق على معنى الخروج كيفما ركبت قاله فى غاية الأمانى وفى الآية دليل على رد خبر الفاسق وقبول خبر العدل الواحد وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل إليهم بعد عودهم إلى بلادهم خالد بن الوليد فلم ير فيهم إلا الطاعة والخير فأخبر النبى بذلك ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ فاتقوا الباطل : زجر عن مثل مافعل الوليد ، وعن حث بعض المؤمنين رسول الله على تعجيل غزوهم أى فيكم من يأتيه الخبر من الله وأنتم تريدون أن يتبع آراءكم فى الحوادث ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ ﴾ الذى تخبرون به على خلاف الواقع أو الأمر الذى تريدون فيه استتباع رأيكم ﴿ لَعَنِتُّمْ ﴾ لوقعتم فى المشقة والإثم وهذا يدل على أن بعضهم أشار إلى غزو بنى المصطلق وتصديق الوليد وفى إيثار « لو » إشارة إلى أن ما بعده حقه أن يكون مفروضاً كالمستحيل وأيده بالمضارع تصويراً لاستهجان ما كانوا عليه من إرادة الاستمرار فيما حقه أن يكون مفروضاً وبالعنت الذى هو فى الأصل الكسر بعد الجبر إلى أشد المحذور مع الرمز إلى أنه ليس بأول بادرة منهم وتعميم الخطاب ليكون تعريضاً وهو أودع لمرتكبه وأزجر لغيره ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ ﴾ الكبيرة ﴿ وَالْعِصْيَانَ ﴾ جميع ما أنكره الشرع استدراك ببيان عذرهم وهو أن فرط حبهم الإيمان وكراهتهم الكفر حملهم على ذلك لما سمعوا قول الوليد ، أو بصفة من لم يفعل ذلك منهم إحماداً لفعلهم وتعريضاً بذم من فعل ويؤيده قوله ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ أى المستثنون ﴿ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ المستقيمون على الحق بتصلب والتصلب الشدة من الرشادة وهى الصخرة ﴿ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ تعليل لكره أو حبب وما بينهما اعتراض أو مصدر لغير فعله وهو رشد المفهوم من الراشدين لأنه بمعناه إذ الرشد فضل من الله ونعمة ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بأحوال الناس ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يتفضل وينعم على مقتضى حكمته ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾ تقاتلوا والجمع باعتبار المعنى فإن كل طائفة جمع ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ بالدعاء إلى حكم الله والنصح ثنى نظراً إلى اللفظ ﴿ فَإِنْ بَغَتْ ﴾ عدت ﴿ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ ﴾ بالظلم وإباء الصلح ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى ﴾ وفى هذا وجوب قتال الباغية لكن للعدل ﴿ حَتَّىٰ تَفِىءَ ﴾ ترجع ﴿ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ المذكور فى كتابه من الصلح : أى إلى حكمه ﴿ فَإِنْ فَاءَتْ ﴾ إلى أمر الله ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ﴾ قيده بالعدل دون الأول لأن هذا مظنة الحيف لكونه بعد المقاتلة أو إشارة إلى أن الباغى بعد الفىء حكمه حكم العادل لاسيما إن كانت له شبهة ﴿ وَأَقْسِطُوا ﴾ اعدلوا فى كل الأمور وفيه تأكيد للإصلاح بالعدل ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ والآية نزلت فى الأوس والخزرج وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم حماراً يزور سعد بن عبادة فمر على مجلس فيه ابن أبى فأخذ بأنفه وقال لاتؤذينا بنتن حمارك ، فقال عبد الله بن رواحة : إن حماره أطيب ريحاً منك فوقع بين قوميهما قتال فتضاربوا

بالأيدى والنعال والسعف والعصى فأصلح رسول الله بينهم فنزلت وهى العمدة فى حرب البغاة والخارجين عن الإمام بمنع الدخول فى طاعته أو منع حق وجب عليهم كالزكاة فيدعون إلى الحق أولا فإن أبوا حل سفك دمائهم للإمام العدل بخلاف غيره فإن انهزموا لم يتبعوا ولا يجهز على جريحهم إلا أن يخاف رجوعهم ولا تغنم أموالهم ولا تسبي حريمهم وإن أخذوا لم يقتلوا بل يؤدبون بالسجن حتى يتوبوا وما أتلفوه فى الفتنة من النفوس والأموال فإن كانوا خرجوا بتأويل فلا ضمان عليهم وإن خرجوا بغير تأويل فعليهم القصاص فى النفوس والغرم فى الأموال والآية تدل على أن الباغى مؤمن وأنه إذا قبض يده عن الحرب ترك وأنه يجب معاونة من بغى عليه بعد تقديم النصح والسعى فى المصالحة ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ لانتسابهم إلى شيء واحد وهو الدين وأتى بالحصر اهتماماً بشأن هذه الأخوة وإشارة إلى أنه زالت مع الإيمان الأجنبية وهى أشرف من أخوة النسب لانقطاع الأنساب يوم القيامة وأخوة الدين باقية أبداً صافية لا كدر فيها بخلاف أخوة النسب إذ قلّ ما تخلو عن كدورة ومجانبة ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ إذا تنازعوا وضع الظاهر موضع المضمر مضافاً إلى المأمورين للمبالغة فى التقرير والتخصيص وإيثار الاثنين لأنهما أقل من يقع الشقاق بينهما وقرئ بين إخوتكم وإذا وجب الإصلاح بين اثنين فنى الأكثر أوجب فإن كانوا يجتهدون فى دفع الشقاق بين إخوة النسب فنى الدين أحق ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فى مخالفة حكمه أو إهماله وأحرى فى الإصلاح إذ كثيراً ما يتساهل فيه ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ على تقواكم لأنها تحملكم على التواصل والائتلاف وذلك سبب لرجاء وصول رحمة الله إليكم فى الدارين لأن التواصل نوع من التوحيد إذ فيه ألفة القلوب واتحادها على شيء واحد والقطيعة افتراق وكثرة وهى ضد التوحيد فمن أجل ذلك قطع الله قاطع الرحم فإذا تجرد رحم الولادة عن الإيمان وجب البراءة منها . ولما شيد أركان الأخوة الدينية نهى عما يناقضها من الأخلاق الجاهلية كالسخرية واللمز والنبز بالألقاب وظن السوء بأخيه وغيبته والافتخار بالنسب فقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ ﴾ رجال منكم ﴿ مِنْ قَوْمٍ ﴾ والسخرية الازدراء والاحتقار كما فعل وفد تميم ببعض فقراء المسلمين كعمار وصهيب ﴿ عَسَى أَنْ يَكُونُوا ﴾ أى المسخورون ﴿ خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ من الساخرين ﴿وَلَا﴾ يسخر ﴿نِسَاءٌ﴾ منكم ﴿مِنْ نِسَاءٍ﴾ كما فعل بعض أزواج النبى صلى الله عليه وسلم بزوجته صفية يقلن لها يا يهودية بنت يهودى ﴿ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴾ وتنكير قوم ونساء لإرادة البعض أو الشيوع ولم يقتصر على التوحيد لأن السخرية أكثر ما تكون فى المحافل والراضى بها كالساخر ولم يعطف «عسى» بالفاء لكونه استئنافاً لبيان علة النهى ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا ﴾ لا تعيبوا ﴿ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أى لا يعب بعضكم بعضاً لأن المؤمنين كنفس واحدة أو لا تعيبوا فتعابوا أو لا تفعلوا ما تلمزون بسببه كقوله عليه السلام : لا يسبن أحدكم أباه . قالوا : وهل يسب أحد أباه ؟ قال : نعم يسب أبا أحد فيسب أباه . واللمز فى الأصل الإشارة بالعين وشاع فى الطعن باللسان كالهمز فى الفعل وقيل اللمز

قد يكون بالقول وبالإشارة ونحوه مما يفهمه آخر والهمز لايكون إلا باللسان وقيل اللمز ما كان فى المشهد والهمز ما كان فى المغيب وحكى عكس ذلك ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ أى لا يدعُ بعضكم بعضاً بلقب يكرهه لأن النبز مختص باللقب السوء يكرهه المدعو لكونه ذماً أو تقصيراً ، ومنه : يا كافر لمن أسلم أو يا فاسق لمن تاب ، ويا رقيق لمن عتق ونحو ذلك . وفى الحديث : على المؤمن أن يدعو أخاه بأحب أسمائه إليه وقال عليه السلام « المسلم أخو المسلم لايخونه ولا يكذبه ولايخذله كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه » رواه الشيخان فاحذر من استهزاء من تراه رث الحال أوذا عاهة فى بدنه فلعله عند وقره الله . وعن ابن مسعود البلاء موكل بالقول لو سخرت من كلب لخشيت أن أحول كلبا ﴿ بِئْسَ الِاسْمُ ﴾ المذكور من السخرية واللمز والتنابز ﴿ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾ بدل من الاسم لإفادة أنه فسق لتكرره عادة والجمع بينه وبين الإيمان مستقبح أو المراد بالاسم الذكر أى بئس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسق بعد دخولهم فى الإيمان واشتهارهم به والمراد تهجين نسبة الكفر والفسوق إلى المؤمنين ﴿ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ ﴾ عما نهى عنه ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ الكاملون فى الظلم لاستمرارهم على الباطل بعد العلم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ ﴾ كونوا فى جانب منه مطاوع جنبه الشر أبعده عنه فاجتنب هو ونكر كثيراً لئلا يجترئ على أىّ ظن إلا بعد التأمل والعلم بأنه من أىّ قبيل ولو علمه لكان المنهى عنه الظن الموصوف بالكثرة ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ مؤثم أو منه الإثم أى هو حرام يوجب العقاب وهو كثير كظن السوء بأهل الخير من المؤمنين ومنه قول عمر لاتظن بأخيك سوءا بكلمة تسمعها وأنت تجد لها محملا ومن ذلك اتباع الظن فى الإلهيات والنبوّات حيث يخالفه قاطع ومن الظن مايجب اتباعه كالظن المجتهد حيث لاقاطع فيه من العمليات وحسن الظن بالله ومنه مايباح كظن أهل الفسق بنحو مايظهر منهم والظن فى الأمور المعاشية وإنّ ومعمولاه تعليل مستأنف للأمر ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ حذف منه إحدى التاءين لا تبحثوا عن عورات المسلمين من الجس وهو الاختبار باليد شاع فى الشر كالتحسس بالحاء فى الخير ويتداخلان وفى الحديث لاتتبعوا عورات المسلمين فإن من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو فى جوف بيته ﴿ وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾ لا يذكره بشىء فيه يكرهه حال غيبته وإن لم يكن فيه فبهتانٌ . وعن عائشة رضى الله عنها ذكرتُ صفية عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقصر قال « لقد قلت كلمة لو مزجت بالبحر مزجته » فعرض المؤمن كدمه إلا إذا كان المغتاب مجاهرا بالفسق أو احتيج إلى ذلك للجرح أو استشير فيه ومالم يبلغ المغتاب إذا تيب عنه سقط الإثم ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ بالتشديد لنافع والتخفيف للباقين أى لا يحسن به تمثيل لما يناله المغتاب من عرض من اغتابه على أفحش وجه مع مبالغات الاستفهام المقرر وإسناد الفعل إلى أحد للتعميم وتعليق المحبة بما هو فى غاية الكراهة وتمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان الذى تنفر عنه الطباع وجعل المأكول أخا وميتاً وتعقيب ذلك بقوله ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ والفاء فصيحة أى فاغتيابه

في حياته كأكل لحمه بعد مماته وقد عرض عليكم الثاني فكرهتموه فاكرهوا الأول وانتصاب ميتاً على الحال من اللحم أو الأخ لأن اللحم جزؤه وقد قال عليه الصلاة والسلام لرجلين اغتابا آخر وَمَرَّا مَعَ النبي صلى الله عليه وسلم على جيفة حمار فقال لهما كلا من هذا الحمار فقالا يغفر الله لك يا رسول الله وهل يؤكل لحم هذا؟ فقال ما نلتما من عرض أخيكما أشد من هذا وقال لآخرين اغتابا سلمان : أرى خضرة اللحم في أفواهكما ! فقالا ما أصبنا طعاما منذ كذا وكذا ، قال : قد اغتبتما سلمان . وفي لفظ الخضرة زيادة تهجين لأنه من خواص لحم الجيفة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي عقابه في الاغتياب وغيره بأن تتوبوا ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ شديد الاعتناء بقبول التوبة ﴿رَحِيمٌ﴾ وافر الرحمة بعد الإسراف دهراً طويلا إذا تاب قبل الغرغرة بلحظة تبدل معاصيه طاعات ثم قرر الأخوة المانعة عن الاغتياب والتفاخر على الإخوان بقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ من آدم وحواء أو خلقنا كل واحد منكم من أب وأم فالكل سواء في ذلك فلا وجه للتفاخر بالنسب ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً﴾ جمع شعب بفتح الشين هو أعلى طبقات النسب في اصطلاح العرب ﴿وَقَبَائِلَ﴾ هي دون الشعوب وبعدها العمائر ثم البطون ثم الأفخاذ ثم الفصائل آخرها مثاله في النبي صلى الله عليه وسلم ونحوه في النسب خزيمة شعب كنانة قبيلة قريش عمارة بكسر العين . وقصيّ بطن . هاشم فخذ . العباس فصيلة . وقيل الشعوب بطون العجم والقبائل بطون العرب ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ حذف إحدى التاءين ليعرف بعضكم بعضا في قرب النسب فلا يعتزى إلى غير آبائه ولا يرثه غير أوليائه إن وجدوا ليسهل رعاية الأصول في صلة الأرحام ومراعاة الأكفاء في الأزواج وتحمل الديات لا للتفاخر بالآباء والتفاضل في الأنساب ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ولا مدخل للأنساب في نيل الفضل عند الله وإنما ذلك بالتقوى قال عليه السلام «لا فضل . منه . احد إلا بالتقوى» وقال «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه» وسئل عن أكرم الناس فقال «أتقاهم» وكل هذه الأحاديث صحاح وفي صحيح مسلم قال عليه السلام « إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد » وفي الترمذي وأبي داود عنه عليه السلام «لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم إنما هم لحم من جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخرء بأنفه إن الله أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وفخرها إنما هو مؤمن تقي أو فاجر شقي كلكم بنو آدم وآدم من تراب » اهـ . ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بكم ﴿خَبِيرٌ﴾ ببواطنكم يعلم أهل التقوى تحذير عن شوب الرياء بدعوى الكرامة فيها ولما ذكر أن ملاك الأمر هو التقوى أشار إلى ما به قوامه وهو الإيمان الذي لا يعتد بعمل دونه مُدْمَجاً فيه توبيخ من زعم أنه اتصف به وهو عنه بمراحل بقوله ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ﴾ أي بعض سكان البوادي وهم بنو أسد قدموا المدينة لجدب أصابهم وأظهروا الشهادتين لإرادة الغنائم وقالوا للرسول ﴿آمَنَّا﴾ بك وأتيناك بالأثقال والعيال يريدون الصدقة ويمنون على الرسول بإيمانهم من غير قتال ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ وإلا لما منتم على الرسول بذلك إذ الإيمان تصديق مع ثقة بالله وطمأنينة قلب

﴿ وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ انقدنا ظاهراً بترك المحاربة ولم يقل لاتقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا مع أنه مقتضى السياق احترازاً من النهى عن القول بالإيمان ولم يقل ولكن أسلمتم لئلا يجزم لهم بإسلام فقد شرط اعتباره شرعاً ولم يصرح بتكذيبهم تلطفاً بالجهال ولذا نفى إيمانهم بلمَّا التى للتوقع فى قوله ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ إلى الآن ولكن يتوقع منكم وهو حال من واو قولوا أسلمنا أى قولوا ذلك والحال أن الإيمان لم يدخل محله فى ذلك الوقت ﴿ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ بالإخلاص وترك النفاق ﴿ لَا يَلِتْكُم ﴾ من لاته للجمهور وهى لغة الحجاز ومن ألته لأبى عمرو وهى لغة غطفان بمعنى لاينقصكم ﴿ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ ﴾ أى ثوابها ﴿ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لمن تاب منكم ما فرط من الدعوى المجردة ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ حيث أرشدكم إلى طريق الصواب ثم أشار إلى حقيقة الإيمان بالحصر تعريضاً لهم بقوله ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ الصادقون فى الإيمان ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ ﴾ استمروا على ذلك و ﴿ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ لم يقع فى نفوسهم شك فيما آمنوا به ولا اتهام لمن صدقوه إلى الموت ولذا عطف على الإيمان بكلمة التراخى المشعرة باشتراط استقراره فى الأزمنة المتراخية المستقبلة وبأنهم على الترقى والازدياد فيه أبداً ﴿ وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فى طاعته فبجهادهم يظهر صدق إيمانهم إذ هو فى الأنفس والأموال عبادات بدنيات وماليات ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ فى إيمانهم تعريض لتلك الاعراب أى لا من قالوا آمنا ولم يوجد منهم غير القول وفيه أن من تشهد ولم يقف على دعائم الإسلام لم يصح إسلامه ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾ قيل نزلت لما جاءوا بعد نزول الآية المتقدمة وحلفوا أنهم مؤمنون وهو توبيخ لهم على ذلك أى هب أن دعواكم تشتبه على الناس لأن الإيمان محله خفىّ فكيف شأنكم مع الله ، تعلمونه ما لا يعلم ؟ ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لا يخفى عليه خافية وفى إعادة لفظ الجلالة مبالغة فى إحاطة علمه لاقتضاء الألوهية ذلك ودلالة على أن فى خارج السموات والأرض أشياء لا يحيط بها إلا علمه ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ بإسلامهم من غير قتال أى يعدون ذلك عليك منة وهى النعمة التى لا يستثيب موليها ممن بذلها إليه ، من المن بمعنى القطع لأن المقصود بها قطع حاجته ﴿ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ﴾ أى بإسلامكم فنصب بنزع الخافض وفى إضافته إليهم إشارة إلى خساسته وأنه شىء يليق بأمثالهم ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى قولكم آمنا أى لو صح الإيمان فلله المنة عليكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ما غاب فيهما ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ بالتاء للجمهور فى سركم وعلانيتكم والياء لابن كثير أى فكيف يخفى عليه إيمانهم ؟

[تم تفسير سورة الحجرات]

سورة ق

مكية ، وهي خمس وأربعون آية

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۔ ق) الله أعلم به (وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) ذى الشرف على سائر الكتب والمجد : الشرف المتسع أو خاص بكرم الآباء من مجدت الإبل وقعت فى مرعى كثير ، والجواب ما آمن كفار مكة بمحمد مع إتيانه بهذا القرآن المجيد جهلا منهم (بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ) رسول من أنفسهم يخوفهم بالنار بعد البعث وهذا ليس بعجب لظهور أدلته عقلا ونقلا إذ العجب يكون من شىء خفى سببه فإذا ظهر السبب بطل العجب (فَقَالَ الْكَافِرُونَ) بسبب كفرهم (هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ) والإشارة راجعة إلى الرجوع الدال عليه الإنذار وفى إضمار ذكرهم ثم إظهاره لإشعار صفتهم بهذا المقال ثم التسجيل على كفرهم بذلك وعطف تعجبهم من البعث على تعجبهم من البعثة ووضع الظاهر موضع المضمر مبالغات فى إنكارهم وكذا ما فى الإبهام ثم التفسير فى قوله (أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا) نرجع ؟ دل عليه (ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) عن العادة أو الإمكان . قال تعالى ردًّا على استبعادهم الرجوع (قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ) تأكل (مِنْهُمْ) من أجسادهم بعد موتهم والقدرة على الإنشاء مسلّمة عندهم الإنكار لماذا ؟ (وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ) ملء ضابط للحوادث ما كان وما يكون وهو اللوح المحفوظ (بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ) القرآن والنبي (لَمَّا جَاءَهُمْ) من غير تأمل فالتكذيب به أسوأ من التعجب مما مر والإضراب الثانى أبلغ ذمًّا لهم من الأول (فَهُمْ) فى شأن النبي والقرآن (فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ) مختلط مضطرب قالوا مرة ساحر سحر ومرة شاعر شعر ومرة كاهن كهانة إلى غير ذلك من خرافاتهم (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا) بعيونهم معتبرين بعقولهم حين أنكروا البعث (إِلَى السَّمَاءِ) كائنة (فَوْقَهُمْ) من غير سبق مثال فيدلهم على أن إعادة أمثالهم أهون منه (كَيْفَ بَنَيْنَاهَا) بلا عمد (وَزَيَّنَّاهَا) بالكواكب (وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ) فتوق وشقوق تعيبها بأن خلقت ملساء متلاصقة الطباق (وَالْأَرْضَ) معطوف على موضع السماء (كَيْفَ مَدَدْنَاهَا) دحوناها وبسطناها على وجه الماء (وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ) جبالا تثبتها (وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ) صنف (بَهِيجٍ) يُبتهج به لحسنه (تَبْصِرَةً) مفعول له أى وفعلنا ذلك تبصيراً منا (وَذِكْرَىٰ) تذكرة (لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) راجع إلى الله فى التدبر فى بدائع صنعه وهما علتان للأفعال المذكورة وإن انتصبتا عن الفعل الأخير فالأولى للراسخين والثانية للقاصرين (وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا) كثير الخير والمنافع

﴿ فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ ﴾ أشجاراً ذوات ثمار ﴿ وَحَبَّ ﴾ الزرع ﴿ الْحَصِيدِ ﴾ المحصود أى ما شأنه أن يحصد مما يقتات به كالبر والشعير وأخره لقلته عند العرب فإن أكثر معاشهم الماء والتمر ولذلك عقبه بقوله ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ ﴾ طوالا حال مقدرة أفردها بعد تناول الجنات لها لكثرتها عند العرب وكثرة منافعها ﴿ لَهَا طَلْعٌ ﴾ ثمر أول ظهوره ﴿ نَضِيدٌ ﴾ منضود بعضه فوق بعض لتراكمه أو كثرة ما فيه من الثمر ﴿ رِزْقًا لِلْعِبَادِ ﴾ علة للإنبات أو مصدر بمعنى الإنبات لأن الإنبات رزق ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ ﴾ بذلك الماء ﴿ بَلْدَةً مَيْتًا ﴾ جدباً يابساً ولم يؤنثه باعتبار المكان أو لاستواء المذكر والمؤنث فيه ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أى مثل هذا الإحياء ﴿ الْخُرُوجُ ﴾ من القبور فكيف تنكرونه ، والخروج مبتدأ والكاف خبره وقيل عكسه والأول أظهر والثانى أبلغ كأنه قال مثل هذا المحسوس الخروج الذى تستحيلونه والمشار إليه على هذا خروج النبات لا الإحياء ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ ﴾ قوم حنظلة أو غيرهم ﴿ وَثَمُودُ ﴾ قوم صالح ﴿ وَعَادٌ ﴾ قوم هود ﴿ وَفِرْعَوْنُ ﴾ وقومه وخص بالذكر لكونه سبب تكذيبهم «فاستخف قومه فأطاعوه» ﴿ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴾ قومه والاختلاف للتفنن والإعلام بأن بينه وبينهم نسبا ، وقيل هم أصهاره ﴿ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ﴾ الغيضة قوم شعيب ﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ ملك اليمن سبق الكلام عليهم فى الحجر والدخان ﴿ كُلٌّ ﴾ من المذكورين ﴿ كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ كقريش أى كل فرد أو كلهم وإفراد الضمير باعتبار اللفظ ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ وجب نزول العذاب على الجميع فلا يضق صدرك من كفر قريش بك تسلية له وتهديد لهم ﴿ أَفَعَيِينَا ﴾ عجزنا ﴿ بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ﴾ أى لم نعى به فهم معترفون بالاقتدار عليه فلزم الاعتراف بالثانى وهو الإعادة ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ ﴾ شك وشبهة وحيرة ﴿ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وهو البعث أى لا ينكرون الأول بل إنكارهم فى خلق مستأنف لما فيه من مخالفة العادة ولذا نكره ثم أزال شبهتهم بقوله ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ ﴾ حال بتقدير نحن ﴿ مَا ﴾ موصولة أو مصدرية ﴿ تُوَسْوِسُ ﴾ تحدث ﴿ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ الباء زائدة أو معدية والضمير لـ «ما» على الأول والإنسان على الثانى فالإنسان حينئذ هو المحدث والوسوسة حديثه أى قائم به كقول لبيد «وأكذب النفس إذا حدثتها» ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ بالعلم ﴿ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ الإضافة للبيان والوريدان عرقان بصفحتى العنق متصلان بالوتين يردان من الرأس إليه سميا بذلك لأن الروح ترده تمثيل لعلمه أو من إطلاق السبب وإرادة المسبب لأن القرب من الشىء سبب العلم به ﴿ إِذْ ﴾ ظرف لأذكر مقدرا أو لأقرب وإن كان أفعل للتفضيل للاتساع فى الظرف أى نحن أعلم بحاله من كل قريب حين ﴿ يَتَلَقَّى ﴾ يأخذ ويكتب الحفيظان ﴿ الْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ ما يعمله الإنسان فليس توكيلهما لاستفادة علم بل لزيادة زجر الإنسان إذا علم حفظهما له ﴿ عَنِ الْيَمِينِ ﴾ منه قعيد ﴿ وَعَنِ الشِّمَالِ ﴾ منه ﴿ قَعِيدٌ ﴾ مبتدأ وخبره ما قبله أى مقاعدكالجليس حذف من الأول لدلالة الثانى عليه أو بمعنى قاعدان إذ الفعيل يطلق للواحد والمتعدد ﴿ مَا يَلْفِظُ ﴾ ما يرمى أى ما يتكلم ﴿ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ ﴾ حافظ ﴿ عَتِيدٌ ﴾ حاضر وكل منهما بمعنى المثنى وتخصيص القول

مع أن المراقبة عامة لأن السياق في حديث الإنسان نفسه ولفظ «ما» مع زيادة من يدلان على كتابة كل شيء حتى أنينه في مرضه ، وقال عكرمة : يكتبان الخير والشر فقط والاول أصوب لما في أبي داود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كل شيء يتكلم به ابن آدم فإنه مكتوب عليه » قاله في الجواهر وصاحب اليمين أمير على صاحب اليسار فإذا عمل الإنسان حسنة كتبها عشرا وإذا عمل سيئة قال لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يستغفر وينبغي للمكلف أن يحفظ لسانه عن جميع مالم يضطر إليه بمصلحة له فيه فإن استوى الكلام وتركه في المصلحة فالسنة الإمساك إذ قد يجر المباح إلى حرام أو مكروه وفي الصحيحين : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » وهو نصٌّ صريح فيما قلنا ، وفي الترمذي حديث «مِنْ حُسْنِ إسلام المرء تركه مالا يعنيه » ولما أزاح استبعادهم البعث للجزاء بتحقيق قدرته وعلمه أعلمهم بقرب لقاء ذلك بتعبيره بلفظ الماضي في قوله ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾ غمرته وشدته الذاهبة بالعقل ملتبسة ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ حقيقة أمر الآخرة من السعادة والشقاوة أو الموعود الحق الذى بعثت الرسل لأجله فالباء للتعدية أو المعية ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الموت ﴿ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ تميل وتنفر عنه وتهرب والخطاب للكافر لأن الكلام معه وفي أحواله أو للإنسان التفاتاً ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ للبعث ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ النفخ أى وقته ﴿ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴾ يوم تحققه وإنجازه للكفار ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ ﴾ في محل النصب على الحال من « كل » لإضافته إلى ما هو في حكم المعرفة لأنه في معنى كل النفوس والسائق ملك يسوقها إلى المحشر ﴿ وَشَهِيدٌ ﴾ ملك يشهد عليها بعملها أو ملك جامع للوصفين وقيل السائق كاتب السيئات والشهيد كاتب الحسنات ، وقيل السائق قرينه والشهيد جوارحه أو أعماله ويقال للكافر ﴿ لَقَدْ كُنتَ ﴾ في الدنيا ﴿ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا ﴾ النازل بك اليوم ، وقيل الخطاب لكل نفس إذ ما من أحد إلا وله اشتغال مّا عن الآخرة ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ ﴾ عن أمور المعاد وهو الغفلة والانهماك في الدنيا أزلنا الساتر بينك وبين أمور الآخرة ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ شديد الرؤية نافذ لزوال المانع تدرك به ما أنكرته في الدنيا ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ الملك الموكل به ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ حاضر صفة «ما» إن كانت موصوفة وبدل إن كانت موصولة أو خبر بعد خبر أو خبر لمحذوف ثم خاطب تعالى السائق والشهيد بقوله ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ أو خطاب للملك ثنى على عادة كلام العرب في تثنية لفظ المخاطب الواحد تنزيلا له منزلة تثنية الفعل وتكريره كأنه قال ألق ألق جهنم ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ معاند للحق ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ المال أى حقه كالزكاة أو الإسلام والوجه عموم الخير ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ ظالم متعد ﴿ مُّرِيبٍ ﴾ شاك في دين الله ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ بدل من كل كفار أو رفع أو نصب على الذم ﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾ كُرر للتوكيد أو من ذكر الخاص بعد العام أو الموصول مبتدأ خبره فألقياه ﴿ قَالَ قَرِينُهُ ﴾ أى الشيطان المقيض له استئناف لأنه جواب لمحذوف دل عليه ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ أضللته كأن الكافر قال هذا أطغاني فقال ما أطغيته

﴿ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ بَعِيدٍ ﴾ عن الحق حيث ترك الحق بعد ظهوره فأعنته عليه بوسوسة والعطف في الأولى للدلالة على الجمع بين مجيء كل نفس وقول قرينه ﴿ قَالَ ﴾ تعالى ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ ﴾ أى في موقف الحساب فليس محلا للخصام لعدم الجدوى وهو استئناف كالأول ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم ﴾ أى والحال أنى قد قدمت إليكم في الدنيا ﴿ بِالْوَعِيدِ ﴾ بالعذاب إن لم تؤمنوا ولا بد منه والباء مزيدة أو معدية على أن قدم بمعنى تقدم ﴿ مَا يُبَدَّلُ ﴾ ما يغير ﴿ الْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾ فلا تطمعوا في أن أغير وعيدى ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ فأعذبهم بغير جرم ﴿ يَوْمَ ﴾ ظرف متعلق بظلام أو باذكر مقدراً ﴿ يَقُولُ ﴾ بالياء لنافع وأبى بكر والنون للباقين ﴿ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ ﴾ استفهام تحقيق لوعده بملئها ﴿ وَتَقُولُ ﴾ بصورة الاستفهام كالسؤال ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ زيادة أو مازاد مصدر أو اسم مفعول. وفى البخارى عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: يلقى في النار من يلقى وهى تقول هل من مزيد حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول قط قط بعزتك. وعلى هذا الاستفهامُ على أصله، وما روى عن ابن عباس «هل من مزيد» أى لم يبق فىّ موضع إبرة محمول على ما بعد وضع القدم ولا ضرورة تدعو إلى صرف السؤال والجواب عن الحقيقة إلى التخييل الذى يقصد به التصوير. قال ابن عطية: والذى يترجح فى قول جهنم هل من مزيد أنه حقيقة وأنها قالت ذلك وهى غير ملأى ومعنى القدم فى الحديث ما قدم لها من خلقه وجعلهم فى علمه ساكنيها. اهـ. قلت: وفيه ما فيه لما جاء فى آخر الحديث بعد قوله حتى يضع قدمه فيها فهنالك تمتلئ وينزوى بعضها إلى بعض ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحداً، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقاً وفيه أنه لا ينشئ للنار خلقاً لم يعصه إذ لا يظلم أحداً، والحديث من المتشابه الذى يفوّض علمه إلى الله. والله أعلم ﴿ وَأُزْلِفَتِ ﴾ قربت ﴿ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ مكاناً ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ منهم نصب على الظرف ويجوز أن يكون حالا وتذكيره لأنه صفة محذوف أى شيئاً غير بعيد أو لأن الجنة بمعنى البستان وعلى كل تقدير هو توكيد لأزلفت معنى فيقال لهم وهم يرونها ﴿ هَـٰذَا ﴾ المرئى ﴿ مَا تُوعَدُونَ ﴾ بالتاء للجمهور والياء لابن كثير ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ رجاع إلى طاعة الله بدل من المتقين والجملة بينهما اعتراض أو هذا مبتدأ و«ما توعدون» صفته و«لكل أواب» خبره ﴿ حَفِيظٍ ﴾ على حدوده ﴿ مَّنْ خَشِىَ الرَّحْمَـٰنَ ﴾ بدل بعد بدل وإيثار «الرحمن» من بين أسمائه تعالى وجعله مقروناً بالخشية للثناء على الخاشى بأنه يخشاه مع علمه بسعة رحمته ولم يغتر بذلك ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ حال من الفاعل أو المفعول أى خافه ولم يره زيادة فى الثناء ﴿ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ مقبل على طاعة الله وخص القلب لأن سائر الأعضاء تبع له ويقال للمتقين أيضاً ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ﴾ أى سالمين من زوال النعم وحلول النقم وكل مخوف أو مسلماً عليكم من الله وملائكته أو مع سلام أى سلموا وادخلوا ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ اليوم الذى حصل فيه الدخول ﴿ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ أى تقديره كقوله ادخلوها خالدين ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ زيادة على ماعملوا وطلبوا مما لا يخطر ببالهم «مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»

وفى مسلم هو النظر إلى وجهه تعالى ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ ﴾ قبل قومك ﴿ مِنْ قَرْنٍ ﴾ كثير من الكفار ﴿ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ ﴾ من قومك ﴿ بَطْشًا ﴾ قوة كعاد وفرعون ﴿ فَنَقَّبُوا ﴾ فتشوا وخرقوا ﴿ فِي الْبِلَادِ ﴾ وتصرفوا فيها أو جابوا كل مجال فيها فالفاء على الأول للتسبب عن قوله « هم أشد » وعلى الثانى للتعقيب على أن المراد قريش فى أسفارهم فى بلاد القرون عقبهم ﴿ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ لهم أى ملجإ أو منجى من عقاب الله وهلاكه وعلى أن المراد قريش ، فالمعنى : هل رأوا للقرون محيصاً حتى يؤملوا مثله لأنفسهم ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من حال الأمم أو ما ذكر فى السورة ﴿ لَذِكْرَىٰ ﴾ موعظة واعتباراً ﴿ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ عقل أو قلب واع عن الله لأن من لا يعى قلبه فكأنه لا قلب له ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ استمع إلى من له ذلك الاستعداد مستفيداً منه ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ حاضر بذهنه يتفهم معانيه أو شاهد بصدقه والأول ألصق بالمقام لأن من لا يحضر بذهنه فكأنه غائب . قال المحاسبى : كل من استمع إلى كتاب الله أو إلى حكمة أو إلى علم أو إلى عظة لا يحدث نفسه بشىء غير ما يستمع إليه يريد الله به كان له فيه ذكرى لا محالة كما قال تعالى . اه . قال فى الجواهر : كلام المحاسبى هذا نفيس لحمله وأعمل به ترشد ، وقد وجدناه كما قال ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ تعب : نزل ردًّا على قول اليهود إن الله استراح يوم السبت ، وانتفاء التعب عنه لتنزهه تعالى عن المماسة وجميع صفات المخلوقين « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ﴿ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أى المشركون فى إنكار البعث واليهود فى التشبيه فمن قدر على خلق ما ذكر قادر على بعثهم وتعذيبهم ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ نزّهه عن العجز والتشبيه أو صلّ حامداً ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾ أى صلاة الصبح ﴿ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ أى صلاة الظهر والعصر ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ أى صل العشاءين و « من » للتبعيض أى فى جزء منه ﴿ وَإِدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ بكسر الهمزة لنافع وابن كثير وحمزة مصدر أدبر انقضى أى وقت انقضاء السجود وبفتحها للباقين جمع دبر أى بعد الصلوات الخمس صل النوافل المسنونة ، وقيل المراد حقيقة التسبيح فى هذه الأوقات ملابساً للحمد . وفى مسلم قال عليه السلام « من قال فى دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين تسبيحة وثلاثاً وثلاثين تحميدة وأربعاً وثلاثين تكبيرة غفرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر » ﴿ وَاسْتَمِعْ ﴾ يا مخاطباً بقولى وفيه تهويل وتعظيم للمخبر به ﴿ يَوْمَ ﴾ منصوب بما دل عليه يوم الخروج أى يخرجون من القبور يوم ﴿ يُنَادِ الْمُنَادِ ﴾ هو إسرافيل ينفخ فى الصور وينادى أو ينفخ إسرافيل وينادى جبريل ﴿ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ من السماء وهى صخرة بيت المقدس أقرب موضع إلى السماء يقول أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء فيصل نداؤه إلى جميع الخلائق على السواء وقيل يوم منصوب باستمع على تقدير مضاف أى استمع حديث يوم أو تضمين معنى انتظر أى كن منتظراً له فهو حينئذ مفعول به

(يَوْمَ) بدل من يوم قبله (يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ) النفخة الثانية للبعث يحتمل أن تكون قبل ندائه أو بعده (بِالْحَقِّ) متعلق بالصيحة (ذَٰلِكَ) أى يوم النداء والسماع (يَوْمُ الْخُرُوجِ) من القبور وهو من أسماء القيامة (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ) فى الدنيا (وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ) أى مصير الخلائق للجزاء فى الآخرة، جزؤه عن الدليل لما تقدم من الأدلة مستوفاة (يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ) بتشديد الشين بإدغام التاء الثانية فى الأصل فيها لنافع وابن كثير وابن عامر وبتخفيفها بحذف إحدى التاءين للباقين (عَنْهُمْ سِرَاعًا) مسرعين جمع سريع حال من المجرور (ذَٰلِكَ حَشْرٌ) بعث وجمع (عَلَيْنَا يَسِيرٌ) فقدم الظرف للاختصاص إذ لا يتيسر ذلك الأمر البديع إلا لمن أمره بين الكاف والنون (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ) منك تسلية له، وتهديد لهم (وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ) بمسلط تجبرهم على الإيمان، وتفعل ما تريد « إنما أنت نذير » (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ) وهو المؤمن إذ لا ينتفع به غيره، فإن الدواء لا يجدى إلا إذا صادف محلا قابلا للشفاء.

[تم تفسير سورة ق]

سورة الذاريات

مكية ــ وهى ستون آية

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . وَالذَّارِيَاتِ) الرياح تذروا التراب وغيره (ذَرْوًا) مصدر ويقال تذريه ذرياً تهب به أدغم أبو عمرو وحمزة التاء فى الذال (فَالْحَامِلَاتِ) السحب تحمل الأمطار أو الرياح تحمل السحب (وِقْرًا) ثقلا مفعول الحاملات (فَالْجَارِيَاتِ) السفن تجرى على وجه الماء (يُسْرًا) جريا ذا يسر أى سهولة مصدر فى موضع الحال أى ميسرة أو الرياح الجارية فى مهابها أو الكواكب فى منازلها (فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا) الملائكة تقسم الأمور كل واحد موكل بشأن: جبريل بالوحى وإهلاك المكذبين، وميكائيل بالأرزاق وأسبابها وملك الموت بالأرواح، وإسرافيل بالنفخ وملك الجبال بالجبال، وملك البحار بالبحار، إلى غير ذلك مما لا يحيط به إلا علم الله الشامل، ويجوز أن تكون الصفات جميعاً

للرياح فالفاء على الأول لترتيب الأقسام بالذوات باعتبار ما بينها من التفاوت فى الدلالة على كمال القدرة فأقسم بالرياح فبالسحاب الذى تسوقه فبالسفن التى تجرى بهبوبها فبالملائكة ، وعلى الثانى لترتيب الأفعال إذ الريح تذرو التراب فتثير سحاباً فتحمله فتجرى به إلى حيث أمرت فتقسم المطر . والله أعلم . ثم استدل بهذه الأشياء العجيبة على القدرة على البعث بقوله (إِنَّمَا تُوعَدُونَ) جواب القسم وما موصولة أو مصدرية والموعود البعث أبهمه ليهيبه (لَصَادِقٌ) مطابق للواقع (وَإِنَّ الدِّينَ) الجزاء على الأعمال بعد الحساب (لَوَاقِعٌ) لا محالة ثم أقسم بمخلوق أدل على القدرة بقوله (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ) جمع حبيكة كطريقة وطرق أى صاحبة الطرائق الحسنة فى الخلقة مثل ما يظهر على الماء والرمل من هبوب الريح : قال زهير يصف غديراً : مُكَلَّلٌ بِأُصُولِ النَّجْمِ تَنْسِجُهُ • رِيحٌ خَرِيقٌ لِضَاحِي مَائِهِ حُبُكُ

ويقال فى المنسوجات من الأكسية وغيرها وذلك لجودة خلقة السماء ولذا قال الحسن حبكها نجومها لأنها زينتها أو المعنى ذات طرق النجوم فى مسيرها (إِنَّكُمْ) يا أهل مكة فى شأن النبى والقرآن (لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ) بقولكم شاعر شعر وساحر سحر وكاهن كهانة ، وقد روعى ملاءمة القسم للمقسم عليه أولا وثانياً فالبعث يلائم القسم بأدلة القدرة الماضية واختلافهم فيما لا يقبل الاختلاف يلائم اختلاف طرائق السموات فى تباعدها واختلاف غاياتها والله أعلم (يُؤْفَكُ) يصرف (عَنْهُ) عن النبى صلى الله عليه وسلم أو القرآن (مَنْ أُفِكَ) صرف الذى لا صرف أشد منه وأعظم ولذا أطلق فكأنه لا صرف إلا هو أو من صرف فى علم الله فلا يمكن منه الارعواء فهو إشارة إلى الختم (قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ) لعن الكذابون أصحاب القول المختلف أصله الدعاء بالقتل ثم شاع فى اللعن لأنه فوق القتل (الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ) جهل عظيم يغمرهم أصله الماء الساتر ما تحته (سَاهُونَ) غافلون عن أمور الآخرة التى أمروا بها (يَسْأَلُونَ) ما لم يؤمروا به فيقولون للنبى استهزاء (أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ) الجزاء أى متى مجيئه وجوابهم يجىء (يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ) يعذبون فيها وفتح يوم للإضافة إلى غير متمكن ويقال لهم حين التعذيب (ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ) تعذيبكم (هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ) فى الدنيا استهزاء ، ثم ذكر حال المؤمنين فقال (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ) بساتين (وَعُيُونٍ) تجرى فيها (آخِذِينَ) حال من الضمير فى خبر إن أى قابلين راضين (مَا آتَاهُمْ) أعطاهم (رَبُّهُمْ) من الثواب (إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ) أى دخولهم الجنة (مُحْسِنِينَ) فى الدنيا تعليل لاستحقاقهم ذلك (كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) ينامون ويصلون أكثره بيان لإحسانهم وما مزيدة وقليلا صفة مصدر محذوف أى هجوعا قليلا ومن الليل صفته أى مبتدئا من الليل أولغو متعلق بيهجعون أى يهجعون فى طائفة من الليل أو مصدرية أو موصولة أى فى قليل من الليل هجوعهم أو ما يهجعون فيه ولا يجوز أن تكون نافية لأن ما بعدها لا يعمل فيما قبلها وفيه مبالغات لتقليل نومهم ذكر القليل والليل الذى هو وقت السبات والهجوع الذى هو القرار من النوم وزيادة ما قال فى الجواهر مدح الله

فوما كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ونحن قليلا من الليل مانقوم فرحم الله آمرءا رقد حين نعس وأطاع ربه حين آستيقظ ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ مع قلة هجوعهم كأنهم أسلفوا فى ليلتهم ذنبا نظرا إلى التقصير يقولون اللهم آغفرلنا وفى بناء الفعل على الضمير إشعار بأنهم الأحقاء بالآستغفار دون غيرهم لكمال خشيتهم والسحر السدس الأخير من الليل ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ﴾ نصيب يوجبونه على أنفسهم تقربا إلى الله تعالى ورحمة على خلقه ﴿لِلسَّائِلِ﴾ لمن يسأل لحاجته ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ الذى لايسأل للحياء أو لعدم القدرة عليه فيُظن غنيا فيحرم الصدقة ﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾ عطف على «إن ماتوعدون لصادق» أى فى صفاتها وما عليها من النبات والحيوان والمعادن وأشكالها وألوانها وخواصها ﴿آيَاتٌ﴾ دلالات على قدرة الله تعالى ووحدانيته وفرط رحمته ﴿لِلْمُوقِنِينَ﴾ الموحدين المتبصرين كلما رأوا عرفوا وجه التأمل فيه فازدادوا يقينا ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ آيات أيضا من مبدإ خلقكم إلى منتهاه وما فى تركيب خلقكم من العجائب إذ ليس فى العالم شىء إلا وفى الإنسان نظيره مع ما آختص به من الكمالات التى لا تحصى ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ذلك على الاعتبار فتستدلون به على صانعه وقدرته والتعبير عن النظر بالإبصار إشارة إلى غاية الظهور ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ أسبابه من الأمطار والثلوج والكواكب ، وكان الحسن رضى الله عنه إذا رأى السحاب يقول لأصحابه فيه والله رزقكم ولكن تحرمونه بخطاياكم ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ من الجنة فإنها فوق السماء السابعة وسقفها عرش الرحمن أو ذلك مكتوب فى السماء أو مستأنف خبره ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ﴾ أى ما توعدون أو كل ما تقدم من أول السورة ﴿لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ أى مثل نطقكم كما لاشك فيه لكم فلا تشكوا فى ذلك وما زائدة بنصب مثل للجمهور على الحال من المستكن فى «لحق» أو على الوصف لمصدر محذوف أى إنه لحق حقا مثل نطقكم وقيل إنه مبنى على الفتح لإضافته إلى غير متمكن محله رفع على الوصف لحق ويؤيده قراءة حمزة والكسائى وأبى بكر بالرفع وعن الأصمعى أنه قال أقبلت من جامع البصرة فطلع لى أعرابى على قعود فقال ممن الرجل قلت من بنى أصمع قال من أين أقبلت قلت من موضع يتلى فيه كلام الرحمن قال آتل علىّ فتلوت والذاريات فلما بلغت وفى السماء رزقكم قال حسبك فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر وعمد إلى قوسه فكسرها وولى فلما حججت مع الرشيد وطفقت أطوف فإذا أنا بالأعرابى قد نحل جسمه وآصفر فسلم علىّ وآستقرأنى السورة فلما بلغت الآية صاح وقال قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا ثم قال وهل غير هذا فقرأت فورب السماء والأرض إنه لحق فصاح وقال سبحان الله من ذا الذى أغضب الجليل حتى حلف ، لم يصدقوه بقوله حتى حلف ؟ قالها ثلاثا وخرجت معها روحه ، ولما استوفى الله أدلة المعاد مهد إثبات نبوة رسوله مضمنا لذلك تسلية بقصة إبراهيم بقوله ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ فيه تفخيم لشأن الحديث وتنبيه على أنه لا يعرف إلا بالوحى والضيف فى الأصل مصدر ولذا يطلق على الواحد والمتعدد ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾ عند الله وعند إبراهيم حيث خدمهم بنفسه وأخدمهم

زوجته وعجل لهم القرى وهم الملائكة اثنا عشر أو ثلاثة منهم جبريل ﴿ إِذْ ﴾ ظرف للحديث أو للضيف أو المكرمين إن فسر بإكرام إبراهيم أى أكرمهم حين ﴿دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أى نسلم سلاما ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ أى عليكم سلام وحمزة والكسائى سلم بكسر السين وسكون اللام كما تقدم فى هود حياهم بأحسن من تحيتهم لما فى الرفع من الدلالة على الدوام ، وهذا أيضاً من إكرامهم ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أى أنتم قوم لانعرفكم ، أى عرفونى من أنتم . أو قال ذلك فى نفسه حين رآهم على غير أشكال المعهودين ﴿فَرَاغَ﴾ مال ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ سراً إذ ليس من الفتوة إعلام المضيف ضيفه أنه يسعى فى قراه ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ حنيذ كما فى هود وكان عامة ماله البقر وقيل لحمه خير اللحوم ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ بأن وضعه بين أيديهم ليأكلوا منه فلم يأكلوا ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أى منه وهو مشعر بكونه حنيذاً والهمزة للعرض على دأب المضيف فلم يجيبوا ﴿فَأَوْجَسَ﴾ أضمر فى نفسه ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ إنا رسل ربك فقام جبريل فمسح العجل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بالبقر فعرفهم وأمن منهم ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ كامل العلم إذا بلغ مبلغ الرجال وهو إسحاق كما فى هود ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ﴾ سارة ﴿فِي صَرَّةٍ﴾ صيحة من صرّ القلم والباب: حال ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ لطمته تعجباً أو حياء حين وجدت حرارة دم الحيض ﴿وَقَالَتْ﴾ أنا ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ لم تلد قط فى أوان الولادة فكيف بأوان اليأس وقد مر ذكر سنها ﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أى ليس هذا من عندنا ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ﴾ المتقن فى صنعه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بالأشياء وأوقاتها فلا وجه للاستبعاد . ولما علم أنهم ملائكة وأنهم لا ينزلون مجتمعين إلا لأمر عظيم ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أمركم المعظم الذى جئتم بسببه ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أرسلتم بالبشارة خاصة أو مع أمر آخر ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ قوم لوط ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ طبخ حتى تحجر وهو السجيل ﴿مُسَوَّمَةً﴾ معلمة عليها اسم من يرمى بها أو مرسلة ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ بعلمه وإذنه وفيه تهويل ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين الحد بإتيان الذكور مع الكفر سماهم مجرمين ومسرفين تشويهاً وإشعاراً باستحقاقهم العذاب ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا﴾ فى قرى لوط أضمرها لعلمها من ذكرهم ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من لوط ومن آمن به ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أى أهل بيت وهم لوط وابنتاه وصفوا بالإيمان والإسلام أى مصدقون بقلوبهم عاملون بجوارحهم الطاعات وفى إيرادهما والإتيان بمن دلالة على استقلال كل بسبب نجاة الموصوف به كائناً من كان أين كان ومنه يعلم حسن تقديم الإيمان كأنه يقول نفذ أمرنا بإخراج كل مؤمن ولا يشترط فيه أن يكون عاملا بالطاعات بل التصديق بالله فقط ثم لما ذكر حال الموجودين وصفهم بالكمال وهو التصديق مع الأعمال ليكون إخراجهم أولى . والله أعلم ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً﴾ علامة على إهلاكهم وهى تلك الأحجار أو ماء أسود منتن ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ لأن غيرهم لايتدبر ولا يعتبر ﴿وَفِي مُوسَىٰ﴾ معطوف على فيها ، المعنى : وجعلنا فى قصة موسى آية ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ برهان واضح كاليد والعصا

﴿ فَتَوَلَّى ﴾ أى أعرض عن الإيمان ﴿ بِرُكْنِهِ ﴾ مع ما تقوّى به من جنوده فالباء للمصاحبة أو للتعدية كنأى بجانبه ﴿ وَقَالَ ﴾ لموسى هو ﴿ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ أى مابه من الخوارق من الجن إما تعلماً أو إصابة من غير اختياره فأو للتقسيم ولا حاجة لجعله بمعنى الواو ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ ﴾ طرحناهم ﴿ فِى الْيَمِّ ﴾ أى أغرقناهم فى البحر ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ آت بما يلام عليه من تكذيب الرسول ودعوى الربوبية والجملة حال من ضمير أخذناه ﴿ وَفِى ﴾ إهلاك ﴿ عَادٍ ﴾ آية ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ هى التى لا خير فيها لأنها لا تحمل المطر ولا تلقح الشجر وهى الدبور ﴿ مَا تَذَرُ مِنْ شَىْءٍ ﴾ نفس أو مال ﴿ أَتَتْ ﴾ مرت ﴿ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ كالبالى المفتت أو كالرماد ﴿ وَفِى ﴾ إهلاك ﴿ ثَمُودَ ﴾ آية ﴿ إِذْ قِيلَ لَهُمْ ﴾ بعد عقر الناقة ﴿ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ﴾ اى ثلاثة أيام كما تقدم ﴿ فَعَتَوْا ﴾ تكبروا ﴿ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ عن امتثاله مرتب على تمام القصة لا على « تمتعوا » لقوله « فعقروها » فقال تمتعوا ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ الصيحة المهلكة وقرأ الكسائى الصعقة مقصوراً ساكن العين وهو الصوت الذى مع النار ﴿ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ إليها بالنهار ولا يقدرون على دفعها ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ ﴾ أى ماقدروا على النهوض حين نزول العذاب كقوله «فأصبحوا فى دارهم جاثمين» ومن زائدة أولم يقدروا على دفعه من قام بالأمر إذا كفاه ﴿ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴾ على من أهلكهم بوجه لامباشرة ولا معاونة ﴿ وَ ﴾ أهلكنا ﴿ قَوْمَ نُوحٍ ﴾ بنصب قوم للجمهور عطفا على مفعول «فأخذتهم» وبجره لأبى عمرو وحمزة والكسائى على تقدير الجار أى وفى قوم نوح أى فى إهلاكهم آية ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ قبل إهلاك هؤلاء المذكورين ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ علة للإهلاك ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ بقوة وقدرة ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ لقادرون من الوسع بمعنى الطاقة ، يقال : آد الرجل يئيد ، كباع يبيع . قوى وأوسع الرجل صار ذا سعة وقدرة أو لموسعون الرزق بالمطر أو لموسعون مابين السماء والأرض ﴿ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا ﴾ مهدناها لتستقروا عليها ﴿ فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ نحن ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ من الأجناس متعلق بقوله ﴿ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ نوعين كالليل والنهار والظلام والضياء والبر والبحر والموت والحياة والسعادة والشقاوة والأرض والسماء وقيل من كل حيوان ذكراً أو أنثى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ فتعلمون أن خالق الأزواج فرد ليس كمثله شىء وأن من قدر على هذا لا يعجز عن الإعادة ﴿ فَفِرُّوا ﴾ أى قل لهم يامحمد بعد ما علمتم من كمال قدرة الله وما حل بالأمم ألجأوا فى طلب الخلاص من عقابه ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ أى إلى توحيده وطاعته ﴿ إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ ﴾ أى من عذابه المعد لمن أشرك أو عصى ﴿ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ بين الإنذار بالمعجزات أومُبَيِّنٌ مايجب أن يحذر منه ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ ﴾ إفراد لأعظم ما يجب أن يفر منه ﴿ إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ تكرير للتأكيد أو ليتصل الأول بالأمر والثانى بالنهى أو الأول إنذار بترك العمل والثانى بالتوحيد ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أى الأمر كذلك والإشارة إلى تكذيبهم الرسول وتسميتهم إياه ساحراً أو مجنوناً ثم بينه

بقوله ﴿ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من قبل هؤلاء ﴿ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا ﴾ هو ﴿ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ فاختلفوا فيه كاختلاف قومك فيك ﴿ أَتَوَاصَوْا ﴾ كلهم ﴿ بِهِ ﴾ أى الاولون والآخرون أوصى بعضهم بعضا بهذا القول حتى قالوه جميعاً والاستفهام بمعنى النفى ولذا أضرب عنه بقوله ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أى ليس الجامع التواصي بل الطغيان والعناد ﴿ فَتَوَلَّ ﴾ أعرض ﴿ عَنْهُمْ ﴾ لأن المناظرة لاتجدى مع المكابرة ﴿ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾ على الإعراض بعد مابذلت جهدك فى الإبلاغ ﴿ وَذَكِّرْ ﴾ أى لاتدع التذكير والموعظة بالقرآن ﴿ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ من قدر الله إيمانه أو من آمن يزداد بها بصيرة ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أى إلا بحيث تتأتى منهم العبادة بسلامة الأسباب والدلالة على أنها غاية كالية وراءها غاية الغايات وعدم وصول البعض لمانع لايقدح وقيل ليقروا بعبادتى أى عظمتى ويتذللوا لقدرتى وذلك مركوز فيهم ألا تراهم عند القحوط والشدائد لا يخضعون إلا إليه ، واعلم أن أفعال الله تعالى منزهة عن الأغراض لا علة لها بل لما خلقهم على صورة متوجهة إلى العبادة جعل خلقهم مغيا بها مبالغة فى ذلك أو لما أمروا بالعبادة بعد الخلق شبه تعقب العلة الغائية على المعلول فاستعير لها فهى استعارة تبعية حرفية لأنه استعير لذلك أولا اسم العلة ثم استعير له اللام التى هى للعلة فاستعارة اللام تابعة لاستعارة العلية على ما هو معروف فى علم البلاغة وتخصيص الآية بالمؤمنين منهم لا حاجة إليه ويرده قوله ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ ﴾ لى ولأنفسهم ولغيرهم بل أن يشتغلوا بما كانوا كالمخلوقين له وهو العبادة ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ﴾ كما هو شأن السادات مع الأرقاء وفى تقديم الرزق وتنكيره وتأخير الإطعام وتخصيصه به تعالى ما لا يخفى من الترق أى ما أريد منهم تحصيل الرزق ولا تقديم الحاصل إلىّ كما هو دأب الملوك مع خواص خدمهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ﴾ حقيقة وغيره أسباب وإعادة المظهر لدلالة لفظ الجلالة على الألوهية المستلزمة لذلك وفيه إشارة إلى استغنائه عن الرزق ﴿ ذُو الْقُوَّةِ ﴾ القدرة التامة ﴿ الْمَتِينُ ﴾ الشديد القوة من المتانة وهى الصلابة تأكيد بعد تأكيد ، وقرئ بالجر صفة للقوة على تأويل الاقتدار ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ رسول الله بالتكذيب ﴿ ذَنُوبًا ﴾ نصيباً من العذاب أصله الدلو العظيم المملوء الذى يتقاسمون به الماء ﴿ مِثْلَ ذَنُوبِ ﴾ نصيب ﴿ أَصْحَابِهِمْ ﴾ الهالكين قبلهم ﴿ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ بالعذاب بقولهم متى هذا الوعد ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ ﴾ فى ﴿ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ يوم القيامة أو يوم بدر ؛ فالموصول معهود .

[تم تفسير سورة الذاريات]

سورة الطور

مكية ـ وهي تسع وأربعون آية

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . وَالطُّورِ ﴾ هو طور سينين ، جبل بمدين سمع موسى عليه الصلاة والسلام كلام الله عليه ﴿ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾ مكتوب وهو القرآن أو التوراة أو اللوح أو كتاب ديوان الحفظة ﴿ فِي رَقٍّ ﴾ جلد يكتب فيه لأنه يرقق استعير لما كتب فيه الكتاب وتنكيرهما للتعظيم أو للإشعار بأنهما ليسا من المتعارف فيما بين الناس ﴿ مَنْشُورٍ ﴾ مفتوح لاختم عليه وهو خلاف المطوى ﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ بالحجاج والعمار الكعبة أو بالملائكة وهو الضراح كان في السماء الثالثة أو السادسة أو السابعة بحيال الكعبة حتى لو وقع حجر منه لوقع على ظهر الكعبة يزوره كل يوم سبعون ألف ملك بالطواف والصلاة لا يعودون إليه ، وقيل هو قلب المؤمن ﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ السماء أو العرش ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ المملوء وهو المحيط أو الموقد لأن البحار تجعل يوم القيامة ناراً ، والواو الأولى للقسم والبواقي للعطف وجواب القسم ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ ﴾ الذى أوعد به الكفار ﴿ لَوَاقِعٌ ﴾ لنازل بمستحقه لامحالة أقسم عليه بأمور كلها دالة على كمال اقتداره مع إشارة إلى أن ذلك لإقامة العدل بضبط عمل العباد للجزاء بكونه مدوناً في الكتاب كما تدون الحقوق ولذا لما قرئ على عمر بن الخطاب أول السورة قال : قسم حق ولما بلغ القارئ « إن عذاب ربك لواقع » غشى عليه رضى الله عنه ﴿ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ عن مستحقه ﴿ يَوْمَ ﴾ معمول « لواقع » ﴿ تَمُورُ السَّمَاءُ ﴾ تدور وتضطرب ﴿ مَوْرًا ﴾ والمور تردد فى الذهاب والمجىء ، وقيل تحرك فى تموج ﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ سريعاً فتصير هباء منثوراً وهو يوم القيامة ﴿ فَوَيْلٌ ﴾ شدة عذاب ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم وقوعه ﴿ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ الرسل ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ ﴾ فى الباطل ﴿ يَلْعَبُونَ ﴾ ويبدل من يومئذ ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ ﴾ يدفعون بعنف ﴿ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ بأن يؤخذ بالنواصى والأقدام فيجمعا ويلقون فيها على وجوههم فيقال لهم توبيخاً ﴿ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ فى الدنيا وتقولون للوحى سحراً ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا ﴾ العذاب الذى نزل بكم ؟ وتقديم الخبر لأنه المقصود بالإنكار والتوبيخ ﴿ أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ اليوم إذ تقولون أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ﴿ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا ﴾ أى ادخلوها على أى وجه شئتم من الصبر وعدمه فإنه لا محيص لكم عنها ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ الأمران : الصبر وعدمه لأن صبركم لاينفعكم ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تعليل للاستواء فإن الجزاء لما كان واجب

الوقوع فالصبر وعدمه سيان ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ الشرك وجميع المناهى وكلما زادت الدرجة فى التقوى قوى الحصول فى المتقين ﴿ فِى جَنَّاتٍ ﴾ وأىّ جنات ﴿ وَنَعِيمٍ ﴾ أىّ نعيم ﴿ فَاكِهِينَ ﴾ ناعمين متلذذين ﴿ بِمَا ﴾ مصدرية أو موصولة ﴿ ءَاتَاهُمْ ﴾ أعطاهم ﴿ رَبُّهُمْ ﴾ أى بإيتائه أو بالذى آتاهم ﴿ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ عطف على جنات أو آتاهم بتقدير العائد فى المعطوف إن كانت «ما» موصولة أو حال بإضمار «قد» من المستكن فى الظرف أو من فاعل آتى أو مفعوله أو منهما وأعاد المظهر دلالة على استقلال كل نعمة ﴿ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ ويقال لهم ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا ﴾ حال أى مهنئين أو صفة لمحذوف أى أكلا وشربا هنيئاً أو طعاماً وشراباً هنيئاً أو مصدر أى هنأكم هنيئاً وهو الذى لا تنغيص فيه ﴿ بِمَا كُنْتُمْ ﴾ الباء سببية ﴿ تَعْمَلُونَ ﴾ أو بدلية ﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ حال من الضمير فى كلوا واشربوا أو المستكن فى قوله « فى جنات » ﴿ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ ﴾ مصطفة بعضها موصول ببعض ليقع المواجهة مع الإخوان والأحباب ﴿ وَزَوَّجْنَاهُمْ ﴾ عطف على « فى جنات » أى قرناهم ﴿ بِحُورٍ ﴾ بيض ﴿ عِينٍ ﴾ كحلى العيون ضخامها حسانها ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ مبتدأ ﴿ وَاتَّبَعَتْهُمْ ﴾ بالتاء للجمهور ولأبى عمرو أتبعناهم ﴿ ذُرِّيَّتُهُمْ ﴾ ولابن عامر وأبى عمرو بالجمع ﴿ بِإِيمَانٍ ﴾ معطوف على « آمنوا » اعترض به بين المبتدأ والخبر لتعليل الحكم واتباع الكبار بالإيمان والصغار بالآباء. قال ابن العربى فى الأحكام : أما اتباع الصغير لأبيه فى أحكام الإسلام فلا خلاف فيه وأما اتباعه لأمه فاختلف العلماء فيه والصحيح أنه يتبع فى الدين كل من أسلم معه وأما إن كانا كافرين وعقل الإسلام صغيراً وتلفظ به فاختلف فيه العلماء ومشهور المذهب أن يكون مؤمناً . اه . وخبر المبتدأ ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ المذكورين فى الجنة فيكونون فى درجاتهم وإن لم يعملوا بعملهم تكرمة للآباء باجتماع الأولاد إليهم وكذا الآباء يلحقون بالأبناء إذا قصرت رتبتهم عنهم بالأولى دلت على كل ذلك الأحاديث ، وقيل الإلحاق إنما يكون بالاجتماع مع الذرية فى الجنة كما كانوا فى الدنيا لا فى رفع الدرجات . قال فى الجواهر: وهو أحسن لأنه قد تقرر أن رفع الدرجات هى بأعمال العاملين والآيات والأحاديث مصرحة بذلك ولما يلزم على التأويل الأول أن يكون كل من دخل الجنة مع آدم عليه السلام فى درجة واحدة إذ كلهم ذريته وقد فتحت لك باباً للبحث فى هذا المعنى منعنى من إتمامه ما قصدته من الاختصار . اه . وقرأ ابن كثير والكوفيون ذريتهم بالإفراد ﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ ﴾ بفتح اللام للجمهور وكسرها لابن كثير: نقصناهم ﴿ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ ﴾ زائدة ﴿ شَيْءٍ ﴾ يزاد فى عمل الأولاد بل كان الإلحاق تفضلا وإكراماً لهم ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ ﴾ من عمل خير أو شر ﴿ رَهِينٌ ﴾ مرهون عند الله فإن عمل صالحاً فكّ نفسه وإلا أهلكها ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُمْ ﴾ زدناهم وقتاً بعد وقت ﴿ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ ﴾ للطير ﴿ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ من أنواع التنعم وإن لم يصرحوا بطلبه ﴿ يَتَنَازَعُونَ ﴾ يتعاطون بينهم ﴿ فِيهَا ﴾ فى الجنة ﴿ كَأْسًا ﴾ خمراً سماها باسم محلها ولذا أنث الضمير فى قوله ﴿ لَا لَغْوٌ فِيهَا ﴾ بسبب شربها يقع بينهم ﴿ وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ يلحقهم أى ما يورث إثماً برفع الاسمين

للجمهور وفتحهما بلا تنوين لابن كثير وأبي عمرو ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ للخدمة ﴿ غِلْمَانٌ لَهُمْ ﴾ سقاة مخصوصون بهم ومنهم أولادهم الذين سبقوهم ﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ بياضاً وصفاء ﴿ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴾ مصون في الأصداف لأنه فيها أحسن منه في غيرها . قيل للرسول عليه السلام : إذا كان الغلمان الذين هم مماليك كاللؤلؤ المكنون فكيف المخدومون ؟ قال : هم كالقمر ليلة البدر . قال في الجواهر : وهذا تقريب للأفهام وإلا لجمال أهل الجنة أعظم من هذا ، يدل على ذلك أحاديث صحيحة . اه . ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ عما جرى لهم في الدنيا وما وصلوا إليه تلذذاً واعترافاً بالنعمة ﴿ قَالُوا ﴾ إيماء إلى علة الوصول ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ خائفين من عذاب الله ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ بالمغفرة وما نحن فيه من اللذة والسرور ﴿ وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ النار النافذة في المسام نفوذ السموم وقالوا إيماء إلى ذلك أيضاً ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ ﴾ في الدنيا قبل لقاء الله ﴿ نَدْعُوهُ ﴾ نعبده موحدين أو نسأله الوقاية ﴿ أَنَّهُ ﴾ بالفتح لنافع والكسائي تعليلا لفظاً بتقدير اللام ، وبالكسر للباقين استئنافاً وإن كان تعليلا معنى ﴿ هُوَ الْبَرُّ ﴾ المحسن الصادق في وعده ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ العظيم الرحمة ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ دم على التذكير ولا تكترث بقول المشركين ﴿ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ بحمد الله وإنعامه عليك ﴿ بِكَاهِنٍ ﴾ خبر ما ﴿ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ معطوف عليه إذ حالك مباين للوصفين ﴿ أَمْ ﴾ بل ﴿ يَقُولُونَ شَاعِرٌ ﴾ « أم » منقطعة دلت على أن هذا هو الراجح عندهم ﴿ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ حوادث الدهر أو الموت فينقطع أمره كغيره من الشعراء . روى أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة فكثرت آراؤهم في النبي صلى الله عليه وسلم حتى قال قائل منهم : تربصوا به ريب المنون ، فافترقوا على هذه المقالة فنزلت الآية ، والمنون فعول من مَنَّهُ إذا قطعه ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا ﴾ هلاكي ﴿ فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ هلاككم من باب مجازاة الخصم ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ ﴾ عقولهم ﴿ بِهَذَا ﴾ التناقض في الواحد شاعر ، كاهن ، مجنون . وفي الكلام تهكم بأهل مكة حيث تدعى من بين سائر العرب أولي الأحلام فتهاتر أقوالهم أي لا تأمر الأحلام بهذا ﴿ أَمْ ﴾ بل ﴿ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ بعنادهم أي مجاوزون طور العقل ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ﴾ اختلق القرآن ، لم يختلقه ﴿ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بشيء استكباراً ولذلك اضطربت أقوالهم فإن قالوا تقوّله ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ ﴾ مفترى ﴿ مِثْلِهِ ﴾ في البلاغة ﴿ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ أنه شاعر أو كاهن : جواب عن كل ما تقدم ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ خالق فلذلك لا يعبدون أحداً أو من غير عبادة ولا مجازاة بل خلقوا سدى من غير تكليف ﴿ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ أنفسهم ولذلك لا يعبدون أحداً ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ ولذا تكبروا عن عبادة خالقهما ﴿ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ أنه خالقهما وإلا لآمنوا به وبنبيه ؛ وقولهم إن سئلوا من خلق السموات والأرض « الله » لم يكن عن يقين ، و « أم » في هذه الآيات منقطعة ومعنى الهمزة الإنكار ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ ﴾ من النبوة والرزق وغيرهما فيخصوا من شاءوا بما شاءوا ﴿ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴾ الأرباب الغالبون يفعلون ما يريدون ، قرأ الجمهور

بالصاد وابن كثير وابن عامر فى رواية هشام وقنبل بالسين على الأصل وحفص بالوجهين وحمزة فى رواية خلف بإشمام الصاد ، ولما أبطل مقالتهم بالدليل العقلى ولم يبق لهم إلا المشاهدة والعيان أشار إلى إبطاله على وجه التهكم بقوله ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ ﴾ مرقى يصعدون به إلى السماء ﴿ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ماهو كائن ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ ﴾ مدعى الاستماع ﴿ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ دليل واضح على ذلك ، ولما شبه هذا الزعم بزعمهم أن الملائكة بنات الله قال تعالى ملتفتاً إليهم فى مقام السخط مكافحاً ضارباً فى وجوههم المسودة ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾ وإنما التفت فى هذه الكلمة لكونها لا أشنع منها ولا محال أجلى منها ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا ﴾ على ما جئتهم به من الدين فلذلك أعرضوا عنك ﴿ فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ ﴾ من التزام غرم ذلك ﴿ مُثْقَلُونَ ﴾ محملون الثقل فلذلك زهدوا فى اتباعك ﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ ﴾ خزائن علمه أو اللوح المحفوظ المثبت فيه المغيبات ﴿ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ منه حتى تمكنهم منازعة النبى فى البعث وأمر الآخرة ولما كان العلم أشمل مورداً أخر جرياً على سنن الترقى ثم أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عن حالهم بقوله ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ﴾ بك وبالمؤمنين بالإهلاك وإبطال الأمر ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يحتمل العموم والخصوص فيكون وضعه موضع المضمر للتسجيل على كفرهم والدلالة على أنه الموجب للحكم المذكور فى ﴿ هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ الذين يحيق بهم الكيد أى المصابون بوباله ثم حقق ذلك بقوله ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ يعينهم ويمنعهم من عذابه ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ به أو عن إشراكهم والاستفهام بـ « أم » فى مواضعها الخمسة عشر للتقبيح والتوبيخ ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا ﴾ قطعة ﴿ مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا ﴾ عليهم كما قالوا « فأسقط علينا كسفاً من السماء » أى تعذيباً لهم ﴿ يَقُولُوا ﴾ من فرط طغيانهم وعنادهم هذا ﴿ سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴾ تراكم بعضه على بعض نرتوى به وليس ما سألناه ، المعنى : إن رأوا ماهو العذاب لايؤمنون حتى يحل بهم ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ إذ لا مناظرة مع المكابرة ﴿ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ بالبناء للفاعل للجمهور أى يموتون وللمفعول لابن عامر وهو عند النفخة الأولى أو يوم موتهم واحداً واحداً أو يوم بدر فيكون المراد بالصعق التعذيب ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي ﴾ بدل من يومهم ﴿ عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ من الأشياء ﴿ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ يمنعون من العذاب فى الآخرة بوجه آخر ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ بالكفر يحتمل العموم والخصوص كما تقدم ﴿ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أى فى الدنيا قبل موتهم بالجوع والقحط والقتل والأسر ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك ، وقيد بالأكثر لأن بعضهم يعلم ذلك ولكن اختار النار على العار ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ بإمهالهم ولا يضيق صدرك أو اصبر مرتقباً لحكمه فإن وعده كائن ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ فى حفظنا بحيث نراك ونكلؤك ، وجمع العين لجمع الضمير مبالغة فى كثرة أسباب الحفظ لأن الكلام على التمثيل ألا ترى كيف أفرده فى قوله « ولتصنع على عينى » فى قصة موسى ليمتاز بذلك مقام الحبيب عن مقام الكليم ﴿ وَسَبِّحْ ﴾ ملتبساً ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أى

قل سبحان الله وبحمده (حِينَ تَقُومُ) من أى مكان تقوم منه أو من منامك لأنه شاغل، وعلوّ مقامك يقتضى استيعاب الزمان بذكره، أو إلى الصلاة (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ) أى فى بعضه لأن العبادة فيه أشق وأحلى وأبعد عن الرياء، ولذا أفرده بالذكر وقدمه على الفعل (وَإِدْبَارَ النُّجُومِ) آخر الليل عند طلوع الفجر فإنه وقت شريف ولذا خص أيضاً، وإدبار بكسر الهمزة للسبعة هنا مصدر، والمراد بالتسبيح فى جميع ما تقدم حقيقته أو صلّ فى الأول العشاءين وفى الثانى الصبح.

[تم تفسير سورة الطور]

سورة النجم
مكية — وهى اثنان وستون آية

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ) ولا تخفى مناسبة آخر السورة المتقدمة وأول هذه وهو (وَالنَّجْمِ) أى الثريا علم غالب فيه عند العرب، وفى أمثالهم «إذا طلع النجم عشاء طلب الراعى كساء» وقيل جنس النجوم لأنها زينة السماء ورجوم الشياطين (إِذَا هَوَىٰ) غاب أو انقض أو طلع يقال هوى هَوِيًّا بالفتح إذا سقط وغرب وهُوِيا بالضم إذا طلع وعلا، والمراد بالنجم النبات إذا سقط على الأرض أو إذا نما وارتفع أو نجم القرآن لأنه نزل منجما وهو ألصق بقوله (مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ) محمد صلى الله عليه وسلم عن الطريق المستقيم قط (وَمَا غَوَىٰ) ما اعتقد باطلا لأن الغى جهل من اعتقاد فاسد، والخطاب لقريش، والمراد نفى ما ينسبون إليه من الضلال ضد الهدى، والغواية ضد الرشد فى ترك دين آبائه وهما جواب القسم وفى لفظ الصاحب: وإضافته إليهم توبيخ لهم حيث عرفوا أمانته وصدق لهجته ثم نسبوه إلى الضلال والغى (وَمَا يَنطِقُ) فيما يأتيكم به (عَنِ الْهَوَىٰ) هوى نفسه فى أمر الدين وإتيان المضارع بعد الماضى إشارة إلى أنه إذا لم يكن له ضلال قبل النبوة فبعدها أحرى (إِنْ هُوَ) ما الذى ينطق به (إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ)

إليه واحتج به من لم ير الاجتهاد له وأجيب عنه بأنه إذا أوحى إليه أن يجتهد كان اجتهاده بالوحى ﴿ عَلَّمَهُ ﴾ إياه ملك ﴿ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾ فى خلقه والإضافة لفظية ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ أى شدة فى عقله ورأيه هو جبريل ، وفى الوصفين نوع ترق وقيل ذو منظر حسن . سأله النبى صلى الله عليه وسلم أن يريه صورته التى جبل عليها ﴿ فَاسْتَوَىٰ ﴾ استقام على صورته الحقيقية ، قيل ما رآه أحد من الأنبياء فى صورته غير محمد صلى الله عليه وسلم مرتين مرة فى السماء ومرة فى الأرض ﴿ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴾ أفق السماء عند مطلع الشمس والضمير لجبريل وإنما ظهر للنبى فى تلك الصورة ليتيقن أنه هو إذا أتاه فى غيرها وكان النبى إذ ذاك بحراء فرآه وقد سد الأفق إلى المغرب فخر مغشياً عليه فنزل جبريل فى صورة الآدميين ﴿ ثُمَّ دَنَا ﴾ قرب منه ﴿ فَتَدَلَّىٰ ﴾ زاد فى القرب حتى تعلق به ، وقيل تدلى من الأفق الأعلى فدنا من الرسول استرسال مع تعلق كتدلى الثمرة ﴿ فَكَانَ ﴾ جبريل منه فى القرب ﴿ قَابَ ﴾ قدر ﴿ قَوْسَيْنِ ﴾ عربيتين ﴿ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ من ذلك على تقديركم أى لو رآه أحدكم لقال مقداره قوسان أو أدنى . قال فى الجواهر : الصحيح أن جميع ما فى هذه الآيات من الأوصاف هو مع جبريل ، ودنا أعم من تدلى فبين تعالى بقوله «فتدلى» هيئة الدنو كيف كانت وقاب قوسين قال قتادة : من طرف العود إلى طرفه الآخرى ، وقال الحسن ومجاهد : من الوتر إلى العود فى وسط القوس عند المقبض . اه . والمقصود تمثيل شدة الاتصال وتحقيق استماعه لما أوحى إليه بنفى البعد الملبس ﴿ فَأَوْحَىٰ ﴾ الله بواسطة جبريل ﴿ إِلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ مَا أَوْحَىٰ ﴾ أبهم الموحى به تفخيما له كما فخم الموحى إليه بالإضافة ويحتمل فأوحى الله إلى عبده جبريل ما أوحى جبريل إلى النبى ويحتمل فأوحى جبريل إلى عبده أى عبد الله ما أوحى جبريل وقيل الضمائر فى الآيات كلها لله وهو المعنىّ بشديد القوى كما قال « هو الرزاق ذو القوة » ودنوّه منه يرفع مكانته وتدليه جذبه إلى جناب القدس قال فى غاية الأمانى : ذلك خلاف الظاهر بعيد عن المساق ﴿ مَا كَذَبَ ﴾ بالتخفيف للجمهور والتشديد لهشام ما أنكره ﴿ الْفُؤَادُ ﴾ فؤاد النبى صلى الله عليه وسلم ﴿ مَا رَأَىٰ ﴾ ببصره من جبريل أو الله . روى مسلم عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ربه بفؤاده مرتين . قال فى غاية الأمانى : والحق أن ذلك ليس تفسيراً للآية وإن صح . اه . وفى الجواهر : روى عن ابن عباس أن محمداً رأى ربه بعينى رأسه وأنكرت ذلك عائشة وقالت أنا سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآيات فقال لى هو جبريل فيها كلها قال ابن عطية وهذا قول الجمهور ، وحديث عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم قاطع بكل تأويل فى اللفظ لأن قول غيرها إنما هو منتزع من ألفاظ القرآن ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ ﴾ تجادلونه ﴿ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ خطاب للمشركين المنكرين رؤية النبى جبريل وقرأ حمزة والكسائى تمرونه أى تغلبونه بالمراء من ماريته فربته ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ ﴾ على صورته ﴿ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ مرة أخرى لأنه فعلة من النزول ولذا نصبت على الظرف ﴿ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ لما أسرى به فى السموات وهى شجرة نبق عن يمين العرش لا يتجاوزها أحد من

الملائكة وغيرهم ولا يعلم أحد ماوراءها وفى البخارى مرفوعا أنها فى السماء السابعة ثم عظم مكانها وشرفه بقوله ﴿ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴾ التى وعدها المتقون تأوى إليها الملائكة وأرواح الشهداء والمتقين ﴿ إِذْ ﴾ معمول لرآه أى حين ﴿ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ تعظيم وتكثير لما يغشاها بحيث لايكتنهها نعت ولا يحصيها عدّ . قال فى الجواهر ذكر المفسرون فى وصفها أقوالا هى تكلف فى الآية لأن الله أبهم ذلك وهم يريدون شرحه وقد قال عليه السلام غشيها ألوان لا أدرى ماهى ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ ﴾ من النبى صلى الله عليه وسلم عن سنن الاستقامة عما رآه ﴿ وَمَا طَغَىٰ ﴾ ماتجاوز مرئية المقصود له تلك الليلة بل أثبته إثباتاً صحيحاً وهو الحق سبحانه وهذا مخصوص به لم يتيسر لفرد من البشر ، قاله فى غاية الأمانى ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ ﴾ فيها ﴿ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾ استئناف يؤكد ما تقدم أى رأى من عجائب الملكوت كبراها التى لا يمكن وصفها فالكبرى مفعول الرؤية وبهذا تمسك من أثبت الرؤية إذ لا أكبر منها ويحتمل أن تكون الكبرى صفة للآيات على أن المفعول محذوف أى شيئاً من آيات ربه الكبرى ولما ذكر الله مادل على عظمته وقدرته أوقف الكفار على حقارة أصنامهم وبعدها عن هذه القدرة والصفات العلية بقوله ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ ﴾ صنم بالطائف لثقيف ﴿ وَالْعُزَّىٰ ﴾ بنخلة لقريش وغطفان ﴿ وَمَنَاةَ ﴾ كان بالساحل بالمشلل لهذيل وخزاعة حجر وهى بالألف للجمهور من منى أراق لإراقتهم الدماء عليها وبالهمز لابن كثير مفعلة من النوء لأنهم كانوا يستمطرون عندها بالأنواء والعزى تأنيث الأعز سمرة قطعها خالد بن الوليد فخرجت منها شيطانة فجزلها بالسيف واللات اسم رجل كان يلت السمن ويطعمه فاتخذوا مكانه صنماً من حجر ﴿ الثَّالِثَةَ ﴾ للثنتين قبلها ﴿ الْأُخْرَىٰ ﴾ المتأخرة عنها مرتبة صفتا ذم : أى لم يكتفوا بضلالهم فيهما إلى أن أضافوا الثالثة الأخرى وكانوا يعبدونها ويقولون استوطنها جنيات هن بنات الله أو هياكل الملائكة وهم بنات يشفعونهم ولذا قال منكرا عليهم ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ ﴾ لحبهم أن يولدلهم الذكر ﴿ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ ﴾ أى لله ، وهو المفعول الثانى لأرأيتم أى أخبرونى فى هذه الأصنام الحقيرة أتكون أولاداً له وشركاء ، وقيل المفعول الثانى محذوف أى ألها قدرة على شىء فتعبدونها من دون الله القادر على ماتقدم ذكره وحينئذ فقوله ألكم الذكر كلام مستأنف ﴿ تِلْكَ ﴾ القسمة ﴿ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ جائرة حيث جعلتم له ماتكرهون من ضازه حقه إذا ضامه وجار عليه وقرأ ابن كثير بالهمز من ضأزه ظلمه ﴿ إِنْ هِيَ ﴾ أى هذه الأصنام ما هى باعتبار الألوهية ﴿ إِلَّا أَسْمَاءٌ ﴾ لاحقيقة تحتها من معنى المسمى ﴿ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾ بهواكم أصناما تعبدونها ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا ﴾ بعبادتها ﴿ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ برهان تتعلقون به على جواز إطلاق اسم الآلهة عليها ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ يَتَّبِعُونَ ﴾ فى عبادتها ﴿ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ ظنهم الباطل الموهم لهم أنهم على شىء فى تقليد الآباء ﴿ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ ما تشتهيه أنفسهم وتزينه لهم أن الأصنام تشفع لهم عند الله ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ الرسول والكتاب الذى هو مناط الإيقان فلم يتبعوه واتبعوا أمانيهم ﴿ أَمْ ﴾ بل أ ﴿ لِلْإِنْسَانِ ﴾ لكل إنسان منهم ﴿ مَا تَمَنَّىٰ ﴾ كطمع

هؤلاء شفاعة أصنامهم ليس الأمر كذلك وكقولهم ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى، ولأوتين مالا وولدا، ونحو ذلك (فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ) الدنيا يعطى ماشاء فيهما لمن شاء وقدم الآخرة لأن الكلام فيها (وَكَمْ) كثير (مِنْ مَلَكٍ) كريم على الله فالتنكير للتعظيم (فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا) أدنى شيء مع قربهم عندالله فكيف تشفع هذه الجمادات التى هي أخس الكائنات ولم يشفع أشرف الكائنات (إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ) لهم فيها (لِمَنْ يَشَاءُ) أن يَشفع ويُشفع له (وَيَرْضَىٰ) عنه بأن يراه أهلا لذلك لأن الإذن فى الشفاعة لا يستلزم القبول (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَىٰ) حيث قالوا هم بنات الله (وَمَا لَهُمْ بِهِ) بهذا القول (مِنْ عِلْمٍ) وقرئ «بها» أى بالملائكة أو التسمية (إِنْ) ما (يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) الذى يخيلونه لما سمعوا من آبائهم (وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ) الذى هو حقيقة الشيء (شَيْئًا) أدنى شيء فيما المطلوب فيه العلم من الأصول الاعتقادية وإنما يعتبر فى العمليات وما يكون وصلة إليها (فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا) القرآن لا تهتم بشأن من لم يتأمل ذكرنا وفى إضافته إلى نفسه إشارة إلى أنه حقيق بالإقبال إليه لكن من غفل عن الله (وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) بانهماك فيها لا تزيده الدعوة إلا عناداً وإصراراً على الباطل (ذَٰلِكَ) طلب الدنيا (مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ) لا يتجاوزه علمهم ولذا آثروا الدنيا على الآخرة والجملة اعتراض يؤكد الأمر بالإعراض لأن السعى فى الإرشاد إنما يجدى لمن له قابلية الترقى (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ) تعليل للأمر بالإعراض (وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ) فيجازيهما فما عليك إلا البلاغ وقد بلغت، وفى إعادة العلم ثانية مبالغة دالة على كال تمايز الخبرين عنده ثم نفى ما يوهم قوله «فأعرض» من تركهم سدى بقوله (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) خلقا وملكا فلا يهمل من فيها بل أضل من شاء وهدى من شاء (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا) بجزاء أعمالهم (وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا) بالتوحيد والطاعات (بِالْحُسْنَى) بالمثوبة الحسنى وهى الجنة غير النظم للدلالة على أن جزاءهم ليس على قدر أعمالهم ويجوز أن يتعلق ليجزى بقوله «إن ربك هو أعلم» إلى آخر الآية وقوله «ولله» اعتراض يؤكد الجزاء بكونهم تحت ملكه ثم بين المحسنين بقوله (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ) بجمع كبائر للجمهور والإفراد لحمزة والكسائى أى الكبائر من الإثم وهى ما توعد عليه الشارع بخصوصه كالقتل والزنا وما يساوى ذلك قبحاً أو يزيد (وَالْفَوَاحِشَ) ما اشتد قبحه من الكبائر من عطف الخاص على العام (إِلَّا اللَّمَمَ) ماقل قبحه كالنظر المحرم ومقدمات القتل والسرقة قبل الوقوع فإنه معفو عنه إذا اجتنبت الكبائر والاستثناء منقطع أى لكن صغارها تغفر باجتناب كبارها أو متصل أى إلا ما ألموا به من الكبائر فلتة بلا دوام ثم يتوبون منه، وعن ابن المسيب اللمم ماخطر على القلب يعنى بذلك لمة الشيطان، قال ابن عطية وهذا التأويل يعنى تأويل اللمة بالفلتة فى المعاصى يقتضى الرفق بالناس فى إدخالهم فى الوعد بالحسنى إذ الغالب فى المؤمنين مواقعة المعاصى وعلى هذا أنشدوا، وقد تمثل به النبى عليه السلام :

إن تغفر اللهم تغفر جمّا • وأىّ عبد لك لا ألمّا

ويؤيده قوله ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ بذلك وبقبول التوبة وله أن يغفر ماشاء من الذنوب صغيرها وكبيرها ولعله عقبه لئلا ييأس صاحب الكبيرة من رحمته ، ونزل فيمن كان يقول صلاتنا صيامنا حجنا ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ منكم ﴿ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ﴾ علم أحوالكم حين ابتدأ خلقكم من التراب بخلق آدم منها ﴿ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ ﴾ جمع جنين ﴿ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ أى حينما صوركم فى الأرحام فعلمه بكم الآن وبما يصدر منكم أجلى وذكر الثانى وإن علم بالأول لأن من علم بهم وقت الإنشاء من الأرض لايخفى كونه أعلم بهم حال كونهم أجنة لدلالة أن علمه لا يتفاوت بجلاء المعلوم وخفائه كما هو شأن العلم الحادث والله أعلم ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ﴾ لاتمدحوها بزكاء العمل أو بالطهارة عن المعاصى والرذائل على سبيل الإعجاب أما على الاعتراف بالنعمة لحسنٌ ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ منكم وغيره قبل أن يخرجكم من صلب آدم عليه السلام لأن محل التقوى القلب وهو العالم بأحواله ويجوز أن يراد مدح المؤمن أخاه لحديث قطعت عنق صاحبك والمنهى من ذلك مدحه للدنيا وأماليؤتم به أو ليتأسّى الناس بالخير فجائز وفى البابين أحاديث صحيحة ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴾ عن اتباع الحق والثبات عليه عن ابن عباس نزلت فيمن كفر بعد الإيمان والأكثر أنها نزلت فى الوليدبن المغيرة لما سمع قراءة النبى صلى الله عليه وسلم ووعظه فقرب من الإسلام فعاتبه وعيّره بعض المشركين بترك دين الأشياخ فقال أخشى عذاب الله فقال له ارجع إلى دين آبائك وأنا أتحمل لك بكل شىء تخافه فى الآخرة لكن على أن تعطينى كذا وكذا من المال فوافقه ورجع عمّا همّ به من الإسلام ﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا ﴾ من المال المسمى ﴿ وَأَكْدَىٰ ﴾ منع الباقى منه أوالمعنى أعطى قليلا من الخير بلسانه ثم انقطع . قال ابن عطية : وهذا بين من اللفظ والآخر يحتاج إلى رواية . ا ه . وأكدى مأخوذ من الكدية أرض صلبة كالصخرة تمنع حافر البئر إذا وصل إليها من الحفر ﴿ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ ﴾ اللوح المحفوظ ﴿ فَهُوَ يَرَىٰ ﴾ يشاهد أويعلم ما فيه ويكتفى به عن اتباع الرسول ومن جملته أن غيره يتحمل عنه عذاب الآخرة لا وجلة وأعنده» المفعول الثانى لأرأيت بمعنى أخبرنى ﴿ أَمْ ﴾ هو جاهل ﴿ لَمْ يُنَبَّأْ ﴾ لم يخبر ﴿ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴾ أسفار التوراة قدمهالأنها أشهرعندهم ﴿ وَ ﴾ صحف ﴿ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾ وفّر وأتمّ ماأمر به : وخصّه به لتحمله مالم يتحمله أحدمن الصبر على الإلقاء فى النار على أنه عاهدالله أن لا يسأل غيره فقال له جبريل : ألك حاجة ؟ فقال أما إليك فلا ، وصبره على ذبح ولده وأنه كان يمشى كل يوم فرسخا يرتاد ضيفاً فإن وافقه أكرمه وإلا نوى الصوم وبيان ما ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ إلى آخره وأن مخففة من الثقيلة أى أنه لاتحمل نفس ذنب غيرها وأما قوله وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وحديث « من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » فإن ذلك من تسببه الذى هو وزره

﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ من خير، كما لا يؤاخذ بذنب الغير لا يثاب بفعله وما يصل إليه من ثواب دعاء المؤمنين له والصدقة له وحديث « من سن سنة حسنة » فكل ذلك من سعيه بالتسبب ونحوه كالنيابة عنه ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ يبصر فى ميزانه فى الآخرة « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ﴾ يجزى العبد سعيه يقال جزاه الله عمله وجزاه على عمله . قاله النسفى والمحلى، وقال فى غاية الأمانى : نُصِب على نزع الخافض ﴿الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ الأكمل ولذا يرى عمله الحقير، والجزاء نصب على المصدر ويجوز أن يكون بنزع الخافض الباء ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ انتهاء الخلائق ورجوعهم وهو من جملة ما فى الصحف، وقرئ بكسر « إن » استئنافاً فلا يكون منه. قال فى الجواهر : وحق لعبد يعلم أنه إلى ربه منتهاه أن يرفض هواه ويزهد فى دنياه ويقبل بقلبه إلى مولاه ويقتدى بنبيّ فضله الله على خلقه وارتضاه، وحسبك من زهده أنه توفى ودرعه مرهونة وهو يقول اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً ، وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها : ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام حتى مضى لسبيله ولم يبث شكوى إلى أحد وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى وكان يقول « مالى وللدنيا إخوانى من أولى العزم من الرسل صبروا على ماهو أشد من هذا فضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم فأجدنى أستحي إن ترفهت فى معيشتى أن يقصر بى غداً دونهم وما من شىء أحب إلىّ من اللحوق بإخوانى » . اه . مع بعض اختصار ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ﴾ من شاء أى فرحه ﴿وَأَبْكَى﴾ من شاء أى أحزنه ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ لا يقدر على الإماتة والإحياء غيره وفى الكلام مراعاة النظير مع اللف والنشر ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ﴾ الصنفين ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى مِنْ نُطْفَةٍ﴾ منىّ ﴿إِذَا تُمْنَى﴾ تصب فى الرحم من منى وأمنى أو تقدر من منى المانى ، قدر وأكد فى الأولين بضمير الفصل لمظنة وهم الغير دون هذا إذ لا مجال للوهم فيه ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ﴾ بالقصر للجمهور والمد لابن كثير وأبى عمرو وكلاهما مصدر نشأه ﴿الْأُخْرَى﴾ الخلقة الأخرى للبعث عليه ذلك وفاء بوعده ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى﴾ الناس بالكفاية من الأموال ﴿وَأَقْنَى﴾ أعطى المال المتخذ قنية زيادة على قدر الحاجة وهى المال المحفوظ لا للتجارة أو معناه أرضى من القنى كإلى وهو الرضى بأنى من قنى يقال قناه الله بغنيه وأقناه أرضاه وقنى الغنم كغنى ما يتخذ منها لولد أو لبن واوى . وعن أبى زيد : تقول العرب : من أعطى مائة من المعز فقد أعطى الغنى ومن أعطى مائة من الضأن فقد أعطى القِنا ومن أعطى مائة من الإبل فقد أعطى المنى ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ كوكب مضىء خلف الجوزاء ، ويقال له مرزم الجوزاء تعبده خزاعة وأول من عبده ابن أبى كبشة أحد أجداد رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة أمه خالف قريشاً بذلك وكانوا يسمون النبي صلى الله عليه وسلم ابن أبى كبشة لما خالف دينهم فردّهم الله بأنه خالفه فى عبادتها . وأعلم أن الله هو رب الشعرى وهى النكتة فى ذكرها والله أعلم ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ بإدغام تنوين « عاداً »

فى لام التعريف من « الأولى » بعد نقل حركة الهمزة إليها لنافع وأبى عمرو وبإسكان لام التعريف وكسر التنوين الذى فى عاداً لالتقاء الساكنين للباقين هم قوم هود والأخرى عاد إرم والكلام فى تأكيد الأولين بضمير الفصل وتركه فى الأخير كما تقدم آنفاً ﴿ وَ ﴾ أهلك ﴿ ثَمُودًا ﴾ بالصرف للجمهور وعدمه لعاصم وحمزة معطوف على عاداً ولا يعمل فيه قوله ﴿ فَمَا أَبْقَىٰ ﴾ لأن ما بعد « ما » النافية لا يعمل فيما قبلها ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ﴾ قبل عاد وثمود أهلكناهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ من عاد وثمود لطول لبث نوح فيهم وشدة إيذائهم له بالضرب حتى يغشى عليه ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ ﴾ قرى قوم لوط التى انقلبت بأهلها ﴿ أَهْوَىٰ ﴾ أسقطها بعد رفعها إلى السماء مقلوبة إلى الأرض بأمره جبريل بذلك و « المؤتفكة » منصوب بـ « أهوى » ﴿ فَغَشَّاهَا ﴾ من الحجارة بعد ذلك ﴿ مَا غَشَّىٰ ﴾ أبهم تهويلا لما صب عليها من العذاب ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ ﴾ نعمه الدالة على وحدانيته وقدرته ﴿ تَتَمَارَىٰ ﴾ تتشكك أيها الإنسان أو تكذب من المذكورات وبعضها وإن كان نقما فهو نعم فى العبرة والمواعظ والانتقام للأنبياء والمؤمنين . قال أبو الطيب :

بذا حكم الأيام ما بين أهلها ٭ مصائب قوم عند قوم فوائد

﴿ هَٰذَا ﴾ القرآن أو الرسول ﴿ نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴾ من جنس الكتب المنزلة المنذرة أو من جنس الرسل المنذرين فذلك لما عنده من الآى والأحكام التى اشتمل عليها الصحف ﴿ أَزِفَتِ ﴾ قربت الساعة ﴿ الْآزِفَةُ ﴾ أى الموصوفة بالقرب فى قوله « اقتربت الساعة » ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ نفس ﴿ كَاشِفَةٌ ﴾ أى لا يكشفها ويظهرها إلا هو أو لا يجليها غيره أو ليس لها من غير الله كشف على أنها مصدر كالعافية ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ ﴾ القرآن ﴿ تَعْجَبُونَ ﴾ إنكاراً ﴿ وَتَضْحَكُونَ ﴾ استهزاء ﴿ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ تحزناً على ما فرطتم مع سماع وعده ووعيده ﴿ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ﴾ لاهون من سمد البعير فى سيره أو مستكبرون من سمد رفع رأسه تكبراً ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ الذى خلقكم ﴿ وَاعْبُدُوا ﴾ ه ولا تسجدوا للأصنام ولا تعبدوها .

[تم تفسير سورة النجم]

سورة القمر

مكية ـ إلا «سيهزم الجمع» .. الآية
وهي خمس وخمسون آية

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ • اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ) قرب قيامها (وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) نصفين وذلك من علامات اقترابها، روى البخارى ومسلم عن ابن مسعود أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر فلقتين على أبى قبيس وقعيقعان حتى رأوا الحراء بينهما فقال «اشهدوا» (وَإِن يَرَوْا) أى كفار قريش (آيَةً) تدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم (يُعْرِضُوا) عن تأملها والإيمان بها (وَيَقُولُوا) هذا (سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ) قوى من المِرّة القوة أو دائم ليس هذا وحده من سحره وكم له من هذا أو مارّ لا بقاء له يُسَلُّون بذلك أنفسهم (وَكَذَّبُوا) الحق (وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ) فى رد الحق بعد ظهوره (وَكُلُّ أَمْرٍ) من الخير والشر (مُّسْتَقِرٌّ) إلى غاية أى كل أمر له نهاية يثبت فيها مستأنف جار مجرى المثل أو كل من أمره وأمرهم مستقر بأهله فى الجنة أو النار أو فى النصر أو الخذلان (وَلَقَدْ جَاءَهُم) فى القرآن (مِّنَ الْأَنبَاءِ) أخبار الأمم المكذبة وأخبار القيامة (مَا) موصولة أو موصوفة (فِيهِ مُزْدَجَرٌ) ازدجار عن الكفر والمعاصى اسم مصدر أو مكان والدال بدل من تاء الافتعال من زجرته نهيته بغلظة (حِكْمَةٌ) خبر مبتدإ محذوف أو بدل من «ما» أو مزدجر (بَالِغَةٌ) غايتها لا خلل فيها (فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ) ما تنفع فيهم بعدها نفى أو استفهام إنكار جمع نذير بمعنى منذر أى الأمور المنذرة لا تغنى شيئا بعد وصول الأمر إلى الغاية وعلى الاستفهام فما مفعول مقدم (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ) بعد علمك أن الإنذار لا يغنى فيهم هو فائدة ما قبله وبه تم الكلام (يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ) هو إسرافيل وناصب يوم يخرجون بعد أو اذكر أثبت الياء ورش وأبو عمرو وصلاً والبزى وصلا ووقفا وحذفها الباقون منها اكتفاء بالكسرة (إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ) بضم الكاف للجمهور وسكونها لابن كثير منكر تنكره النفوس لفظاعته لأنها لم تعهد مثله وهو الحساب يوم القيامة (خُشَّعاً) بضم الخاء وفتح الشين مشددا لنافع وابن كثير وابن عامر وعاصم وبفتحها وكسر الشين المخففة بعد ألف للباقين (أَبْصَارُهُمْ) أى ذليلة حال من فاعل (يَخْرُجُونَ) أى الناس (مِنَ الْأَجْدَاثِ) القبور لهول ما رأوا (كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ) فى الكثرة والتموج والانتشار فى الأمكنة لا يدرون أين يذهبون من الخوف والحيرة والجملة حال من فاعل يخرجون وكذا قوله (مُّهْطِعِينَ) مسرعين مادى أعناقهم أو ناظرين (إِلَى الدَّاعِ) وفى

الياء ما تقدم ﴿ يَقُولُ الْكَافِرُونَ ﴾ منهم ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ صعب على الكفار لما يرون من مخايل الشدة ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ قبل قريش ﴿قَوْمُ نُوحٍ ﴾ تسلية وترهيب ﴿ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾ نوحا تفصيل بعد إجمال أو كذبوه تكذيبا إثر تكذيب كلما مضى قرن تبعه آخر أو كذبوا الرسل رأسا فكذبوه لأنه من جملتهم ﴿ وَقَالُوا ﴾ هو ﴿ مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ انتهر بالسب والضرب وغير ذلك عن التبليغ، وأوثر بناء المفعول تطهيراً للألسنة عن ذكرهم ودلالة على أن فعلهم أسوأ من قولهم ولتوافق الفواصل ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ ﴾ بعد ما أيس منهم ومن أولادهم وأحفادهم ﴿ أَنِّي ﴾ بالفتح أى بأنى ﴿ مَغْلُوبٌ ﴾ غلبنى قوى ﴿ فَانْتَصِرْ ﴾ انتقم لى منهم ﴿ فَفَتَحْنَا ﴾ بالتخفيف للجمهور والتشديد لابن عامر لكثرة الابواب ﴿ أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾ منصب انصبابا شديدا لم ينقطع أربعين يوما ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ جعلنا الارض كلها كأنها عيون أصله فجرنا عيون الأرض عدل إلى المنزل للمبالغة ﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ ﴾ ماء السماء وماء الارض ﴿ عَلَىٰ أَمْرٍ ﴾ حال ﴿ قَدْ قُدِرَ ﴾ قضى به فى الازل وهو هلاكهم غرقا ﴿ وَحَمَلْنَاهُ ﴾ نوحا ﴿ عَلَىٰ ﴾ سفينة ﴿ ذَاتِ أَلْوَاحٍ ﴾ أخشاب عريضة ﴿ وَدُسُرٍ ﴾ مسامير جمع دسار ككتاب ما تشد به الالواح أقيمت الصفة مقام الموصوف كناية كقولهم فى الإنسان مستقيم القامة وفيه فخامة ليست فى الأصل وإشارة إلى كمال الاقتدار لبعد حال الخشب والحديد عن دفع ذلك الطوفان العظيم ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ برأى منا أى محفوظة ﴿ جَزَاءً ﴾ علة للفتح وما بعده أى أغرقوا انتصارا ﴿ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾ وهو نوح عليه السلام لأن كل نبى نعمة من الله ورحمة على أمته ، وقرئ «كَفَرَ» بالبناء للفاعل أى أغرقوا عقابا لهم ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا ﴾ أى السفينة أو هذه الفعلة أبقيناها ﴿ آيَةً ﴾ يعتبر بها إذ شاع خبرها واستمر وتواتر فى أقطار الارض فى الأعصار كلها إلى آخر الدهر . قال قتادة : أبقى الله سفينة نوح حتى أدركها أوائل هذه الامة ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ معتبر متعظ وأصله مذتكر أبدلت التاء دالا مهملة وكذا المعجمة وأدغمت فيها ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ إنذارى أو جمع نذير استفهام تعجب وتهويل وكيف خبر كان وهى للسؤال عن الحال والمعنى حمل المخاطبين على الإقرار بوقوع عذابه تعالى بالمكذبين لنوح موقعه وتعجيبهم بذلك ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ ﴾ سهلناه ﴿ لِلذِّكْرِ ﴾ للحفظ أو هيأناه للتذكر لاشتماله على نبأ الأولين والآخرين وتسهيله للحفظ بحسن النظم وشرف المعانى فله حلاوة فى القلوب وامتزاج بالعقول السليمة لا تمله مع إنزاله على سبعة أحرف بحسب لغات القبائل الأصول تيسيرا على العرب ولكن كون المراد تيسير التذكر أوفق بالمقام ولذا أعاده مرارا ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ متعظ استدعاء وحض على أن تكون زواجره وعلومه حاضرة فى الأنفس أى احفظوه أو اتعظوا به وليس يحفظ من كتب الله عن ظهر القلب غيره ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾ نبيهم هودا فعذبوا ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ إنذاراتى لهم بالعذاب قبل نزوله وبعده لمن بعدهم أى وقع موقعه وبين العذاب بقوله ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ

ريحا صرصرا ﴾ شديد الصوت من الصرير أو البرد من الصّر بكسر الصاد ﴿ في يوم نحس ﴾ شؤم ﴿ مستمر ﴾ دائم الشؤم عليهم حتى أهلكهم جميعاً أو شديد مرارته وإنما أفرد اليوم هنا مع جمعه في فصلت والحاقة لإرادة الوقت واستمراره امتداده أياما فوافق ما هناك ﴿ تنزع الناس ﴾ بيان لشؤمه أي تقلعهم عن أماكنهم حيث كانوا مصطفين آخذين بأيدي بعض ومن الحفر التي حفروا واندسوا فيها ومن الشعاب التي دخلوها فتنزعهم منها وتقلع رءوسهم وتبقى الجثة ساقطة على الأرض ﴿ كأنهم ﴾ وحالهم ما ذكر ﴿ أعجاز ﴾ أصول ﴿ نخل منقعر ﴾ منقلع عن مغارسه ساقط على الأرض شبهوا به في الطول وعدم الرءوس والانقلاع لأن المنقلع هو الذي ينزع من قعره شبه تلك الحفر بعد نزعهم بحفر أعجاز النخل المغروسة بعد قلعها وذكّر وصف النخل هنا وأنث في الحاقة مراعاة للفظ والمعنى والفواصل في الموضعين ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ كرره للتهويل ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر . كذبت ثمود بالنذر ﴾ بالإنذارات التي أنذرهم بها نبيهم صالح إن لم يؤمنوا أو بالآيات أو بالرسل المنذرة جمع نذير بمعنى منذر ﴿ فقالوا أبشرا ﴾ منصوب على الاشتغال والنصب هنا أولى من الرفع ﴿ منا ﴾ من جنسنا وجملتنا لا فضل له علينا ﴿ واحداً ﴾ صفتان لبشرا أي ليس من طائفة أخرى حتى تكون له المزية موصوفا بالوحدة لا تَبَعَ له ﴿ نتبعه ﴾ مفسر للفعل الناصب له والاستفهام بمعنى النفي أي كيف نتبعه ونحن جماعة كثيرة وهو واحد منا ليس بملك ولا رئيس ﴿ إنا إذاً ﴾ إن اتبعناه ﴿ لفي ضلال ﴾ ذهاب عن الصواب ﴿ وسعر ﴾ جنون أو احتراق نفس حنقاً فهو جمع سعير حينئذ ﴿ أألقي الذكر ﴾ الوحي ﴿ عليه من بيننا ﴾ وفينا من هو أحق منه بذلك بكثرة المال والجاه أي لم يوح إليه ﴿ بل هو كذاب ﴾ في قوله أوحي إليه ما ذكره ﴿ أشر ﴾ متكبر بطر حمله بطره على طلب الترفع علينا . قال تعالى ﴿ سيعلمون ﴾ بالياء للجمهور والتاء لابن عامر وحمزة على الالتفات أو حكاية ما أجابهم به صالح ﴿ غداً ﴾ في الآخرة لأن الدنيا والآخرة يومان ﴿ من الكذاب الأشر ﴾ الذي حمله تكبره على رد الحق وطلب الباطل أصالح أم من كذبه ﴿ إنا مرسلو الناقة ﴾ مخرجوها من الصخرة كما سألوا ﴿ فتنة لهم ﴾ امتحانا مفعول له أو حال ﴿ فارتقبهم ﴾ يا صالح أي انتظر ما هم صانعون وما يصنع بهم ﴿ واصطبر ﴾ على أذاهم والطاء بدل من تاء الافتعال ﴿ ونبئهم أن الماء قسمة ﴾ مقسوم ﴿ بينهم ﴾ وبين الناقة فيوم لها ويوم لهم في الضمير تغليب العقلاء ﴿ كل شرب ﴾ نصيب من الماء ﴿ محتضر ﴾ يحضره صاحبه خاصة فالقوم يومهم والناقة يومها فتمادوا على ذلك ثم ملوه فهموا بقتل الناقة ﴿ فنادوا صاحبهم ﴾ قدار بن سالف أُحَيْمِر ثمود أشقى الناس . قال عليه السلام « أشقى الناس رجلان عاقر الناقة وقاتل عليّ رضي الله عنه » ﴿ فتعاطى ﴾ اجترأ على تعاطي الأمر العظيم غير مكترث أو تعاطى السيف أو الناقة ﴿ فعقر ﴾ ها وقتلها ، والتعاطي تناول الشيء بتكلف ونسب إليهم في فعقروا الناقة لرضاهم بفعله وإعانتهم له ﴿ فكيف كان

عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ إنذارى لهم بالعذاب قبل نزوله أى وقع موقعه وبينه بقوله ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ صاح بهم جبريل ﴿ فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ الذى يجعل للغنم حظيرة من يابس الشجر والشوك يحفظهن فيها من السباع وماسقط من ذلك فداسته هو الهشيم أو هو الحشيش اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته فى الشتاء ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ ريحاً ترميهم بالحصباء وهى صغار الحجارة الواحد دون ملء الكف فهلكوا ، جمع الله عليهم أنواعا من العذاب : قلب الأرض ، وإمطار الحجارة عليهم ، والرمى بالحصباء ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ ﴾ وهم ابنتاه معه ومن آمن به ﴿ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ من الأسحار أى قرب وقت الصبح من يوم غير معين ولو أريد من يوم معين لمنع الصرف لأنه حينئذ معرفة معدول عن السحر لأن حقه أن يستعمل فى المعرفة بأل وهل أرسل الحاصب على آل لوط أو لا ؟ قولان . والسحر زمن قبيل الصبح ويطلق على ما بعد انصداع الفجر ولذا يقيد الأول بالأعلى ﴿ نِعْمَةً ﴾ علة لنجينا أى إنعاماً عليه وتفضلا ﴿ مِنْ عِنْدِنَا كَذَٰلِكَ ﴾ أى مثل ذلك الجزاء ﴿ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴾ نعمتنا بالإ والطاعة ﴿ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ ﴾ خوفهم لوط ﴿ بَطْشَتَنَا ﴾ أخذتنا بالعذاب ﴿ فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴾ كذبوا بها شاكين ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ ﴾ قصدوا الفجور بهم ﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ بصفق جبريل بأن سويناها بسائر الوجه ، وتقدمت القصص ﴿ فَذُوقُوا ﴾ أى فقلنا لهم ذوقوا ﴿ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ إنذارى أى ثمرته ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً ﴾ أول طلوع الفجر من يوم غير معين ﴿ عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴾ بهم لا يفارقهم حتى يسلمهم إلى النار ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ قيل لهم ذلك عند قلب الأرض عليهم والأول عند الطمس ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ أعاده فى كل قصة تجديداً للاتعاظ وحثاً على الاستيقاظ لئلا تستولى على الناس الغفلة وهكذا شأن كل تكرير فى القرآن كـ «فبأى آلاء ربكما تكذبان» و «ويل يومئذ للمكذبين» ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ قومه معه ﴿ النُّذُرُ ﴾ الإنذارات على لسان موسى وهارون ولم يؤمنوا بها ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ التسع التى أوتيها موسى ﴿ كُلِّهَا ﴾ لم يعطف بالفاء اكتفاء بالاتصال معنى وإشارة إلى شدة كفرهم كأن تكذيبهم كان مع مجىء تلك الآيات ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ ﴾ بالعذاب ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ ﴾ لا يغالب ﴿ مُقْتَدِرٍ ﴾ لا يعجزه شىء وترك ذكر التيسير والادكار هنا لأنه آخر القصص فاختصر ليدل الاختصار على الاقتصار وهذا من أسرار التنزيل كما قدمنا مثله لله دره ﴿ أَكُفَّارُكُمْ ﴾ يا قريش ﴿ خَيْرٌ مِنْ أُولَٰئِكُمْ ﴾ المذكورين من قوم نوح إلى فرعون المهلكين زينة وأموالا وقوة وأسباباً وشكيمة وعناداً أى ليس الأمر كذلك بل هؤلاء أقل فى ذلك أو المعنى : أكفاركم خير منهم مكانة عند الله ﴿ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ ﴾ من العذاب ﴿ فِي الزُّبُرِ ﴾ الكتب السماوية والاستفهام فى الموضعين بمعنى النفى أى ليس الأمر كذلك ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ ﴾ جماعة أمرنا مجتمع ﴿ مُنْتَصِرٌ ﴾ ممتنع لا يرام ، وأفرد الضمير باعتبار لفظ الجميع وعدل عن الخطاب كأنه

يحكي جهلهم لغيرهم كما يقول المولى بعد استيفاء عتاب عبده : أبه جنون ؟ ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ ﴾ أي جمعهم ﴿ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ أي الأدبار ، أفرد لإرادة الجنس أو باعتبار كل واحد وقد هزموا ببدر ونصر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم وهي من الآيات المخبرة عن الغيب ، وعن عمر رضي الله عنه لما نزلت : لم أعلم ما هو فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس الدرع ويقول « سيهزم الجمع » فعرفت تأويلها . قلت : وهذا يؤيد قول الجمهور أن الآية مكية وإنما جاء تأويلها يوم بدر وقيل لما قال أبو جهل يوم بدر : إنا جمع منتصر ، نزلت ، والأول أظهر ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ﴾ الأصلي بالعذاب وما يحيق بهم في الدنيا فمن طلائعه ﴿ وَالسَّاعَةُ ﴾ أي عذابها ﴿ أَدْهَى ﴾ أشد بلية والداهية داء لا دواء لها ، وأعاد لفظ الساعة تهويلا ﴿ وَأَمَرُّ ﴾ أشد مرارة من عذاب الدنيا القتل والأسر ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ ﴾ عن الحق في الدنيا ﴿ وَسُعُرٍ ﴾ جنون أو نيران مسعرة بالتشديد أي مهيجة في الآخرة ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ﴾ ظرف لسعر أو بدل اشتمال منه ويقال لهم ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ إصابة جهنم لكم وألمها فإن مسها سبب للتألم بها يقال ... مارة ، و « سقر » علم لنار الآخرة ولذلك لم يصرف من سقرته إذا لوحته ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ ﴾ منصوب بفعل يفسره ﴿ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ أي ملتبساً بما سبق من التقدير في الأزل وسطر في اللوح فهو حال من « كل » ﴿ وَمَا أَمْرُنَا ﴾ لشيء نريد وجوده ﴿ إِلَّا وَاحِدَةٌ ﴾ إلا فعلة واحدة بلا آلة وأسباب أو إلا كلمة واحدة وهو « كن » ﴿ كَلَمْحٍ ﴾ كخطف ﴿ بِالْبَصَرِ ﴾ في السرعة واليسر ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ ﴾ أشباهكم في الكفر من الأمم الماضية ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ متعظ منكم بقضية أولئك ا استفهام بمعنى الأمر أي ادكروا واتعظوا ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ ﴾ أي العباد مكتوب ﴿ فِي الزُّبُرِ ﴾ كتب الحفظة فيجازون عليه ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ ﴾ من قول أو فعل أو اعتقاد ﴿ مُسْتَطَرٌ ﴾ مسطور في اللوح ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ ﴾ بساتين ﴿ وَنَهَرٍ ﴾ ضياء وسعة أو في أنهار واكتفى باسم الجنس وقرئ بضم النون والهاء جمعاً كأسد وأسد ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم بدل من « جنات » سميت به لأنها منزل الصادقين أو لأنها مكان مرضي الخصال محمود الفعال وقرئ مقاعد صدق ﴿ عِنْدَ مَلِيكٍ ﴾ عزيز الملك واسعه حال من المستكن في الخبر ﴿ مُقْتَدِرٍ ﴾ كامل القدرة الذي لا يعجزه شيء وهو الله تعالى ولا شيء ألذ للنفس من نيل القرب عند أهل الاقتدار ولذا يبذل الأموال والأرواح دونه مع ملوك الدنيا وينبغي للمؤمن أن يبذل نفسه في طلب القرب من الله . رزقنا الله ذلك بمنه ورحمته الواسعة .

[تم تفسير سورة القمر]

سورة الرحمن

مكية أولا ويسأله من في السموات والأرض، فمدنية
ست وسبعون آية

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . الرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ﴾ من شاء ﴿الْقُرْآنَ﴾ لما كانت السورة مقصورة على تعداد النعم الدنيوية والأخروية التي لها شأن صدرها بالرحمن براعة للاستهلال وبدأ بأجل النعم الدينية التي هي أعلى النعم وهو القرآن وتعليمه فإنه الحاوي لأصول الدين وفروعه الموضح للسبيل المصدق لسائر الكتب والرسل ثم أتبعه خلق الإنسان الذي هو أشرف الحيوانات ليعلم أنه إنما خلقه للدين وبه كماله بقوله ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ الجنس الذي يصلح لتلقي الوحي ومعرفة الحق وتعلم الشرع وتعليمه ثم أردفه بما توقف عليه تعلم القرآن وتعليمه وبه يتميز عن سائر الحيوانات بقوله ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير لإفهام الغير وإخلاء الجمل الثلاث التي هي أخبار مترادفة للرحمن عن العاطف لمجيئها على نهج التعديد إشارة إلى تقاعد الإنسان عن الوفاء بشكرها كما تقول زيد أغناك بعد فقر أعزك بعد ذل كثرك بعد قلّ فما تنكر بعد من إحسانه، ثم بعد قضاء الوطر من هذا الأسلوب أفاض في تعداد النعم واحدة إثر أخرى على النظم المعروف بحرف النسق مراعيا التقارب والتناسب بقوله ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ يجريان ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ حساب معلوم مقدر في بروجهما أو منازلها بلا اختلال لينضبط بذلك أحوال الكائنات السفليات ويتميز به الفصول والأوقات ﴿وَالنَّجْمُ﴾ ما لا ساق له من النبات ﴿وَالشَّجَرُ﴾ ما له ساق ﴿يَسْجُدَانِ﴾ ينقادان لله فيما يريد بهما طبعا انقياد الساجد من المكلفين طوعا وارتباط الجملتين بما تقدم معنوي وذلك أنه لما رمز إلى تقاعده في الشكر أخذ في تعداد نعم أخرى حثا له على ماطلب منه ولو عطف لم يفد هذا الغرض وفيهما إشارة إلى أن ما في العالم العلوي والسفلي قائم بما خلق له والإنسان مع كونه المقصود من الكون خسر بذلك وكان ظلوما جهولا، قاله في غاية الأماني. قلت ولايخفى ما في عطف النجم على الشمس والقمر من إيهام النظير وما بين الشمس والقمر وبين النجم والشجر من مراعاة النظير ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ محلا ورتبة لأنها محل ملائكته ومنشأ أحكامه ومصدر أقضيته ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ أثبت العدل الذي هو قانون الشرع الذي به النظام بين الأنام في توفية كل ذي حق حقه قال عليه السلام بالعدل قامت السموات والأرض ﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾ لأجل أن لا تجوروا ﴿فِي الْمِيزَانِ﴾ الإنصاف بألا تتجاوزوه بالزيادة والنقصان فيورثكم الخسران ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ﴾ اجعلوا وزن

أعمالكم قويما لا عوج فيه ﴿ بِالْقِسْطِ ﴾ بالعدل السوىّ وهو ما اقتضاه الشرع ﴿ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ لا تنقصوه فان من حقه أن يسوى أى لا تنقصوا ما وجب عليكم وتكريره مبالغة فى التوصية به ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا ﴾ خفضها مدحوة ﴿ لِلْأَنَامِ ﴾ الخلق أوكل ذى روح منه لئلا يشق عليهم التصرف والتردد فيها فى اكتساب المعاش والمعاد ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ ضروب مما يتفكه به ﴿ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴾ أوعية الثمر جمع كِمّ بالكسر وعاء الطلع أو أريد به كل ما يغطى من ليفه وسعفه وكُفُرّاه وبالجملة ليس فى النخل ما لا ينتفع به ﴿ وَالْحَبُّ ﴾ كالحنطة والشعير وسائر ما يتغذى به ﴿ ذُو الْعَصْفِ ﴾ التبن وهو ورق النبات اليابس ﴿ وَالرَّيْحَانُ ﴾ يعنى المشموم أو الرزق من قولهم خرجت أطلب ريحان الله أى رزقه وهو فيعلان من الروح قلبت واوه ياء وأدغم ثم خفف، قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم برفع الثلاثة النخل وما بعدها عطفا على الاسمية وابن عامر بنصبها عطفا على الفعلين بتقدير خلق وحمزة والكسائى بجر الثالث ورفع الأولين أى ذو العصف والريحان وفى ذكرها على هذا الأسلوب ترقّ من الأدنى إلى ما هو أعلى فى الامتنان على وجه استوعب فيه أقسام ما يتناول فى الرفاهية لأنه إما للتلذذ وهو الفاكهة أو له وللتغذى وهو ثمر النخل أو التغذى وحده وهو الحب والله أعلم ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ الخطاب للثقلين المدلول عليهما بقوله للأنام وقوله الآتى أيها الثقلان وذكرت إحدى وثلاثين مرة والاستفهام فيها للتقرير لما روى الحاكم عن جابر قال قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الرحمن حتى ختمها ثم قال مالى أراكم سكوتا للجن كانوا أحسن مَرَدًّا منكم ما قرأت عليهم هذه الآية إلا قالوا: ولا بشىء من نعمائك ربنا نكذب فلك الحمد. انتهى وتكريرها للتأكيد وطرد الغفلة وقيل لما اختلفت النعم المذكورة كرر التوقيف مع كل واحدة منها قال ابن عطية وهذا أحسن ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ آدم ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ ﴾ طين يابس يسمع له صلصلة أى صوت إذا نقر ﴿ كَالْفَخَّارِ ﴾ الخزف وهو ما طبخ من الطين بعد الصنعة ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ ﴾ الجن أو أبا الجن وهو إبليس ﴿ مِنْ مَارِجٍ ﴾ من لهب خالص من الدخان مضطرب أو مختلط من الدخان أصفر وأخضر وأحمر ﴿ مِنْ نَارٍ ﴾ من للبيان لمارج على الأول وللابتداء على الثانى ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا ﴾ مما أفاض عليكما فى خلقكما ﴿ تُكَذِّبَانِ ﴾ إذ نعمة الإيجاد أجل الإنعامات ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ ﴾ مشرق الشتاء والصيف ﴿ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ مغربيهما ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مما فى ذلك من الفوائد التى لا تحصى كاعتدال الهواء واختلاف الفصول وحدوث ما يناسب كل فصل فيه إلى غير ذلك ولا تخفى مناسبة تثنية المشرق والمغرب فى هذه السورة لأن سياقها زوجان ﴿ مَرَجَ ﴾ أرسل ﴿ الْبَحْرَيْنِ ﴾ العذب والملح ﴿ يَلْتَقِيَانِ ﴾ فى رأى العين ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴾ حاجز من قدرته تعالى يمنع أحدهما من التعدى على الآخر كما قال ﴿ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ لا يبغى واحد منهما على الآخر بالممازجة وإبطال الخاصية وقيل المراد بهما بحر فارس والروم يلتقيان فى المحيط لأنهما خليجان يتشعبان منه وضعّفه فى غاية

الأمانى قال ابن عطية والظاهر عندى أن المراد بهما نوعى الماء العذب والأجاج خلطهما الله فى الأرض وأرسلهما متداخلين فيها قريب بعضها من بعض ولا بغى انتهى . ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مما فى ذلك من الدلائل الدالة على كمال اقتداره الموصل إلى الإيمان الذى كل نعمة دونه ﴿يُخْرَجُ﴾ بالبناء للمفعول لنافع وأبى عمرو ، وللفاعل للباقين ﴿مِنْهُمَا﴾ من مجموعهما الصادق بأحدهما وهو الملح فى المواضع التى تقع فيها الأنهار والمياه العذبة فلذلك قال منهما ﴿اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ فالأول أبيض يَقَقٌ والثانى أحمر قانٍ وقيل هو صغار اللؤلؤ وقيل اللؤلؤ والمرجان يخرجان من الملح والعذب مما حكاه الأخفش عن قوم وقال ليس لمن رده حجة قاطعة ومن أثبت أولى ممن نفى قال أبو حيان وهذا هو الظاهر انتهى ، قلت الأول هو قول الجمهور ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من كونهما من فواخر النعم ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ﴾ السفن الجارية فى البحر ﴿الْمُنشَآتُ﴾ بفتح الشين للجمهور المحدثات أو المرفوعات الشرع ، وبكسرها لحمزة وأبى بكر أى رافعات الشرع أو الموج ﴿فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ كالجبال الطوال عظما وارتفاعاً ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من خلق السفن والإرشاد إلى ركوبها وإجرائها فى البحر لمنافع العباد ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ أى الأرض من الثقلين أو الموجودات و « مَن » لتغليب العقلاء ﴿فَانٍ﴾ هالك ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ذاته ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ العظمة ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ للمؤمنين أو ذو الاستغناء المطلق والفضل العام وقدم صفة الفناء لأنه فى مقام الجلال وقهر الخلق بالفناء ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مما أخبر من إبقاء مالا يحصى مما هو على صدد الفناء رحمة وفضلا وما يترتب على إفناء الكل من الإعادة والحياة الدائمة والنعيم المقيم ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بنطق أو حال ما يحتاجون إليه من القوة على العبادة والرزق والمغفرة وغير ذلك لافتقار الكل إليه ابتداء وبقاء ﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾ وقت ﴿هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ أمر يظهره على وفق ما قدره فى الأزل من إحياء وإماتة وإعزاز وإذلال وإغناء وإعدام وإجابة داع وإعطاء سائل وغير ذلك ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من إسعاف سؤالكما وإخراجكما من العدم حيناً لحيناً وجلب نفع ودفع ضر فى الدنيا والدين ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ بالنون للجمهور والياء لحمزة والكسائى سنقصد لحسابكم وجزائكم وهو كناية عن توجه الإرادة إلى الانتقام ﴿أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ الإنس والجن لأن الأرض لهما كالحمولة أو لأنهما مثقلان بالتكليف ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من ترهيبكما بما ذكر والحث على الطاعة ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا﴾ تخرجوا ﴿مِنْ أَقْطَارِ﴾ نواحى ﴿السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا﴾ أمر تعجيز يقال لهم ذلك يوم القيامة حين حفتهم سبعة صفوف من الملائكة « يقول الإنسان يومئذ أين المفر » وقيل مخاطبة فى الدنيا أى إن استطعتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هاربين من الموت ومن قضاء الله فاخرجوا . قال فى الجواهر : والصواب الأول . اه . وتقديم الجن لأنهم أعتى وأشد قوة ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ بقوة ولا قوة لكم على ذلك ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من التحذير والمساهلة والعفو مع كمال القدرة ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ ﴾ بضم الشين للجمهور وكسرها لابن كثير أي لهب ﴿ مِنْ نَارٍ ﴾ خالص من الدخان أو معه ﴿ وَنُحَاسٌ ﴾ صفر مذاب بالرفع للجمهور أي يرسل عليهما ، وبالجر لابن كثير وأبي عمرو عطفاً على المجرور أي من نار ومن نحاس أي دخان ، وأنشدوا : تُضِيءُ كَضَوْءِ السِّرَاجِ السَّلِيطِ • لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ فِيهِ نُحَاسَا

﴿ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴾ تمتنعان من ذلك بل يسوقكم إلى المحشر أو يحرقكم ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه التهديدات لأنها لطف بكبحها عنان العاصي وحثها الطائع على المزيد ﴿ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ ﴾ لنزول الملائكة ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً ﴾ أي حمراء كلون الورد ﴿ كَالدِّهَانِ ﴾ كالأديم الأحمر أو إذا انشقت وكانت حمراء مذابة من حر نار جهنم أو من شدة الهول كالدهان كالزيت المذاب الذي يدهن به كقوله « يوم تكون السماء كالمهل » والدهان اسم لما يدهن به كالحزام واللثام والختام وجواب « إذا » محذوف أي فما أعظم الهول أو الجواب فيومئذ الآية ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من التهديد بهذه الأهوال ومن حذر كمن بشر ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ لأنهم يعرفون بسيماهم والمراد باليوم الوقت أي وقت خروجهم من القبور والحشر إلى الموقف قبل فصل القضاء وبعد ذلك يسألون « فوربك لنسألنهم أجمعين » والجان هنا وفيما يأتي بمعنى الجني والإنس بمعنى الإنسي ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مما أخبركما وما أنعم به على المؤمنين في ذلك اليوم ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ﴾ أي سواد الوجوه وزرقة العيون والحزن ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ تضم ناصية كلٍّ إلى قدميه من خلف أو قدام ويلقى في النار ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذا التهديد ويقال لهم ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا ﴾ بين النار يحرقون بها ﴿ وَبَيْنَ حَمِيمٍ ﴾ ماء حاز ﴿ آنٍ ﴾ بالغ نهاية الحرارة يسقونه ويصب على رءوسهم ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذا ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ قيامه بين يديه للحساب وترك معصيته ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ جنة للخائف الإنسي والأخرى للجني أو لكل واحد جنة لعقيدته وأخرى لعمله أو لطاعته وترك معاصيه أو للثواب والتفضل أو روحانية وجسمانية وكذا ما جاء مثنى بعد ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه . قال في غاية الأماني : وجعلُ إحداهما للخائف من الإنس والأخرى للخائف من الجن بعيدٌ مخالف للأحاديث ﴿ ذَوَاتَا ﴾ تثنية ذوات على الأصل ولامها ياء ﴿ أَفْنَانٍ ﴾ أغصان جمع فنن كطلل خصها بالذكر لكثرة نفعها بالظلال والثمار وحسن المنظر بأوراقها أو جمع فن أي ذواتا أنواع من الأشجار والثمار ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مما أعد لكم من هذه وأنتم في العدم ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ حيث شاءوا في الأعالي والأسافل ، قيل إحداهما التسنيم والأخرى السلسبيل ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مما وُصف ووصفهما بالجرى لتوفر حظ الباصرة فإن النظر إلى الماء الزلال الجاري أجلب شيء للسرور ﴿ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ ﴾ ما يؤكل تلذذاً ﴿ زَوْجَانِ ﴾ صنفان ماتعلمون وما لاتعلمون أو رطب ويابس لئلا يملّ والمر منهما في الدنيا كالحنظل حلو ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه وأى نعيم أفضل من هذا التنويع ﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ حال عامله محذوف أى يتنعمون والضمير لمن خاف لأنه فى معنى الجمع ﴿ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ ما غلظ من الديباج والظهائر من سندس ، وروى من نور يتلألأ ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ ﴾ أى مجنيهما وهو ثمرهما ﴿ دَانٍ ﴾ قريب يناله القائم والقاعد والمضطجع ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه ﴿ فِيهِنَّ ﴾ أى فى الجنات التى لكل واحد منها جنتان أو فى الجنتين وما اشتملتا عليه من الأماكن والقصور أو فى الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش . قلت : ورجوع الضمير إلى الفرش فقط هو الظاهر الأقرب وهو القول الذى بدأ به فى الجواهر ﴿ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ العين على أزواجهن المتكئين من الإنس والجن لا ينظرون إلى الغير ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ لم يمسهن وهن من الحور أو من نساء الدنيا المنشآت ﴿ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ فهن أبكار كما خلقن لم يمس الإنسيات إنس ولا الجنيات جن وفيه دليل على أن الجن يطمثون ، وقرأ الكسائى بضم الميم هنا فى رواية الدورى وبكسرها فى الثانية وفى رواية الليث عنه بالعكس ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ ﴾ صفاء ﴿ وَالْمَرْجَانُ ﴾ اللؤلؤ الصغار بياضاً أو فى صفاء الياقوت وحمرة المرجان قال فى الجواهر : الياقوت والمرجان من الأشياء التى برع حسنها واستشعرت النفوس جلالتها فوقع التشبيه بها فالياقوت فى املاسه وشفوفه لو أدخلت فيه سلكا لرأيته من ورائه ، وكذا المرأة من نساء الجنة يرى مخ ساقها من وراء العظم ، والمرجان فى املاسه وجمال منظره . اه ، قلت : وفى مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لكل واحد من أهل الجنة زوجتان يرى مخ ساقهما من وراء اللحم ، وفى رواية من وراء سبعين حلة ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه ﴿ هَلْ ﴾ أى ما ﴿ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ ﴾ بالطاعة ﴿ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ بالنعيم ، قال فى الجواهر : الآية وعد وبسط لنفوس جميع المؤمنين لأنها عامة . وحكى النقاش أن النبى صلى الله عليه وسلم فسر هذه الآية : هل جزاء التوحيد إلا الجنة ، ولو صح هذا الحديث لوجب الوقوف عنده ولكن الشأن فى صحته . قال الفخر : فيها وجوه كثيرة حتى قيل إن فى القرآن ثلاث آيات فى كل واحدة منها مائة قول إحداها « فاذكرونى أذكركم » وثانيها « وإن عدتم عدنا » وثالثها « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان» ولنذكر الأشهر منها والأقرب أما الأشهر فهو هل جزاء التوحيد إلا الجنة أو هل جزاء الإحسان فى الدنيا إلا الإحسان فى الآخرة وهل جزاء من أحسن إليكم بالنعم فى الدنيا إلا أن تحسنوا له العبادة والتقوى ، وأما الأقرب فهو التعميم أى لأن لفظ الآية عام . اه ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا ﴾ أى دون الجنتين الأولين فى الشرف لأنهما للخائفين المقربين ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ لمن دونهم من أصحاب اليمين . روى البخارى عن عبد الله بن قيس عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما » وفى اللفظ دلالة على المزية للأولين وعليه الأكثر ، وروى عن ابن عباس أن المعنى أنهما دونهما فى القرب إلى المنعمين

وأنهما أفضل من الأولين واختاره الترمذى الحكيم وأطنب فى الاحتجاج له فى نوادر الأصول له . والله أعلم ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ سوداوان من شدة خضرتهما من الرّىّ فى مقابلة « ذواتا أفنان » . قال البيضاوى : وفيه إشعار بأن الغالب على هاتين الجنتين النبات والرياحين المنبسطة على وجه الأرض وعلى الأولين الأشجار والفواكه دلالة على ما بينهما من التفاوت ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ فوّارتان بالماء لا ينقطعان فى مقابلة تجريان والنضخ أقل من الجرى ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ هما منها ذكرا لفضلهما وقيل غيرها ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ ﴾ أخلاقاً والأصل خيّرات مشدداً خفف ، لا جمع خير اسم التفضيل إذ ذاك لا يجمع هذا الجمع ﴿ حِسَانٌ ﴾ جميلات وجوها ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه ﴿ حُورٌ ﴾ شديدات السواد سواد العيون وبياضها ﴿ مَقْصُورَاتٌ ﴾ مستورات مخدرات ﴿ فِى الْخِيَامِ ﴾ من درّ مجوف مضافة إلى القصور شبيهة بالخدور لا يخرجن منها ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ ﴾ قبل أزواجهن ﴿ وَلَا جَانٌّ ﴾ كما تقدم ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه ﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ أى أزواجهن وإعرابه كما تقدم ﴿ عَلَىٰ رَفْرَفٍ ﴾ جمع رفرفة أى بسط من حرير تدلى من الأسرة ﴿ خُضْرٍ ﴾ ويطلق الرفرف على كل ثوب عريض ، وكونه أخضر لأنه لون مفرح ﴿ وَعَبْقَرِىٍّ ﴾ جمع عبقرية أى جنسها أى طنافس وهى بسط فيها صور تنسب إلى عبقر تزعم العرب أنه اسم بلد للجن ينسبون إليه كل شىء عجيب ﴿ حِسَانٍ ﴾ صفة عبقرى لأنه بمعنى الجنس ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من هذه ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ﴾ تعالى اسمه وكثر خيره أراد بالاسم لفظ « الرحمن » الذى عقبه هذه النعم أو كل اسم له فإنه لا يبدأ به شىء إلا صار ذا بركة ﴿ ذِى الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ بالجر للجمهور والرفع لابن عامر صفة للاسم وفيه مبالغة حسنة وقيل لفظ اسم مقحم ، والله أعلم .

[تم تفسير سورة الرحمن]

سورة الواقعة

مكية أو إلا أفبهذا الحديث الآية وثلة من الأولين وهى ست أو سبع أو تسع وتسعون آية
من داوم على قراءتها لم يفتقر كما فى الحديث

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ • إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ) القيامة أو نفختها سميت واقعة لتحقق وقوعها وانتصاب إذا بمحذوف أى كان كيت وكيت أو بقوله (لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا) أى وقت وقوعها (كَاذِبَةٌ) نفس تكذب فى نفيها كما تكذب الآن واللام للوقت مثلها فى قدمت لحياتى أو ليس لها حينئذ نفس تحدث صاحبها بإطاقة شدتها واحتمالها من قولهم كذبت فلان نفسه فى الخطب العظيم إذ سولت له أن يطيقه أو مصدر كالعافية (خَافِضَةٌ) لأقوام (رَافِعَةٌ) لآخرين لقوم ويل ولقوم نيل تقرير لعظمتها فإن الوقائع العظام كذلك أو بيان لإزالة الأجرام حينئذ عن مقارها بنثر الكواكب وتسيير الجبال فى الجو (إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا) حركت حركة شديدة بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل والظرف متعلق بخافضة أو بدل من إذا وقعت (وَبُسَّتِ الْجِبَالُ) فتت (بَسًّا) من بس السويق أو سيرت من بس الغنم إذا ساقها وفى الحديث إذا فتحت العراق يأتى قوم يبسون بأهليهم (فَكَانَتْ هَبَاءً) غبارا (مُنْبَثًّا) منتشرا والهباء ما يتطاير من الأجزاء الدقيقة ولا يكاد يرى إلا فى الشمس إذا دخلت من كوة ، قاله ابن عباس (وَكُنْتُمْ) فى القيامة (أَزْوَاجًا) أصنافا (ثَلَاثَةً) وكل صنف يكون أو يذكر مع صنف آخر زوج قال قتادة هذه منازل الناس يوم القيامة (فَأَصْحَابُ) الجهة (الْمَيْمَنَةِ) أى اليمين وهم الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم أو يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة أى يمين العرش مبتدأ خبره (مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ) تعظيم لشأنهم أى هل تدرى ما صفتهم وما هم فيه وأقام الظاهر مقام المضمر لما فيه من الفخامة (وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ) أى الشمال بأن يؤتى كل منهم كتابه بشماله أو يؤخذ بهم ذات الشمال (مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ) تحقير لشأنهم أو المراد أصحاب المنزلة السنية وأصحاب الدنية من اليمن أى البركة والشؤم ضده ومعنى الاستفهام التعجيب من حال الفريقين (وَالسَّابِقُونَ) إلى الخير من الإيمان وجميع الفضائل والكمالات مبتدأ والخبر (السَّابِقُونَ) أى هم هم فى رفعة الشأن كقوله • أنا أبو النجم وشعرى شعرى • أو السابقون إلى الجنات وهم الأنبياء وسابقو أممهم ، قال فى غاية الأمانى وتخصيصهم بالأنبياء مما لا وجه له انتهى ، ويحتمل

أن يكون الثانى تأكيدا لتعظيم شأنهم والخبر ﴿ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ أى الموصوفون بالسبق هم الذين قربت درجاتهم من الله ﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ والقربة أعلى منازل البشر فى الآخرة . هم ﴿ ثُلَّةٌ ﴾ جماعة كثيرة من الثل وهو الصب وهو خبر محذوف كما قدرناه ﴿ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴾ الأمم السالفة من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ أمة محمد وهم سابقوها ولا ينافى كونها أكثر أهل الجنة لأن الكلام فى السابقين فالسابقون من أولئك أكثر من سابقى هذه الأمة ، قال فى غاية الامانى : روى هذا عن الحسن وهو قول لا سند له بل السابقون واللاحقون من هذه الأمة والاولون هم أوائل هذه الأمة الذين أشار إليهم النبى بأنهم خير القرون السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار اهـ. وروى عن عائشة أن الفرقتين فى أمة كل نبى . والله أعلم بما أراد ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ ﴾ خبر آخر للضمير المحذوف ﴿ مَوْضُونَةٍ ﴾ منسوجة بقضبان الذهب والجواهر داخلا بعضها فى بعض كحلق الدرع من الوضن وهو نسج الدرع ومنه الوضين حزام الناقة ، أو متدانية أدنى بعضها من بعض ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴾ حالان من الضمير فى « على سرر » ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ للخدمة ﴿ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴾ على شكل الأولاد لا يهرمون قيل هم أولاد الكفار أو أولاد المسلمين الذين ماتوا من غير عمل ﴿ بِأَكْوَابٍ ﴾ متعلق يطوف جمع كوب إناء لا عروة له ولا خرطوم ﴿ وَأَبَارِيقَ ﴾ لها عرى وخراطيم ﴿ وَكَأْسٍ ﴾ إناء شرب الخمر وهى فيها ﴿ مِنْ مَعِينٍ ﴾ من عين جارية من منبع لا ينقطع أبدا ليست كخمر الدنيا التى توخت فى الدن ﴿ لَا يُصَدَّعُونَ ﴾ لا يحصل لهم صداع ﴿ عَنْهَا ﴾ بشربها ﴿ وَلَا يُنْزَفُونَ ﴾ بفتح الزاى مبنيا للمفعول للجمهور وبكسرها للفاعل من أنزف للكوفيين لا يسكرون ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ يختارون ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ يستلذون به ﴿ وَ ﴾ لهم للاستمتاع ﴿ حُورٌ ﴾ بيض وهو بالرفع للجمهور مبتدأ محذوف الخبر كما قدرناه أو عطف على ولدان ، وبالجر لحمزة والكسائى عطف على جنات أى فى جنات النعيم ومباشرة حور ﴿ عِينٌ ﴾ نجل العيون أى شديدات سوادها وبياضها مع سعة وهى جمع عيناء كحمراء وحمر كسرت عينه بدل ضمها لمجانسة الياء ﴿ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ المصون فى الصدف فى الصفاء والطراوة أو المخزون لشرفه وبهائه ﴿ جَزَاءً ﴾ مفعول له أى جعلنا لهم ذلك الجزاء أو مصدر أى جزيناهم به جزاء ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى إن هذه الرتب والنعم لهم بحسب أعمالهم لأنه روى أن المنازل فى الجنة على قدر الأعمال ونفس دخول الجنة بفضل الله ورحمته كما فى الصحيح ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا ﴾ أى فى الجنة ﴿ لَغْوًا ﴾ باطلا أو فاحشا من الكلام ﴿ وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ ما يؤثم لو كان فى الدنيا أو لا يقال لهم : أثمتم ﴿ إِلَّا ﴾ لكن ﴿ قِيلًا ﴾ قولا ﴿ سَلَامًا سَلَامًا ﴾ بدل من « قيلا » فإنهم يسمعونه ، والتكرير للدلالة على فشو السلام بينهم أى سلاما إثر سلام « تحيتهم فيها سلام » ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ أى لهم شأن وأى شأن ثم شرع يفصله بقوله ﴿ فِي سِدْرٍ ﴾ شجر النبق ﴿ مَخْضُودٍ ﴾ لاشوك فيه كأنه خضد ، أى :

قطع أو مثنى أغصانه من كثرة حمله من خضد الغصن ثناه وأماله ﴿ وَطَلْحٍ ﴾ شجر الموز أو أم غيلان وله أنوار كثيرة طيبة الرائحة ﴿ مَنضُودٍ ﴾ نضد بالثمر من أسفله إلى أعلاه وإنما خصا بالذكر لكثرتهما فى أرض العرب ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ منبسط لا يتقلص ولا يتفاوت ولا فرج فيه كما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس ﴿ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ لهم على الدوام أين شاءوا وكيف شاءوا أو مصبوب سائل ولما شبه حال السابقين فى التنعم بأعلى ما يتصور لأهل المدن ، شبه حال أصحاب اليمين بأكمل ما يتمناه أهل البوادى إشعاراً بالتفاوت بين الحالين بقوله ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾ أنواعها ﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ ﴾ فى وقت كفاكهة الدنيا ﴿ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ لمتناولها بوجه ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ على السرر ارتفاعها كما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام أو كناية عن الحور المرتفعة على الأرائك ويدل عليه قوله ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴾ جديداً وهن الحور أو نساء الدنيا ، والضمير للفرش إن كانت كناية عن النساء أو لما دل عليه ذكر الفرش وإن لم يسبق له ذكر ، وعن أم سلمة : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله « إنا أنشأناهن » فقال : «هن اللاتى كن فى الدنيا شمطاً رمصاً عجائز» ﴿ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴾ عذارى كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن عذارى ولا وجع ﴿ عُرُبًا ﴾ بضم الراء للجمهور وسكونها لحمزة وأبى بكر جمع عروب وهى المتحببة إلى زوجها عشقاً له وهى الغنجة عند أهل المدينة والشكلة عند أهل العراق . قاله البخارى ﴿ أَتْرَابًا ﴾ جمع ترب : مستويات فى السن والقد والشكل هن والأزواج فى طول آدم ستين ذراعا فى عرض سبعة أذرع ﴿ لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ صلة : أنشأناهن أو جعلناهن ﴿ ثُلَّةٌ ﴾ خبر محذوف أى هم جماعة كثيرة ﴿ مِّنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ وفيه الوجوه المتقدمة ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾ فى سوء الحال ﴿ فِي سَمُومٍ ﴾ نار تنفذ فى المسام ﴿ وَحَمِيمٍ ﴾ ماء متناه فى شدة الحرارة ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ دخان شديد السواد يفعول من الحمة وهى السواد ﴿ لَّا بَارِدٍ ﴾ كغيره من الظلال ﴿ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ حسن المنظر : أثبت لهم الظل ثم نفى برده وروحه تهكما وتعريضاً بأن ذلك إنما يستحقه أضدادهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ ﴾ فى الدنيا ﴿ مُتْرَفِينَ ﴾ منعمين منهمكين فى الشهوات أذهبوا طيباتهم فى الحياة الدنيا ﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ ﴾ الذنب ﴿ الْعَظِيمِ ﴾ الكفر بالله ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ منكرين ذلك مكذبين للرسل نافين لقدرة المقتدر فيه وكررت الهمزة فى قراءة غير نافع والكسائى للدلالة على إنكار البعث مطلقا وخصوصاً فى هذه الحالة ﴿ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾ بفتح الواو للعطف على المستكن فى «لمبعوثون» حسنه الفصل بهمزة الاستفهام للجمهور وهو فى ذلك وفى ما قبله للاستبعاد ، وبسكون الواو لابن عامر وقالون عطفاً بأو على محل اسم إن والعامل فى الظرف ما دل عليه مبعوثون لا هو للفصل بإن والهمزة ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ ﴾ لوقت ﴿ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ والميقات ما يوقت به الشىء أى يحد ومنه ميقات الإحرام أى إلى ما وقتت به الدنيا وحدت من يوم معين عند الله معلوم له وهو يوم القيامة

والإضافة بمعنى من ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴾ بالبعث قدم الضلال لأنه منشأ التكذيب ﴿ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ﴾ من الاولى لابتداء الغاية والثانية لبيان الشجر ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا ﴾ من الشجر ﴿ الْبُطُونَ ﴾ لشدة الجوع ﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ ﴾ الزقوم المأكول ﴿ مِنَ الْحَمِيمِ ﴾ لشدة العطش ﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾ الإبل العطاش التى لا تروى لداء يقال له الهيام بالضم جمع هيمان للذكر وهيمى للأنثى كعطشان وعطشى وقيل الرمال جمع هيام بالفتح وهو الرمل الذى لا يروى من الماء جمع على هيم كسحب ثم خفف وفعل به ما فعل بجمع أبيض وكل من المعطوف والمعطوف عليه أخص من الآخر من وجه فلا اتحاد ، وشرب الهيم لدفع العطش غريب كما أن شربهم شرب الهيم عجيب وهو بضم الشين لنافع وعاصم وحمزة وفتحها للباقين ﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ ﴾ ما أعد لهم ضيافة ﴿ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ فما بعد النزل أطم وفى تسميته نزلا تهكم بهم لأنه ما يعد للنازل كرامة له ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ ﴾ أوجدناكم من عدم لا تشكون فى ذلك ﴿ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ بالإعادة فإنها أهون من الابتداء ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ تلقون فى الأرحام من النطف ﴿ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ ﴾ بشرا سويا ﴿ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ أى هب أنكم لا تعلمون خلق أنفسكم ألستم تشاهدون ما يولد منكم ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف لابن كثير ﴿ بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ ﴾ قضينا بذلك وقسمناه عليكم كل بوقت معين ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ مغلوبين عاجزين يقال سبقته على كذا غلبته عليه ومنه قول الفقهاء سبق حدث أى لا يسبقنا أحد إن هرب من الموت ﴿ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ ﴾ مكانكم ﴿ أَمْثَالَكُمْ ﴾ أشباهكم أو نغير صفاتكم وعلى صلة لمسبوقين على تفسيره الاول وحال أو علة لقدرنا على الثانى وعلى بمعنى اللام وما نحن بمسبوقين اعتراض ﴿ وَنُنْشِئَكُمْ ﴾ نخلقكم ﴿ فِي مَا ﴾ أى خلق أو وصف ﴿ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ما هو وما عهدتم مثله ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ ﴾ بسكون الشين والقصر للجمهور وفتحها والمد لابن كثير وأبى عمرو كما قدمنا فى العنكبوت ﴿ الْأُولَىٰ ﴾ خلق أبيكم آدم من التراب أو خلقكم ولم تكونوا شيئا ﴿ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أن من قدر عليها قدر على النشأة الاخرى وهى الإعادة فإن هذا فى غاية الظهور لا يحتاج إلى ترتيب مقدمات وفيه دليل على صحة القياس لأنه سبحانه علمهم الاستدلال بالنشأة الأولى على الأخرى ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ تبذرون حبه بعد شق الأرض ﴿ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ﴾ تنبتونه وتوصلونه إلى الكمال ﴿ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ المنبتون ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾ هشيما يابسا لا حب فيه ﴿ فَظَلْتُمْ ﴾ أصله ظللتم بكسر اللام حذفت تخفيفا أى أقمتم نهارا ﴿ تَفَكَّهُونَ ﴾ بحذف إحدى التاءين تعجبون من ذلك أو تندمون على تعبكم فيه وتقولون ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ مهلكون لهلاك رزقنا أو ملزمون غرامة ما أنفقنا فيه وقرأ أبو بكر بالاستفهام تعجبا ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ ممنوعون رزقنا بعد قربه منا والمحروم ضد المرزوق ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾ عذبا فراتا ﴿ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ ﴾ السحاب الأبيض إذ ماؤه أعذب ﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴾ بقدرتنا ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ﴾

مُرًّا يحرق الفم زعاقا لا يساغ ﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ بالامتثال هذه النعم الجليلة الضرورية وإنما حذف اللام لتقدمها قريبا مع اشتهار لو بها ولأن المشروب تبع للمأكول ليدل على أن فقده أهم والاهتمام به أتم ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ تقدحون بالزند والزندة من الشجر الأخضر ﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا ﴾ التي منها الزناد كالمرخ والعفار ﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴾ قال في الجواهر والزناد يكون من حجر وحديدة ومن شجر لا سيما في بلاد العرب ولكون عادتهم في أزنادهم من الشجر قال تعالى أأنتم أنشأتم شجرتها انتهى ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا ﴾ أي نارُ الزِّناد ﴿ تَذْكِرَةً ﴾ لنار جهنم أو على قدرتنا على البعث كما في سورة يسٓ ﴿ وَمَتَاعًا ﴾ منفعة ﴿ لِّلْمُقْوِينَ ﴾ المسافرين النازلين في القواء بالمد والقصر وهي القفر الذي لا نبات فيه ولا ماء يقال أقوى القوم صاروا فيه وخصهم بالذكر لفرط احتياجهم إليها فيه أو الذين خلت بطونهم من الطعام من أقوى المكان خلا من ساكنيه فيعم المسافر والمقيم ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ نزهه عما لا يليق به بذكر اسمه العظيم شكرا لنعمه أو اذكره باسمه العظيم تعجبا ممن يرى هذه النعم ثم يكفر والباء للاستعانة أو الملابسة والعظيم صفة للاسم أو الرب ﴿ فَلَا أُقْسِمُ ﴾ لا مزيدة ﴿ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ بجمع المواقع للجمهور وإفرادها لحمزة والكسائي على إرادة الجنس أي بمساقطها لغروبها وخص المغارب لما في غروبها من زوال أثرها والدلالة على مؤثر لا يزول أو بمنازلها ومجاريها وقيل النجوم نجوم القرآن ومواقعها أوقات نزولها وقيل لا نافية لما يقوله الكفار مما يخالف المقسم عليه ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أي القسم بها ﴿ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ لما في المقسم به من الدلالة على كمال القدرة والرحمة ولو تعلمون اعتراض بين الموصوف والصفة في اعتراض بين القسم والمقسم عليه وهو ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ عند الله كثير النفع لعباده لاشتماله على العلوم في إصلاح المعاش والمعاد وهذه السورة صدرت بأمر المعاد ثم بأمر المعاش واستوفى فيها الأدلة فيه على وجه تحار فيه الألباب ولا يبقى معه الارتياب ﴿ فِي كِتَابٍ ﴾ مكتوب ﴿ مَّكْنُونٍ ﴾ مصون وهو اللوح أو المصحف أي صحفه التي كانت بأيدي المسلمين التي فيها ما يمليه النبي صلى الله عليه وسلم على كتبته ﴿ لَّا يَمَسُّهُ ﴾ أي اللوح أو القرآن ﴿ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ من الكدورات الملائكة أو من الأحداث فيكون النفي بمعنى النهي وهو ما رواه مالك وأبو داود ﴿ تَنزِيلٌ ﴾ منزل ﴿ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ مصدر نعت به مبالغة صفة أخرى للقرآن ﴿ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ ﴾ القرآن ﴿ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴾ متساهلون تهاونا من الدهن فإن المتداهن يلين جانبه ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ من المطر أي شكره ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ بمانعه وتنسبون المطر إلى الأنواء ﴿ فَلَوْلَا ﴾ أي فهلا ترجعون النفس إلى البدن ﴿ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴾ وقت النزع وهو مجرى الطعام ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ نظر المحتاج العاجز والخطاب لمن حول المحتضر والواو للحال ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ بالعلم ﴿ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ ذلك من البصيرة أي لا تعلمون كنه ما يجري عليه ﴿ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ مجزيين أو مملوكين مقهورين من دانه أذله

واستعده ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ أى النفس إلى مقرها وهو عامل الظرف والمحضض عليه بلولا الأولى والثانية تكرير للتوكيد وهى بما فى حيزها دليل جواب الشرط والمعنى إن كنتم غير مملوكين غير مجزيين يوم القيامة كما دل عليه جحدكم أفعال الله وتكذيبكم بآياته فهلا ترجعونها ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فى نفى الجزاء لينتفى بانتفاء الموت ، ثم استطرد بذكر الأزواج التى صدر بها السورة زيادة فى الترغيب والترهيب وليتجاوب طرفاها رداً للعجز على الصدر فقال ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ ﴾ الميت ﴿ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ ﴾ أى فله راحة ﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾ رزق حسن أو طيب ﴿ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ أى مقام كريم ، قدم الأهم فالأهم ، وهل الجواب لأمّا أو لإن أو لهما ؟ أقوال ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ الْيَمِينِ فَسَلَٰمٌ لَكَ ﴾ أى لأجلك يا محمد ، أو سلام لك يا صاحب اليمين ﴿ مِنْ أَصْحَٰبِ الْيَمِينِ ﴾ أى من إخوانك يسلمون عليك فـ « من » ابتدائية ، وقيل مسلم لأنك منهم وليس فى أمرهم إلا السلام والنجاة من العذاب . قال ابن عطية : الكاف فى « لك » للنبى صلى الله عليه وسلم على الأظهر ، أو لمن يخاطب من أصحاب اليمين ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴾ أى من أصحاب الشمال عبر عنهم بالوصف دلالة على أن ذلك الوصف أورثهم الشقاء زجراً عنه ﴿ فَنُزُلٌ ﴾ له ﴿ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ بعض ذلك ما يجده فى القبر من سموم النار ، وفى ذكر النزل تهكم ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ الذى ذكر فى السورة أو فى شأن الأزواج ﴿ لَهُوَ حَقُّ ﴾ الخبر ﴿ الْيَقِينِ ﴾ لا يقين فوقه ، أو من إضافة الصفة إلى الموصوف ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ تقدم مثله .

[تم تفسير سورة الواقعة]

سورة الحديد

مدنية على الأشهر ، وقيل مكية ، تسع وعشرون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ • سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى نزهه كل شىء ، وعدى باللام ليشعر إيقاع الفعل لله خالصا لوجهه ، وجىء بلفظ الماضى فى مواضع والمضارع فى أخرى دلالة على أن شأن من أسند إليه الفعل الاستمرار به فى جميع الأزمان ، ولم يُعَد الجاز لكون هذه السورة أطول ماصدرت بالتسبيح وجىء « ما » تغليبا للأكثر ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ المتقن فى صنعه فهو حقيق بالتسبيح ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ إيجاداً وتصرفاً ﴿ يُحْيِي ﴾ بالإنشاء ﴿ وَيُمِيتُ ﴾ بعده ، استئناف مقرر لما تقدم ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من الإحياء والإماتة وغيرهما ﴿ قَدِيرٌ ﴾ كامل القدرة ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ ﴾ قبل كل شىء بلا بداية ﴿ وَالْآخِرُ ﴾ الباقى بعد فناء كل شىء ، أو الأول الذى تبتدئ منه الأسباب والآخر الذى تنتهى إليه المسببات ، أو الأول بالأزلية والآخر بالأبدية ، قاله الوراق ، وهو بمعنى الأول ﴿ وَالظَّاهِرُ ﴾ وجوده بالأدلة ﴿ وَالْبَاطِنُ ﴾ كنه ذاته لا يحيط به شىء علماً . وتفسير البطون بعدم إدراك الحواس قصور ، بل بطونه عدم إدراك كنهه أزلا وأبداً حسا وعقلا ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً ـ قاله فى غاية الأمانى ، والواو الأولى والأخيرة للجمع بين الوصفين من عطف المفرد على المفرد ، والوسطى للجمع بين المجموعين من عطف المركب على المركب . ولما أوهم بطونه على الأشياء بطونها عنه كما فى الشاهد رفعه بقوله ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ يستوى عنده الظاهر والباطن ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ لتدبير الكائنات : تمثيل ، وقد تقدم أمثاله ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ ﴾ يدخل ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ كالمياه والبذور والأموات ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ كالنبات والمعادن ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ كالأمطار والأقدار والأحكام ﴿ وَمَا يَعْرُجُ ﴾ يصعد ﴿ فِيهَا ﴾ كالملائكة والأرواح والأعمال ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ بعلمه ﴿ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ لاينفك عنكم علمه وقدرته بحال ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ شاهد لايخفى عليه شىء من الإخلاص والرياء وغيرهما فيجازيكم عليه ، ولعل تقديم الخلق على العلم لأنه دليل عليه ، وإعادة الجلالة دلالة على أن ذلك من لوازم الألوهية ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أعاده ليقرن به أمر المعاد كما قرن به المبدأ لأنه كالمقدمة لهما ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ فيجازى كلا على حسبه ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ بمكنوناتها من الأسرار والمعتقدات

(ءامِنُوا) داوموا على الإيمان (بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) إذ لم يبق لكم شبهة (وَأَنفِقُوا) فى سبيل الله (مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ) فى التصرف (فِيهِ) من مال من تقدمكم فهو له لا لكم وأنتم بمنزلة الوكلاء والخزان ولا أخس من شح بمال الغير وسيخلفكم فيه من بعدكم ، وفيه حث على الإنفاق وتهوين له على النفس ، نزل فى غزوة العسرة : غزوة تبوك (فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا) كعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف (لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ) لا يحاط به ترغيب ووعد فيه مبالغات جعل الجملة اسمية مع كونها موصولة وإعادة الإيمان والإنفاق وتنكير الأجر والوصف بالكبر وبناء الحكم على الضمير (وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) خطاب لمن لم يؤمن ومن آمن ولم ينفق أى ماتصنعون غير مؤمنين أى أىّ عذر لكم فى ترك الإيمان (وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ) له بالحجج والآيات (لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ) الواو واو الحال من ضمير « لا تؤمنون » وهو أيضا حال من ضمير تصنعون المقدر وهما حالان متداخلان (وَقَدْ أَخَذَ) بالبناء للفاعل للجمهور ، والمفعول لأبى عمرو (مِيثَاقَكُمْ) عليه فى عالم الذر أو بنصب الأدلة والتمكين من النظر والواو للحال من مفعول « يدعوكم » (إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) لموجب فهذا موجب لامزيد عليه أو إن دمتم على إيمانكم (هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ) آيات القرآن (لِيُخْرِجَكُم) أى الله أو عبده الرسول والأول أولى (مِّنَ الظُّلُمَاتِ) الكفر (إِلَى النُّورِ) للإيمان (وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ) حيث بين لكم وأوضح (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) فيما يكون قربة إليه من الجهاد والصدقة على المحاويج (وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) يرث كل شىء فيهما فيصل إليه أموالكم من غير أجر الإنفاق فأى فائدة فى الإمساك هلا يقدم العاقل ماله بين يديه ويشترى بالفانى الباقى ! وعنه صلى الله عليه وسلم « يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أولبست فأبليت أوتصدقت به فأبقيت » اهـ . ثم أشار إلى تفاوت المنفقين باختلاف الأحوال فى السبق واليقين وتحرى الحاجات بقوله (لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ) لمكة (وَقَاتَلَ) حال الشدة وضعف الإسلام وقلة أهله ، ومن أنفق بعد الفتح الذى عز الإسلام به وكثر أهله وقلت الحاجة إلى المقاتلة والإنفاق ، ذكر القتال للاستطراد (أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ) بعد الفتح (وَقَاتَلُوا وَكُلًّا) من الفريقين بالنصب للجمهور مفعول لما بعده ، والرفع لابن عامر مبتدأ خبره (وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ) الجنة بحذف العائد على الرفع (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) عالم بباطنه كظاهره يعلم نية المنفق إخلاصاً ورياء ، قيل نزلت فى الصديق كان أول من آمن ثم أنفق ماله فى سبيل الله مراراً حتى تخلل يوما لذلك بعباءة فجاء جبريل فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى لأبى بكر : هل هو راضٍ عنى فى فقره وسلام عليه منى . قال ابن العربى فى الأحكام : قال مالك : ينبغى لهذه الآية تقديم أهل الفضل والقدم فى أحكام الدين والدنيا فلا يصل بالناس إلا أفضلهم ولا يلى أمرهم إلا أسبقهم لأن النبى صلى الله عليه وسلم أمر أن ينزل الناس منازلهم

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ ﴾ بإنفاقه مالا فى سبيل الله ﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ بالإخلاص وتحرى أكرم المال وأفضل الجهات له ﴿ فَيُضَاعِفَهُ ﴾ بالرفع للجمهور ، والنصب لعاصم على جواب الاستفهام معنى ، ولابن كثير « يضعفه » بالتشديد والرفع ولابن عامر بالنصب ﴿ لَهُ ﴾ أى يعطيه أجره أضعافاً لا يعلمها غيره ﴿ وَلَهُ ﴾ مع المضاعفة ﴿ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ شريف مقترن به رضى وإقبال بخلاف سائر الأجور ﴿ يَوْمَ ﴾ ظرف لقوله « وله » أو « فيضاعفه » أو لاذكر ﴿ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ ﴾ يسرع ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أمامهم ﴿ وَ ﴾ يكون ﴿ بِأَيْمَانِهِمْ ﴾ أى والشمائل لكن غلب الأيمان ، والنور عند الجمهور على حقيقته وفى ذلك آثار وهو على قدر سيرهم فمنهم من سيره كالبرق ومنهم كالريح ومنهم كأجاويد الخيل وأسرع الرجال والزاحف والمكب على وجهه وكذا أنوارهم منهم من نوره يضىء كما بين مكة وصنعاء وكالنخلة السحوق ومن لايجاوز نوره قدميه ومنهم بالانطفاء مرة ويبين أخرى على قدر أعمالهم ، وقيل معنى النور مايوجب نجاتهم وهدايتهم إلى الجنة وتخصيص الجهتين لأنهم يؤتون صحائف أعمالهم منهما والله أعلم ويقول لهم من يتلقاهم من الملائكة ﴿ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ ﴾ دخولها ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ﴾ النور والبشرى ﴿ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ • يَوْمَ ﴾ بدل من يوم ترى ﴿ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا ﴾ بهمز الوصل للجمهور ، أى أبصرونا لأنهم إن نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بنور بين أيديهم ، وبهمز قطع لحمزة أى أمهلونا وهذا يكون بعد القضاء بين العباد وأخذ الكفار الخاص إلى النار وبالمؤمنين إلى الجنة ويتبعهم المنافقون يمشون أنفسهم منهم ويعطون نوراً لخداعهم فاذا توسطوا الصراط انطفأ نورهم فينادون المؤمنين : انظرونا ﴿ نَقْتَبِسْ ﴾ أى نأخذ قبساً أى شعلة ﴿ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ كما يفعله الأصحاب فى الدنيا إذا انطفأ مصباح أحدهم ﴿ قِيلَ ﴾ لهم من الملائكة أو المؤمنين استهزاء بهم ﴿ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ ﴾ إلى الدنيا ﴿ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ آخر لأنها محل الأعمال التى صارت اليوم أنواراً أو إلى حيث شئتم لاسبيل لكم إلى هذا النور ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ ﴾ وبين المؤمنين ﴿ بِسُورٍ ﴾ هو الأعراف حائط الجنة ﴿ لَهُ بَابٌ ﴾ يدخل منه المؤمنون الجنة ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ لأنه يلى الجنة والضمير للباب أو للسور والجملة صفة لأحدهما ﴿ وَظَاهِرُهُ ﴾ من جهة المنافقين ﴿ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ النار وتغيير الأسلوب للدلالة على أن داخله كله نعيم بخلاف ظاهره لبعد النار عنه ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ﴾ على الدين فى الدنيا ﴿ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ كنتم معنا ظاهراً ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ بالنفاق باطنا والحب للعاجل ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ بالمؤمنين الدوائر وقلتم الإسلام يهب ساعة ثم يسكن ﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ شككتم فى دين الإسلام أو فى الساعة : إن نظن إلا ظنا ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ الكاذبة الأطماع فى طول العمر وخراب الدين وأن لو كان بعث سيغفر لكم ﴿ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ الموت أو الساعة أو أمره بدخول النار ﴿ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ الشيطان بوعده الكاذب أو الدنيا بزخرفها ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ ﴾ بالتحتية للجمهور والفوقية لابن عامر ﴿ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ ﴾ فداء أن لو كان لكم ما تفتدون به ﴿ وَلَا مِنَ

الذين كفروا ﴾ ظاهراً وباطناً ﴿ مأواكم ﴾ مقامكم ﴿ النار هي مولاكم ﴾ أولى بكم أو ناصركم : تهكم ﴿ وبئس المصير ﴾ هي ﴿ ألم يأن ﴾ يحن ﴿ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ لأجل ذكره أو وحيه أو تذكيره إياهم نزلت في شأن الصحابة كانوا مجدبين حين كانوا بمكة فلما هاجروا وأصابوا الرزق والنعمة فتروا عما كانوا عليه وأكثروا المزاح ﴿ وما نزل ﴾ بالتخفيف لنافع وحفص والتشديد للباقين ﴿ من الحق ﴾ القرآن عطف عام على خاص أو عطف باعتبار الصفة ، والخشوع : الإخبات والتطامن وهو هيئة تظهر في الجوارح متى كان الخشوع في القلب قال عليه السلام « أول ما يرفع من الناس الخشوع » ﴿ ولا يكونوا ﴾ عطف على تخشع ﴿ كالذين أوتوا الكتاب من قبل ﴾ هم اليهود والنصارى والمراد النهي عن مماثلتهم فيما حكى عنهم بقوله ﴿ فطال عليهم الأمد ﴾ الزمان بطول أعمارهم أو آمالهم أو ما بينهم وبين أنبيائهم ﴿ فقست قلوبهم ﴾ لم تلن لذكر الله لتراكم الذنوب وظلماتها فأحدثوا التحريف والبدع ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ خارجون بالكلية عن دينهم لفرط قسوة قلوبهم ، ثم خاطب المؤمنين المذكورين بأن لا يستبعدوا رجوع قلوبهم إلى الخشوع إن تابوا بقوله ﴿ اعلموا أن الله يحيي الأرض ﴾ بالنبات ﴿ بعد موتها ﴾ فكذلك يحيي القلوب القاسية بالذكر والتلاوة تمثيل لحال القلوب النابية عن الخشوع ثم تأثرها من ذكر الله والقرآن بحال أرض غلب عليها اليبس ثم أصابها الغيث فاخضرت ، وفيه ترغيب في الخشوع وزجر عن القسوة ﴿ قد بينا لكم الآيات ﴾ الدالة على قدرتنا بهذا وغيره ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ وفي تصدير الكلام باعلموا وختمه بلعلكم تعقلون نوع عتاب لا يخفى ﴿ إن المصدقين والمصدقات ﴾ بالتشديد للجمهور من التصدق والتخفيف لابن كثير وأبي بكر من التصديق أدغمت التاء في الصاد في قراءة الجمهور أي الذين تصدقوا واللاتي تصدقن ﴿ وأقرضوا الله ﴾ راجع إلى الذكور والإناث بالتغليب ، وعطف الفعل على الاسم في صلة « ال » لأنه فيها حل محل الفعل وذكر القرض بوصفه بعد التصدق تقييد له وهو ﴿ قرضاً حسناً ﴾ بالإخلاص وكونه من مالهم الطيب ﴿ يضاعف ﴾ بالمد وتخفيف العين للجمهور ، وبالقصر والتشديد لابن كثير وابن عامر أي قرضهم ﴿ لهم ولهم أجر كريم ﴾ تقدم معناه آنفاً ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون ﴾ البالغون في التصديق أو بمنزلة الصديقين ﴿ والشهداء عند ربهم ﴾ على الأمم يوم القيامة أو بمنزلة الشهداء في سبيل الله ﴿ لهم أجرهم ونورهم ﴾ الموعودان لهم على الأول ، أو مثل أجر أولئك ونورهم لكنه من غير اعتبار التضعيف ليحصل التفاوت إذ هو فضل الله يؤتيه من يشاء كيف شاء . ويجوز أن يكون « والشهداء » مبتدأ و « لهم أجرهم » خبره وليس بقوي ، قاله في غاية الأماني ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾ الذين لا يفارقونها ، فيه دليل على أن الخلود في النار مخصوص بهم لإفادة الكلام الحصر . ثم بين صفة منزلة الدنيا بقوله ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ﴾ يتعب الناس إتعاب الصبيان في اللعب بلا فائدة

﴿ وَلَهْوٌ ﴾ يلهيهم عما يهمّ ، واللعب ما يجلب السرور ، واللهو ما يدفع الهمّ ﴿ وَزِينَةٌ ﴾ بالأموال والبنين كالملابس الحسنة والمراكب البهية والمنازل الرفيعة ﴿ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ ﴾ بالأنساب : أنا ابن فلان ﴿ وَتَكَاثُرٌ ﴾ بالعدد ﴿ فِي الْأَمْوَالِ ﴾ : أنا لى كذا مالا وأنت لا تملك ما أملك ﴿ وَالْأَوْلَادِ ﴾ بالعدد : لى كذا ولداً : أى ما الحياة الدنيا المذمومة إلا الاشتغال بها ، وأما الطاعات وما يعين عليها فمن أمور الآخرة ، ثم مثل الدنيا فى سرعة الزوال بعد الكمال بالنبات فقال مثلُها ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ مطر ﴿ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ ﴾ الزرّاع ﴿ نَبَاتُهُ ﴾ الناشئ عنه ، أو الكفار بالله لأنهم أشد إعجاباً بزينة الدنيا لقصور نظرهم فيها ، والمؤمن إذا رآه علم أن ما عند الله هو الباقى وأن هذا عن قريب زائل ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ ييبس بعد نضارة ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾ فتاتا يضمحلّ بالرياح ، وكذا الإنسان يشبّ فى النعمة يغشاه الناس ثم يشيب ويضعف ويسقم وتصيبه النوائب فى ماله وولده ثم يموت ويضمحل أمره وتصير أمواله لغيره .

ثم عظم أمور الآخرة فقال ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ لمن شغلته الدنيا عن الآخرة وفيه تنفير عن الانهماك فيها ، وحثٌّ على مايوجب كرامة فى الآخرة ، ثم أكد ذلك بقوله ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ لمن آثر الآخرة عليها وذكر العذاب أولا تهيها به دلالة على أن ما ينبغى للإنسان أولا الحذر ثم الطمع فى المغفرة والرضوان ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ ما التمتع فيها ﴿ إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ إلا شىء يسير قليل النفع يُغترّ به . قال عليه السلام « لكل أمّة فتنة وفتنة أمتى المال » ﴿ سَابِقُوا ﴾ سارعوا مسارعة المسابقين فى المضمار ﴿ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ إلى موجباتها ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ لو وُصلت إحداهما بالأخرى ، والعرض السعة : ذكر لأنه أقصر من الطول وإذا كان كذلك فما ظنك بالطول ، والمراد جنس السماء لقوله عرضها السموات والأرض وهو أبلغ لحذف أداة التشبيه والتصريح بما يدل على العدد خُصّ به لأنه المتأخر فى النزول ، فلو عُكس لم يبق فائدة فى ذكره والله أعلم ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ فلا يبعد منه التفضل بذلك وإن عظم قدره ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ بالجدب والعاهة والزلازل ﴿ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ كالمرض والآفة والموتان وفقدان الولدان ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ إلا مكتوبة فى اللوح مثبتة فى علم الله ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ نخلقها ، والضمير للأرض أو للمصيبة أو للأنفس ، والأول أوجه لما روى مسلم « إن الله كتب مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف عام وكان عرشه على الماء » ولفظ المصيبة يتناول الخير ، لكن خصه العرف بالشرّ ، ويقال فى النعمة كذلك ﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ أى إثباته فى كتاب ﴿ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ لاستغنائه عن العدة والمدة ، ثم أشار إلى الحكمة فى ذلك بقوله ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا ﴾ تحزنوا حزنا يمنع التسليم لأمر الله ﴿ عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ من نعم الدنيا فإن من علم أن ما أصابه من الضرّ كان مقدراً عليه لم يشتد حزنه إذ قد وطّن نفسه على ذلك ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا ﴾ فرحَ بطر بل فرح شكر على النعمة ﴿ بِمَا

ءاتـٰكُمْ ﴾ بالمد للجمهور : أعطاكم ، والقصر لأبي عمرو : جاءكم منه ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ ﴾ متكبر بما أوتي ﴿ فَخُورٍ ﴾ به على الناس ، واكتفى بأحد الشقين لدلالته على الآخر ، وآثر الثاني لأنه أشد نكراً. وعن ابن عباس : من أصابته مصيبة فليجعلها صبراً ، ومن أصابه خيرٌ فليجعله شكراً . وفي صحيح مسلم : قال عليه السلام « ما يصيب المسلم من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن حتى الهمّ يهمه إلا كفّر به من سيئاته ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ بما يجب عليهم بدل من كل مختال لأنه يضنّ بالمال غالبا ﴿ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ به دلالة على عزّ المال عندهم وأن حبه بلغ بهم حداً يشحون بمال الغير وهو أوفى في الدلالة على البخل من الأول . وقرأ حمزة والكسائي بفتح الباء والخاء . ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ يعرض عن الإنفاق ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ عنه وعن إنفاقه بحذف ضمير الفصل لنافع وابن عامر وإثباته للباقين ﴿ الْحَمِيدُ ﴾ في ذاته لا يضرّه الإعراض تهديد وإشعار بأن الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفق ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا ﴾ الملائكة إلى الأنبياء ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بالحجج القواطع ﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ يعني الكتب ليبين الحق ويميز صواب العمل ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ لتسوّى به الحقوق فيحصل العدل وأول من أنزل عليه نوح عليه السلام ، أو المراد قانون الشرع الذي يشمل الميزان وكل ما يُعرف به الإنصاف من أمور المعاش والمعاد ولذا علّله بقوله ﴿ لِيَقُومَ النَّاسُ ﴾ في التعامل ﴿ بِالْقِسْطِ ﴾ بالعدل ، ويجوز أن يراد بالميزان : العدل لتقام به السياسة ويدفع به الأعداء ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ ﴾ على آدم عليه السلام أو خلقناه في المعادن ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ يقاتل به من عَنَدَ عن العدل ، وفيه إشارة إلى أن أمر الشرع لا يستقيم بدون السيف والسنان لأن الظلم من شيم النفوس :

الظُّلْمُ تَحتَ جَنَاحِ النَّاسِ كُلِّهِم فَالعِزُّ يُظهِرُهُ وَالذُّلُّ يُخفِيهِ

قال عليه السلام « جعل رزقي تحت ظل رمحي » ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ إذ ما من صنعة إلا والحديد آلتها ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ بنصر دينه بآلات الحرب من الحديد وغيره عطف على « ليقوم الناس » أو على محذوف دلّ عليه السياق أي لينفعهم وليعلم الله ، وفي الحذف إشارة إلى أن الثاني هو المطلوب بالذات ﴿ وَرُسُلَهُ ﴾ باتباعهم في ذلك ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ حال من المستكن في ينصره أي غائبا عنه ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ ﴾ على إهلاك من أراد ﴿ عَزِيزٌ ﴾ غالب لا حاجة له إلى النصرة لكنها تنفع من يأتي بها ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ يعني الكتب الأربعة التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، فإنها في ذرّية إبراهيم ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ من الذرّية أو من المرسل إليهم دلّ عليه « أرسلنا » ﴿ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ خارجون عن الطاعة غيّر الأسلوب للدلالة على أن الغلبة لأهل الضلالة ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ ءَاثَارِهِمْ ﴾ والضمير لنوح وإبراهيم ومن أرسلا إليه ﴿ بِرُسُلِنَا ﴾ رسولا بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى عليه السلام ﴿ وَقَفَّيْنَا ﴾ ثم ﴿ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ

اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ﴾ شدة خوف الله برفض النساء واتخاذ الصوامع والمبالغة فى العبادة والرياضة والانقطاع عن الناس ولا يحمد فى شرعنا إلا عند فساد الزمان ﴿ ابتدعوها ﴾ من قبل أنفسهم ﴿ ما كتبناها عليهم ﴾ ما فرضناها أو ما أمرناهم بها ﴿ إلا ﴾ لكن فعلوها ﴿ ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ﴾ إذ تركها كثير منهم وكفروا بدين عيسى ودخلوا فى دين ملكهم لأنهم بعد رفع عيسى افترقوا اثنتين وسبعين فرقة ثلاث فرق على الحق والباقون على الضلال فحاربهم الملوك وقاتلوهم فنصر الله المؤمنين ثم بعد ذلك غيروا وعجزوا عما تحملوا ورجعوا إلى ملوكهم وبقى على دين عيسى بعضهم فآمنوا بنبينا ، وفى الآية إشارة إلى أن الإفراط والتعمق فى العبادة فوق ما سنه الله ورسوله مذموم ، وقد روى البخارى عنه صلى الله عليه وسلم « إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ؛ فإن بنى إسرائيل شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم فى الصوامع » ﴿ فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ﴾ حين وفوا بما نذروا ومن ذلك الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ خارجون عن حال الأتباع ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ بالرسل المتقدمة ﴿ اتقوا الله ﴾ فى أوامره ونواهيه ﴿ وآمنوا برسوله ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يؤتكم كفلين ﴾نصيبين ﴿ من رحمته ﴾ لإيمانكم بمحمد بعد الإيمان بمن قبله قال عليه السلام : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل آمن بنبيه وآمن بمحمد ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل له أمة فأدبها ثم أعتقها فتزوجها ﴿ ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ على الصراط أو هو الهدى ينفذكم به من ظلمات الجهل ﴿ ويغفر لكم ﴾ ما سلف ﴿ والله غفور رحيم • لئلا يعلم ﴾ لا زائدة أى أعلمكم بذلك ليعلم ﴿ أهل الكتاب ﴾ الذين لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ أن ﴾ مخففة أى أن الشأن ﴿ لا يقدرون على شىء من فضل الله ﴾ خلاف ما فى زعمهم أنهم أحباء الله وأهل رضوانه ﴿ وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ﴾ فآتى المؤمنين منهم أجرهم مرتين ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ وجعل لا غير مزيدة على معنى لئلا يعتقد أهل الكتاب أن النبى والمؤمنين لا يقدرون على شىء من فضل الله ولا ينالونه فيكون « أن الفضل » عطفا على « لئلا يعلم » لايخفى بعده . والله أعلم ؟

[تم تفسير سورة الحديد]

سورة المجادلة

مدنية ـ ثنتان وعشرون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ ﴾ تراجعك أيها النبي وهي خولة بنت ثعلبة ﴿ فِي زَوْجِهَا ﴾ المظاهر منها وهو أوس بن الصامت وكان ولاج الخوالف وبه حدة فدعاها إلى الفراش فأبت فظاهر منها واستفتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال حرمت عليه على ماهو المعهود عندهم من أن الظهار موجب فرقة مؤبدة ﴿ وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ بقولها : « اللهم إليك أشكو حالي وانفرادي وفقري اللهم إن لي منه صبية إن ضممتهم إليه ضاعوا أو إليّ جاعوا » ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ تراجعكما في الكلام ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ للأقوال ﴿ بَصِيرٌ ﴾ عالم بالأحوال ثم أشار إلى ذم الظهار بقوله ﴿ الَّذِينَ يَظَّاهَرُونَ﴾ أصله يتظاهرون أدغمت التاء في الظاء وتقدمت القراءات في سورة الأحزاب ﴿مِنكُم﴾ دخل العبد وخرج الذميّ ، وفيه توبيخ وعلم أنه ليس على النساء ظهار ﴿مِّن نِّسَائِهِم﴾ دخل فيهن أمة يصح وطؤها عند المالكية خلافا لغيرهم وهو أن يقول الرجل لزوجته أنت عليّ كظهر أمي أو كرأسها أو بجسدها وسائر المحارم كالأمّ وإن قال كأمي نُوِي في الطلاق والظهار فإن لم تكن له نية كان ظهاراً عند المالكية وعند غيرهم لم يكن شيئا فإن شبهها بأجنبية فإن ذكر الظهر كان ظهاراً وإلا قيل ظهار وقيل طلاق عند المالكية وعند غيرهم لا يكون شيئاً . انظر الأحكام لابن العربي ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾ حقيقة ﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي ﴾ تقدمت قراءاته في الأحزاب ﴿ وَلَدْنَهُمْ ﴾ فلا تُشَبَّهُ بهن في الحرمة إلا من ألحقها الله بهن كالمرضعات وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ بالظهار ﴿ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ ﴾ إذ الشرع أنكره لكنه إذا وقع لزم ﴿ وَزُورًا ﴾ كذباً لأن الزوجة لا تشبه الأم ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ لما سلف منه مطلقا أو إذا تيب عنه أو بالكفارة . ثم أشار إلى حكم الظهار بقوله ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ أي إلى قولهم بنقض مايقتضيه بالعزم على الوطء أو الإمساك عند مالك وبالإمساك زمانا يمكنه أن يفارقها عند الشافعي وباستباحة الاستمتاع بها ولو بالنظر بالشهوة عند أبي حنيفة وبالعود إلى الجماع عند أحمد وإلى لفظ الظهار فيكرره عند الظاهري ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أي إعتاقها عليه مؤمنة خلافا لأبي حنيفة فإنه لم يشترط الإيمان ؛ سليمة من العيوب عند الجمهور ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ بالوطء أي يحرم عليه الجماع إلى أن يكفر اتفاقا وكذا الاستمتاع بما دون ذلك خلافا للشافعي والفاء للسببية تدل على تكرر الكفارة بتكرر

الظهار وأنه لاتجب إلا بالعود وإن ظاهر من أربع نسوة بكلمة واحدة لزمته كفارة واحدة وقال الشافعي: أربع كفارات . وإن ظاهر من الأجنبية بشرط الزواج ، لزمه عندنا لاعند الشافعية لأنه لوطلقها كذلك لزمها الطلاق إذا تزوجها لأنها من نسائه حين شرط نكاحها . قاله ابن العربي في الأحكام ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ التكفير على هذا الوجه ﴿ تُوعَظُونَ بِهِ ﴾ لتنزجروا عن الظهار ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ لا يخفى عليه شيء حث على الإتيان بذلك على الوجه الأكمل ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ ﴾ رقبة ومَن ماله غائب واجد فلا يعدل عن العتق ﴿ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ فإن قطع التتابع ولو في اليوم الآخر وجب الاستئناف إن كان لغير عذر وإلا لم يبطل على المشهور ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ فإن وطئ قبل الكفارة فعل حراما لكن لاتتعدد عليه وإن وطئها ليلا انقطع التتابع عندنا وعند الحنفية خلافا للشافعية ﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ ﴾ الصيام لهرم أو مرض مزمن أو شبق مفرط ﴿ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ عليه أي من قبل أن يتماسا حملا للمطلق على المقيد خلافا لأبي حنيفة لكل مسكين مدّ من غالب قوت البلد أو قوت المكفر ويشترط عدد المساكين فلو أطعم ثلاثين طعام ستين لم يجزه عندنا ﴿ذَٰلِكَ﴾ التخفيف في الكفارة أو ذلك البيان للأحكام ، ومحل الإشارة نصب بفعل معلل بقوله : ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي فرض ذلك لتصدقوا بالله ورسوله في قبول شرائعه ورفض ما كنتم عليه في جاهليتكم ﴿ وَتِلْكَ ﴾ الأحكام المذكورة ﴿حُدُودُ اللَّهِ ﴾ فلا تجاوزوها ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ ﴾ بها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ ﴾ يخالفون ﴿ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ في حدودهما ﴿كُبِتُوا﴾ أذلوا ﴿ كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ في مخالفتهم رسلهم وأصل الكبت الكب ، كبت الرجل إذا بقي خزيان يبصر ما يكره ولا يقدر على دفعه ، نزلت في المنافقين ، وقيل في بني قريظة كبتوا بعد الخندق بقتلهم وسبي ذراريهم كما فعل بالمشركين يوم بدر ﴿ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ لا لبس بها في الدلالة على صدق الرسول ﴿وَلِلْكَافِرِينَ ﴾ بها ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ يذهب عزهم وتكبرهم إذ تكبروا عن الإيمان ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ نصب الظرف بمهين أو باذكر ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾ على رءوس الأشهاد تكميلا للخزي والإهانة ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ ﴾ عليه مفصلا ﴿ وَنَسُوهُ ﴾ لكثرته وتهاونهم به ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ حاضر يعلمه عيانا ، ثم أقام البرهان عليه بقوله ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ من الأجزاء والجزئيات ، والخطاب عام ﴿ مَا يَكُونُ ﴾ من شيء ﴿ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ ﴾ فنجوى مضاف إلى ثلاثة أو موصوف بها أي من أهل نجوى فحذف أهل وجعلوا نفس النجوى مبالغة ﴿ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ في الاطلاع عليها ﴿ وَلَا خَمْسَةٍ ﴾ ولا نجوى خمسة ﴿ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ وتخصيص العددين لخصوص الواقعة لأن الآية نزلت في نجوى المنافقين كذلك أو الكفار كذلك أو لأن الله وتر يحب الوتر والثلاثة أول الأوتار وذكر معه الخمسة ليناسب الوترين ثم أشار إلى الطرفين بقوله ﴿ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾ يعلم ما يجري بينهم ﴿ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾

إذ علمه بالأشياء لا يتفاوت ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾ يجازيهم عليه ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ عام باق على عمومه ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ تنظر ﴿ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ تعجيب للسامع من وقاحتهم ﴿ وَيَتَنَاجَوْنَ ﴾ ولحمزة ينتجون ﴿ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ﴾ بيان عن حال نجواهم بما يؤكد ذمهم إذ لو كان تناجيهم بما فيه خير لكان أمر الرسول موجباً للانتهاء والامتثال وهم اليهود والمنافقون كانوا يتناجون بينهم ويتغامزون ناظرين إلى المؤمنين ليوقعوا في قلوبهم الريبة فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم عادوا لمثل فعلهم ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ ﴾ أيها النبي ﴿ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ وهو قولهم السام عليك أي الموت أو أنعم صباحاً تحية الجاهلية والله يقول: «وسلام على عباده الذين اصطفى» ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ من التحية لو كان محمد نبيًا ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ﴾ يدخلونها ﴿ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ جهنم والفاء سببية مبالغة في استحقاقهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ﴾ صرح بما علم ضمناً ليرتب عليه قوله ﴿ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ ﴾ بما فيه ثواب بما يتضمن خيراً للمؤمنين ﴿ وَالتَّقْوَىٰ ﴾ عن معصية الرسول وهذه وصية من الله لجميع عباده إلى يوم القيامة قاله في الجواهر ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ في جامع أموركم فإنه يجازيكم ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ ﴾ بالإثم والعدوان ﴿ مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾ بغروره ﴿ لِيُحْزِنَ ﴾ بضم الياء وكسر الزاي لنافع وبفتح الياء وضم الزاي للباقين، ليحزن الشيطان أو النجوى ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بتوهيمهم أن النجوى في نكبة أصابتهم ﴿ وَلَيْسَ ﴾ هو ﴿ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ بإرادته فعلى المؤمن إذا رأى شيئاً من ذلك ألا يحزن ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ لعلمهم أن لا ضار ولا نافع غيره ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا ﴾ توسعوا ﴿ فِي الْمَجَالِسِ ﴾ المراد به الجنس ولعاصم في المجالس وقيل مجلس النبي صلى الله عليه وسلم حتى يجلس من جاءكم ﴿ فَافْسَحُوا ﴾ ليفسح بعضكم عن بعض، نزلت في تضايقهم في مجلس النبي وكان قوم إذا أخذوا مقاعدهم شحوا على الداخل ﴿ يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ المجلس والصدور والرزق وغيرها وفي الجنة، قيل لم يضق المكان قط عمن جاء بعد التفسح ببركة الامتثال لكن لا يقام أحد لأحد. قال عليه السلام «لا يُقِمْ أحدكم أخاه ثم يجلس مكانه ولكن تفسحوا» رواه الشيخان، وفي الجواهر: قال جمهور العلماء سبب نزول الآية مجلس النبي عليه السلام ثم الحكم مطرد في سائر المجالس التي هي للطاعات، قال مالك: الحكم يطرد في مجالس العلم ونحوها غابر الدهر، وقال ابن عطية: فالسنّة المندوب إليها هي التفسيح، والقيام منهي عنه. اهـ لكن لا يحل للرجل أن يفرق بين اثنين أو يجلس بينهما إلا بإذنهما. رواه أبو داود والترمذي، وعن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن من جلس وسط الحلقة. رواه أبو داود ﴿ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا ﴾ بضم الشين لنافع وابن عامر وعاصم وبكسرها للباقين أي انهضوا إلى الخيرات كالصلاة والجهاد وغيرها

﴿ فَانْشُزُوا ﴾ بالقراءتين ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ ﴾ بالطاعة والامتثال بالنصر وحسن الذكر فى الدنيا وبغرف الجنات فى الآخرة ﴿ وَ ﴾ يرفع ﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ على غيرهم للجمع بين العلم والعمل، وفى الصحيح: « فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم » ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الامتثال وغيره ﴿ خَبِيرٌ ﴾ فليكن ذلك عن الإخلاص وصفاء القلب، وفيه تهديد لمن لم يمتثل الأمر أو لم يخلصه. ولما أكثروا مناجاة النبى لحاجة ولغيرها وكان المنافقون وأجلاف البوادى والإماء والعبيد يبرمونه بما لا طائل تحته نزل ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ ﴾ أردتم مناجاته ﴿ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ ﴾ قبلها ﴿ صَدَقَةً ﴾ على الفقراء وفى هذا الأمر تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم ونفع الفقراء والنهى عن الإفراط واختلف فى أنه للندب أو للوجوب لكنه نسخ بقوله « ءأشفقتم » وصح عن على أنه قال: « ما عمل بها أحد غيرى كان لى دينار فصرفته فناجيته » . وعلى الوجوب لا يقدح ذلك فى غيره إذ لم تطل مدته إذ روى أن الأمر بقى على ذلك عشرة أيام وقيل ساعة وهو الأشبه ثم نسخ بما بعد الآية. والله أعلم.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ التصدق ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من الإمساك ﴿ وَأَطْهَرُ ﴾ لذنوبكم وهذا يشعر بالندبية لكن قوله ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا ﴾ ما تتصدقون به ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لمناجاتكم بلا صدقة ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بكم فى ذلك يدل على الوجوب ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ ﴾ أخفتم من الفقر أو من العجز عن المتصدق به ﴿ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ﴾ جمعت لجمع المخاطبين أو لكثرة التناجى ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا ﴾ الصدقات ﴿ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ رجع بكم إلى الرخصة أن لا تفعلوا، وفيه إشعار بأن إشفاقهم ذنب تجاوز الله عنه ﴿ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ لا تفرطوا فى أدائهما كما قصرتم فى الصدقة وفيه نوع تعيير لهم ﴿ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فى جميع الأوامر وإن كانت شاقة عليكم فإن القيام بها كالجابر للتفريط فى ذلك ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ظاهراً وباطنا فيجازيكم على حسب ذلك ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا ﴾ وهم المنافقون ﴿ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ وهم اليهود ﴿ مَّا هُم ﴾ المنافقون ﴿ مِّنكُمْ ﴾ من المؤمنين ﴿ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ من اليهود بل هم مذبذبون ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ ﴾ ادعاء الإسلام ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم كاذبون فيه وهى اليمين الغموس ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ نوعا منه متفاقا ﴿ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فى الأزمنة المتطاولة حتى تمرنوا على سوء العمل وأصروا عليه ﴿ ٱتَّخَذُوٓا أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾ سترا على أنفسهم وأموالهم ﴿ فَصَدُّوا ﴾ بها المؤمنين ﴿ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أى الجهاد فيهم بقتلهم وأخذ أموالهم، أو صدوا الذين يريدون الإسلام بأيمانهم يوهنون أمر الإسلام وأنه لا بقاء له ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ لكفرهم وصدهم وقيل الأول عذاب القبر وهذا عذاب الآخرة. ﴿ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ من عذابه ﴿ شَيْـًٔا ﴾ من الإغناء ﴿ أُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ أبدا ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ مجتمعين ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ ﴾ أنهم مؤمنون ﴿ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ فى الدنيا ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ من نفع حلفهم فى الآخرة كالدنيا ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ

الكذبون) البالغون الغاية فى الكذب حيث يكذبون مع عالم الغيب والشهادة ويحلفون له (اسْتَحْوَذَ) استولى (عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ) بيان لسبب ذلك الكذب من حُذتُ الإبل إذا استوليت عليها وهو مما جاء على الأصل المرفوض (فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ) بالقلوب والألسنة والتأمل فى صفاته ليتميز لهم ما يليق بكبريائه (أُولَـٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ) جنوده وأتباعه (هُمُ الْخَاسِرُونَ) الكاملون فى الخسران بفوات جنة النعيم والخلود فى الجحيم (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ) يخالفون (اللهَ وَرَسُولَهُ) أعاده ليفصل أحوالهم المجملة فى كبتوا ويقرن بها أحوال أضدادهم المؤمنين حزب الرحمن (أُولَـٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ) فى زمرة أذل الخلق (كَتَبَ اللهُ) فى اللوح أو قضى (لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي) بالحجة أو السيف بفتح ياء رسلى لنافع وابن عامر وسكونها للباقين (إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ) على نصر أوليائه (عَزِيزٌ) غالب قاهر لا يغلب عليه فى مراده (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ) لأنه جمع بين الضدين والمعنى لا ينبغى الوجدان وإنما عبر عنه بالوجدان مبالغة فإن الواقع عدم الانبغاء لا الوجدان . قاله فى غاية الأمانى ومثله فى البيضاوى ، وقال فى الجواهر : هذه الآية نفت أن يوجد من يؤمن بالله حق الإيمان ويلتزم شُعَبهُ على الكمال يواد كافراً (وَلَوْ كَانُوا) أى المحادون (ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ) بل يقصدونهم بالسوء ويقاتلونهم على الإيمان كما وقع لجماعة من الصحابة منهم أبو عبيدة بن الجراح قتل أباه يوم بدر وكان أسيراً ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما لا يليق به فضرب عنقه ، ومصعب بن عمير قتل أخاه يوم بدر ، وقال عمر بن الخطاب فى أسارى بدر لرسول الله : مَكِّنِّي من فلان لقريب له ومَكِّن عليًّا من عقيل ليعلم المشركون ما فى قلوبنا (أُولَـٰئِكَ) الذين لا يوادونهم الذين (كَتَبَ) ألزم وأثبت (فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ) إلزام المكتوب فى الرق (وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ) نور من عنده أو نور الإيمان فإنه حياة للقلوب وفيه دليل على أن الإيمان فعل القلب (وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ) بطاعتهم (وَرَضُوا عَنْهُ) بثوابه (أُولَـٰئِكَ حِزْبُ اللهِ) المتبعون أمره المجتنبون نهيه (أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) الفائزون بخير الدارين بالغلبة فى الدنيا والجنة فى العقبى .

[تم تفسير سورة المجادلة]

سورة الحشر

مدنية ـ وهي أربع وعشرون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ سبق الكلام عليه ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ لا أنتم وهم بنو النضير من اليهود من ذرية هارون عليه السلام نزلوا المدينة فى فتن بنى إسرائيل فلما جاء النبى صلى الله عليه وسلم المدينة دعاهم إلى الإيمان فأبوا وعاهدهم أن لا يكونوا له ولا عليه فلما كان شأن أحد نقضوا العهد وداخلوا قريشاً ذهب إليهم كعب بن الأشرف رئيس بنى النضير فى أربعين راكباً فحالف أبا سفيان فلما رجع أمر النبى بقتله فقتل غيلة ثم سار إليهم وكانوا فى حصون منيعة فحاصرهم ، وقيل كان النقض قبل أحد بهمهم بقتل النبى صلى الله عليه وسلم غدراً حين ذهب إليهم يستعين بهم فى دية فجاءه خبر السماء بكيدهم فقام ورجع إلى المدينة من غير علم أحد ثم جاء إليهم فحاصرهم وأخرجهم ﴿ مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ بالمدينة ﴿ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ اللام للتوقيت أى فى أول حشرهم من جزيرة العرب إلى الشام وما والاه كخيبر ، وآخره أن جلاهم عمر فى خلافته من خيبر إلى الشام أو آخره حشرهم إلى القيامة والحشر إخراج جمع من مكان إلى آخر ﴿ مَا ظَنَنْتُمْ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ أَنْ يَخْرُجُوا ﴾ لكثرة عَددهم وعُددهم وشدة بأسهم ومنعتهم ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ ﴾ خبر إن ﴿ حُصُونُهُمْ ﴾ فاعل « مانعتهم » به تم الخبر أو « حصونهم » مبتدأ وما قبله خبره والجملة خبر إن ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ من عذابه وتغيير النظم لأن الظاهر وظنوا أن لا يخرجوا وتقديم الخبر وإسناد الجملة إلى ضميرهم للدلالة على فرط وثوقهم بأنفسهم وحصونهم وأن ظنهم كاليقين عندهم لا كظن المؤمنين ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ﴾ بأسه ﴿ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ لاعتمادهم على شدة بأسهم وحصانة حصونهم حين اتقوا بها ولم يتقوا بالله ، أو الضمير للمؤمنين أى أتاهم نصر الله ، والأول أوفق بقوله ﴿ وَقَذَفَ ﴾ ألقى بقوة ﴿ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ الخوف الذى يملأها وأكده بلفظ القذف الدال على القوة ﴿ يُخْرِبُونَ ﴾ بالتخفيف للجمهور من أخرب والتشديد لأبى عمرو من خرّب ﴿ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ ليصلحوا ما يهدمه المسلمون من سورهم أو لئلا تبقى للمسلمين جنة ضنا بها عليهم وإخراجاً لما استحسنوا من آلاتهم حين هموا بالجلاء ﴿ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالتسبب أو لأنهم يخربون خارجها والكفار داخلها . قال فى الجواهر : والحاصل أنهم خربوا بيوتهم حساً ومعنى أما حساً فواضح وأما معنى فبسوء رأيهم وغدرهم ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ فلا تعتمدوا

بالحصون دون الله فاتمظوا بحالهم ولا تخالفوا أمر الله ورسوله ولا تعتمدوا على قوتكم واتكلوا على الله في أموركم ﴿ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ ﴾ قضى ﴿ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ ﴾ الخروج من الوطن الذى هو أشق على النفوس ﴿ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴾ بالقتل والسبي كما فعل بقريظة من اليهود بعدهم ﴿ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴾ الذى القتل والجلاء عنده أهون شيء أى إن نجوا من عذاب الدنيا لم ينجوا من عذاب الآخرة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الغضب الذى أورثهم عذاب الدارين ﴿ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا ﴾ خالفوا ﴿ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ بإنكار الإسلام ومعاداة الرسول ﴿ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ ﴾ اكتفى به دلالة على أن مشاقة رسوله مشاقته ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ له وفيه تهديد لغيرهم ﴿ مَا قَطَعْتُمْ ﴾ أيها المسلمون ﴿ مِنْ لِينَةٍ ﴾ نخلة كريمة أو هى ما عدا العجوة والبرنية من اللون لاشتمالها على الألوان قلبت الواو ياء للكسرة والجمع لِيانٌ ﴿ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ بأمره أى خيركم فى ذلك ﴿ وَلِيُخْزِيَ ﴾ بالإذن فى القطع ﴿ الْفَاسِقِينَ ﴾ اليهود إذا شاهدوا ذلك لأنه عليه السلام لما أمر بقطع نخيلهم قالوا يا محمد كنت تنهى عن الفساد فى الأرض فما بال تحريق النخل وقطعها فوقع فى قلوب بعض المسلمين وسوسة لذلك فنزلت ، وقيل أرسلت قريظة إليه بذلك القول . وفى حرق نخيلهم وهى البويرة يقول حسان :

وَهَانَ عَلَى سَرَاةِ بَنِي لُؤَيٍّ • حَرِيقٌ بِالْبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ

واستدل بذلك على جواز هدم ديار الكفار وقطع أشجارهم زيادة لغيظهم ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ ﴾ أعاده ﴿ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ ﴾ من بنى النضير ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ ﴾ أسرعتم يا مسلمين ﴿ عَلَيْهِ ﴾ أى ما أجريتم على تحصيله ﴿ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ إبل يسار عليها أى لم تقاسوا فيه مشقة لقرب حصونهم لأنها على ميلين من المدينة ولم يقع فيهم كبير قتال ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ﴾ بقذف الرعب فى قلوبهم ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيفعل ما يريد تارة بالوسائط وتارة بغيرها ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾ لم يدخل العاطف لأنه بيان للأول شامل لمال بنى النضير ولسائر أموال الفىء إلى يوم القيامة كما أشار إليه بقوله ﴿ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ التى فتحت من غير إيجاف كالصفراء والينبوع ووادى القرى وفدك ﴿ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ قرابة النبى من بنى هاشم وبنى المطلب ﴿ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ المنقطع فى سفره من المسلمين : هذه مصارف أموال الفىء وهى مصارف خُمس الغنيمة لا حق للغزاة فيها وكان النبى صلى الله عليه وسلم يأخذ منها قوت سنة لأهله ويصرف الباقى فى هذه المصارف وقد قسم أموال بنى النضير فى المهاجرين دون الأنصار لاستغنائهم إلا أبا دجانة وسهل بن حنيف والحارث بن الصمة أعطاهم لفقرهم وتقتصت أحكام الفىء والغنيمة فى الأنفال ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ ﴾ الفىء الذى حقه أن يكون للفقراء ﴿ دُولَةً ﴾ حظا دائلا أى دائرا أو متداولا ﴿ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ يتكاثرون به أو يتداولونه كما كان أهل الجاهلية كان أهل الشوكة يختصون بها ويقولون «من عزّ بزّ» فعلة بمعنى الفاعل على الأول أو المفعول على الثانى و «كيلا» علة

لبيان مصارف الفيء ﴿ وَمَا ءاتَاكُمُ الرَّسُولُ ﴾ من الفيء وغيره أو من الأمر ﴿ فَخُذُوهُ ﴾ لأنه حلال لكم أو تمسكوا به لأنه واجب الطاعة ﴿ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ عن أخذه أو عن إتيانه ﴿ فَانْتَهُوا ﴾ عنه ولا تخالفوه في شيء ولا تلهموا في أفعاله وأقواله غير الحق ، روى أن قوماً من الأنصار تكلموا في هذه الأموال فنزلت فرضوا بذلك ثم اطرد بعد معنى الآية في أوامر النبي صلى الله عليه وسلم ونواهيه . قاله في الجواهر ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ بطاعة رسوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ لمن خالفه ﴿ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ بيان للمساكين أعادهم ليصفهم بالصفة التي توجب الشفقة عليهم وهي ﴿ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ أوطانهم وقومهم لله وللرسول ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴾ أخرجهم كفار مكة واستولوا على أموالهم ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ ﴾ جنة منه ﴿ وَرِضْوَانًا ﴾ رضاه والجملة حال مقيدة لإخراجهم بما يوجب تفخيم شأنهم ﴿ وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ دينهما بأنفسهم وأموالهم ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ في الإيمان لظهوره بالبرهان ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ ﴾ أي لزموا المدينة ﴿ وَالْإِيمَانَ ﴾ وتمكنوا فيهما وهم الأنصار عطف على « المهاجرين » أو تبوءوا دار الهجرة ودار الإيمان فحذف المضاف من الثاني والمضاف إليه من الأول وعوض عنه اللام أو تبوءوا الدار وأخلصوا الإيمان كقوله علفتها تبناً وماء بارداً . وسمى المدينة دار الإيمان لأنها مظهره ﴿ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من قبل هجرة المهاجرين إليهم ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ ولا يثقل عليهم حتى كانوا يقرعون فيهم أيهم يأخذ المهاجرى ويؤثرونهم على أنفسهم حتى قال المهاجرون للنبي صلى الله عليه وسلم يارسول الله ما رأينا قوماً أبذل للكثير ولا أحسن مواساة من قليل من قوم نزلنا بين أظهرهم لقد كفونا المؤنة وأشركونا في المهنأ حتى لقد خفنا أن يذهبوا بالأجر كله ، قال « أما دعوتم الله لهم وأثنيتم عليهم » رواه الترمذى وقال حسن صحيح ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ ﴾ نفوسهم ﴿ حَاجَةً ﴾ أى ما تحمل عليه من الطلب والحسد والغيظ ﴿ مِمَّا أُوتُوا ﴾ أى مما أعطى المهاجرون من الفيء وغيره وقد بالغ في مدحهم حيث نكر الحاجة وذكر الصدور والوجدان أى لم يخطر فيها ما يسمى حاجة فضلا عن توجه النفس إلى طلبها ولذا أوثر الوجدان دون العلم ﴿ وَيُؤْثِرُونَ ﴾ المهاجرين المحتاجين بأموالهم ﴿ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ﴾ حتى إن من كان عنده امرأتان نزل عن واحدة وزوجها من أحدهم ﴿ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ حاجة إلى ما يؤثرون به من خصاص البناء وهى فرجه وخصاص الأثافى الفرج بين أحجارها . روى البخارى عن أبى هريرة : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أصابه الجهد فأرسل إلى نسائه ولم يجد شيئاً فقال ألا رجل يضيف هذا فقام رجل من الأنصار فقال أنا يا رسول الله فذهب به فقالت امرأته ما أجد إلا قوت الصبية قال نوّمى الصبية وقدمى الطعام ثم قومى كأنك تصلحين السراج فأطفئيه ليأكل وحده فإنه ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعلت فلما أصبح جاء إلى رسول الله فقال « لقد عجب الله منك » فنزلت ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ حرصها على المال أضافه إليها لأنه غريزتها أى من يتحفظ عن هذه الرذيلة ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ

ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون بالثناء العاجل والثواب الآجل ﴿ وَٱلَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ من بعد الفريقين وهم الذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين وقيل الذين هاجروا بعد السابقين حال كونهم ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا ﴾ حقداً وغشا ﴿ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ من الغلل وهو الماء بين الأشجار ، وعن مالك أن سابَّ السلف لا يستحق من الفيء شيئاً لعدم اتصافه بما في الآية ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ حقيق بإجابة دعائنا ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا ﴾ عبد الله بن أبي ورفاعة بن التابوت في قوم من المنافقين بعثوا إلى بني النضير : اثبتوا في معاقلكم فإنا معكم كيفما تقلبت أحوالكم كما قال تعالى ﴿ يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ ﴾ إخوة كفر وموالاة وصداقة ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ ﴾ بني النضير ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ ﴾ من دياركم في قتالكم ﴿ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾ إذ لا عيش لنا بدونكم ﴿ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ ﴾ في قتالكم أو خذلانكم ﴿ أَحَدًا ﴾ محمداً أو غيره ﴿ أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ لا محالة ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ لعلمه بأنهم لا يفعلون ذلك كما قال تعالى ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا ﴾ من المدينة ﴿ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ ﴾ وكان كذلك لأنهم بعد ما راسلوهم ذلك أخلفوهم وفيه دليل على صحة النبوة وإعجاز القرآن ﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ ﴾ جاءوا لنصرهم فرضاً ﴿ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ انهزاماً واستغنى بجواب القسم المقدر عن جواب الشرط في المواضع الخمسة ﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ بل يقتلون ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً ﴾ خوفاً ، مصدر الفعل المبني للمفعول والمعنى يخافونكم سرا ﴿ فِى صُدُورِهِم ﴾ المنافقين ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ لتأخر عذابه أو لأن رهبتكم سبب لإظهارهم رهبة الله ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ لا يعلمون عظمة الله حتى يخشونه ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ اليهود والمنافقون ﴿ جَمِيعًا ﴾ مجتمعين متفقين ﴿ إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ ﴾ بالدراب والخنادق لضعف قلوبهم واستيلاء الجبن عليها فلا يبرزون لحربكم ﴿ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ﴾ جمع جدار للجمهور كحمر وحمار ، ولابن كثير وأبي عمرو بالإفراد لقصد الجنس أو إرادة السور الجامع والجمع أوفق بالقرى ﴿ بَأْسُهُم ﴾ حربهم ﴿ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ إذا تقاتلوا وإن حاربوا الله ورسوله فهم أجبن من صافر لقذف الرعب في قلوبهم لأن كل شجاع وعزيز إذا حارب الله ورسوله يجبن ويذل ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا ﴾ مجتمعين متفقين لما ترى منهم ظاهراً ﴿ وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ جمع شتيت متفرقة خلاف الحسبان لاختلاف عقائدهم ومقاصدهم ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ التشتت ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ ما فيه صلاحهم وأن التشتت يوهن قواهم مثلهم في محاربة النبي ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ﴾ أي في زمان قريب وانتصابه على الحال أي وجد مثلهم مثل وجود مثل أولئك قريباً لم ينطمس أثره فينبغي الاعتبار بهم وهم أهل بدر من المشركين أو بني قينقاع أو المهلكين من الأمم الماضية ﴿ ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ سوء عاقبة كفرهم في الدنيا وهو بيان للشبه به يقرره وفيه زيادة تجهيل اليهود ، والوبال من قولهم مرعى وبيل وخيم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة . تمثل المنافقين في إغراء اليهود على القتال وخذلانهم بعدُ

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ مع الإنسان يغويه ثم يتبرأ منه كما قال ﴿ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ كذب منه ورياء ، والمراد بالإنسان الجنس أو أبو جهل إذ جاءه الشيطان يوم بدر على صورة سراقة وقال لقريش : إني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني برىء منكم ، وقيل راهب حمله الشيطان على الفجور بامرأة وله قصة أسندها القاضي إسماعيل وغيره من طريق سفيان عن عمرو بن دينار عن عروة بن عامر بن عبيد الزرقي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن راهباً كان في بني إسرائيل سبقت إليه امرأة جميلة ليشفيها بدعائه من الجنون فسول له الشيطان الوقوع عليها فحملت منه فخشي الفضيحة فسوّل له قتلها ودفنها ففعل ثم شهره فاستخرجت وصلب فجاءه الشيطان فقال له اسجد لي سجدة وأنا أخلصك فسجد له فقال : إني برىء منك فقتل ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا ﴾ الغاوى والمغوى ﴿ أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ﴾ نصب على الحال وقرئ عاقبتهما بالرفع اسم كان و « أنهما » الخبر ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ كل كامل في الظلم وهو الكافر ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ﴾ لها قدر أو كل واحدة ﴿ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ يوم القيامة سماه غداً لقربه أو لأن الدنيا كيوم والآخرة غده وتنكيره للتعظيم أي أيّ غد ، وكذا تنكير نفس أو ذاك للوحدة لاستقلال الانفس النواظر فيما قدمن للآخرة ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ كرر للتوكيد أو الأول في أداء الواجبات لأنه مقرون بالاعمال والثاني في ترك المحارم لاقترانه بقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ وفي مجيئهما مطلقين من الفخامة ما لا يخفى ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ ﴾ تركوا طاعته ﴿ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ أن يقدموا لها خيراً ويفعلوا ما يخلصهما ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ الكاملون في الفسق ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ والناس لاستيلاء الغفلة عليهم لم يفرقوا بين الفريقين فاحتاجوا إلى الإعلام ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ بما لم يخطر على قلب بشر من النعيم المقيم ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ ﴾ الشامل للزواجر ﴿ عَلَىٰ جَبَلٍ ﴾ وجعل فيه تمييز كالإنسان ﴿ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا ﴾ متذللا ﴿ مُتَصَدِّعًا ﴾ متشققاً متفرقاً أجزاؤه ﴿ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ فالإنسان لحقارته وضعفه أولى بذلك وهو تمثيل كما مرّ في قوله « إنا عرضنا الأمانة » ولذا عقبه بقوله ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ ﴾ هذا ونظائره ﴿ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيخشون الله ، والمراد توبيخ الإنسان على عدم خشوعه عند تلاوة القرآن لقسوة قلبه وقلة تدبره ولما أثنى على القرآن بأنه يورث الخشية أشار إلى أوصاف توجبها وأن القرآن كلام من هي صفاته بقوله ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ ما غاب عن الحس وما شوهد أو المعدوم والموجود أو الدنيا والآخرة أو السر والعلن وتقديم الغيب لتقدمه في الوجود وتعلق العلم القديم به ﴿ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ۞ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ ﴾ البالغ في النزاهة عن النقص والزوال وجميع ما لا يليق به ﴿ السَّلَامُ ﴾ ذو السلامة عن الآفات ، مصدر وصف به مبالغة كأنه عينها ﴿ الْمُؤْمِنُ ﴾ واهب الأمن أو المصدق رسله

بالمعجزات ﴿ الْمُهَيْمِنُ ﴾ الرقيب الحافظ لكل شيء ، من الأمن إلا أنه أبلغ منه مفيعل منه قلبت همزته هاء ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب ﴿ الْجَبَّارُ ﴾ الذي جبر الخلق على ما أراده أو جبر حالهم بمعنى أصلحه ﴿ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ البليغ الكبرياء عن كل ما يوجب حاجة أو نقصاً الذي كلت العقول عن إدراك ذاته ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ نزه نفسه ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ به إذ لا شريك له في شيء من ذلك ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ ﴾ المقدر للأشياء على وفق حكمته ﴿ الْبَارِئُ ﴾ الموجد لها بريئة عما لا يريده بل جاءت على ما أراد ﴿ الْمُصَوِّرُ ﴾ الموجد لصورها وكيفياتها على ما أراد ﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ الدالة على صفات الجلال والجمال والكمال وهذه نبذة منها . وعن أبي هريرة « إن لله تسعة وتسعين اسماً من حفظها دخل الجنة وهي : الله الذي لا إله إلا هو ، الرحمٰن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصوِّر ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعزّ ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلي ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى ، المتين ، الولى ، الحميد ، المحصى ، المبدئ ، المعيد ، المحيي ، المميت ، الحي ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالى ، المتعالى ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرءوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادي ، البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور » . روى الحديث الترمذي ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من الأجزاء والجزئيات « وإن من شيء إلا يسبح بحمده » ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ المتقن في صنعه ، فذلكة للسورة ورمز إلى إجلاء اليهود وإيراث أموالهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين .

[تم تفسير سورة الحشر]

سورة الممتحنة

مدنية ـ وهى ثلاث عشرة آية

﴿ بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ۔ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي ﴾ ككفار قريش ﴿ وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة مهاجرىّ حليف لعثمان رضى الله عنهما لما أعلم رسول الله بغزو أهل مكة بنقضهم عهد الحديبية كتب حاطب إليهم إن رسول الله يريدكم فخذوا حذركم فأرسل كتابه مع سارة مولاة بنى المطلب ، فنزل جبريل فأعلم رسول الله فبعث عليًّا والزبير ومقداداً وأبا مرثد وقال انطلقوا حتى تأتوا رَوضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب حاطب فخذوه منها ، فأدركوها هناك فقالت ليس معى كتاب فسل علىّ لها السيف فأخرجته من عقيصتها فاستحضر رسول الله حاطباً وقال : ماحملك عليه ؟ فقال : يارسول الله لا تعجل علىّ فوالله منذ أسلمت ما كفرت وما فعلت ذلك ارتداداً ولكنى كنت آمرءا ملصقاً فى قريش ليس لى فيهم من يحمى أهلى فأردت أن أتخذ عندهم يداً . فصدّقه النبى صلى الله عليه وسلم وقال : لا تقولوا لحاطب إلا خيراً . قلت : وفيه دلالة على أن مطلق إعانة الكفار على المسلمين من غير قصد ارتداد لايكون كفراً ، تأمله منصفاً . والعدو فعول من عداه جاوزه ولكونه على زنة المصدر كالقبول يطلق على الجمع وفى تقديم «عدوى» إشارة إلى أنه المهم ينبغى أن لا يتخذ ولياً لذلك وإن لم يكن عدوًّا للمسلمين ﴿ تُلْقُونَ ﴾ توصلون ﴿ إِلَيْهِمْ ﴾ قصد النبى صلى الله عليه وسلم غزوهم الذى أسره إليكم ووزى بغيره ﴿ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ بسبب المودة التى بينكم وبينهم فالباء سببية أو مزيدة للتأكيد أى تلقون إليهم المودة أى سببها وهو الكتاب ، والجملة حال من فاعل « لا تتخذوا » أو صفة لـ « أولياء » جرت على غير من هى له فلا حاجة فيها إلى إبراز الضمير لأنه مشروط فى الاسم دون الفعل ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ﴾ دين الإسلام أو القرآن حال من فاعل تلقون أو لا تتخذوا ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ من مكة بتضييقهم عليكم ، حال من « كفروا » أو استئناف لتفسيره كأنه قيل : بم كفروا ؟ فقيل بإخراج الرسول والمؤمنين لإيمانهم بالله لا لغرض آخر وهذا أكثر فائدة من الاول ﴿ أَنْ تُؤْمِنُوا ﴾ أى لأجل أن آمنتم ﴿ بِاللّٰهِ رَبِّكُمْ ﴾ وفيه تغليب المخاطب والالتفات من التكلم إلى الغيبة للدلالة على ما يوجب الإيمان ﴿ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا ﴾ للجهاد ﴿ فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ﴾ علة للخروج حذف جواب الشرط لدلالة ما قبله عليه أى فلا تتخذوهم أولياء ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ بدل من تلقون ﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ

وَمَا أَعْلَنْتُمْ ﴾ منكم وأطلع رسولى عليه فأى فائدة فى الإسرار بعد علمكم بهذا وإيمانكم به ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ ﴾ أى إسرار خبر النبي إليهم ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أخطأ طريق الهدى ﴿ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ ﴾ يظفروا بكم ﴿ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً ﴾ يظهر لكم منهم نتيجة العداوة من الإضرار ولا ينفعكم إلقاء المودة إليهم ﴿ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ بالقتل والضرب ﴿ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ ﴾ بالسب جار مجرى تفسير العداوة ﴿ وَوَدُّوا ﴾ تمنوا ﴿ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ يردونكم كفاراً ومجىء « ودوا » وحده بلفظ الماضى للإشعار بأنهم ودوا ذلك قبل كل شىء ﴿ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ ﴾ قراباتكم المشركون ﴿ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ﴾ الذين لأجلهم أسررتم الخبر وواليتم الكفار خطَّأهم أولا فى موالاة من هو خالص العداوة لهم ثم فيمن يوالون لأجله وبين وجه الخطإ بقوله ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُفْصَلُ ﴾ بضم الياء وسكون الفاء وفتح الصاد لنافع وابن كثير وأبى عمرو وبضم الياء وفتح الفاء وكسر الصاد مشددة لحمزة والكسائى وبفتحها مشدداً لابن عامر وبفتح الياء وسكون الفاء وكسر الصاد مخففاً لعاصم ﴿ بَيْنَكُمْ ﴾ وبينهم فتكونون فى الجنة وهم فى جملة الكفار فى النار فأى فائدة فى موالاة من لا بقاء ولا نفع لوده ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ مشاهدٌ له فيجازيكم عليه ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ ﴾ بكسر الهمزة للجمهور وضمها لعاصم فى جميع القرآن وهو ثلاثة مواضع أى قدوة ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ اسم لما يؤتسى به ﴿ فِى إِبْرَاهِيمَ ﴾ أى به قولا وفعلا ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ من المؤمنين به ﴿ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ ﴾ ظرف لخبر كان وهو فى إبراهيم وما معه ولكم لغوٌ ﴿ إِنَّا بُرَآءُ ﴾ جمع برىء كظرفاء جمع ظريف ﴿ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ أنكرناكم وكذبناكم فى عبادة الأصنام فلا نعتد بشأنكم أو كفرنا بدينكم أو بمعبودكم والكلام على المشاكلة والتهكم إذ الكفر إنما يكون بالحق وما أتى به الرسول ﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ فتنقلب العداوة ألفة ومو الاة والبغضاء محبة ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ مستثنى من « أسوة حسنة » لأنها عبارة عن قولهم « إنا برءاء منكم » إلى آخره فليس لكم التأسى به فى ذلك بأن تستغفروا للكفار لأنه كان قبل النهى وقوله ﴿ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ ﴾ من عذابه وثوابه ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ كنى به إبراهيم عن أنه لايملك غير الاستغفار فهو من تمام قوله المستثنى ولا يلزم من استثناء المجموع استثناء جميع أجزائه فهو مستثنى من حيث المراد منه لأنه جعله تابعاً للاستغفار وإن كان من حيث ظاهره مما يتأسى فيه ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ﴾ فى كفاية شرهم وغيره متصل بما قبل الاستثناء أو أمر من الله للمؤمنين بأن يقولوه تتميما لما وصاهم به من قطع العلائق بينهم وبين الكفار ﴿ وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ مرجع الجميع ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً ﴾ محل فتنة أى إضلال ﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بأن تسلطهم علينا فيفسدوا علينا ديننا أى فيظنوا أنهم على الحق فيفتتنوا أى تذهب عقولهم بنا ﴿ وَاغْفِرْ لَنَا ﴾ ما فرط ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فى ملكك وصنعك حقيق بإجابة الدعاء وتحقيق الرجاء ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ ﴾ يا أمة محمد جواب قسم مقدر ﴿ فِيهِمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

كرره مبالغة فى الحث على التأسى بإبراهيم ولذلك صدره بالقسم ﴿ لِمَنْ كَانَ ﴾ بدل اشتمال من لكم ﴿ يَرْجُو ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ﴾ يخافهما أو يرجو الثواب ويخاف العقاب ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ عن تأسى إبراهيم ووالى الكفار ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ فلا يضره توليه بل يضر نفسه . ولما نزل أول السورة إلى هنا وعادى المؤمنون أقاربهم المشركين وتبرءوا عنهم وعدهم الله بالتوادد والتواصل معهم بقوله ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُمْ ﴾ فى الله ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من أقاربكم الكفار ﴿ مَوَدَّةً ﴾ بأن يهديهم الله للإيمان فيصيروا لكم أولياء ﴿ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ﴾ على ذلك وقد أنجزه بعد فتح مكة فأسلم أكثرهم وصاروا أولياء ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ ﴾ لهم أو لكم لما فرط فى موالاتهم من قبل ولما بقى فى قلوبكم من ميل الرحم ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بكم وبهم بعد التوبة أو رحيم بجمعكم على الإيمان عن قريب ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ﴾ مبرة ﴿ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ ﴾ من الكفار ﴿ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ كالنساء والصبيان أو الذين عاهدوكم كخزاعة أو من لم يقاتل ولا أخرج مطلقا ويؤيد الأول ما روى أن الآية نزلت لما قدمت قتيلة بنت عبد العزى مشركة على بنتها أسماء بنت أبى بكر بهدايا فلم تقبلها ولم تأذن لها فى الدخول حتى سألت عن ذلك ، وفى البخارى ومسلم عن أسماء بنت أبى بكر أنها قالت : يارسول الله إن أمى قدمت وهى راغبة أفأصلها . قال « نعم صِلى أمك » ﴿ أَنْ تَبَرُّوهُمْ ﴾ بدل اشتمال من الذين بتقدير مضاف كما قدرنا ﴿ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ تعاملوهم بالعدل فيما بينكم من الحقوق ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ العادلين ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ﴾ ولاية ﴿ ٱلَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا ﴾ بعضكم أى عاونوهم ﴿ عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ ﴾ كمشركى مكة سعى بعضهم فى إخراج المؤمنين وبعضهم أعان المخرجين ﴿ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ﴾ بدل اشتمال من الذين أى تتخذوهم أولياء ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ ﴾ بعد هذا النهى ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ الكاملون فى الظلم لوضعهم الولاية فى غير محلها وعدم عذرهم بعد هذا البيان . ولما شرط عليه السلام للكفار فى صلح الحديبية أن من جاء إليه مسلما يرده إليهم فجاءت نساء منهن أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط وسبيعة بنت الحارث الأسلمية إليه فجاء أولياؤهن إليه فقال لهم الشرط فى الرجال لا النساء نزل تصديقا له ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ ﴾ بألسنتهن ﴿ مُهَٰجِرَٰتٍ ﴾ من الكفار ﴿ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ بما يغلب على ظنكم موافقة ألسنتهن لقلوبهن فى الإيمان عن ابن عباس كان الامتحان أن تقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله بالله ما خرجت من بغض زوج ولا عشقا لغيره ولا رغبة فى أرض عن أرض بل حبا لله ولرسوله ، وكان الذى يتولى الامتحان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ﴾ حقيقة لأنه المطلع على قلوبهن وإنما أمركم بالامتحان لإجراء الأحكام على الظن الغالب ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ ﴾ ظننتموهن بالحلف ﴿ مُؤْمِنَٰتٍ ﴾ وإطلاق العلم على الظن شائع إيذانا بأنه كالعلم فى وجوب العمل به وإفادته بالإمعان فى الامتحان ﴿ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾ أى أزواجهن الكفار ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾

أى الحل مرتفع من الجانبين بإسلامها لا بهجرتها والتكرير للطابقة والمبالغة أو الأولى لحصول الفرقة والثانية للمنع عن الاستئناف . قاله البيضاوى ﴿وَءاتُوهُم﴾ أى أزواجهن الكفار ﴿مَّآ أَنفَقُوا﴾ دفعوا إليهن من المهور وكان ذلك مخصوصا بتلك الواقعة فى المهاجرات . قاله فى غاية الأمانى ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ بعد العدة ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن نبه على ذلك إعلاما بأن ما أعطى أزواجهن لايقوم مقام المهر ﴿وَلَا تُمْسِكُوا﴾ بالتخفيف للجمهور والتشديد لأبى عمرو ﴿بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ زوجاتكم اللاتى تخلفن فى دار الكفر لقطع إسلامكم لها أو اللاحقات بالمشركين مرتدات لقطع ارتدادهن نكاحكم وهى جمع عصمة النكاح أو أسبابه وأصلها الحبال وكل ما أمسك شيئا فقد عصمه ﴿وَاسْأَلُوا﴾ اطلبوا ﴿مَآ أَنفَقْتُمْ﴾ من مهور المرتدات ﴿وَلْيَسْأَلُوا مَآ أَنفَقُوا﴾ من مهور المهاجرات أعاده توكيدا ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ﴾ أى ما ذكر ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ مستأنف أو حال ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال العباد ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرع ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ﴾ نكره استهانة أو تعميا ﴿مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ واحدة فأكثر منهن أو شىء من مهورهن بالذهاب ﴿إِلَى الْكُفَّارِ﴾ مرتدات لأن قريشا لما بلغهم هذا الحكم قالوا لا نرضى به ولانلتزمه ولاندفع لأحد صداقا فنزلت ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ فغزوتم وغنمتم ﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم﴾ من الغنيمة ﴿مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا﴾ لفواته عليهم من جهة الكفار أو معنى عاقبتم جاءت عقبتكم أى نوبتكم فى أداء المهر شبه أداء هؤلاء وهؤلاء بأمر يتعاقبون فيه تعاقب الراكبين على الدابة يركب هذا عقبةً وهذا عقبةً فأعطوا زوج المرتدة ما كان يعطى زوج المهاجرة حين لم يرض الكفار الحكم قاله الزهرى والأول قول ابن عباس وهو الأوجه وقد فعل المؤمنون ما أمروا به من الإيتاء للكفار والمؤمنين ثم ارتفع الحكم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فإن الإيمان به يقتضى التقوى منه ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ من الأشياء ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ كما كان الوائدات يفعلن ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ بولد لقيط ينسبنه إلى الزوج ووصف بصفة الولد الحقيق لأن الأم إذا ولدته سقط بين يديها ورجليها أو ذلك كناية عن البطن والفرج ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ تأمرهن به كترك النياحة وتمزيق الثياب وجز الشعر وشق الجيب ، والتقييد بالمعروف مع أن الرسول لا يأمر إلا به تنبيه على أنه لا تجوز طاعة مخلوق فى معصية الخالق ولو فرض أن يكون أنت ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ على هذه الشرائط ، وقد فعل صلى الله عليه وسلم ذلك يوم الفتح لما فرغ من بيعة الرجال أخذ فى بيعة النساء بالقول ولم يصافح واحدة منهن . وفى البخارى عن أم عطية : قرأ علينا الآية فى ثانى يوم فتح مكة . قال فى الجواهر : وكلام ابن عطية يوهم أن الآية نزلت فى بيعة النساء يوم الفتح وليس كذلك وإنما أطلق الآية على من لم يبايعه من أهل مكة لقرب عهدهم بالإسلام والله أعلم . اه . وقال ابن عطية فى إتيان البهتان قال : أكثر المفسرين أن تنسب إلى زوجها ولدا ليس منه

قالوا اللفظ أعم من هذا التخصيص . اهـ والمعروف يعم جميع أوامر الشرع فرضاً وندباً ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ من سالف ذنوبهن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ولما كان بعض فقراء المؤمنين يوالون اليهود لعل أن يصيبوا منهم بعض ثمارهم نزل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ هم اليهود ﴿قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ من ثوابها مع إيقانهم بها لعنادهم النبي صلى الله عليه وسلم مع علمهم بصدقه ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ «من» بيان أى كما يئس من مات على الكفر من رحمة الله أو كما يئس الكفار من بعث الموتى لعدم اعتقادهم الحشر .

[تم تفسير سورة الممتحنة]

سورة الصف

مدنية أو مكية ، والأول أصح ، وهى أربع عشرة آية

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ • سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ سبق تفسيره ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ الاستفهام للإنكار ، نزلت الآية لما قالوا لو علمنا أحب الأعمال إلى الله لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا فنزل «إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا» فولوا يوم أُحد فعاتبهم بهذه الآية واستدل بها مالك على أن الوعد يلزم وحمل ذلك غيره على أمر الآخرة قال ابن عطية : كل من يقول ما لا يفعل فهو ممقوت ﴿كَبُرَ﴾ عظم ﴿مَقْتًا﴾ تمييز وهو أشد البغض ﴿عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟﴾ فاعل «كبر» ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ فى الجهاد وغيره وفيه مبالغة فى تهجينه لما فى «كبر» من معنى التعجب المراد منه تعظيم الجناية وإسناده إلى القول أولا ثم تمييزه بالمقت وتقديمه وجمله عند الله . قال قتادة : دخل فيه من يتحدث عن نفسه فى الغزو بما لم يفعل . قال ابن عطية : قول المرء ما لا يفعل موجب مقت الله . ولذا فر كثير من العلماء عن الوعظ وآثر السكوت . اهـ . قال فى الجواهر : وهذا إن وجد من يكفيه عن الوعظ وإلا فلا يسعه السكوت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ﴾ ينصر ويكرم ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى

سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ حال أى صافين ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ ملزق بعضه إلى بعض ثابت . قال عليه السلام « من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة فقد وجبت له الجنة ومن سأل الله القتل من نفسه صادقاً ثم مات أو قتل فإنّ له أجر شهيد » رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه ، قال الترمذى حديث صحيح ﴿ وَ ﴾ اذكر للمؤمنين ليحذروا ما وقع فيه مَن قبلهم من العصيان ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ أى ذلك الوقت ﴿ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي ﴾ بالعصيان والرمى بالأُدرة ﴿ وَقَدْ ﴾ للتحقيق ﴿ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ بما جئتكم به من المعجزات والرسول بحترم ، والجملة حال والذنب مع العلم أشد ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا ﴾ عن الحق بإيذائه ﴿ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ صرفها عن الاهتداء ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ لا يوفقهم لأنهم خلقوا للنار ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ لم يقل ياقوم تذكيراً لهم بأنهم أولاد إسرائيل الذى وصى بنيه ألا يعبدوا إلا الله لا لأنهم ليسوا من قومه لدخوله فى ذرية إسرائيل كما تقدم فى الأنعام ومريم ولقوله « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ ﴾ قبلى ﴿ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي ﴾ ومصدقاً ومبشراً : حالان والعامل معنى الرسالة الذى فى رسول الله لا الجار لأنه لغوٌ إذ هو صلة للرسول فلا يعمل إذ ليس فيه معنى الفعل ﴿ اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ أفعل تفضيل من الحمد لم يسم به أحدٌ قبله ، قال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم ﴾ جاء أحد الكفار أو عيسى بنى إسرائيل ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ الآيات الواضحات فى القرآن أو مثل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ﴿ قَالُوا هَٰذَا ﴾ أى ما جاء به أو الجائى ﴿ سِحْرٌ ﴾ ولحمزة والكسائى : ساحر ﴿ مُّبِينٌ ﴾ بيّن ﴿ وَمَنْ ﴾ أى لا أحد ﴿ أَظْلَمُ ﴾ أشد ظلماً ﴿ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ بوصف آياته أو رسله بالسحر ﴿ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ﴾ المؤدى إلى خير الدارين فلا جناية فوق جناية هذا لزوال الاشتباه وعدم العذر ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ الكاملين فى الظلم وهم المشركون واليهود ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا ﴾ منصوب بأن مقدرة واللام مزيدة لتأكيد الإرادة لما فى اللام من معناها أو يريدون الافتراء ليطفئوا ﴿ نُورَ اللَّهِ ﴾ شرعه أو نعت محمد ﴿ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ أقوالهم إنه سحر وشعر أو بتحريف الكلم عن مواضعه مَثَلُ حالهم بمن يريد إطفاء نور الشمس بنفخ فى الهواء ﴿ وَاللَّهُ مُتِمٌّ نُورَهُ ﴾ بالتنوين ونصب ما بعده لنافع وأبى عمرو وابن عامر وأبى بكر ، وبالإضافة للباقين أى يبلغ شرعه غايته بنشره وإعلائه على الدين كله ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ ذلك الساترون نعمة الله إرغاماً لهم ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ ﴾ بالقرآن المعجز ﴿ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ الذى لا يطرقه نسخ ولا تبديل ﴿ لِيُظْهِرَهُ ﴾ يعليه ﴿ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ جميع الأديان المخالفة له ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ عباد الأوثان واليهود القائلون « عزير ابن الله » والنصارى المثلثون ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم ﴾ بالتخفيف للجمهور والتشديد لابن عامر ﴿ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ مؤلم فكأنهم قالوا : نعم ، فقال ﴿ تُؤْمِنُونَ ﴾ تدومون على الإيمان ﴿ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ

﴿ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ ولم يقل آمنوا مبالغة فى الحث عليه كأنهم امتثلوا فهو يخبر عنهم إيذاناً بأن ذلك مما لا يترك ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ أى ما ذكر من الإيمان والجهاد ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى من ذوى العلم أو إن علمتم أنه خير فابذلوا فى تحصيله الأموال والأنفس ﴿ يَغْفِرْ ﴾ جواب للأمر المدلول عليه بلفظ الخبر أو لشرط مقدر أى إن تفعلوه يغفر ﴿ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور ﴿ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ الذى لا يحيط به الوصف ﴿ وَ ﴾ لكم نعمة ﴿ أُخْرَىٰ ﴾ دنيئة بالنسبة إلى الأولى ومع ذلك ﴿ تُحِبُّونَهَا ﴾ وفيه تعريض بأنهم يؤثرون العاجل على الآجل وقيل أخرى منصوبة بإضمار يعطكم أو تحبون أو مبتدأ خبره ﴿ نَصْرٌ مِّنَ اللهِ ﴾ بدل أو بيان على الأول وعلى الثانى خبر محذوف ﴿ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ فتح مكة أو فارس والروم ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يا محمد بما وعدتهم على التجارة آجلا وعاجلا من الجنات والنصر والفتح ﴿ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنصَارًا لِلَّهِ ﴾ لدينه ، بالتنوين واللام لنافع وابن كثير وأبى عمرو وبالإضافة للباقين ﴿ كَمَا ﴾ كان الحواريون الدال عليه ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِى ﴾ من جندى الكائنون معى متوجهاً ﴿ إِلَى اللهِ ﴾ إلى نصر دينه ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ أصفياء عيسى أول من آمن به وكانوا اثنى عشر رجلا وتقدم فى آل عمران ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ ﴾ أنصار دينه ﴿ فَـَٔامَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ بعيسى ﴿ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ﴾ منهم به فاقتتلت الطائفتان بعد رفع عيسى ﴿ فَأَيَّدْنَا ﴾ قوينا ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ من الطائفتين ﴿ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ ﴾ الطائفة الكافرة ، وإيثار لفظ العدو لإشعاره بالتشنيع ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَٰهِرِينَ ﴾ غالبين بالسيف والحجة .

[تم تفسير سورة الصف]

سورة الجمعة
مدنية ـ وهي إحدى عشرة آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ ﴾ البليغ التنزه عن وصمة النقص والشين ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ الغالب ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ البالغ حكمته توطئة لقوله ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ ﴾ العرب لأن أكثرهم لا يكتب ولا يقرأ ﴿ رَسُولًا ﴾ لفرط احتياجهم إليه ﴿ مِنْهُمْ ﴾ يعرفون صدقه وأمانته لكونه أشفق بهم وأرفق وهو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ القرآن مع كونه أميًّا مثلهم معجزة له ولو لم تكن له معجزة سواه لكفاه ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ يطهرهم من خبائث الأعمال كالشرك ورذائل الأخلاق ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ ﴾ القرآن ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ ما فيه من الأحكام ومعالم الدين المنقولة والمعقولة ﴿ وَإِنْ ﴾ مخففة أى وإنهم ﴿ كَانُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ قبل مجيئه ﴿ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ظاهر من عبادة الحجر وأكل الجيف والطواف عراة ، وهو بيان لشدة احتياجهم إلى نبي يرشدهم وإزاحة لما يتوهم أن الرسول تعلم ذلك من معلم ﴿ وَآخَرِينَ ﴾ عطف على الأميين أو المنصوب فى « يعلمهم » ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من الأميين نسباً أو جنساً وهم الذين جاءوا بعد الصحابة إلى يوم الدين . وفى البخارى : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من هم ؟ فوضع يده على سلمان وقال : هم قوم هذا . يعنى فارس . قال فى غاية الأمانى : وليس فيه منع الغير فيتناول كل من يأتى بعد الصحابة إلى آخر الدهر ﴿ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ فى السابقة والفضل أو لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون لما فى « لما » من معنى التوقع ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ فى تمكينه من هذا الأمر الخارق للعادة ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى اختياره وتعليمه وفى هذا بيان فضل الصحابة على من عداهم ممن بعث إليهم النبى وآمنوا به من الإنس والجن إلى يوم القيامة لأن كل قرن خير ممن يليه ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ ﴾ أى كونه رسولا للأولين والآخرين وفى إضافة الفضل إلى اسم الجلالة إشارة إلى أن كل فضل دونه ﴿ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ تفضلا منه ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ الذى لا يحاط به ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ﴾ كلفوا العمل بها ﴿ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ لم يعملوا بها ولا حملوها على عاملها حين كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم والتوراة تنطق بنبوته وحرفوا نعته ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ كتباً فى عدم انتفاعه بها و « يحمل » حال والعامل فيه معنى المثل أو صفة إذ لم يرد بالحمار معين وهو تشبيه مرسل مركب الوجه وهو الحرمان من الانتفاع بأبلغ نافع مع الكد والتعب واتصاله بما قبله أنهم علموا فى التوراة نعت المبعوث

فى الأميين رسولا وكتموه ﴿ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ الدالة على نبوة محمد هذا المثل ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ أى اليهود الذين لم يعملوا التوراة ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا ﴾ تهوّدوا ﴿ إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ ﴾ بقولكم « نحن أبناء الله وأحباؤه » ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ ﴾ من الله أن ينقلكم من دار البلية إلى دار كرامته ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى زعمكم لأن من علم أن مآله جنة عدن تمنى الخلاص من دار الفناء ، وأتى بإن مع الزعم إشارة إلى أن الأولى بحال من على طريقتهم الشك والدعوى الباطلة ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ بسبب ما قدموا من الكفر والمعاصى ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ ظاهراً وباطناً فيجازيهم على أعمالهم ، وجعل الله هذه الآية معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم وأعلمه أنه إن تمنى أحد منهم الموت فارق الدنيا فقال لهم تمنوه على جهة التعجيز فما تمناه أحد منهم ثقة بصدقه عليه السلام ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ ﴾ وتخافون تمنيه ﴿ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ﴾ لا تفوتونه ، والفاء لتضمن الموت معنى الشرط باعتبار الوصف وكأن فرارهم يسرعهم إليه ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ السر والعلانية ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ به فيجازيكم به ولما نهى الله عن اليهود ما يمنون به أنفسهم من الأمانى الباطلة أمر المؤمنين بالسعى إلى ما فات اليهود من فضيلة يوم الجمعة بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ ﴾ أذّن ﴿ لِلصَّلَاةِ ﴾ النداء الذى بين يدى الخطبة وهو الثانى لأن الأول أحدثه عثمان رضى الله عنه عند كثرة الناس ﴿ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ سمى به لاجتماع الناس فيه للصلاة وكانت العرب تسميه العروبة وأول جمعة جمعها رسول الله أنه لما قدم المدينة نزل قباء وأقام بها إلى الجمعة ثم دخل المدينة وصلى الجمعة فى دار لبنى سالم بن عوف ﴿ فَاسْعَوْا ﴾ امضوا ﴿ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ الخطبة أو الصلاة والمراد بالسعى القصد والاهتمام لا الإسراع لورود النهى عنه ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ اتركوا عقده لأنه حرام وكذا الشراء وسائر المعاملات اتفاقاً من جلوس الخطيب إلى انقضاء الصلاة والأمر فى « فاسعوا » دليل على وجوبها على الحر المقيم الصحيح القريب من موضعها بثلاثة أميال فأقل ولا تفتقر إقامتها إلى إذن الإمام ولا بد فيها من مسجد وإمام وجماعة وخطبة ولا يجوز السفر بعد الزوال يومها قبل الصلاة ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ من المعاملات فإن نفع الآخرة خير وأبقى ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنه خير ، وفى التعبير بإن إشارة إلى العتاب ببعد العلم لمن خرج وترك النبى قائماً كما يأتى ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ ﴾ أديت وفرغ منها ﴿ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ من رزقه تجهزاً لما فاتكم ، والأمر للإباحة لوروده بعد النهى ودخل فى فضل الله طاعته بعيادة المرضى وتشييع الجنائز وزيارة الإخوان فى الله وطلب العلم . قال العلماء : ينبغى أن يطلب العلم إثر الجمعة ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ بالقلب واللسان ذكراً ﴿ كَثِيرًا ﴾ فى جميع الأحوال إذ ما من شىء أنجى من عذاب الله من ذكر الله . رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم فى المستدرك وقال صحيح الإسناد ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ تفوزون برضاته . كان صلى الله عليه وسلم

يخطب يوم الجمعة فقدمت عير لِدِحْيَة قبل إسلامه ومعها طبل نضرب بقدومها على عادتهم قبل الإسلام فخرج الناس إليها من المسجد وتركوا النبي قائماً غير اثنى عشر رجلا فنزل ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا ﴾ وهو الطبل إذ منهم من خرج لمجرد سماعه ﴿ ٱنفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾ إلى التجارة لأنها مطلوب الأكثر دون اللهو ولأن الانفضاض إليها إذا كان مذموماً فإلى اللهو أولى ﴿ وَتَرَكُوكَ ﴾ فى الخطبة ﴿ قَائِمًا ﴾ على المنبر فيه دليل على أن الإمام يخطب قائماً ، وفيه غاية التعيير إذ لو لم يكن إلا تركه قائماً دون أن يكون خطيباً لكان شنيعاً ﴿ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ من الثواب ﴿ خَيْرٌ ﴾ للذين آمنوا ﴿ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَارَةِ ﴾ لكونه باقياً صفواً بلا كدر ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ ﴾ فتوكلوا عليه وتوجهوا إليه فى طلب الرزق .

[تم تفسير سورة الجمعة]

سورة المنافقين

مدنية ــ وهى إحدى عشرة آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ • إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُنَافِقُونَ قَالُوا ﴾ بألسنتهم على خلاف ما فى قلوبهم ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ إنشاء جار مجرى القسم ولذا أكد بإنّ واللام يتضمن ادعاء المواطأة بين القلب واللسان ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ وأن ما قالوه كلام مطابق للواقع قطعاً ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ ﴾ يعلم ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ فى ادعاء المواطأة أو كاذبون فى أنفسهم لا يعتقدون صدق مقالهم واعترض بقوله « والله يعلم إنك لرسوله » ليحيط رجوع التكذيب إلى قولهم ﴿ ٱتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ وقاية عن القتل والسبي استئناف لبيان فائدة تلك الشهادة التى هى بمثابة اليمين ﴿ فَصَدُّوا ﴾ بها ﴿ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الجهاد فيهم أو اتخذوا كلام مستقل لعد قبائحهم وصدوا بمعنى أعرضوا أو منعوا غيرهم عن سلوك السبيل ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من النفاق إنشاء كأنه قيل ما أسوأ ما ارتكبوه ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى سوء عملهم أو تفضيحهم وتوبيخهم ﴿ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ﴾ ظاهراً باللسان ﴿ ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ بالقلب أى استمروا على كفرهم باطنا ﴿ فَطُبِعَ ﴾ ختم ﴿ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ منع دخول نور الحق فيها ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ شيئاً من الحق إنما قال « آمنوا ثم كفروا »

مع أنهم لم يؤمنوا طرفة عين لأنهم نطقوا بالشهادة ثم ظهر كفرهم أو نطقوا بها عند المؤمنين ثم كفروا عند شياطينهم والحمل على أهل الردة بعيد ناب عنه المقام ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ لجمالها ونعومتها أو المراد وجوههم فقط مجازاً لغويا ﴿ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ لفصاحته وحلاوته لأن ابن أبيّ وأتباعه الذين نزلت فيهم السورة كانوا ضخاماً وساماً فصاحا والخطاب في « رأيتهم » للرسول أو عام والأول أوجه لتقدم « إذا جاءك » ولأنه إذا أعجبته فغيره أولى ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ ﴾ بضم الشين للجمهور وسكونها لأبي عمرو والكسائي وقنبل ﴿ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ مائلة إلى الحائط في كونهم أشباحا خالية عن العلم والنظر وناهيك بسفالة النفاق تشبيه أهله بجماد وتشبيه الكفار بالأنعام و« كأنهم » حال من الضمير المجرور في « لقولهم » ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ ﴾ تصاح كنداء في العسكر وإنشاد ضالة واقعة ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ لما في قلوبهم من الرعب أن ينزل فيهم ما يهتك أستارهم ويظهر أسرارهم ويبيح دماءهم ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ ﴾ لاغير لأن أعدى العدو من تلقاك بوجه الصديق لوقوفه على أسرارك وتمكنه من إشاعة أخبارك ﴿ فَاحْذَرْهُمْ ﴾ خذ حذرك منهم ولا تغتر بظاهرهم فإنهم يفشون سرك لأعدائك ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ﴾ أهلكهم ولعنهم دعاء منه تعالى ينبئ عن فرط السخط أو تعليم للمؤمنين الدعاء عليهم ﴿ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ كيف يصرفون عن الإيمان بعد قيام البرهان تعجيب من العدول مع موجب القبول ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا ﴾ معتذرين ﴿ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَوْا ﴾ بالتخفيف لنافع والتشديد للباقين أمالوا وعطفوا ﴿ رُءُوسَهُمْ ﴾ إعراضاً ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ ﴾ يعرضون عن ذلك فضلا عن الاستماع ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن الاستغفار ، اتفق الثقاة على أنها نزلت في عبد الله بن أبيّ وأصحابه لما قالوا « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » فسألهم رسول الله عن ذلك فحلفوا له ماقالوا فنزلت الآية وبينت أنهم قالوا ذلك فأرسل إليهم الرسول ليستغفر لهم فلووا رءوسهم واستكبروا فنزل ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ ﴾ استغنى بهمزة الاستفهام عن همزة الوصل ﴿ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ لرسوخهم في الكفر وعدم اعتدادهم باستغفار ولعله بأنهم أهل الدرك الأسفل ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ الخارجين عن مظنة الاستصلاح لانهماكهم في الكفر والنفاق ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ ﴾ لأصحابهم من الأنصار ﴿ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ من فقراء المهاجرين ﴿ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ﴾ يتفرقوا عنه قاله عبد الله بن أبيّ المنافق قال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ بيده الأرزاق والقسم قادر على إغناء محمد وأصحابه عن إنفاق أحد ﴿ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ذلك لجهلهم بالله ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا ﴾ من غزوة بني المصطلق ﴿ إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا ﴾ عنوا به أنفسهم ﴿ الْأَذَلَّ ﴾ عنوا به رسول الله والمؤمنين قال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ ﴾ الغلبة والقوة ﴿ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لأن عزتهم عزة الله ﴿ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ أعاد المظهر لئلا يفارقهم هذا الوصف ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك من فرط جهلهم وغرورهم فصلها بالعلم لأن هذا الأمر جليّ

وما قبلها بالفقه لأن فى أمر الرزق نوع خفاء لابتنائه على نوع تعمل ثم نهى الله المؤمنين عن الاغترار بما غر المنافقين من الاشتغال بالأموال وأمرهم بإنفاقها فى سبيل الله بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ ﴾ تشغلكم ﴿ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أى دين الله كله كالصلوات الخمس وسائر العبادات أى لا يشغلكم تدبيرها والاهتمام بها عنه ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ لأنهم باعوا العظيم الباقى بالحقير الفانى ﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ أى بعضه ادخاراً للآخرة ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ أماراته وغائله ﴿ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا ﴾ بمعنى هلا أو «لا» زائدة و«لو» للتمنى ﴿ أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ بالإمهال ﴿ فَأَصَّدَّقَ ﴾ بإدغام التاء فى الأصل فى الصاد أتصدق بالزكاة وغيرها ﴿ وَأَكُنْ ﴾ بالجزم عطفاً على محل « فأصدق » للجمهور وبالنصب لأبى عمرو عطفاً على لفظه وهو الأظهر لاحتياج الجزم إلى التقدير أى إن أخرتنى أصدق وأكن ﴿ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ بالتدارك .

فعلى العاقل المبادرة إلى التصدق إذ هو فى كل لحة بصدد الموت ولا يغتر بالصحة قال ابن عباس : ماقصر أحد فى الزكاة والحج إلا سأل الرجعة عند الموت ﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ ﴾ لا يمهل ﴿ نَفْسًا ﴾ لحة ﴿ إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ انتهاء عمرها ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ بالتاء للجمهور والياء لأبى بكر فاختاروا لأنفسكم ما شئتم فهو يجازيكم عليه .

[تم تفسير سورة المنافقين]

سورة التغابن

مدنية على الأصح ـ ثمانى عشرة آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ قدم الظرفان لتأكيد الاختصاص وإزاحة الشبهة رأساً وأما حمد غيره فلجريان نعمة الله على يده فهو حمد لله حقيقة ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ كامل القدرة لا تقاومها قدرة ولا تشاركها فى التأثير دليل على الاختصاص ثم شرع فى تقرير ما ادعاه فقال ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ ﴾ فى أصل الخلقة مقدر كفره موجه إليه ما يحمله عليه ﴿ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ مقدر إيمانه موفق لما يدعوه إليه أو فمنكم كافر بهذه النعمة لجهله بالله ومنكم مؤمن بالله شكراً لتلك النعمة ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ مشاهد فيجازى عليه

﴿ خلق السموات والأرض بالحق ﴾ بالحكمة البالغة مرتباً أسباب معاشكم فيها ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾ إذ جعل شكل الآدمى أحسن الأشكال وخصه بأوصاف الكمال وجعله نموذج عالم الملك والملكوت ومهبط أسرار الجلال والجمال ﴿ وإليه المصير ﴾ يسألكم عن النقير والقطمير فأحسنوا سرائركم حتى لا يمسخ بالعذاب ظواهركم ﴿ يعلم ما فى السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور ﴾ بمضمراتها فضلا عن السر والعلن فاستعملوا بالعبادة ظواهركم وطهروا سرائركم وأخلصوا ضمائركم لتحمدوا عواقبكم فدم تقرير القدرة على العلم لأن دلالة المخلوقات على قدرته ثابتة أولا بالذات وعلى علمه ثابتة بما فيها من الإتقان والاختصاص ببعض الأنحاء ﴿ ألم يأتكم ﴾ يا كفار مكة ﴿ نبأ ﴾ خبر ﴿ الذين كفروا من قبل ﴾ كقوم نوح وهود وصالح المعنى بل أتاكم ﴿ فذاقوا وبال أمرهم ﴾ ضرر كفرهم ووخامته فى الدنيا بالاستئصال وأصله الثقل ﴿ ولهم ﴾ فى الآخرة ﴿ عذاب أليم ﴾ مؤلم ﴿ ذلك ﴾ المذكور من عذاب الدارين ﴿ بأنه ﴾ بأن الشأن ﴿ كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ﴾ المعجزات الظاهرات على الإيمان ﴿ فقالوا أبشر يهدوننا ﴾ إنكار مع تعجب والبشر أريد به الجنس ، أو لأنه يطلق على الواحد والجمع ﴿ فكفروا ﴾ بالرسل ﴿ وتولوا ﴾ أعرضوا عن الإيمان ﴿ واستغنى الله ﴾ عن إيمانهم لأنه الغنى عن كل شىء ﴿ والله غنى ﴾ فى ذاته وصفاته وأفعاله ﴿ حميد ﴾ ذاتا وصفة وفعلا دلت على ذلك ذرات الكون ﴿ زعم الذين كفروا أن ﴾ أى أنهم ﴿ لن يبعثوا ﴾ وأن مع ما فى حيزها قائم مقام المفعولين ﴿ قل بلى ﴾ تبعثون ﴿ وربى لتبعثن ﴾ قسم أكد به الجواب ﴿ ثم لتنبؤن بما عملتم ﴾ بالمحاسبة والمجازاة ﴿ وذلك على الله يسير ﴾ لغناه عن الآلات ودورانه بين الكاف والنون ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ إليكم محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ والنور ﴾ القرآن ﴿ الذى أنزلنا ﴾ لأنه بإعجازه ظاهر بنفسه مظهر لغيره مما فيه بيانه ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ لا يخفى عليه منه شىء فمجاز عليه ﴿ يوم يجمعكم ﴾ ظرف لاذكر مقدرا أو لخبير أو « لتنبؤن » وقوله « وذلك على الله يسير » وقوله « فآمنوا » اعتراض الأول يؤكد القدرة والثانى يؤكد ما سيق له الكلام من الحث على الإيمان به وبالقرآن وبمن جاء به و « بما تعملون خبير » من تتمة الثانى ﴿ ليوم الجمع ﴾ للملائكة والثقلين واللام للعلة أى لأجل ما فيه من الحساب والجزاء ﴿ ذلك يوم التغابن ﴾ يغبن المؤمنون الكافرين بأخذهم منازلهم وأهليهم فى الجنة لو آمنوا مستعار من تغابن التجار وأل فيه للدلالة على أن التغابن الحقيقى هو التغابن فى أمور الآخرة لعظمها ودوامها فكأنه لا تغابن إلا ذلك فلذلك أطلق لكونه علما له وأما التغابن فى البيع والشراء فما لا يمكن الاحتراز منه فاض إذ لو حكمنا بالرد به ما نفذ بيع أبدا وأما الذى يمكن الاحتراز منه وهو الكثير الذى زاد على الثلث فيثبت به الرد . والله أعلم ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل ﴾ عملا ﴿ صالحاً نكفر عنه سيئاته وندخله ﴾ بالنون فى الفعلين لنافع وابن عامر التفاتا وبالياء للباقين ﴿ جنات تجرى من تحتها الأنهار

خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ﴾ الإشارة إلى مجموع الأمرين ﴿ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ لأنه جامع للصالح من دفع المضار وجلب المنافع ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ كأنها والآية المتقدمة بيان للتغابن وتفصيل له ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ بتقديره وإرادته ودخل فيها كفر الكافرين أولا إذ لا مصيبة أعظم منها ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ أى بأن المصيبة بقضائه ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ يثبته : إن ابتلاه صبر وإن أعطاه شكر وإن ظلمه أحد غفر ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ يعلم من هو أهل للهداية ﴿ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ ﴾ لأن عصيانهما أعظم المصائب ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أعرضتم ﴿ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ الواضح وقد بلغ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ لأن إيمانهم بأن الكل منه يقتضى ذلك وفيه حث لرسول الله والمؤمنين على الصبر لما يصيبهم من أذى الكفار ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾ يشغلكم عن طاعة الله ويخاصمكم فى أمر الدين والدنيا ﴿ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ خذوا حذركم ولا تأمنوا غوائلهم كمنع الخير كالجهاد والهجرة إذ روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت فى أناس أرادوا الهجرة فمنعهم نساؤهم وأولادهم فلما هاجروا بعد زمان وجدوا السابقين فقهوا فى الدين فهمّوا بالانتقام بمانعيهم فنزل ﴿ وَإِن تَعْفُوا ﴾ عنهم بترك المعاقبة فى تثبيطهم إياكم عن ذلك الخير معتلين بمشقة فراقكم ﴿ وَتَصْفَحُوا ﴾ بترك التثريب عليه ﴿ وَتَغْفِرُوا ﴾ بإخفائه وتمهيد عذرهم فيه وجمع بين الثلاثة لأن الصبر على أذى من أحسنت إليه أشق ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يعاملكم مثل ما عملتم ويتفضل عليكم ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ابتلاء لكم من الله لينظر هل تؤثرون محبتهم على طاعة الله وتشغلكم الأموال عن أمور الآخرة وفى الجواهر الأموال والأولاد تشغل المرء عن مراشده وتحمله من الرغبة فى الدنيا على ما لا يحمده فى آخرته ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « الولد مجبنة مبخلة » ا هـ . أى سبب الجبن والبخل ، وقد جاء الحسن والحسين رضى الله عنهما والنبى على المنبر يخطب وهما يعثران فى قميصهما ويقومان فنزل عن المنبر حتى أخذهما وصعد بهما ثم قرأ « إنما أموالكم وأولادكم فتنة . . الآية » وقال : « إنى رأيت هذين فلم أصبر ثم أخذ فى خطبته » أخرجه أبو داود . قال ابن عطية : وهذه ونحوها هى فتنة الفضلاء فأما فتنة الجهال والفسقة فمؤدية إلى كل فعل مهلك ، وعن أبى ذر رضى الله عنه : « انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : هم الأخسرون ورب الكعبة ، فقلت : من هم . قال : الأكثرون مالا إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا ـ وأشار ابن شهاب بين يديه وعن يمينه وعن شماله ـ وقليل ما هم » أخرجه البخارى ومسلم ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لمن آثر محبة الله وطاعته على محبة الأموال والأولاد والسعى لهم وهو حث على إيثار طاعته ﴿ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ غاية جهدكم إذ لا تكليف فوق ذلك تفسير لقوله « اتقوا الله حق تقاته » لا ناسخ له ﴿ وَٱسْمَعُوا ﴾ مواعظه ﴿ وَأَطِيعُوا ﴾ أوامره أو اسمعوا لأولى الأمر منكم وأطيعوا

أوامرهم ما لم تكن معصية إذ « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ﴿ وَأَنْفِقُوا ﴾ فى وجوه الخير فرضا ونفلا خالصا لوجهه ﴿ خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ ﴾ خبر يكن مقدرة جواب الأمر تأكيد للحث على الامتثال ويجوز أن يكون صفة مصدر محذوف أى إنفاقا خيرا لأنفسكم ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ ﴾ بتصريف المال فيما أمر ﴿ قَرْضاً حَسَناً ﴾ عن طيب نفس خالصا لله وفى التعبير عن الصدقة بلفظ القرض تلطف فى الطلب بها ﴿ يُضَاعِفْهُ ﴾ ولابن كثير وابن عامر يضعفه بالتشديد ﴿لَكُمْ﴾ بالواحدة عشرة إلى سبعمائة وأكثر ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما فرط ببركة الإنفاق لأن الحسنات يذهبن السيئات ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ ﴾ مجاز على الطاعة يعطى الجزيل بالقليل ﴿ حَلِيمٌ ﴾ فى العقاب على المعصية لايعاجل به ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ على سواء حث على الإخلاص ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب لا مانع لعطائه ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى كل ما دبر .

[تم تفسير سورة التغابن]

سورة الطلاق

مدنية ـ ثلاث عشرة آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ خصه بالنداء إجلالا ولأن أمته تابعون له ولذا عمم الخطاب بالحكم أى إن أردتم تطليقهن ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ أى وقتها وهو الطهر الذى لم تمس المرأة فيه واحدة بلا عوض ، هذا طلاق السنة كما فسره عليه السلام بذلك . رواه الشيخان . ويجوز طلاق الحامل فى أى وقت إذا استبان حملها فاللام للتوقيت ومن عد العدة بالحيض وهو الحنفى علق اللام بمحذوف مثل مستقبلات وظاهر الآية يدل أن العدة بالطهر وأن طلاق المعتدة بالأقراء ينبغى أن يكون فى الطهر وأنه يحرم فى الحيض من حيث أن الأمر بالشىء يستلزم النهى عن ضده لكن لا يستلزم فساده للدليل الدال على لزومه وهو ما صح أن ابن عمر لما طلق امرأته حائضاً أمره النبى

صلى الله عليه وسلم بالمراجعة وهو سبب النزول فقال : « فليراجعها فإذا طهرت ثم حاضت ثم طهرت فليطلقها إن شاء » . قلت : إنما كرر الطهر في الحديث لئلا يكون الرجوع للطلاق ولأن طول المدة عسى يؤثر في تبدل الحال والطلاق أنكر المباحات فاحتيط لذلك والله أعلم . ثم أمر بإحصاء العدة لما يلحق ذلك من أحكام المراجعة والسكنى والميراث وغير ذلك بقوله ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾ احفظوها لتراجعوا قبل فراغها وهي أربعة أنواع ثلاثة أقراء ، وثلاثة أشهر ، ووضع الحمل ، وسنة بيضاء لمن تأخر حيضها لمرض ونحوه ما لم ترتب بحمل فإن ارتابت أقامت أربعة أعوام أو خمسة ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ في أمره ونهيه ومنه إضرار النساء ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ ﴾ وقت الطلاق ﴿ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ﴾ مساكنهن إلى انقضاء المدة ﴿ وَلَا يَخْرُجْنَ ﴾ استقلالا وإن أذن الأزواج لأن ذلك حق للشارع ليس لأحد إسقاطه حفظاً للأنساب وسنة ذلك أن لا تبيت إلا في بيتها ولا تغيب عنه نهاراً إلا في ضرورة وما لا خطب له من جائز التصرف ولا تنتقل إلا لضرورة خوف توحش أو حاجة معاش فتنتقل بحسبها ﴿ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ ﴾ زنى أو نشوز أو بذاء وإيذاء زوج ﴿ مُبَيِّنَةٍ ﴾ بكسر الياء للجمهور وفتحها لابن كثير وشعبة فيخرجن لإقامة الحد عليهن وكذا إن طلقن وهن ناشزات لأن النشوز يسقط الحق حال الوفاق فأحرى حال الفراق فالاستثناء راجع إلى الأمرين في الزنى والنشوز وإلى الأول فقط في إيذاء الزوج والبذاء ﴿ وَتِلْكَ ﴾ الأحكام المذكورة ﴿ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ بتعريضها لسخطه ﴿ لَا تَدْرِي ﴾ أي النفس أو أنت أيها المطلق ﴿ لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ الطلاق ﴿ أَمْرًا ﴾ من الندم على فراق المرأة والرغبة في الرجعة أو الاستئناف فيما إذا طلق واحدة أو اثنتين ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ قاربن انقضاء عدتهن ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ ﴾ راجعوهن بقول أو فعل كالوطء خلافاً للشافعي ، ولا بد من نية الارتجاع فيهما خلافاً لأبي حنيفة ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ بحسن عشرة وإنفاق مناسب لئلا يؤدي إلى فراق آخر ﴿ أَوْ فَارِقُوهُنَّ ﴾ اتركوهن حتى تنقضي عدتهن ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ بإيفاء الحق واتقاء الضرار ﴿ وَأَشْهِدُوا ﴾ على الرجعة والفراق ندباً في المشهور وفاقاً لأبي حنيفة ، وقيل وجوباً في الرجعة وفاقاً للشافعي ﴿ ذَوَيْ عَدْلٍ ﴾ خوف لله باتقاء الكبائر دائماً والصغائر غالباً وخرج الفاسقان والمرأتان ﴿ مِنْكُمْ ﴾ خرج الكافران والإشهاد لنفي الريبة وقطع النزاع ولما أن تمنع الزوج من نفسها حتى يشهد على الرجعة ﴿ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ ﴾ أيها الشهود عند الحاجة أي أدوها من غير تثاقل ﴿ لِلَّهِ ﴾ لا للمشهود عليه أو له ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ الذي ذكر في الآية من إيقاع الطلاق على وجه السنة وإحصاء العدة والكف عن الإخراج وإقامة الشهادة ﴿ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ لأنه المنتفع به ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ ﴾ فيما ذكر وغيره ﴿ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ من كرب الدارين ﴿ وَيَرْزُقْهُ ﴾ خير الدارين ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ لا يخطر بباله وجملة الشرط وما بعده اعتراض مؤكد لما سبق بالوعد على الاتقاء عما نهى عنه صريحاً أو ضمناً بالخلاص من مضار الدارين والفوز بخيرهما أو استطراد

عند ذكر المؤمنين دلالة على أن التقوى ملاك الأمر ، وعنه صلى الله عليه وسلم « إنى لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم «ومن يتق الله ... » فما زال يقرؤها ويعيدها ، وروى أن سالم بن عوف بن مالك الأشجعى أسره العدو فشكا أبوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : اتق الله وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله ففعل فبينما هو فى بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل ساقها من العدو ، فنزلت . وقال عليه السلام لابن مسعود : لا يكثر همك ماقدر يكون وما ترزق يأتيك ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ فى أموره ﴿ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ كافيه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ مراده لا يفوته ، وقرأ حفص بالإضافة ﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ كرخاء وشدة ﴿ قَدْرًا ﴾ توقيتاً لا يتقدمه ولا يتجاوزه وهو بيان لوجوب التوكل وتقرير لما تقدم من توقيت الطلاق بزمان العدة والأمر بإحصائها وتمهيد لما يأتى من مقاديرها فى قوله ﴿ وَٱللَّائِى ﴾ تقدم اختلاف القراءات فيه بمعنى اللاتى ﴿ يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ ﴾ بمعنى الحيض ﴿ مِن نِّسَائِكُمْ ﴾ لكبرهن ﴿ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ ﴾ جهلتم وشككتم فى عدتهن ﴿ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَٱللَّائِى لَمْ يَحِضْنَ ﴾ بعدُ لصغرهن وإن كبرن كذلك فعدتهن ثلاثة أشهر ، فإذا رأت الدم فى زمن احتياله انتقلت إلى الدم كما أن المسنة إذا اعتدت بالدم ثم انقطع عادت إلى الأشهر والمسألتان فى غير المتوفى عنهن أزواجهن أما هن فعدتهن أربعة أشهر وعشراً كما تقدم ﴿ وَأُولَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ ﴾ طلقن أو توفى أزواجهن عنهن ﴿ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ ولو علقة أو مضغة . وفى الصحيحين أن سُبَيْعَةَ بنت الحارث الأسلمية توفى عنها سعيد بن خولة وهى حامل فوضعت بعده بأربعين يوماً فقال لها عليه السلام : « قد حللت فتزوجى » ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ يسهل عليه أمره فى الدارين ويوفقه للخير ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور فى العدة ﴿ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ حكمه ﴿ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ ﴾ لتعملوا بموجبه ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ فى أحكامه فيراعى حقوقها ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِ ﴾ فإن الحسنات يذهبن السيئات ﴿ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ يوم الجزاء بالمضاعفة ، ولقد بالغ فى أمر النساء بالحث على التقوى فى أمرهن مراراً وذلك لضعفهن ونقصان عقولهن وما يبدو منهن مما يوجب الغضب ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ ﴾ أى المطلقات ولو المبتوتات عند مالك وإن لم تكن لهن نفقة ﴿ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم ﴾ أى بعض مساكنكم ﴿ مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ من وسعكم أى ما تقدرون عليه بيان أو بدل مما قبله بإعادة الجار وتقدير مضاف أى أمكنة سعتكم لا ما دونها ﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ ﴾ فى السكنى والنفقة ﴿ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ المساكن فيحتجن إلى الخروج أو النفقة فيفتدين منكم ، لكن لا نفقة للاتى قد بنّ من أزواجهن بغير حمل ﴿ وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ واكسوهن بنّ أو لا لحق الحمل ﴿ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ فيخرجن من العدة ، ونفقة الحامل المتوفى عنها زوجها قبل من التركة ، والمشهور لا نفقة لها ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ ﴾ أولادكم منهن ﴿ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ على الإرضاع ﴿ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم ﴾ وبينهن فى الإرضاع والأجر ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ بجميل فى حق الأولاد بالتوافق على أجر معلوم للإرضاع من غير مشاحة

﴿ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ ﴾ تضايقتم فى الإرضاع فامتنع الأب من الأجرة والأم من فعله ﴿ فَسَتُرْضِعُ لَهُ ﴾ للأب امرأة ﴿ أُخْرَى ﴾ ولا تكره الأم على إرضاعه لكن فيه معاتبتها على المعاسرة والحث على المساهلة ﴿ لِيُنْفِقْ ﴾ على المطلقات والمرضعات ﴿ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ﴾ بقدر حاله ﴿ وَمَنْ قُدِرَ ﴾ ضيق ﴿ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ﴾ أى على قدر ما أعطاه وهذا يفيد أن النفقة ليست مقدرة شرعاً وإنما تقدر عادة بحسب المنفق والمنفق عليه ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ من المال وفيه تطييب لقلب المعسر ولذا وعده باليسر بقوله ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ وعدٌ للفقراء بالفتح وحث على الإنفاق بقدر الطاقة ثم بعد بيان جمل من الأحكام أشار إلى أنّ أهل قرية كثيرة عاندوا عن الامتثال فحل بهم بأس الله فخذوا حذركم بقوله ﴿ وَكَأَيِّنْ ﴾ هى كاف الجر دخلت على أى ولابن كثير كائنْ على وزن فاعٍ هما بمعنى كم ﴿ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ ﴾ عصت يعنى أهلها ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا﴾ أهلكناها لحديث من نوقش فى الحساب هلك ﴿حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا﴾ منكراً كالخسف والغرق ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ وخامة الأمر الذى خالفته ﴿ وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ لاربح فيه ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ مع ذلك فى الآخرة ﴿ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ بالنار وقيل الحساب والعذاب يوم القيامة والتعبير بالماضى لتحقق وقوعه . وعذاباً شديداً تكرير للوعيد توكيداً وبياناً لما يوجب التقوى المأمور به فى قوله ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ بعد هذا البيان ﴿ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ نعت للمنادى أو بيان له ﴿ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ هو القرآن ﴿ رَسُولًا ﴾ منصوب بفعل مقدر أى وأرسل رسولا ﴿ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ وهذا الذى فسرنا به ذكراً وقدرنا فى رسولا هو الأبين فى الأقوال كما قال عبد الرحمن فى الجواهر وغيره ﴿ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ بفتح الياء للجمهور وكسرها لابن عامر وحمزة والكسائى وحفص فى جميع القرآن ﴿ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ بعد مجىء الذكر والرسول أى ليخرجكم والإتيان بالظاهر للإشارة إلى فائدة الإرسال ﴿ مِنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ الكفر والمعاصى ﴿ إِلَى النُّورِ ﴾ الإيمان والصالحات ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا نُدْخِلْهُ ﴾ بالنون لنافع وابن عامر وبالياء للباقين ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴾ أى رزق هو رزق الجنة التى لا ينقطع نعيمها ، فيه تعجيب الرزق وتعظيمه ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ سبع أرضين . وفى البخارى : من غصب شبراً طُوِّقه من سبع أرضين . وحملها على الأقاليم باطل ، قاله فى غاية الأمانى ﴿ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ ﴾ أى أمر الله وقضاؤه ينفذ ﴿ بَيْنَهُنَّ ﴾ أو الأمر الوحى ينزل به جبريل من السماء السابعة إلى الأرض السابعة ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ علة لخلق أو لينزل أو بمقدر أى أعلمكم به لتعلموا فإن كل واحد يدل على كمال القدرة والعلم .

[تم تفسير سورة الطلاق]

سورة التحريم

مدنية ـ وهي ثنتا عشرة آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۞ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ من عسل تشربه عند زينب بنت جحش فلم تزل بنبي الله عليه السلام عائشة وحفصة حتى حرمه على نفسه أو من أمتك مارية القبطية ما زالتا به حتى حرمها على نفسه إرضاء لحفصة حين شق عليها وقاع مارية في بيتها على فراشها ، والصحيح أنها نزلت في تحريم العسل . أخرجه الشيخان ، والأكثر أنها نزلت في تحريم مارية ورجحه في فتح البارى لأحاديث ﴿ تَبْتَغِي ﴾ بتحريم ذلك ﴿ مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ أي رضاهن والجملة حال من فاعل «تحرم» لزيادة التهجين أو استئناف لبيان الداعي إليه ، فالمنكر هو الباعث لا مجرد التحريم لأن إسرائيل حرم على نفسه ما حرم ولم يعتب به ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ غفر لك هذا التحريم قال في فتوح الغيب : أردفه بهذا جبراً لما في صولة الخطاب على أنه عليه السلام ما ارتكب إلا ترك الأولى به وإنما شدد رفعاً لمحله ، ألا ترى كيف صدر الخطاب بذكر «النبي» الدال على رفع رتبته وقرن بيا التي للبعيد وها التنبيه أي تنبه لجلالة شأنك فلا تبتغ مرضاة أزواجك فيما أبيح لك ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ ﴾ شرع ﴿ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ تحليلها وهو حل ما عقدته بالكفارة التي تقدمت في المائدة أو بالاستثناء فيها بالمشيئة حتى لا يحنث من قولهم حلل في يمينه إذا استثنى والأول أظهر لأنه عليه السلام قال : حلفت فلا أعود إليه ، كما في البخاري قيل كفّر عليه السلام بعتق رقبة وقيل لا لأنه مغفور له ﴿ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ ﴾ ناصركم بتولي أموركم ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بأحوالكم ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ المتقن في أحكامه فبادروا إلى ما أمركم ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ ﴾ وهي حفصة على الأصح ﴿ حَدِيثًا ﴾ هو تحريم العسل أو مارية بأن قال لها لا تفشيه ثم إن حفصة قرعت الجدار الذي بينها وبين عائشة فأخبرتها السر واستكتمتها فأوحى الله إلى نبيه ذلك كما حكاه بقوله ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ ﴾ عائشة ظناً منها ألا حرج في ذلك أو لأنها لم تملك نفسها حتى أخبرت بذلك فرحاً ﴿ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ ﴾ أطلعه ﴿ عَلَيْهِ ﴾ على إفشائها الحديث على لسان جبريل عليه السلام ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ ﴾ عرّف الرسول حفصة بعض ما فعلت ، وللكسائي عرف بالتخفيف أي جازاها على البعض نحو «وما تفعلوا من خير يعلمه الله» ﴿ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ ﴾ تكرماً وحياء وحسن عشرة كما هو عادة الكرام قال الحسن : ما استقصى كريم قط ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ ﴾ بما أفشته وقال لها ألم أقل لك اكتمي عليّ ﴿ قَالَتْ

مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا ﴾ تعجبا ﴿ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ بظواهر الأشياء وبواطنها أى الله ، فقالت والذى بعثك بالحق ما ملكت نفسى فرحاً ، وأصل نبأ وأنبأ وأخبر أن يتعدى إلى اثنين بنفسه أو إلى الثانى بالحرف وقد يحذف الأول للدلالة عليه وقد جاءت الاستعمالات الثلاثة فى هذه الآيات فنى « من أنبأك هذا » ذكرهما بلا حرف ، وفى « نبأها به » تعدى إلى الثانى بالحرف ، وفى «نبأت به» حذف أولهما ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ ﴾ خطاب لحفصة وعائشة على الالتفات للمبالغة فى المعاتبة وجواب الشرط حق لكما دل عليه ﴿ فَقَدْ صَغَتْ ﴾ مالت ﴿ قُلُوبُكُمَا ﴾ عن الواجب الذى هو حب ما يحبه الرسول وكراهة ما يكرهه حيث مالت إلى تحريم مارية أو العسل أى سرّهما ذلك مع كراهة النبى له وذلك ذنب عظيم وأطلق الجمع على التثنية استثقالا للجمع بين تثنيتين فيما هو كالكلمة الواحدة ﴿ وَإِنْ تَظَّاهَرَا ﴾ بالإدغام للجمهور وبالتخفيف للكوفيين تتعاونا ﴿ عَلَيْهِ ﴾ أى النبى فيما يكرهه أى إن عدتما إلى ذلك مرة أخرى ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ ﴾ فصلٌ ﴿ مَوْلَاهُ ﴾ ناصره وفى زيادة ضمير الفصل إيذان بأنه يتولى ذلك بذاته ﴿ وَجِبْرِيلُ ﴾ أيضاً وليه ﴿ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى جنس الصالحين أو الصحابة أو أبو بكر وعمر وهو مفرد أريد به الجنس أو جمع حذف منه الواو والعطف على محل اسم إن أى لم يعدم ناصراً من ناصره الله ورئيس الملائكة جبريل وكل من صلح من المؤمنين ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ بعد نصر الله والمذكورين ثوب ﴿ ظَهِيرٌ ﴾ ناصر أو ظهراء أى أعوان له عليكما وقوله « بعد ذلك» تعظيم لمظاهرة الملائكة وفيهم جبريل أفرد بالذكر أولا لعلو شأنه ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ ﴾ بالتشديد لنافع وأبى عمرو والتخفيف للباقين ﴿ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ ﴾ خبر « عسى » والجملة جواب الشرط ولم يقع التبديل لعدم وقوع الشرط وتعليق حفصة لا ينافيه لأن الشرط فى طلاق الكل ﴿ مُسْلِمَاتٍ ﴾ مقرات بالإسلام أو منقادات ﴿ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ مخلصات أو مصدقات ﴿ قَانِتَاتٍ ﴾ طائعات دواماً ﴿ تَائِبَاتٍ ﴾ من الذنوب ﴿ عَابِدَاتٍ ﴾ لله أو مذللات الأخلاق ﴿ سَائِحَاتٍ ﴾ صائمات أو مهاجرات ﴿ ثَيِّبَاتٍ ﴾ متزوجات قبل ﴿ وَأَبْكَارًا ﴾ عذارى دخل العاطف هنا دون سائر الصفات لأنهما متنافيان وليست الواو واو الثمانية إذ تلك صالحة للسقوط بخلاف هذه إذ لا تجتمع الثيوبة والبكارة وبدأ بالثيبات لأنهن أكثر أزواجه عليه السلام لم يتزوج بكراً إلا عائشة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ بترك المعاصى وفعل الطاعات ﴿ وَأَهْلِيكُمْ ﴾ بالنصح والتأديب فى الحمل على طاعة الله لحديث « كلكم راع ومسئول عن رعيته » ﴿ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ تتقد بهما اتقاد غيرها بالحطب ﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ ﴾ تلى أمرها هم الزبانية ﴿ غِلَاظٌ ﴾ فى الأخلاق والأقوال ﴿ شِدَادٌ ﴾ فى الخلق والأفعال لا تأخذهم فى تعذيب أعداء الله رأفة ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ﴾ بدل من الجلالة أى لا يعصون أمر الله فيما مضى ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ فيما يستقبل أو لا يمتنعون عن التزام الأوامر ويؤدون ما يؤمرون أو تأكيد ، وفى الآية تخويف ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾ يقال لهم ذلك حين يساقون إلى

النار إذ لا عذر لهم ولا يقبل اعتذارهم ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ جزاءه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ بفتح النون للجمهور: بالغة في الخلوص والصدق، وبضمها لأبي بكر: مصدر بمعنى ذات خلوص من النصح بضم النون الخلوص أو بفتحها إصلاح الثوب بعد الخرق بأن لا يعاد إلى الذنب ولا يراد العود ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ تفضلا منه لا وجوباً ولذا ذكره بعسى ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ﴾ بإدخال النار، فيه تعريض للكفار ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ والظرف متعلق بيدخلكم ومعنى المعية الاجتماع في الإيمان لا في الزمان عطف على «النبي» أو مبتدأ خبره ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أمامهم ﴿وَ﴾ يكون ﴿بِأَيْمَانِهِمْ﴾ أي على الصراط ﴿يَقُولُونَ﴾ إذا طفئ نور المنافقين ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ إلى الجنة يقولون ذلك على وجه التقرب والتلذذ كسائر الأذكار في الجنة أو يقوله من يكون نوره ضعيفاً يسأل إتمامه تفضلا ويؤيد الأول قولهم ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ إذ إعطاء النور إنما يكون بعد الغفران ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ بالسيف ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ بالحجة ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ بالانتهار والمقت إذ لم يجد فيهم الرفق ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ جهنم ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في عدم الانتفاع بما لهم مع الأنبياء والمؤمنين من العلائق صهراً ونسباً ﴿امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾ أي بحالهما ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ في الدين بالنفاق وإفشاء أسرارهما وكانت امرأة نوح تقول لقومها إنه مجنون وامرأة لوط تدل قومها على أضيافه إذا نزلوا ليلا بإيقاد النار ونهاراً بالتدخين ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا﴾ أي نوح ولوط ﴿عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ﴾ من عذابه ﴿شَيْئًا وَقِيلَ﴾ لهما ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ من الكفرة الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء، وفيه تهديد للتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإشارة إلى أن شرف صحبته إنما يفيد من نصح لله ولرسوله ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ في عدم تضررهم بقرابة الكفار بمثل ﴿امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ آمنت بموسى واسمها آسية بنت مزاحم فعذبها فرعون بأن أوتد يديها ورجليها وألقى على صدرها رحى عظيمة واستقبل بها الشمس فكانت إذا تفرق عنها من وكل بها ظللتها الملائكة ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ وهي تعذب، ظرف للمثل المحذوف ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ﴾ عند رحمتك أو في أعلى درجات المقربين ﴿بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ فكشف لها فرأته فسهل عليها التعذيب ﴿وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ من نفسه الخبيثة وعمله السوء ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ القبط التابعين له في الظلم فقبض الله روحها: قيل رفعت إلى الجنة حية فهي تأكل وتشرب ﴿وَمَرْيَمَ﴾ عطف على امرأة فرعون تسلية للأرامل وحثاً لهن على تحصين الفروج ﴿ابْنَتَ عِمْرَانَ﴾ بن ماثان ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ حفظته من الرجال ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ أي في فرجها بمعنى فرج درعها: هو نفخ جبريل، والإسناد إليه للتشريف أي نفخنا فيه علوقاً ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾ أي روح خلقناه بلا توسط أصل أو الروح جبريل حيث نفخ في جيب

درعها لخلق الله فدله الواصل إليها لحملت بعيسى ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا ﴾ شرائعه التي أوحى بها إلى إلى الأنبياء ﴿ وَكُتُبِهِ ﴾ بالإفراد للجمهور والجمع لأبي عمرو وحفص أي الإنجيل أو الكتب المنزلة أو اللوح ﴿ وَكَانَتْ مِنَ ﴾ القوم ﴿ الْقَانِتِينَ ﴾ المطيعين أي من جملتهم غلب المذكر إشارة إلى أن طاعتها لم تقصر عن طاعة الرجال الكمل ، ويجوز أن تكون «من» ابتدائية لأنها من ذرية هارون عليه السلام فيكون مدحاً لها بشرف النسب بعد مدحها بكرم الحسب . روى البخاري ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام . وفيه دليل ظاهر على أن عائشة أفضل النساء على الإطلاق وعلى أن الرفعة وعلو الشأن إنما هو بالعلم ولم يدانها كثير من الرجال فيه فضلا عن النساء ، والله أعلم .

[تم تفسير سورة التحريم]

سورة الملك

مكية ــ وهي ثلاثون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . تَبَارَكَ ﴾ تعالى وكثر خير ﴿ الَّذِي بِيَدِهِ ﴾ في تصرفه ﴿ الْمُلْكُ ﴾ المطلق وذكر اليد مجاز لاستغنائه عن الكل وافتقار الكل إليه ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ دليل على إحاطة ملكه ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ قدرهما أو أوجد الحياة وأعدمها ، والحياة ما به الإحساس والموت عدمها على الأول أو ضدها على الثاني : قولان ، قدم الموت لأنه أقوى شيء دعاء إلى العمل . وفي الحديث «كفى بالموت واعظاً» وفيه أكثروا ذكر هاذم اللذات ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ ليختبركم في الحياة للتكليف ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أردع عن محارمه وأسرع في طاعته والجملة في محل النصب مفعول ثان ليبلو المتضمن معنى يعلم ولا تعلق لأنه مشروط بإيقاع الجملة موقع المفعولين وقد تقدم المفعول الأول الاستفهام فانتفى

الشرط ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب الذى لايعجزه من أساء العمل ﴿ الْغَفُورُ ﴾ لمن تاب وأحسن العمل ترهيب وترغيب للعاصى فى التوبة ﴿الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقًا﴾ بعضها فوق بعض من غير مماسة ، مصدر : طابق النعل خصف بعضهـا فوق بعض أو جمع طبق كجبل وجبال . قال فى الجواهر : وما ذكره بعض المفسرين فى السموات من أن بعضها من ذهب وفضة وياقوتة ونحو هذا ضعيف لم يثبت بذلك حديث ﴿ما تَرَى﴾ يا محمد أو يامخاطب ﴿فِى خَلْقِ الرَّحْمٰنِ﴾ لهن ولا لغيرهن ﴿ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾ وحمزة والكسائى « تفوت » تباين وعدم تناسب ، والجملة صفة ثانية للسبع وضع فيها « خلق الرحمن » موضع خلقهن للتعظيم والدلالة عن أن سبب سلامتها صدورها من الموصوف بنهاية الرحمة وكمال الاقتدار وأن تحت خلقها من جلائل النعم مالايحصى ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ ﴾ أعده فى السماء متأملا لتعاين ما أخبرت به لأن النظرة الأولى حمقاء ﴿ هَلْ تَرَىٰ ﴾ فيها ﴿ مِنْ فُطُورٍ ﴾ صدوع وشقوق جمع فطر كبدر وبدور ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ ﴾ بعد الثانية ﴿ كَرَّتَيْنِ ﴾ كرة بعد كرة فى طلب الخلل والمراد بالتثنية التكرير كلبيك ولذا أجاب الأمر بقوله ﴿ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا ﴾ بعيدا كالمطرود عن وجدان الخلل ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ كليل من طول المعاودة وكثرة المراجعة بلا إدراك خلل ثم أشار إلى ما هو أدل على كمال الاقتدار بقوله ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا ﴾ القربى إلى الأرض ﴿ بِمَصَابِيحَ ﴾ بنجوم مضيئة ليلا كالسرج والتنكير للتعظيم والظاهر كونها فى السماء الدنيا لكن لايمنع كون بعضها فى سموات فوقها إذ التزيين بإظهارها فيها ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا﴾ مراجم ﴿لِلشَّيَاطِينِ﴾ إذا استرقوا السمع بأن ينفصل شهاب عن الكوكب كالقبس يؤخذ من النار فيقتل الجنى أو يخبله لأن الكوكب لايزول عن مكانه وهذه فائدة أخرى فيها وهى رجم أعدائكم الشياطين بها وقيل المعنى جعلناها ظنونا لشياطين الإنس يرمون بها الغيب ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ ﴾ فى الآخرة بعد الإحراق بالشهب فى الدنيا ﴿ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ النار الموقدة وفيه حسن تخلص إلى عذاب الكفار فى قوله ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ من الشياطين وغيرهم بعد هذه الدلائل ﴿ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ هى أو عذابها ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا ﴾ صوتاً كصوت الحمير إما منها أو ممن تقدمهم والأول أظهر ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ تغلى بهم غليان المرجل بما فيها ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ تتفرق لشدة الاضطراب ﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾ غيظاً عليهم وقيل تمثيل لشدة اشتعالها بهم وعلى الأول ظواهر النصوص بأن يخلق الله فيها إدراكا ﴿ كُلَّمَا أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ ﴾ جماعة منهم ﴿ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ سؤال توبيخ ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ ينذركم عذاب الله ﴿ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ ، فَكَذَّبْنَا ﴾ هم ﴿ وَقُلْنَا ﴾ إفراطاً فى التكذيب ﴿ مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أى بالغنا فى التكذيب حتى نفينا الإنزال والإرسال رأسا ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِى ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ من كلام الكفار أى أفرطنا حتى نسبنا الرسل إلى الضلال أو من كلام الملائكة للكفار حين أخبروا بالتكذيب والضلال حينئذ الهلاك والنذير بمعنى الجمع لأنه فعيل أو مصدر وصف به الجمع مبالغة فى إنذارهم كرجل

عدل ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ ﴾ كلام الرسل سماع تفهم ﴿ أَوْ نَعْقِلُ ﴾ تتفكر تفكر المستبصرين فى آيات الآفاق والأنفس فنعلم أن الإنسان لم يخلق سدى ﴿ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ فى جملتهم ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ ﴾ الكفر حيث لا ينفع الاعتراف ﴿ فَسُحْقًا ﴾ بسكون الحاء للجمهور وضمها للكسائى بعدا ﴿ لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ أى أسحقهم الله إسحاقا عن رحمته حذف منه الزائد كأنبت نباتاً وهذا حال من لم يحسن العمل ثم أشار إلى حال من أحسنه بقوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ﴾ غائبا عنهم أو غائبين عنه أو عن أعين الناس أو بالغائب المخفى وهو قلوبهم ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ لما فرط منهم ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ لا يسعه تصورهم تصغر دونه لذائذ الدنيا ﴿ وَأَسِرُّوا ﴾ أيها الناس أو الكفار ﴿ قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ بما فيها قبل أن يعبر عنها سرا أو جهراً فكيف بما نطقتم حثٌ للخاشى على الاستدامة والترقى إلى غاية الخشية وللغافل على الإنابة والخطاب عامّ كما فى قوله ليبلوكم أو التفات إلى أصحاب السعير إذ روى أنها نزلت فى قولهم أسروا قولكم لا يسمعكم إله محمد فيخبره ﴿ أَلَا يَعْلَمُ ﴾ السر والجهر ﴿ مَنْ خَلَقَ ﴾ الأشياء كلها أى ينبغى علمه بذلك وحذف المفعول للتعميم ويجوز أن يكون «مَن» مفعولا وفى يعلم ضمير الرب أى ألا يعلم الله مخلوقه والأول أوجه ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ ﴾ فى علمه ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ ببواطن الأشياء كظواهرها ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا ﴾ لينة ليسهل عليكم سلوكها ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ جوانبها مثل فى فرط التذلل فإن منكب البعير ينبو عن أن يطأه الراكب بقدمه ولا يتذلل له فإذا جعل الأرض فى التذلل بحيث يمشى فى مناكبها بلغ التذلل غايته وقيل مناكبها جبالها فالاستعارة فى لفظ المنكب . قال فى فتوح الغيب : استعارة تمثيلية أو تحقيقية لأن مناكب الأرض إما نواحيها أو جبالها فذكر الذلول إليها ترشيح ونسبة المشى تجريد ﴿ وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ الذى أخرج منها أقواتا وثمارا لأجلكم ﴿ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ المرجع من القبور للجزاء فاجتهدوا فى الشكر فإنه يسألكم عن ذلك ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ سلطانه وقدرته أو من فى السماء على زعم جهاتكم وقيل الملك الموكل بالعذاب وليس بمرضىّ ﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾ كما خسف بقارون مقابل لقوله فامشوا بدل اشتمال مِن مَن ﴿ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ تضطرب فى ذهاب ومجىء وترتفع فوقكم من شدة غضب الله ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ ﴾ بدل مِن مَن ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ ريحا ﴿ حَاصِبًا ﴾ تمطر عليكم حصباء كقوم لوط مقابل لقوله وكلوا من رزقه ولقوله وفى السماء رزقكم ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ إنذارى إذا شاهدتم المنذر به أى ستعلمون أنه حق ولكن لا ينفعكم العلم حينئذ ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ قبل قريش من الأمم ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ إنكارى عليهم بالانتقام وقد شاهدوا آثاره وتواتر عندهم أخباره تهديد لهم وتسلية للرسول ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ ينظروا ﴿ إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ ﴾ فى الهواء ﴿صَافَّاتٍ﴾ باسطات أجنحتهن عند طيرانها فإنها إذا بسطتها صففن قوادمها ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أجنحتهن يضممنها إذا ضربن بها جنوبهن وقتا بعد وقت ولذا عدل به إلى صيغة الفعل الدال على التجدد إذ الأصل فى الطيران المد تفرقة

بين الأصيل والطارئ عليه وهما حالتان للطائر يستريح من إحداهما إلى الأخرى ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ عن الوقوع في حال البسط والقبض ﴿إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾ بليغ الرحمة الذى وسعت رحمته كل شيء بأن خلقهن على أشكال وخصائص تهيئهن للجرى فى الهواء بأن جعل لها القوادم تشق بها الريح والخوافى تشدها والأذناب تقيمها كما فى السفن ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ عليم عيانا لا يخفى عليه شيء. إشارة إلى أن من هذا شأنه لخسفهم وإرسال الحاصب عليهم أهون شيء عنده وإيماء إلى أن دافع العذاب عن هؤلاء مع موجباته إنما هو تلك الرحمة البالغة التى أمسكت الطير فى الهواء ﴿أَمَّنْ﴾ الذى يشار إليه ويقال ﴿هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ﴾ عون ﴿لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ﴾ أى غيره يدفع عنكم عذابه وأم عديل لقوله أأمنتم من فى السماء وقوله ولقد كذب الذين من قبلهم اعتراض لتأكيد التحذير وكذا قوله أولم يروا لتصوير قدرته الباهرة والاستفهام للتهكم والمشار إليه إما فوج مقدر أو أصنامهم ومن مبتدأ وهذا خبره والموصول بصلته بدل من هذا أو نعته وينصركم صفة جند محمول على لفظه المعنى أأمنتم الخسف والحصباء أم لكم جند ينصركم من دون الله ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ لا معتمد لهم بل غرهم الشيطان بأن العذاب لا ينزل بهم فاستغرقوا فى الغفلة ﴿أَمَّنْ﴾ الذى يقال فيه ﴿هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ﴾ الرحمن ﴿رِزْقَهُ﴾ بإمساك المطر وسائر الأسباب المحصلة والموصلة له إليكم متعلق معنى بإرسال الحاصب ﴿بَل لَّجُّوا﴾ تمادوا ﴿فِي عُتُوٍّ﴾ عناد وتكبر ﴿وَنُفُورٍ﴾ تباعد عن الحق لنفرة طباعهم عنه وهذا أدل على إغراقهم فى الكفر من قوله إلا فى غرور كما أن توهم الرزق من الأصنام أو من فوج مقدر أبعد من تخيل النصر منها ﴿أَفَمَن يَمْشِي﴾ متعسفا عن الطريق ﴿مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ لكونه يعثر كل وقت يخر على وجهه لكونه أعمى يمشى فى غير الطريق يقع فى كل وقت ويقوم ﴿أَهْدَىٰ﴾ أرشد ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾ معتدلا لكونه بصيراً ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مستوى الأجزاء لا عثار فيه تمثيل للكافر الذى فى ظلمات الشبه والشكوك بالأعمى الذى لا يرى جهة قصده وسلك مكانا وعرا فهو بين قيام وسقوط والمؤمن الذى فى نور الإيمان ببصير يرى مواطن قدميه وسلك جادة سهلة وتمثيل أيضاً للدينين بالمسلكين وقيل من يمشى مكبا هو الذى يحشر على وجهه إلى النار ومن يمشى سوياً هو الذى يحشر على قدميه إلى الجنة ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ﴾ من تراب ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ لتسمعوا مواعظه ﴿وَالْأَبْصَارَ﴾ لتبصروا صنائعه ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ لتتفكروا عظمته وآلات الإدراك هذه بعيدة من التراب ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ بصرفها لما خلقت له فلا سمعتم سماع تفهم ولا نظرتم نظر اعتبار ولا تدبرتم فى دلائل الآفاق والأنفس بما أورثكم الخشية وما مزيدة لتأكيد القلة والجملة مستأنفة مخبرة بقلة شكرهم جداً على هذه النعم ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾ خلقكم وبثكم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ متمكنين من أى تصرف شئتم ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للجزاء فشمروا له ﴿وَيَقُولُونَ﴾ للمؤمنين ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ للحشر أو الخسف والحاصب ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيه ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ﴾ علم وقته ﴿عِندَ اللَّهِ﴾

لا يطلع عليه غيره ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ والانذار يكفى له العلم بل الظن بوقوع المحذور منه ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أى الموعود بعد الحشر عبر عنه بالماضى لتحقق وقوعه : المعنى فإذا رأوه ﴿زُلْفَةً﴾ قريبا أى ذا زلفة أى قرب منهم ﴿سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ساءتها رؤية العذاب وغشيتها القترة ﴿وَقِيلَ﴾ أى قال الخزنة لهم ﴿هَٰذَا﴾ العذاب ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ﴾ تطلبون تفتعلون من الدعاء والباء صلة أو تدعون أن لا بعث من الدعوى فالباء سببية ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ﴾ أماتنى كما تقولون نتربص به ريب المنون ﴿وَمَن مَّعِيَ﴾ من المؤمنين أى أهلكنا بعذابه كما تقصدون ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بتأخير الآجال أو بترك العذاب ﴿فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لا مجير لهم منه أى إذا كنا ونحن مؤمنون به بين الخوف والرجاء فما حالكم أنتم مع كفركم به والمظهر لبيان سبب عدم الإجارة ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ﴾ مولى النعم كلها ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ للعلم بذلك فيجيرنا من عذابه إذ لم نكفر كما كفرتم ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ وثوقاً بأن غيره لا يضر ولا ينفع وتقديم الصلة للتخصيص أى لا على العَدد والعُدد مثلكم ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ بالفوقية للجمهور والتحتية للكسائى عند معاينة العذاب ﴿مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ بيّن أنحن أم أنتم من كلام المنصف ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ غائراً فى الأرض لا تناله الدلاء ، مصدر وصف به ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ جار أو ظاهر سهل المأخذ أى لا يأتى به إلا الله فكيف تنكرون أن يبعثكم أو إن لم تعبدوه للحياة الباقية فاعبدوه للفانية ، ويستحب للقارئ عقب « معين » أن يقول « الله رب العالمين » كما ورد فى الحديث ، وتليت هذه الآية عند بعض المتجبرين فقال : يأتى به الفئوس والمعاول فذهب ماء عينيه وعمى . نعوذ بالله من الجرأة على الله وعلى آياته .

[تم تفسير سورة الملك]

سورة ن
مكية ـ وهي ثنتان وخمسون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ نٓ ﴾ أحد حروف الهجاء الله أعلم بمراده به قيل هو الدواة أو الحوت والمراد به الجنس أو البهموت الذى عليه الأرض قال ابن العربى فى الأحكام روى الوليد بن مسلم عن مالك عن سمى عن أبى صالح عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أول ماخلق الله القلم ثم خلق النون وهى الدواة وذلك قوله ن والقلم ، ثم قال له اكتب ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة انتهى . قال عبد الرحمن فى الجواهر وهذا الحديث هو الذى يعول عليه فى تفسير الآية لصحته انتهى وقال فى غاية الأمانى : أقرب الوجوه أن يكون اسما للدواة التى كتب منها القلم الكائنات وسكونه إجراء للوصل مجرى الوقف انتهى ، أخفى ابن عامر والكسائى النون فى الواو فى قوله ﴿وَالْقَلَمِ﴾ الذى كتب به الكائنات فى اللوح المحفوظ أو الذى يخط به الناس أقسم به الله تعالى لكثرة فوائده ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ أى الملائكة من الخير والشر أو الناس من المعارف وما مصدرية أو موصولة ﴿ مَا أَنتَ ﴾ يا محمد ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ جواب القسم أى انتفى الجنون عنك بسبب إنعام ربك عليك بالنبوة مع حصافة العقل ورزانة الرأى أو الجار والمجرور حال من المستكن فى بمجنون وهو العامل والباء فيه زائدة فلا يمنع العمل فيما قبله أى ما أنت بمجنون منعما عليك بما أنعم ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا ﴾ عظيما على احتمال أذاهم والإبلاغ ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ مقطوع أو خاليا عن المنة من الناس لأنه من عطاء ربك ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ استوجبت به تلك الرتبة العظمى ، وسأل قتادة عائشة رضى الله عنها عن خُلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت خُلقه القرآن تشير إلى قوله تعالى خذ العفو الآية وقوله قد أفلح المؤمنون الآيات ونحو ذلك : روى البخارى عن عبدالله ابن عمرو بن العاصى أن نعته فى التوراة محمد عبدى سميته المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا يجازى السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر . وعن على رضى الله عنه كان أجود الناس صدرا وأصدقهم لهجة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة من رآه بديهة هابه ومن خالطه أحبه انتهى قلت وأخلاقه عليه السلام مدونة فى كتب السير والحديث فيطالعها من أحب الاقتداء به ﴿فَسَتُبْصِرُ﴾ عن قريب ﴿ وَيُبْصِرُونَ بِأَييِّكُمُ ﴾ أى فى أى فريق منكم ﴿الْمَفْتُونُ﴾ المجنون أفى فريقك أو فى فريقهم والباء بمعنى فى وقيل زائدة أى أيكم الذى فتن بالجنون ، أو المفتون مصدر كالمعقول أى بأيكم الجنون أ بك أم بهم وأول الأوجه أولى لاشتماله على التعريض مع سلامته عن

استعمال النادر ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ بالمجانين الذين هم على الحقيقة ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ العقلاء الذين هم أنت وأصحابك أو أعلم بجزاء الفريقين فهو وعد ووعيد ﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ فيما يدعونك إليه تهييج للتصميم على معاصاتهم ﴿ وَدُّوا ﴾ تمنوا ﴿ لَوْ ﴾ مصدرية ﴿ تُدْهِنُ ﴾ تلين لهم بترك نهيهم عما يفعلون ﴿ فَيُدْهِنُونَ ﴾ يلينون لك بترك الطعن فيما تفعل والموافقة والفاء للعطف على تدهن أى ودوا إدهانك فيدهنون بعد إدهانك أو للسببية أى فهم مدهنون حينئذ أو الآن يدهنون طمعا فيه وإن جعل جواب التمنى المفهوم من «ودوا» قدر قبله بعد الفاء «هم» قال فى الجواهر : الإدهان الملاينة فيما لا يحل والمداراة الملاينة فيما يحل وقال ابن العربى فى الأحكام : حقيقة المداهنة إظهار المقاربة مع الاعتقاد للعداوة فإن كانت المقاربة بالدين فهو مداهنة وإن كانت مع سلامة الدين فداراة أى مدافعة ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ ﴾ كثير الحلف فى الحق والباطل وفى جعله فاتحة المثالب وإمام القبائح دلالة على أنه شر الخصال لدلالته على عدم تعظيم الله ﴿ مَهِينٍ ﴾ حقير الرأى ﴿ هَمَّازٍ ﴾ عياب مغتاب وعن ابن عباس هو الذى يلوى شدقيه فى أقفية الناس ﴿ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ مصدر كالنميمة وهو نقل مايسمع مما يسوء لإيقاع الفتنة وإفساد ذات البين قال عليه السلام «شراركم المشاؤن بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون لأهل البر العثرات» وقال عليه الصلاة والسلام «لا يدخل الجنة قتات» وهو النمام انتهى فعلى كل مسلم ألا يصدقه لأنه فاسق وأن ينهاه وأن يبغضه لله وألا يظن بالمنقول عنه السوء وألا يتجسس وألا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه بألا يحكى نميمته ﴿ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ ﴾ للمال عن الحقوق أو لكل عمل صالح كما كان الوليد بن المغيرة يفعل يقول لبنيه من أسلم منكم منعته رفدى ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ متجاوز فى الظلم ﴿ أَثِيمٍ ﴾ كثير الآثام ﴿ عُتُلٍّ ﴾ غليظ جاف قال فى الجواهر الغليظ الأعضاء القاسى القلب البعيد الفهم الأكول الشروب الذى هو بالليل جيفة وبالنهار حمار وكل ما عبر به المفسرون عنه فمن هذا الذى ذكرت تصدر وهذه الصفات كثيرة التلازم ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ الذى عد من مثالبه ﴿ زَنِيمٍ ﴾ ملصق أو دعىّ لا نسب له أو لئيم قبيح الأفعال وهذا كما إذا عددت مثالب إنسان ثم تقول وبعد ذلك لا يحب أبا بكر وعمر ، والزنيم شاة لها زنمة وهى ما يقطع من أذنها من غير فصل فيتدلى ذهب كثير من المفسرين إلى أن هذه الأوصاف أجناس لم يرد بها رجل بعينه قال ابن عطية وظاهر اللفظ عموم من اتصف بهذه الأوصاف والمخاطبة بهذا المعنى مستمرة باقى الزمان لاسيما لولاة الأمور انتهى . وقالت طائفة نزلت فى معين واختلفوا فيه قال بعضهم هو الأخنس بن شريق إذ كانت له هنة فى حلقه كزنمة الشاة ولأنه من ثقيف ملصق فى قريش ويرده أنه أسلم وهو معدود من الصحابة وقيل نزلت فى الوليد بن المغيرة ادعاه أبوه بعد ثمانى عشرة سنة وقيل بغت أمه ولم يعرف حتى نزلت هذه الآية فسأل الوليد أمه عن ذلك فقالت دعوت راعيا إلى نفسى فأنت من ذلك الراعى ﴿ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ أى لأن كان وهو متعلق بقوله ولا تطع أى لا تطعه مع هذه المثالب لأن كان ذا مال أى يسار وحظ من الدنيا مغرورا بالبنين إذ له عشرة من البنين

لهم مجالس وله مال وافر ويجوز أن يتعلق بما دل عليه ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ القرآن ﴿قَالَ﴾ هي ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي كذب بها لإنعامنا عليه بما ذكر وقلنا بما دل عليه لأن حرف الشرط لا يعمل مابعده فيما قبله وقرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر بهمزتين مفتوحتين الأولى للاستفهام إنكارا لطاعته لكونه ذا مال ﴿سَنَسِمُهُ﴾ نجعل له علامة بالكيّ ﴿عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ الأنف والكي على الأنف إهانة وإذلال يجوز أن يكون حقيقة أوكناية عن الإذلال كقولهم جدع أنفه وأرغم والتعبير عنه بالخرطوم زيادة تشويه لأنه لايستعمل إلا في الفيل أو الخنزير وماقيل إن الوليد خطم يوم بدر فبق سمة على خرطومه سهوٌ لأن الوليد مات قبل بدر قاله في غاية الأماني ، وقيل معناه نجعل له يوم القيامة سمة على أنفه وهي السواد في الوجوه وهو أقرب ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ امتحنا أهل مكة بالقحط والجوع حين كذبوا محمدا بدعائه ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ البستان : أهل ذروان أو صروان قرية من قرى صنعاء على فرسخين من صنعاء وكانوا مسلمين من أتباع عيسى بعد رفعه وكان أبوهم صالحا يأخذ من جنته قوت سنة ويتصدق بالباقى على الفقراء والمحاويج فقال بنوه إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر ونحن ذوو عيال فحلفوا ليصرمنها خفية ويمنعون الفقراء كما قال تعالى ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ يقطعن ثمرتها ﴿مُصْبِحِينَ﴾ وقت الصباح خفية عن المساكين كيلا يعطوهم ما كان يعطيهم أبوهم منها ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ في أيمانهم لايقولون إن شاء الله بل يبتون القول وسمي الشرط استثناء لأنه يؤدي مؤداه في الإخراج والجملة مستأنفة أي وشأنهم ذلك وقيل المعنى لايستثنون حصة المساكين ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾ على الجنة بلاء ﴿طَائِفٌ﴾ أرسل ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ نار أحرقتها ليلا ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ لا علم لهم بذلك ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ كالليل الشديد الظلمة أي سوداء لاحتراقها أوكالصبح أي أرضا بيضاء لاشيء فيها أوكالمصرومة لهلاك ثمرها ﴿فَتَنَادَوْا﴾ نادى بعضهم بعضا ﴿مُصْبِحِينَ﴾ عند الصباح ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ﴾ أخرجوا إليه غدوة وأن مفسرة أو مصدرية وعدى بعلى لتضمنه معنى الإقبال أو لأن الغدو للصرام استيلاء ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ﴾ على الوجه الذي عزمتم عليه ﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ يتساررون الحديث ﴿أَلَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ﴾ تفسير لما قبله أو أن مصدرية أي بأن والمراد به المبالغة في النهي عن تمكين المساكين من الدخول ﴿وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ﴾ منع للفقراء أي عازمين عليه حال كونهم ﴿قَادِرِينَ﴾ على المنع أومضيقين على الفقراء أو الحرد السرعة أي ذهبوا على وجه السرعة لئلا يدركهم المساكين أوالحرد القصد أي قاصدين الصرام قادرين على ذلك من عند أنفسهم وقيل الحرد اسم بستانهم ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ سوداء محترقة ﴿قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ عنها أي ليست هذه ثم قالوا لما علموها ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ ثمرتها لمنعنا الفقراء منها ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ خيرهم رأيا أوسنا ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا﴾ هلا ﴿تُسَبِّحُونَ﴾ الله تائبين من خبث نيتكم وكان نصحهم فلم يطيعوه أومعنى تسبحون تذكرون الله وتنتهون عما نويتم أوتستثنون لاتحاد الاستثناء والتسبيح في التعظيم فاستعمل مكانه ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾

عن الظلم وأن يجرى فى ملكه ما لا يريد ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ بمنع الفقراء حقهم : أقروا على أنفسهم حيث الإقرار غير نافع واتسع الخرق على الراقع ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴾ يلوم بعضهم بعضاً يقول أنت السبب إذ بعضهم أشار بذلك واستصوبه بعضهم وسكت بعضهم راضياً ومنهم من أنكر كالأوسط فلم يطيعوه فاتبعهم ﴿ قَالُوا يَا ﴾ للتنبيه ﴿ وَيْلَنَا ﴾ هلاكنا ﴿ إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾ متجاوزين حدود الله تعالى فلذلك أصابنا البلاء. ثم انصرفوا إلى رجاء الله وانتظار الفضل منه كما حكى عنهم بقوله ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا ﴾ ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة كما هو شأن مع التائبين ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ ليقبل توبتنا ويرد علينا خيراً منها . روى أنهم أبدلوا خيراً منهـا ، قال فى غاية الأمانى : والظاهر أن الله قبل توبتهم لوقوعها فى أوانها . اهـ . وعن ابن مسعود أن القوم لما أخلصوا وعلم الله صدقهم أبدلهم جنة يقال لها الحيوان فيها عنب يحمل البغل منه عنقوداً واحداً ، وعن أبى خالد اليمانى : رأيت تلك الجنة ورأيت عنقوداً منها كالرجل الأسود القائم . اهـ . قال فى الجواهر : وقدرة الله أعظم فلا يستغرب هذا إن صح سنده ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل العذاب لهؤلاء ﴿ الْعَذَابُ ﴾ لمن خالف أمرنا من كفار مكة وغيرهم أو مثل الذى بلونا به أهل مكة وأصحاب الجنة العذاب فى الدنيا ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ أعظم منه ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ عذابها لاحترزوا عما يؤديهم إليه أو لو كانوا من أهل العلم لعلموا ذلك ونزل لما قالوا إن بعثنا نعطى أفضل منكم ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ فى الآخرة أو فى جوار قدسه ﴿ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ أى جنات ليس فيها إلا التنعم الخالص تعريض بجنات الدنيا فإن الغالب فيها التعب ، وحسن موقعه بعد ذكر أصحاب الجنة المذكورة وذكر حالها ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ فى العطاء ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ هذا الحكم الفاسد ، التفات فيه تعجب من حكمهم وإشعار بأنه صادر من اختلال فكر واعوجاج رأى هل فوض إليكم الحكم حتى تحكموا فيه بما شئتم ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ ﴾ منزل من السماء ﴿ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ تقرءون ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ تختارونه وأصل إن الفتح لأنه المدروس لكن كسر لدخول اللام فى خبره ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ ﴾ عهود ﴿ عَلَيْنَا ﴾ يقال : لفلان علىّ يمين إذا حلفت به على أمر تضمنه له ﴿ بَالِغَةٌ ﴾ متناهية فى التأكيد واثقة ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ غاية لثبوت المقدر فى « لكم » أى ثابتة لكم علينا إلى ذلك اليوم كالأجل للدَّين فإذا وفينا بالمقسم عليه خرجنا من عهدتها ويجوز أن يتعلق « إلى » ببالغة أى تبلغ ذلك اليوم وافرة لم يبطل منها يمين إلى أن يحصل المقسم عليه وهو ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ به لأنفسكم وهو جواب القسم لأن معنى « أم لكم أيمان علينا » أم أقسمنا لكم ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَٰلِكَ ﴾ الحكم ﴿ زَعِيمٌ ﴾ كفيل لهم بإثباته يدعيه ويصححه ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ﴾ موافقون لهم فى هذا القول يكفلون لهم به فإن كان كذلك ﴿ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ فى دعواهم ليرى هل هم بحال من يضر وينفع أم لا ، ومعلوم أنه لا يوافقهم عاقل فقد انحسم مادة الشبهة عقلا ونقلا . وقيل المعنى : فليأتوا بهم يوم القيامة

﴿ يَوْمَ ﴾ منصوب بأذكر على التأويل الأول وبقوله « فليأتوا » على الثانى ﴿ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ أى يوم يشتد الأمر وكشف الساق كناية عنه للحساب والجزاء . يقال كشفت الحرب عن ساق إذا اشتد الأمر فيها وهو معنى حديث البخارى : يكشف ربنا عن ساقه وفى رواية عن ساق وهى أوفق للقرآن فيسجد كل مؤمن ومؤمنة ويبقى من كان فى الدنيا يسجد رياء فيذهب يسجد فيعود ظهره طبقاً وهذا معنى قوله ﴿ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ ﴾ امتحاناً لإيمانهم ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ تصير ظهورهم طبقاً واحداً ، وفى مدارك التنزيل : الجمهور على أن الكشف عن الساق عبارة عن شدة الأمر ، وأما من شبه فلضيق عطنه فى علم البيان ولو كان الأمر كما زعم لكان من حق الساق أن يعرف لأنها ساق معهودة عنده . اه . ﴿ خَاشِعَةً ﴾ حال من ضمير «يدعون» أى ذليلة ﴿أَبْصَارُهُمْ﴾ لا يرفعونها ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ تغشاهم ﴿ ذِلَّةٌ ﴾ صغار ﴿ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ ﴾ فى الدنيا ﴿ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾ من العوائق فلا يأتون به بأن لا يصلوا ﴿ فَذَرْنِي ﴾ دعنى ﴿ وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ﴾ القرآن أى كله إلىّ فأنا أكفيكه ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ ﴾ سنستدنيهم للعذاب درجة درجة ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أنه استدراج بأن نفيض عليهم الرزق والعافية فيحسبونه إيثاراً لهم وتفضيلا على المؤمنين فيتمادون فى الضلال ، والاستدراج تنزّل الشخص درجة بعد درجة حتى يتورط فى الهلاك ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾ أمهلهم ﴿ إِنَّ كَيْدِي ﴾ بالإنعام استدراجاً ﴿ مَتِينٌ ﴾ قوى سمى كيداً لأنه فى صورته ﴿ أَمْ ﴾ بل أ ﴿ تَسْأَلُهُمْ ﴾ على تبليغ الرسالة ﴿ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ ﴾ غرامة ﴿ مُثْقَلُونَ ﴾ مما يعطونكه فيعرضون عنك ، وقيل « أم تسألهم » متصل بقوله « أم لهم شركاء » وما بينهما اعتراض لترغيب السامعين فى البدار قبل الفوات ﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ ﴾ اللوح الذى هو خزانة المغيبات ﴿ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ منه ما يقولون ويحكمون به ويستغنون به عن علمك ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ فيهم وهو إمهالهم إلى وقت معلوم لأنهم وإن أمهلوا لم يهملوا ﴿ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ يونس عليه السلام فى الضجر والعجلة فتبتلى ببلائه ، وفى التعبير بصاحب الحوت هنا فى معرض العتب وبذى النون فى سورة الأنبياء فى معرض المدح مناسبة لا تخفى على أديب إذ لفظ ذى لذى الشرف لكونه لا يضاف إلا لتابعه فيكون متبوعاً بخلاف صاحب يضاف لمتبوعه فيكون تابعاً ، تقول : أبو هريرة صاحب رسول الله ، ولا تقول رسول الله صاحب أبى هريرة . وكذا النون اسم للحوت العظيم ، والله أعلم بأسرار كتابه ﴿إِذْ نَادَىٰ ﴾ فى بطن الحوت « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » ﴿ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ مملوء غمًّا وندماً أو مملوء غيظاً على عدم إيمان قومه والظرف متعلق باذكر لا بما تقدمه إذ النداء طاعة لا ينهى عنه ، والمعنى لا تكن مثله فى العجلة فتبتلى ببلائه اذكر إذ نادى وهو مكظوم غما وندماً على العجلة والله أعلم ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ ﴾ أدركه ﴿ نِعْمَةٌ ﴾ رحمة ﴿ مِنْ رَبِّهِ ﴾ بالتوفيق للتوبة وقبولها ،وحسّن تذكير الفعل الفصل ﴿ لَنُبِذَ ﴾ من بطن الحوت ﴿ بِالْعَرَاءِ ﴾ بالفضاء الذى لا ساتر له ﴿ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ لكنه رحم فنبذ غير

مذموم، وجملة «وهو مذموم» حال يعتمد عليها الجواب لأنها المنفية دون النبذ (فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ) بعد الإنابة (فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) من عداد الأنبياء الكاملين فى الصلاح، وقيل اجتباه بالنبوة وهو خطأ لأنه نبى قبل ذلك لقوله «وإن يونس لمن المرسلين. إذ أبق» (وَإِنْ) مخففة أى إنه (يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ) بفتح الياء لنافع وضمها للباقين لغتان: يزيلونك عن مكانك أو يهلكونك (بِأَبْصَارِهِمْ) من شدة نظرهم إليك شزراً بعيون العداوة: وصفٌ لهم بالعداوة كأنها مرت من القلب والجوارح إلى البصر فصار يعمل عملها أو المعنى كادوا يصيبونك بالعين، إذ روى أنه نزل فى بنى أسد وكان فيهم عيانون يتجوع رجل منهم ثلاثة أيام فلا يمر به شىء يقول لم أركاليوم مثله إلا عانه وأهلكه فأرادوا فعله برسول الله فوقاه الله بعنايته، والأخبار فى حقيقة العين متواترة المعنى. وعن الحسن: أن هذه الآية رقية العين من خاف من إصابة العين فليقرأها (لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ) القرآن الذى هو شرفهم ينبعث عند سماعه حسدهم (وَيَقُولُونَ) تنفيراً عنه (إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ) بسبب القرآن الذى جاء به ولذلك خالف أسلوبه أساليب كلام العرب (وَمَا هُوَ) أى القرآن (إِلَّا ذِكْرٌ) عظة (لِلْعَالَمِينَ) لكل ذى عقل من الملائكة والثقلين أو شرف لمن حفظه وعمل بما فيه كائناً من كان، فكيف يحدث بسببه جنون أو لما سمعوا ذكر محمد وما هو إلا شرف للعالمين فكيف ينسب إليه الجنون.

[تم تفسير سورة ن]

سورة الحاقة

مكية ــ وهى إحدى أو اثنتان وخمسون آية

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ • الْحَاقَّةُ) أى الساعة الثابتة التى لا ريب فى وقوعها أو التى يحق فيها ما أنكر من الأمور كالبعث والحساب والجزاء أو المظهرة لذلك على الإسناد المجازى فيهما وهى مبتدأ خبره جملة (مَا الْحَاقَّةُ) ما حقيقتها والأصل ما هى تعظيم وتهويل لها وفى وضع المظهر مقام المضمر زيادة مبالغة وأكد ذلك بقوله (وَمَا أَدْرَاكَ) أعلمك (مَا الْحَاقَّةُ) أى لم تحط علماً بكنهها وكل ما قدرته فى نفسك فهى أفظع من ذلك و«ما» الأولى استفهامية رفع بالابتداء بمعنى أى شىء وأدراك الخبر والجملة بعده

فى محل المفعول الثانى لأدرى ولما هوّل أمرها بما لا مزيد عليه أردفه بذكر المكذبين لها وما حل بهم وادخر لهم فى الآخرة تحذيرا للسامعين من مثله بقوله ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴾ القيامة اسم لها كالحاقة لأنها تقرع الناس بأهوالها بالإفزاع والجبال بالدك والأرض بالزلزال والسماء بالانفطار وهذا تهويل آخر حيث لم يعبر عنها بالضمير ولا بالمظهر المذكور ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ بالواقعة المجاوزة للحد فى الشدة وهى الصاعقة التى معها الصيحة والرجفة وقيل مصدر كالعافية ولا يلائم قوله ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ﴾ شديدة الصوت لها صرصرة فى هبوبها أو من الصر وهو البرد كأنها التى كرر فيها البرد وإنما قلنا المصدرية ليلائم ما بعده لأن الآيات من قبيل الجمع والتفريق ، والحدث لايلائم العين ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ قوية شديدة على عاد مع قوتهم لم يقدروا على دفعها أو عتت على خزانها فخرجت بغير حساب كما روى عن على رضى الله عنه ﴿ سَخَّرَهَا ﴾ أرسلها بالقهر وسلطها ﴿ عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ ﴾ أولها من صبح يوم الأربعاء لثمان بقين من شوال فى عجز الشتاء وجملة سخرها استئناف لبيان الكمية بعد الكيف ﴿ حُسُوماً ﴾ حاسمات أى قاطعات كل خير أو دابرهم جمع حاسم والحسم إزالة أثر الشىء ومنه الحسم للكىّ للداء أو متتابعات ويجوز أن يكون مصدر الحسم مقدرا أى تفرق بينهم تفريقا شديدا لا اجتماع بعده لكمال النحوسة ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ ﴾ لوكنت حاضرهم ﴿ فِيهَا ﴾ فى مهبها ﴿ صَرْعَى ﴾ ملقين على الأرض ميتين كالأخشاب اليابسة جمع صريع ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ ﴾ أصول ﴿ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ ساقطة أو فارغة الأجواف ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ بقية أو نفس باقية أو بقاء ؟ لا ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ ﴾ بفتح القاف للجمهور أى قبل فرعون وبكسرها لأبى عمرو والكسائى أى أتباعه الذين من عنده ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ ﴾ قرى قوم لوط والإسناد مجازى أى أهلها ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ بالفعلة ذات الخطأ أو بالخطأ أو بالأفعال الخاطئة مجاز فى الحكم ﴿ فَعَصَوْا ﴾ أى قوم لوط أو عصى كل منهم ﴿ رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ إليهم ﴿ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴾ زائدة فى الشدة على غيرها لزيادة جرمهم من ربا الشىء زاد ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ ﴾ جاوز حده المعتاد وعلا فوق كل شىء من الجبال وغيرها أو طغى على الخزان ﴿ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ يعنى حملنا آباءكم وأنتم فى أصلابهم فى السفينة الجارية بقدرة الله من غير نوتىّ ولذا سماها بالجارية إذ لم يكن بها مُجْرٍ فنجا نوح ومن معه فيها وغرق الباقون ﴿ لِنَجْعَلَهَا ﴾ أى تلك الفعلة من إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين ﴿ لَكُمْ تَذْكِرَةً ﴾ عظة ﴿ وَتَعِيَهَا ﴾ وتحفظها وسكن العين ابن كثير ﴿ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ حافظة لما تسمع يقال وعيْتُه إذا حفظته فى نفسك وأوعيته إذا جعلته فى وعاء آخر والتنكير للدلالة على قلة الأذن الموصوفة وأن واحدة منها إذا وجدت كانت بمثابة السواد الأعظم ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ وهى الأولى نفخة الفزع أو الثانية نفخة الصعق أو الثالثة نفخة القيامة فالأولى ابتداء خراب العالم والثانية انتهاؤه والثالثة الإعادة ﴿ وَحُمِلَتِ ﴾ رفعت ﴿ الْأَرْضُ

وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ كسرتا بضرب إحداهما على الأخرى بالقدرة الكاملة فصارتا كثيبا مهيلا كما تضرب إحدى البيضتين على الأخرى ، أو بسطتا بسطة واحدة فصارتا أرضا لا عوج فيها ولا أمتا لأن الدك سبب للتسوية ولذا يقال ناقة دكاء للتى لا سنام لها ﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ لحينئذ ﴿ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ قامت القيامة ﴿ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ ﴾ لنزول الملائكة ﴿ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ مسترخية ضعيفة القوة بعد ما كانت محكة ﴿ وَالْمَلَكُ ﴾ أى جنس الملك ﴿ عَلَى أَرْجَائِهَا ﴾ أطرافها جمع رجى مقصور لأنها إذا انشقت يكون على أطرافها ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ ﴾ الملائكة المذكورين ﴿ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ منهم واليوم يحمله أربعة وعن الضحاك ثمانية صفوف أو أصناف لا يعلم عددهم إلا الله وقيل تمثيل لعظمته بما يشاهد من أحوال السلاطين يوم خروجهم على الناس للقضاء العام لكن إذا نطق القرآن بأمر ممكن ووافقه الأحاديث فلا وجه للتأويل والعدول عن الظاهر فقد روى أبو داود فى سننه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «أذن لى أن أحدثكم عن ملك من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه سبعمائة عام » وقال الغزالى هم ثمانية أملاك قدم الملك منهم مسيرة عشرين ألف سنة ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ﴾ للسؤال والحساب . روى الترمذى عن عبد الله بن مسعود : يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات عرضتان جدال ومعاذير والثالثة تطير فيها الصحف فى الأيدى فآخذ بيمينه وآخذ بشماله . انتهى . قال الغزالى يجب على كل مسلم أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب بتوبة نصوح وتدارك ما فرط فيه أو قصر من فرائض الله ورد المظالم حبة حبة والاستحلال من كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه وتطييب قلوب المؤمنين حتى يموت ولم يبق عليه فريضة ولا مظلمة فيدخل الجنة بغير حساب . انتهى . والمراد بالعرض إظهار العدل وإخزاء الجاحد على رءوس الأشهاد ﴿ لَا تَخْفَىٰ ﴾ بالتاء للجمهور والياء لحمزة والكسائى ﴿ مِنْكُمْ ﴾ سريرة أو حالة ﴿ خَافِيَةٌ ﴾ تخفى على الناس فى الدنيا لكونه يوم تبلى السرائر ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ تفصيل للعرض ﴿ فَيَقُولُ ﴾ لكل جمع رآه فرحا به ﴿ هَاؤُمُ ﴾ خذوا ﴿ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾ تنازع فيه هاؤم واقرءوا فأعمل الثانى لقربه ولو أعمل الأول لقيل اقرءوه والهاء فيه وفيما بعده للسكت ثبتت وصلا ووقفا اتباعا للمصحف ﴿ إِنِّي ظَنَنْتُ ﴾ تيقنت ﴿ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ أى معاين له وهذا ظن لما لم يقع بعد ولا خرج إلى الحس وهو الظن الذى يوقعونه موقع اليقين كما تقدم التنبيه عليه عن ابن عطية ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ مرضية أو ذات رضا كلابن لأن النسبة كما تكون بالحرف تكون بالصيغة أو راضية صاحبها على المجاز فى الإسناد ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ فى المكان لأنها فوق السماء السابعة سقفها عرش الرحمن عالية القصور والأشجار وفى جنة بدل من عيشة أو خبر بعد خبر ﴿ قُطُوفُهَا ﴾ جمع قطف بالكسر ما يجتنى بسرعة وهو ثمارها ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ قريبة يتناولها القاعد والمضطجع فيقال لهم ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ جمع الضمير للمعنى ﴿ هَنِيئًا ﴾ حال كونهم مهنئين أو أكلا وشربا هنئا لا مكروه فيه ولا أذى أو هنئتم هنيئا نصب على المصدر ﴿ بِمَا أَسْلَفْتُمْ ﴾ قدمتم من

الأعمال الصالحة ﴿ فِى الأَيَّامِ الخَالِيَةِ ﴾ الماضية فى الدنيا ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ ﴾ لما يرى فيه من الفضائح وسوء العاقبة ﴿ يَا ﴾ للتنبيه ﴿ لَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ، وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ، يَا لَيْتَهَا ﴾ أى الموتة فى الدنيا ﴿ كَانَتِ القَاضِيَةَ ﴾ القاطعة لحياتى بأن لا أبعث أو يا ليت هذه الحالة كانت الموتة القاضية علىّ بأن تدوم لما رأى من الشدة التى تعدُّ مرارة الموت حلاوة عندها ﴿ مَا أَغْنَى عَنِّى مَالِيَهْ ﴾ شيئاً من الأشياء أو أى شىء أغنى عنى على جعل ما استفهامية إنكارا ﴿ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ ﴾ ملكى وتسلطى على الأموال والحشم أو قوتى وحجتى قرأ حمزة فى الوصل بدون الهاء فى الموضعين : يقول الله تعالى لخزنة النار ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ اجمعوا يديه إلى عنقه فى الغل ﴿ ثُمَّ الجَحِيمَ ﴾ وهى النار العظمى ﴿ صَلُّوهُ ﴾ أدخلوه لا غيرها يقال صليته أدخلته إياها ﴿ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا ﴾ طولها ﴿ سَبْعُونَ ذِرَاعًا ﴾ بذراع الملك ﴿ فَاسْلُكُوهُ ﴾ أى لا تسلكوه إلا فى السلسلة الموصوفة ومعنى سلكه فيها أن تلف عليه مع ذلك الطول المفرط مبالغة فى التضييق عليه وثم فى الموضعين لتفاوت ما بين ما دخله وما تقدمه وتقديم السلسلة كتقديم الجحيم للاختصاص والاهتمام بذكر أنواع ما يعذبون به ولم تمنع الفاء من تعلق الفعل بالظرف المتقدم ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ العَظِيمِ ﴾ تعليل على طريقة الاستئناف وذكر العظيم للإشعار بأنه هو المستحق للعظمة فمن تعظم عليه استوجب ذلك العذاب العظيم ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ المِسْكِينِ ﴾ أى لا يحض غيره على إطعامه فضلا عن أن يطعم وفيه مبالغتان ذكره قرين الكفر وذكر ترك الحض دون منع الطعام ليعلم من باب الأولى وفيه إشارة إلى أن شر الخصال بعد الكفر البخل ولذا كان أبو الدرداء يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين ويقول خلعنا نصف السلسلة بالإيمان فلنخلع نصفها بهذا ، وهذه الآية ناطقة بأن المؤمنين يرحون جميعاً وأن الكافرين لا يرحون لقسم الخلق صنفين أهل الإيمان وأهل الشمائل الذين وصفهم بالكفر فى قوله إنه كان لا يؤمن بالله فدل أن المؤمن المعاقب يؤتى كتابه بيمينه دلالة أنه يصير إلى النجاة والله أعلم وفى البخارى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يدنى الله المؤمن يوم القيامة فيقرره بذنوبه حتى إذا رأى أنه قد هلك يقول له سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فيعطى كتاب حسناته بيمينه وأما الكافر فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين » ﴿ فَلَيْسَ لَهُ اليَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴾ قريب يحميه وقد فر كل امرئ من أخيه وأبيه ﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ صديد أهل النار فعلين من الغسل ﴿ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الخَاطِئُونَ ﴾ العامدون للإثم من الخطإ بالكسر العمد لا بالفتح ﴿ فَلَا ﴾ زائدة ﴿ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴾ من المخلوقات ﴿ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ منها أى بكل مخلوق أو غير مزيدة أى لا أقسم بها لظهور الأمر ﴿ إِنَّهُ ﴾ القرآن ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ ﴾ يبلغه عن الله لا يقول عن نفسه ﴿ كَرِيمٍ ﴾ على الله وهو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ كما تزعمون تارة ﴿ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴾ بما ظهر لكم صدقه تصديقاً قليلا لفرط

عنادكم ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ﴾ كما تدعون أخرى ﴿ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ بالتاء فى الفعلين للجمهور والياء لابن كثير وهشام أى تذكرون تذكراً قليلا فلذلك يلتبس الأمر عليكم والمعنى أنهم آمنوا بأشياء يسيرة فتذكروها مما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم من الخير والصلة والعفاف فلم تغن عنهم شيئاً أو القلة بمعنى العدم وذكر الإيمان مع نفى الشعر والتذكر مع نفى الكهانة لأن عدم مشابهة القرآن للشعر أمر بيّن لا ينكره إلا معاند بخلاف الكهانة فنفيها يتوقف على تذكر أحوال الرسول ومعانى القرآن المخالفة لطريقة الكهنة ومعانى أقوالهم ﴿ تَنْزِيلٌ ﴾ أى بل هو تنزيل ﴿ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ على لسان جبريل رفعٌ لأن يكون كلام الرسول حقيقة لإسناد القول إليه والمراد بالرسول محمد لا جبريل إذ لم ينسبوا إليه شعراً ولا كهانة ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ﴾ النبي تكلف الافتراء ﴿ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴾ بأن نسب إلينا قولا لم نقله وتسمى الأقوال المنقولة أقاويل تحقيراً كالأعاجيب كأنها جمع أفعولة ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ أى بيمينه ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ نياط قلبه بضرب عنقه وهو تصوير لإهلاكه بأشنع صورة وهو أن يأخذ الجلاد بيمين المصبور ليرى السيف فى يده بخلاف ما إذا أخذ بيساره ، وفى ذكر الوتين إشارة إلى محل الجناية فإن اللسان ترجمان المؤاخذ عليه ، وقيل اليمين بمعنى القوة أى لعاقبناه بالقوة ، والوتين عرق متصل بالقلب هو نياطه إذا انقطع مات صاحبه ﴿ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ ﴾ عن القتل أو المقتول المتقول ﴿ حَاجِزِينَ ﴾ دافعين ، خبر « ما » وجمع لأن « أحداً » فى سياق النفى بمعنى الجمع والخطاب للناس كلهم ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ القرآن ﴿ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ لأنهم المنتفعون به ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ مُكَذِّبِينَ ﴾ بالقرآن ومصدقين فنجازيهم ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أى القرآن أو التكذيب ﴿ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ إذا رأوا ثواب المصدقين وعقاب المكذبين له ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ القرآن ﴿ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ أى لليقين حق اليقين الذى لا ريب فيه ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ سبح الله بذكر اسمه العظيم تنزيهاً له عن الرضى بالتقول عليه وشكراً على ما أوحى به .

[تم تفسير سورة الحاقة]

سورة المعارج
مكية أربع وأربعون آية

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . سَالَ) بالألف لنافع وابن عامر وبالهمز للباقين (سَائِلٌ) أى دعا داع (بِعَذَابٍ وَاقِعٍ) أى استعجله ولذا عدى سأل بالباء والسائل هو النضر بن الحارث قال اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك الآية : فألف سأل على القراءة الأولى مبدلة من الهمزة تخفيفا . قال حسان :

سَالَتْ هُذَيْلٌ رَسُولَ اللَّهِ فَاحِشَةً ضَلَّتْ هُذَيْلٌ بِمَا سَالَتْ وَلَمْ تُصِبِ

أو أجوف واوى كخاف يخاف . قال أبو زيد سمعت من يقول هما يتساولان أو يائى كباع يبيع أى جرى واد ذو سيل بعذاب واقع أى كائن لا محالة (لِلْكَافِرِينَ) صفة أخرى لعذاب أو صلة لواقع أى نازل لأجلهم أو متعلق بسأل (لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ) رادٌّ (مِنَ اللَّهِ) متصل بواقع أى من عنده جملة مؤكدة الأولى أو صفة أخرى لعذاب أو بدافع أى ليس له دافع لامنه ولامن غيره إذا جاء (ذِي الْمَعَارِجِ) مصاعد السماء للملائكة أو للأعمال الصالحة أو الأرواح أو ذى الفواضل أو الصفات الحيدة على سبيل الاستعارة فى الرتب لأنه فى اللغة الدرج فى الأجرام (تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ) استئناف لبيان تلك المعارج وبعد مداها بالتاء للجمهور والياء للكسائى (وَالرُّوحُ) أى جبريل خصه بالذكر بعد العموم لفضله أو خلق آخر موكلون بالملائكة كالملائكة بنا أو اسم جنس لأرواح المؤمنين عند الموت (إِلَيْهِ) إلى عرشه أو مهبط أمره من السماء (فِي يَوْمٍ) صلة تعرج (كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) من أسفل العالم إلى العرش أى لو صعد فيه غير الملك لكان مقداره كذلك أو صلة واقع أى يقع العذاب فى يوم طويل مقداره كذلك وهو يوم القيامة فإما أن يكون استطالته كذلك لشدته على الكفار أو لأنه على الحقيقة كذلك على ما قيل إن فيه خمسين موطنا يقف الخلق فى كل موطن ألف سنة ويؤيد الأول مارواه ابن حنبل عن أبى سعيد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال والذى نفسى بيده إنه ليخف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة والثانى هو الظاهر والله أعلم وتفسير اليوم بيوم القيامة هو الأوجه المناسب للسياق من التهويل (فَاصْبِرْ) على استهزائهم فى استعجال العذاب والتكذيب (صَبْرًا جَمِيلًا) لا قلق معه ولا شكوى بعد علمك بوقوع العذاب على أعدائك (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ) أى العذاب أو يوم القيامة (بَعِيدًا) عن إمكان الوقوع (وَنَرَاهُ قَرِيبًا) منه أو من الوقوع (يَوْمَ

تَكُونُ السَّماء ﴾ ظرف لقريبا أو لما دل عليه واقع أو يقع أو بدل من محل « في يوم » إن علق بواقع ﴿ كَالْمُهْلِ ﴾ كدردي الزيت أو ذائب الفضة ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ كالصوف المصبوغ ألوانا لاختلاف ألوان الجبال بيض وحمر وغرابيب سود فإذا طارت في الهواء اختلطت ألوانها كالعهن المنفوش إذا طيرته الريح ﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ ﴾ قريب ﴿ حَمِيمًا ﴾ قريبه كيف حالك لاشتغال كل بحاله « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ أي يبصر بعض الأحماء بعضاً ويعرفه ولا يتكلم والجملة استئناف جواب : لِمَ لا يسأل هل لا يراه ؟ أو حال تدل على أن المانع عن السؤال هو الشاغل دون الخفاء، وجمع الضمير لعموم الحميم والأصل يبصرون بهم فضمن معنى التعريف أو حذفت الصلة وأوصل الفعل ﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ ﴾ الكافر استئناف يدل على أن الأمر أعظم من الاشتغال بالسؤال عن حال أحد بل يتمنى ﴿ لَوْ ﴾ بمعنى أن ﴿ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ ﴾ بفتح الميم لنافع والكسائي وكسرها للباقين ﴿ بِبَنِيهِ ﴾ الذين هم أعز عليه من الروح ﴿ وَصَاحِبَتِهِ ﴾ زوجته التي يختار ذهاب مهجته دونها غيرة ﴿ وَأَخِيهِ ﴾ الذي هو شقيقه ﴿ وَفَصِيلَتِهِ ﴾ عشيرته الذي فصل منهم ﴿ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴾ تضمه في النسب وعند الشدائد ﴿ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ كائناً من كان ﴿ ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴾ ذلك الافتداء عطف على يفتدي ﴿ كَلَّا ﴾ ردع للمجرم عما يوده وتنبيه أنه لا ينجيه من العذاب ﴿ إِنَّهَا ﴾ أي النار المدلول عليها بالعذاب أو القصة أو مبهم فسره ﴿ لَظَىٰ ﴾ لهب خالص أو علم للنار منقول منه لأنها تتلظى أي تتلهب على الكفار ﴿ نَزَّاعَةً ﴾ خبر بعد خبر لإن، أو خبر « لظى » إن كان الضمير للقصة، ويجوز أن يكون صفة إن أريد بلظى اللهب لأن علم الجنس كالمعرف بلامه في إجرائه مجرى النكرة وإن لم يجعل علم الجنس لحذف التنوين لإجراء الوصل مجرى الوقف، وقرأ حفص نزاعة بالنصب على الحال المؤكدة ﴿ لِلشَّوَىٰ ﴾ أطراف الإنسان كاليدين والرجلين أو هي جلدة الرأس جمع شواة ﴿ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ ﴾ عن الحق ﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴾ عن الطاعة بلسان المقال بأسمائهم : يا كافر يا فاسق، إليَّ . إليَّ ﴿ وَجَمَعَ ﴾ المال ﴿ فَأَوْعَىٰ ﴾ أمسكه في وعائه ولم يؤد حق الله منه حرصا وتأميلا ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ ﴾ أريد به الجنس ليصح استثناء المصلين منه ﴿ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ حال مقدرة تفسيره ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴾ وقت مس الشر ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ ﴾ السعة ﴿ مَنُوعًا ﴾ وقت مس الخير أي المال ولم يؤد حق الله منه والوصفان مما جبل عليه الإنسان و « إذا » الأول ظرف لجزوعاً والأخرى لمنوعاً ﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ الاستثناء متصل أي هم خلوا الهلع عن أعناقهم أو منقطع لما وصف من أدبر وتولى بالهلع قال لكن المؤمنون المصلون الموصوفون بالصفات الآتية في مقابلة أولئك ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ لا يتركونها إلا في أوقات الأعذار والضرورات أو لا يشغلهم عنها شاغل . قال الغزالي : فينبغي لك أن تفهم ما تقرأه في صلاتك ولا تغفل في قراءتك عن أمره سبحانه ونهيه ووعده ووعيده ومواعظه وأخبار أنبيائه وذكر منته وإحسانه فلكل واحد حق فالرجاء حق الوعد والخوف حق الوعيد والعزم حق الأمر والنهي والاتعاظ حق الموعظة

والشكر حق المنة والاعتبار حق أخبار الأنبياء ﴿ وَالَّذِينَ ﴾ هم ﴿ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴾ هو الزكاة وما يوظف الرجل على نفسه من الصدقة يؤديه فى أوقات معلومة ﴿ لِلسَّائِلِ ﴾ الذى يسأل ﴿ وَالْمَحْرُومِ ﴾ المتعفف عن السؤال فيحرم فيحتنون بحاله ويفتشون عليه اواساته ﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ الجزاء بالعمل له ولذلك ذكره بيوم الدين ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ خائفون على أنفسهم ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ نزوله اعتراض دل على أنه لا ينبغى لأحد أن يأمن وإن كان على قدم راسخ فى الطاعة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۞ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من الإماء وتقدم ما فى الاستثناء فى سورة المؤمنين ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ دل على أن المباح لا يمدح عليه إلا بنية ﴿ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ المتجاوزون الحلال إلى الحرام ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ حافظون قرأ ابن كثير أمانتهم على الإفراد لإرادة الجنس وتقدم معنى الأمانة والعهد ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ﴾ بالإفراد للجمهور والجمع لحفص ﴿قَائِمُونَ﴾ إحياء للحقوق وهى من الأمانات أفردها دلالة على زيادة فضلها ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ على شرائطها وأركانها وواجباتها وسننها وآدابها وكفاها شرفا الابتداء بها فى عد المحاسن والختم بها ﴿ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ﴾ عند الله بأنواع الإكرام ﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ ﴾ نحوك معمول ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ حال مسرعين مادى أعناقهم مديمى النظر ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ﴾ منك ﴿عِزِينَ﴾ حال: فرقا شتى جمع عزة وأصلها عزوة قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ثم حذفت الياء وعوض عنها التاء من العزو كل فرقة تعتزى إلى غير من تعتزى إليه الأخرى كان المشركون يحلقون حول النبى صلى الله عليه وسلم حلقا حلقا يستمعون ويستهزئون بكلامه يقولون إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنها قبلهم فنزل ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ بلا إيمان ﴿ كَلَّا ﴾ ردع عن طمعهم فى الجنة ورد له ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ من نطف قذرة ولذا أبهم إشعارا بأنه مما يستحي من ذكره والقذارة لا تناسب الجنة فمن لم يتطهر بالإيمان والطاعات الزاكية لا يستحقها أو خلقناهم مما يعلمون أى من أجله وهو الكمال بالعلم والعمل فمن لم يكمل بهما لم يدخلها ﴿ فَلَا ﴾ زائدة ﴿ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ للشمس والقمر والنجوم ﴿ إِنَّا لَقَادِرُونَ ۞ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ بأن نهلكهم ونأتى بدلهم أو نعطى محمدا بدلهم خيراً منهم وهم الأنصار الأوس والخزرج ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ مغلوبين عن إرادتنا أو عاجزين ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ اترك المكذبين ﴿ يَخُوضُوا ﴾ فى باطلهم ﴿ وَيَلْعَبُوا ﴾ فى دنياهم كالصبيان ﴿ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ فيه العذاب وإضافة اليوم إليهم لمزيد الاختصاص ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ القبور ﴿سِرَاعًا﴾ إلى الداعى إلى الحشر ﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ ﴾ حجر منصوب للعبادة وذبح النسائك ولابن عامر وحفص بضم النون والصاد جمعه كسقف وسُقف ﴿يُوفِضُونَ﴾ يسرعون كإسراعهم إلى أنصابهم كانوا يبتدرون إليها

عند طلوع الشمس لا يلوى أحدهم على آخر وسراعا وكأنهم حالان من فاعل يخرجون وكذا ﴿ خَاشِعَةً ﴾ ذليلة ﴿ أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ﴾ تغشاهم ﴿ ذِلَّةٌ ﴾ هوان ﴿ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ ﴾ الموصوف ﴿ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا على ألسنة الرسل .

[تم تفسير سورة المعارج]

سورة نوح

مكية : ثمان أو تسع وعشرون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۞ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ ﴾ أي بأن أو أي فأن مصدرية أو مفسرة لاشتمال الإرسال على معنى القول ﴿ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ إن لم يؤمنوا في الدنيا بالطوفان وفي الآخرة بالنار وبئس المصير ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ ﴾ أضافهم إليه إظهاراً للشفقة ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ بيّن الإنذار لاقتران قولي بالمعجزة أو أبين رسالات ربي بلغة تعرفونها ﴿ أَنِ ﴾ مصدرية أو تفسيرية ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۞ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ ما كان لكم من الذنوب أو بعضها وهي التي تقدمت إسلامكم لأنه يَجُبُّ ما قبله أو المخرج حقوق العباد ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ ﴾ بلا عذاب ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أجل الموت ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ ﴾ الذي قدره بالقضاء المبرم ﴿ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ﴾ فبادروا في أوقات الإمهال والتأخير وأما القضاء المعلق فيؤخر بأن يعلق على إن آمنوا عاشوا كذا وإن لم يؤمنوا فكذا وفيه زيادة العمر بالصدقة والصلة وغير ذلك مما جاء في الأحاديث وما في علمه تعالى لا يبدل ﴿ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك لبادرتم إلى الإيمان لكنكم جاهلون لعدم الجري على موجب العلم ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ أي دائما متصلا بلا فتور ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴾ عن الإيمان وإسناد الزيادة إلى الدعاء إسناد إلى السبب ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ ﴾ إلى الإيمان ﴿ لِتَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ أي ليؤمنوا فتغفر لهم فاكتفى بذكر المسبب الذي هو حظهم ليكون أدل على قبح إعراضهم ﴿ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ ﴾ أناملهم ﴿ فِي آذَانِهِمْ ﴾ لئلا يسمعوا كلامي وبالغ بإطلاق الأصابع على الأنامل مجازا لشدة نفورهم ﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ تغطوا بها لئلا يروني كراهة منهم لرؤيتي أو لئلا أعرفهم فأدعوهم إلى الإيمان والإتيان بالسين الدال على

الطلب للمبالغة كأنهم طلبوا من الثياب أن تغشاهم ﴿وَأَصَرُّوا﴾ على كفرهم من أصر الحمار على الأتان أذنيه يطردها للسفاد وكنى بهذا التشبيه مزجرة ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا﴾ تكبروا عن الإيمان ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ مفرطا ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ مصدر فى موضع الحال أى مجاهرا فى المحافل أو مصدر دعوتهم مبين لنوعه كقعدت القرفصاء ﴿ثُمَّ إِنِّى أَعْلَنتُ لَهُمْ﴾ صوتى ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ﴾ الكلام ﴿إِسْرَارًا﴾ أى دعوتهم مرة بعد أخرى وكرة بعد أولى على أى وجه أمكننى وثم لتفاوت الوجوه فإن الجهار أغلظ من الإسرار والجمع أغلظ من الإفراد أو لتراخى بعضها عن بعض وهذا دأب الناصح الشفوق ينصح سرا وإن لم ينجع يعلن لكى يساعده من له وعى ثم يبالغ بالجمع بين السر والجهر ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ من الشرك تفسير لدعائه ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ للتائبين وكأنهم قالوا إن كنا على حق فلا نتركه وإن كنا على باطل فكيف يقبلنا من عصيناه فأمرهم بما يَجُبُّ معاصيهم ويجلب المنح لهم ولذا وعدهم بقوله ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾ المطر ﴿عَلَيْكُم﴾ وكانوا قد منعوه أربعين سنة وأعقم أرحام نسائهم وعبر عن إرسال المطر بإرسال السماء دلالة على كثرته ﴿مِّدْرَارًا﴾ كثير الدرور مفعال يستوى فيه المذكر والمؤنث ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ بساتين ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ جارية لمزارعكم جمع لهم فى الوعد منافع الدارين . روى أن رجلا اشتكى إلى الحسن الجدب فأمره بالاستغفار والآخر الفقر فأمره به والآخر قلة ريع أرضه وآخر قلة النسل فقال استغفروا فقال له الربيع بن صبيح شكوا إليك أبوابا والجواب واحد فتلا عليه الآية . ولما استسقى عمر فى خلافته لم يزد على الاستغفار ، وقال عليه السلام « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا ومن كل هم فرجا ورزقه من حيث لا يحتسب » رواه أبو داود وابن ماجه والنسائى ﴿مَّا لَكُمْ﴾ ما حصل لكم من الصارف حتى ﴿لَا تَرْجُونَ﴾ لا تأملون أو لا تخافون ﴿لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أى توقيرا وتعظيما له ممن عبده وأطاعه وفيه بيان للوقر بكسر القاف أو لا تخافون عظمة له أو حلما لأن الوقور معظم فى القلوب والحلم لا يفارقه ثم نبههم على النظر فى أنفسهم لأنها أقرب إلى المنظور فيه بقوله ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ جمع طور وهو الحال فطورا نطفة وطورا علقة إلى تمام الخلق أطوارا فى الطول والقصر والسواد والبياض والعلم والجهل والإيمان والكفر والطاعة والعصيان فهذه الأطوار تدل على الخالق الحكيم ثم أتبع ذلك النظر فى الآفاق على وجه التعجيب من تغافلهم بقوله ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ تنظروا ﴿كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ بعضها فوق بعض ولا يقتضى الطباق المماسة ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أى فى مجموعهن الصادق بالسماء الدنيا أو نسب للكل للملابسة بينها ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ كالسراج فى إزاحة ظلمة الليل وعن ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم أن الشمس والقمر وجوهُهُمَا مما يلى السموات وظهورهما مما يلى الأرض فيكون نور القمر محيطا بجميع السموات لأنها لطيفة لا تحجب نوره وأجمعوا على

أن الشمس فى السماء الرابعة ، قاله فى مدارك التنزيل ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُمْ﴾ أنشأكم ﴿مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ أى فنبتم نباتاً واستعار الإنبات للإنشاء لأنه أدل على الحدوث والتكوّن من الأرض ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ مقبورين ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ للحشر ﴿إِخْرَاجًا﴾ لا محالة ولذا أكده بالمصدر كالأول إشارة إلى اتحاد الرتبة وكونهما فى قرن ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ مبسوطة تتقلبون عليها تقلب الرجل على فراشه ﴿لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا﴾ طرقاً ﴿فِجَاجًا﴾ واسعة ومن لتضمن الفعل معنى الاتخاذ ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ فيما أمرتهم به من الإيمان والاستغفار بعد ما تلوت عليهم آيات الأنفس والآفاق وصرح باسم نوح لطول الفصل ولم يعطفه لأنه تفصيل لقوله « فلم يزدهم دعائى إلا فراراً » ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ أى السفلة والفقراء ﴿مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ﴾ بفتح الواو واللام لنافع وابن عامر وعاصم وبضم الواو وسكون اللام للباقين جمعه كأسَد وأُسْد وقيل بمعناه كبَخَل وبُخْل أى رؤساءهم المنعم عليهم بما ذكر المغترين به فلم يزدهم ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ فى الآخرة إشارة إلى أنه وإن كان سبباً للتقدم فى الظاهر ليس فى الحقيقة إلا سبباً للبوار ﴿وَمَكَرُوا﴾ عطف على من لم يزده والجمع باعتبار معنى من ﴿مَكْرًا كُبَّارًا﴾ غاية فى الكبر بأنواع الأذى وتسليط السفهاء على نوح والكبّار أبلغ من الكبار بالتخفيف وهو من الكبير أبلغ ﴿وَقَالُوا﴾ للسفلة ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ جميعها أى عبادتها ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وُدًّا﴾ بضم الواو لنافع وبفتحها للباقين صنم لهم على صورة رجل ﴿وَلَا سُوَاعًا﴾ على صورة امرأة ﴿وَلَا يَغُوثَ﴾ على صورة أسد ﴿وَيَعُوقَ﴾ على صورة فرس ﴿وَنَسْرًا﴾ على صورة نسر أفردها بالذكر لأنها كبار آلهتهم قيل هى أسماء رجال صالحين من صلب آدم فلما ماتوا وسوس الشيطان إلى قومهم أن صوّروا صورهم حتى تتبركوا بها وتبقى تذكرة فلما انقرض أولئك وسوس إلى أولادهم إن آباءكم كانوا يعبدونها فعبدوها من دون الله وعلى هذا فكلها على صور الآدميين . روى البخارى عن ابن عباس أن هذه الأوثان التى كانت فى قوم نوح عليه السلام انتقلت إلى العرب « ودّ » بدومة الجندل لكلب و « سواع » لهذيل بقرب مكة و « يغوث » لمراد بالجرف و « يعوق » لهمدان و « نسر » لحمير لآل كلاع ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا﴾ بها أى الرؤساء ﴿كَثِيرًا﴾ من الناس بأن أمروهم بعبادتها أو الضمير للأصنام كقوله « إنهن أضللن كثيراً من الناس » ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾ عطف على « قد أضلوا » واللام للعهد وهم الذين أيس من إيمانهم ﴿إِلَّا ضَلَالًا﴾ ضياعاً وتباراً دعاء عليهم بالهلاك لما أوحى إليه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن وقد دعا عليه السلام على الأحزاب بالهزيمة فكان هذا أصلا فى الدعاء على الكفار فى الجملة فأما كافر معين لم تعلم خاتمته فلا يدعى عليه ودعاء النبى صلى الله عليه وسلم على عتبة وأصحابه لعلمه بحالهم من الموت على الكفر والله أعلم ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ﴾ بالهمز جمع قلة للجمهور ولأبى عمرو خطاياهم جمع كثرة أى لأجلها و « ما » مزيدة للتوكيد ﴿أُغْرِقُوا﴾ بالطوفان ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ عظيمة أى عوقبوا بها عقب الإغراق تحت الماء والفاء يؤذن

بالاتصال فيكون دليلا على عذاب القبر لأنه روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار والتنكير للتعظيم أو النوع وكفى بهذا زجراً لمرتكبي الخطايا ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ غيره ﴿ أَنْصَارًا ﴾ يمنعون عنهم العذاب ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ أحداً يدور فى الديار وهو من الألفاظ المستعملة فى النفى العام يقال مابها ديار فيعال من الدور أو الدار قلبت واوه ياء وأدغمت فى الأولى ولو كان فعالا لكان دوّاراً ﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ﴾ يدعوهم إلى الضلال ﴿ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ من يكفر ويفجر قال ذلك لما أوحى إليه « لن يؤمن ... الآية » ولأنه جربهم ألف سنة إلا خمسين عاماً وكانوا يتواصون بعدم الإيمان ويقولون لذريتهم إياكم وهذا الشيخ ، ومضى على ذلك جيل بعد جيل والفاجر والكفار المولود باعتبار المآل ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾ وكانا مؤمنين أبوه لامك بن متوشلخ وأمه شمخاء بنت أنوش ﴿ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ ﴾ منزلى أو مسجدى أو سفينتى ﴿ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ إلى يوم القيامة ﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ هلاكا . والله أعلم .

[تم تفسير سورة نوح]

سورة الجن

مكية ـ ثمان وعشرون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ • قُلْ ﴾ يا محمد لأمتك ﴿ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ أى أخبرت بالوحى من الله ﴿ أَنَّهُ ﴾ أى الشأن ﴿ اسْتَمَعَ ﴾ لقراءتى ﴿ نَفَرٌ ﴾ جماعة من الثلاثة إلى العشرة ﴿ مِنَ الْجِنِّ ﴾ جن نصيبين وتقدمت قصتهم فى الأحقاف . بُعث نبينا إلى الجن كما بعث إلى الإنس فدعاهم إلى الله فنهم من آمن ومنهم من كفر والقول بأنهم أرواح مجردة أو نفوس بشرية مفارقة أبدانها لايجوز تفسير كلام الله به ولم يذهب إليه أحد من أهل الحق وهو مخالف للنصوص ، قاله فى غاية الأمانى ﴿فَقَالُوا﴾ لقومهم لما رجعوا إليهم ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ يتعجب منه فى فصاحته وغزارة معانيه وغير ذلك و « عجباً » مصدر وصف به مبالغة وهو ما يكون خارجاً عن العادة ﴿ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴾ الحق والصواب وهو الإيمان ﴿ فَآمَنَّا بِهِ ﴾

بالقرآن ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ ولا دلالة فيه على أنهم كانوا مشركين بل كانوا يهوداً لقولهم « إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى » ﴿وَأَنَّهُ﴾ أى الشأن ﴿تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ تنزهت عظمته عما نسب إليه . من جدّ فلان عظم ثم بين ذلك بقوله ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ كما يقول كفار الإنس والجن ، فأنّ المسبوقة بالواو هنا وما بعده فى اثنى عشر موضعاً بالكسر لنافع وابن كثير وأبى عمرو وبالفتح للباقين ووافقهم فى فتح «وأنه لما قام عبدالله» ابن كثير وأبو عمرو واتفق الكل على فتح «وأن المساجد لله» والوجه فى الكسر الاستئناف أو العطف على «إنا سمعنا» وفى الفتح العطف على الهاء فى «آمنا به» أو على محل الجار والمجرور أو إضمار الجار ﴿وَأَنَّهُ﴾ أى الشأن ﴿كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ جاهلنا إبليس ومن تبعه منا ﴿عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ قولا ذا شطط تجاوز الحد فى الكذب بوصفه بالصاحبة والولد ، نعت لمصدر محذوف وصف به مبالغة ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ﴾ مخففة أى أنه ﴿لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بوصفه بذلك حتى تبينا كذبهم بذلك و «كذبا» نصب على المصدر لأنه نوع من القول ولا دلالة فيه على أنهم إلى حين سماع القرآن كانوا مشركين ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ حين ينزلون فى أسفارهم بمخوف يصرخ النازل منهم بأعلى صوته : أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه يعتقد بذلك أنه يحميه ويمنعه ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ زاد الإنس الجن بعوذهم بهم ﴿رَهَقًا﴾ طغياناً وتكبراً فقالوا سدنا الجن والإنس أو زاد الجن الإنس إثماً لاستعاذتهم بهم والرهق غشيان المحظور وإطلاق الرجال على الجن للمشاكلة ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ أى الإنس ﴿ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ﴾ أيها الجن لأن السياق فى حكاية كلام الجن بعضهم لبعض وقيل الضمير فى « أنهم » للجن فالآية والتى قبلها من كلام الله جار مجرى الاعتراض لتأكيد ما حدث عنهم من تماديهم فى الكفر . ومن فتح أن فيهما جعلهما من الموحى به ﴿أَنْ﴾ مخففة ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ بعد موته ويؤيد الأول قوله ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ طلبنا استراق السمع منها على ما كنا نفعله قديماً ، أطلق اللمس على الطلب مجازاً لأن اللامس طالب متعرف ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا﴾ من الملائكة اسم جمع كخدم ﴿شَدِيدًا﴾ أقوياء أفرد باعتبار اللفظ ﴿وَشُهُبًا﴾ جمع شهاب وهو الشعلة من النار وذلك لما بعث النبى صلى الله عليه وسلم ﴿وَأَنَّا كُنَّا﴾ أى قبل مبعثه ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ من السماء ﴿مَقَاعِدَ﴾ خالية من الحرس أو صالحة ﴿لِلسَّمْعِ﴾ للاستماع صلة «نقعد» أو صفة «مقاعد» ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ أى راصداً له أى لأجله ليرمى به فيمنع به عن الاستماع صفة للشهاب أو اسم جمع كحرس أى ذوى شهاب راصدين للرجم وهم الملائكة وفى لفظ ملئت ومقاعد إشارة إلى أن ذلك كان موجوداً فى الجاهلية لكنه قليل وأما الآن فلا مجال ويؤيده ما روى عن ابن عباس قال : كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرمى بنجم فاستنار فقال : ما كنتم تقولون فى هذا فى الجاهلية ؟ قلنا : كنا نقول يولد عظيم أو يموت عظيم الحديث ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ بحراسة السماء ومنع الاستراق ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ

ربهم رشداً) أمراً ذا رشد : خير ورحمة ﴿وأنا منا الصالحون﴾ الأبرار المتقون ﴿ ومنا ﴾ قوم ﴿ دون ذلك ﴾ وهم المقتصدون فى الصلاح غير الكاملين فيه أو أرادوا غير الصالحين ﴿ كنا طرائق ﴾ أى ذوى طرائق أى مذاهب أو مثل طرائق فى اختلاف الأحوال ﴿ قددا ﴾ متفرقة مختلفة جمع قدة من قده قطعه وعن الأعمش : قلت لجنى : فيكم الأهواء التى فينا ؟ قال نعم قلت كيف حال الرافضة ؟ قال هم شرنا ﴿وأنا ظننا﴾ علمنا ﴿ أن ﴾ أى أنه ﴿ لن نعجز الله فى الأرض ﴾ أينما كنا فيها لن نفوته ﴿ولن نعجزه هرباً﴾ مصدر فى موضع الحال أى هاربين منها إلى السماء ﴿ وأنا لما سمعنا الهدى ﴾ القرآن يدل على أنهم كاملو المعرفة حيث جعلوا القرآن نفس الهدى ﴿آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف﴾ بتقدير هو بعد الفاء مبتدأ وخبرا آثره على لا يخف لإفادة التقوّى والاختصاص كأنه قيل فهو ناج لا محالة ومختص بذلك ﴿ بخساً ﴾ نقصاً من ثوابه ﴿ولا رهقا ﴾ ظلماً وذلة وأصل الرهق القرب من الشيء ومنه المراهق ﴿ وأنا منا المسلمون ﴾ المتبعون للحق ﴿ ومنا القاسطون ﴾ الكافرون الجائرون عن طريق الحق ، قسط : جار ، وأقسط : عدل ﴿ فمن أسلم فأولئك تحروا ﴾ قصدوا ﴿ رشداً ﴾ عظيما يبلغهم إلى الجنة ورضوان الله ﴿وأما القاسطون﴾ فكانوا لجهنم حطباً ﴾ وقوداً توقد بهم كما توقد بكفار الإنس ﴿ وأن ﴾ معطوف على أنه استمع أى وأن الشأن ﴿ لو استقاموا ﴾ أى القاسطون من الإنس والجن فهذا من كلام الله ﴿ على الطريقة ﴾ طريقة الإسلام ﴿ لأسقيناهم ماء غدقا ﴾ كثيراً والمعنى لوسعنا عليهم الرزق وتخصيص الماء لأنه أصل المعاش والسعة ولعزة وجوده فى أرض العرب ﴿ لنفتنهم ﴾ لنختبرهم ﴿ فيه ﴾ فى ذلك التوسيع أيشكرون أم يكفرون ، وقيل معنى «وأن لو استقاموا» لو داموا على ما كانوا عليه ولم يؤمنوا لوسعنا عليهم الرزق استدراجاً . قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : حيث يكون الماء ثم المال وحيث المال ثم الفتنة . وقال الحسن : كانت الصحابة رضى الله عنهم سامعين مطيعين فلما فتحت كنوز كسرى وقيصر على الناس ثارت الفتن . ﴿ ومن يعرض عن ذكر ربه ﴾ عبادته لأن الغرض منها ذكر المعبود أو موعظته أو وحيه ﴿ نسلكه ﴾ بالنون لنافع وابن عامر وابن كثير وأبى عمرو وبالياء للباقين ندخله ﴿ عذاباً ﴾ أى فيه ﴿ صعداً ﴾ شاقا يعلو المعذب ويغلبه مصدر صعد وصف به مبالغة ﴿ وأن المساجد ﴾ مواضع الصلاة ﴿ لله ﴾ مختصة به ﴿ فلا تدعوا ﴾ فيها ﴿ مع الله أحداً ﴾ ولا ينبغى أن يتحدث فيها بأمور الدنيا ولا يجعل فيها لغير الله نصيب ، وعن الحسن : المساجد كل موضع يسجد فيه إذ الأرض كلها جعلت مسجداً لهذه الأمة . اهـ . ويدل عليه ما روى أن الآية نزلت لما تغلبت قريش على الكعبة فقيل للنبى والمؤمنين المواضع كلها لله فاعبدوه حيث كنتم ، وقيل أعضاء السجود الرجلان واليدان والركبتان والجبهة والأنف ﴿ وأنه لما قام عبد الله ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يدعوه ﴾ يعبده ببطن نخلة وسمع الجن تلاوته ﴿ كادوا ﴾ أى الجن المستمعون لقراءته ﴿يكونون عليه لبداً﴾ بكسر اللام للجمهور جمع لبدة وضمها لابن عامر فى رواية هشام بخلاف عنه : جمع

لبدة لغة فيه أى كاللبد فى ركوب بعضهم بعضاً ازدحاماً حرصاً على سماع القرآن واللبدة كل شىء تلبد بعضه فوق بعض أو كادت العرب تلبد عليه لإبطال أمره لما قال لا إله إلا الله ، أو القاسطون من الجن والإنس يكونون لبداً على إطفاء نوره ، وسماه عبد الله إشعاراً بتواضعه المقتضى لقيامه وفيه حث للسامعين على الاقتداء به ﴿ قَالَ ﴾ مجيباً للكفار وحمزة وعاصم قل ﴿ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي ﴾ فما للإنكار وجه على من يعبد ربه فليس ببدع ﴿ وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ فى العبادة ﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا ﴾ مضرة أو غيا ﴿ وَلَا رَشَدًا ﴾ نفعاً ، المعنى : لا أستطيع أن أضركم ولا أن أنفعكم لأن الضار والنافع هو الله وعبر عن الأول باسمه وعن الآخر باسم سببه إشعاراً بالمعنيين ﴿ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي ﴾ لن يدفع عنى ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ من عذابه إن عصيته ﴿ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى غيره ﴿ مُلْتَحَدًا ﴾ ملتجأ وملاذاً من اللحد وهو الميل ﴿ إِلَّا بَلَاغًا ﴾ كائناً ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ استثناء من لا أملك أى لا أملك لكم ضرا ولا رشداً إلا بلاغا من الله و « قل إنى لن يجيرنى » اعتراض لتأكيد نفى الاستطاعة عن نفسه أو من ملتحداً أى لن أجد منجى إلا أن أبلغ عنه ما أرسلنى ﴿ وَرِسَالَاتِهِ ﴾ عطف على « بلاغا » بتقدير مضاف أى بلاغ رسالاته والأصل إلا بلاغ رسالاته والعدول إلى المنزل لذكر البلاغ مرتين مبالغة لأن كونه من الله وكونه بلاغ رسالاته مما يقتضى التشمير له ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فى الأمر بالتوحيد إذ الكلام فيه ﴿ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ لا محالة ﴿ خَالِدِينَ ﴾ حال من ضمير « من » جمعه رعاية لمعناها ﴿ فِيهَا أَبَدًا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا ﴾ حتى ابتدائية فيها معنى الغاية لمقدر دل عليه ما قبلها أى لا يزالون على كفرهم إلى أن يروا ﴿ مَا يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب فى الدنيا أو فى الآخرة ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ عند حلوله بهم ﴿ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾ أهو أم هم فقال بعضهم متى هذا الوعد فنزل ﴿ قُلْ إِنْ ﴾ ما ﴿ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ ﴾ من العذاب ﴿ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴾ بعيداً أى غاية وأجلا لا يعلمه إلا هو ولكنه نازل بكم قطعاً ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ ﴾ ما غاب عن العباد ﴿ فَلَا يُظْهِرُ ﴾ لا يطلع ﴿ عَلَىٰ غَيْبِهِ ﴾ المختص به وهو ما يتعلق بذاته وصفاته وأفعاله قاله فى غاية الأمانى ﴿ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ ﴾ ملكى أو بشرى فإنه يطلعه على ما يشاء من ذلك ليكون له معجزة ولا يجوز حمل الغيب على العموم إذ الرسول لا يعلم جميع المغيبات بل المراد بعض الغيب المخصوص بطريق الوحى فلا يمنع كرامات الأولياء باطلاعهم على غيب غيره وكذا إطلاع غيرهم على بعض المغيبات كالكهان والمنجمين للعلم بأسبابها على أن كرامة الولى معجزة للرسول والمنجمون وقفوا على علم جاء من رسول انقطع أثره وبقى علمه فى الخلق ﴿ فَإِنَّهُ ﴾ فإن الله مع إطلاعه على ما شاء ﴿ يَسْلُكُ ﴾ يدخل أى يجعل ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ أى الرسول ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ ملائكة حفظة يحفظونه من تخاليط الشياطين حتى يبلغ الوحى ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ الله علم ظهور علة لقوله يسلك الخ ﴿ أَنْ ﴾ أى أنه ﴿ قَدْ أَبْلَغُوا ﴾ أى الرسل ﴿ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أو ليعلم النبىّ الموحى إليه أن قد أبلغ جبريل والملائكة النازلون بالوحى روعى بجمع الضمير معنى من

﴿وَأَحَاطَ﴾ الله ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ لدى الرسل من الشرائع والأحكام ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ أى أحصى عدد كل شيء دخل فى الوجود من أى عالم كان فكيف لا يحيط بما لدى الرسل ، و «عدداً» تمييز محوّل عن المفعول .

[تم تفسير سورة الجن]

سورة المزمل

مكية أو «إلا إن ربك يعلم ... الخ» تسع عشرة آية

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ● يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ المتلفف فى ثيابه حين مجىء الوحى له هيبة منه أو حزناً حين قال الكفار له شاعر ساحر فدخل فى بيته وتزمل فى ثيابه حزيناً فنزل عليه جبريل بأمر القيام إلى عبادة ربه أو تزمّل ثيابه لينام فنزل عليه الأمر بالقيام وأصله المتزمل أدغمت التاء فى الزاى ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ أى صلّ ﴿إِلَّا قَلِيلًا نِصْفَهُ﴾ بدل من قليلا وقلته بالنظر إلى الكل والاستثناء من الليل ﴿أَوِ انْقُصْ مِنْهُ﴾ من النصف ﴿قَلِيلًا﴾ إلى الثلث ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ إلى الثلثين و«أو» للتخيير بين قيام النصف أو الناقص عنه أو الزائد عليه أو نصفه بدل من الليل والاستثناء من النصف والضمير فى منه وعليه للأقل من النصف كالثلث فيكون التخيير بينه وبين الأقل منه كالربع والأكثر منه كالنصف أو الضمير للنصف والتخيير بين أقل منه على البت وبين أحد أمرين الأقل والأكثر وهذا الأمر عند الجمهور للندب وقيل للفرض وقت نزول الآية أو فرض على النبىّ خاصة ويؤيد الثانى حديث مسلم عن عائشة : إن قيام الليل كان فرضاً بأول هذه السورة فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم فنسخه آخر السورة فصار تطوعا . اهـ . وقيل نسخ عن الأمة فقط . قال السهيلى : إنما خاطبه الله بالمزمل للملاطفة فى العتاب فالعرب إذا قصدت الملاطفة فى العتاب سموا المخاطب باسم مشتق من حالته كقوله عليه السلام لعلىّ : قم أبا تراب . وللتنبيه لكل متزمل راقد ليله لينتبه إلى قيام الليل ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ﴾

اقرأه على مهل ﴿ تَرْتِيلًا ﴾ بحروفه بحيث يتمكن السامع من عدها للتأمل والتدبر فى دقائقه وحكمه فيكون قيامك فى الليل الذى هو أشرف الأوقات على أكمل الأحوال ، شبه القراءة المفصلة بالثغر المرتل وهو المفلج الشبيه بالأقحوان وفى تأكيده بالمصدر دليل على إيجابه وأنه لا بد منه للقارئ ، قاله النسفى . وفى الصحيح أن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت بينة مرتلة لو شاء أحد أن يعد الحروف لعدها . قال الغزالى : الترتيل أقرب إلى الاحترام والتأثير فى القلب من الهذرمة . اهـ . وقد قام عليه السلام ليلة بآية من القرآن يكررها ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ﴾ قرآناً ﴿ ثَقِيلًا ﴾ مهيباً أو راجحاً فى الميزان برزانة لفظه ومتانة معناه أو شاقاً بالتكاليف وهو اعتراض للدلالة على أن قيام الليل من التكاليف الشاقة التى ورد بها القرآن لأن الليل محل الراحة فإحياؤه بالعبادة مضاد للطبع وفيه إيقاظ له على التشمير وتوطين النفس على ذلك ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ ﴾ قيامه بعد النوم مصدر نشأ قام بالحبشية أو مؤنث ناشئ أى قائم أى النفس التى تنشأ عن المضجع أو ساعات الليل لأنها تحدث واحدة بعد أخرى ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾ موافقة السمع للقلب على تفهم القرآن لعدم الشاغل أو أثبت قياماً أو أكثر كلفة ﴿ وَأَقْوَمُ ﴾ أبين ﴿ قِيلًا ﴾ قولا لحضور القلب وهدوء الأصوات وعدم الخواطر والالتفات ولابن عامر وأبى عمرو وطاء بالمد أى مواطأة القلب واللسان لها أو فيها ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا ﴾ فراغاً أو تقلباً وتصرفاً فى أشغالك ﴿ طَوِيلًا ﴾ فعليك بعبادة ربك ليلا ، مستعار من سبح الفرس وهو مد اليدين فى الجرى ، والطول ترشيح ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ ﴾ أى قل بسم الله الرحمن الرحيم فى ابتداء قراءتك أو دم على ذكره من تسبيح وتهليل وتحميد وصلاة وقراءة قرآن ودراسة علم ليلا ونهاراً ﴿ وَتَبَتَّلْ ﴾ انقطع عن الدنيا ﴿ إِلَيْهِ ﴾ فى العبادة ﴿ تَبْتِيلًا ﴾ تجريدًا لنفسك عما سواه ولهذه الرمزة ومراعاة الفواصل وضعه موضع تبتلا ، هو ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ خبر محذوف أو مبتدأ خبره ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وقرأ ابن عامر والكوفيون غير حفص بالجر على البدل من ربك ﴿ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ موكولا له أمورك فإنه ينصرك ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فيك وفيما أنزل إليك من الخرافات ﴿ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ بأن تجانبهم بقلبك وتخالفهم مع ترك المكافأة بتوكيل أمرهم إلى الله فإنه يكفيكهم كما قال ﴿وَذَرْنِي﴾ اتركنى ﴿ وَالْمُكَذِّبِينَ ﴾ مفعول معه أى كل أمرهم إلىّ فأنا كافيكهم ﴿أُولِي النَّعْمَةِ ﴾ التنعم يريد صناديد قريش المفتخرين بالحطام المانعين أتباعهم عن الدخول فى الإسلام والنعمة بالفتح التنعم وبالكسر الإنعام وبالضم المسرة ﴿ وَمَهِّلْهُمْ ﴾ زمانا أو إمهالا ﴿ قَلِيلًا ﴾ إلى يوم بدر أو إلى يوم القيامة ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا ﴾ قيودا ثقالا للكافرين فى الآخرة جمع نِكل بكسر النون تعليل للأمر ﴿ وَجَحِيمًا ﴾ نارا شديدة الحر والإيقاد ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ ﴾ بشيع ينشب فى الحلق كالضريع والزقوم لا ينساغ ﴿ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ مؤلما نوعا آخر لا يعرف كنهه إلا الله ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ﴾ تضطرب وتزلزل ﴿الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ والظرف منصوب بما فى ولدينا، من معنى الفعل أى استقر ذلك يوم ترجف الأرض

والجبال ﴿ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً ﴾ رملا مجتمعا من كثب الشيء إذا جمعه فعيل بمعنى مفعول ﴿ مَهِيلًا ﴾ منثورا بعد اجتماعه من هاله هيلا نثره وأصله مهيول استثقلت الضمة على الياء فنقلت إلى الهاء وحذفت الواو ثانى الساكنين لزيادتها وقلبت الضمة كسرة لمجانسة الياء ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ ﴾ يا أهل مكة المكذبين خاطبهم عن الالتفات ﴿ رَسُولًا ﴾ هو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ شَاهِداً عَلَيْكُمْ ﴾ يوم القيامة بعصيانكم ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ هو موسى عليه السلام ولم يسمه لأن المقصود لم يتعلق به بل بقوله ﴿ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ ﴾ أى عصيتم رسولكم كما عصى فرعون رسوله ﴿ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلًا ﴾ شديدا ثقيلا أصله الوخامة يقال مرعى وبيل وطعام وبيل لا يستمرأ لثقله ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ ﴾ فى الدنيا ﴿ يَوْماً ﴾ مفعول تتقون أى عذاب يوم أوظرف أى فكيف لكم التقوى فى الآخرة إن كفرتم فى الدنيا أومفعول كفرتم على تأويله لجحدتم أى فكيف تتقون الله وتخشونه إن جحدتم يوما ﴿ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً ﴾ جمع أشيب لشدة هوله وذلك حين يقال لآدم عليه السلام قم فابعث بعث النار من ذريتك ، وقيل كناية عن شدته إذ عند تفاقم المصائب يسرع الشيب أو عن طوله والجملة صفة يوما ﴿ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ ﴾ منشق والتذكير باعتبار السقف ﴿ بِهِ ﴾ بذلك اليوم لشدته والباء للآلة فإذا كانت السماء مع عظمها وإحكامها تنشق به فما ظنك بغيرها ﴿ كَانَ وَعْدُهُ ﴾ تعالى بمجىء ذلك اليوم أو الضمير لليوم على إضافة المصدر إلى المفعول ﴿ مَفْعُولًا ﴾ كائنا لا محالة ﴿ إِنَّ هَذِهِ ﴾ الآيات الموعدة ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ عظة للخلق لجلائها ﴿ فَمَنْ شَاءَ ﴾ أن يتعظ ﴿ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ موصلا إليه بالإيمان والطاعة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى ﴾ أقل ﴿ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفِهِ وَثُلُثِهِ ﴾ بجرهما لنافع وابن عامر وأبى عمرو عطفا على ثلثى ونصبهما للباقين عطفاً على أدنى واستعار الأدنى للأقل لأن الأقرب إلى الشيء أقل بعدا منه ، وأسكن هشام لام ثلثه تخفيفاً وقيامه عليه السلام كذلك نحو ما أمر به أول السورة ﴿ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ عطف على ضمير تقوم وجاز من غير تأكيد للفصل وقيام طائفة من أصحابه كذلك للتأسى به ومنهم من كان لا يدرى كم صلى من الليل وكم بقى منه فكان يقوم الليل كله احتياطا فقاموا حتى انتفخت أقدامهم سنة أو أكثر فخفف الله عنهم بقوله ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ ﴾ يحصى ﴿ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى لا أنتم ﴿ عَلِمَ أَنْ ﴾ أى أن الشأن ﴿ لَنْ تُحْصُوهُ ﴾ أى الليل لتقوموا فيما يجب القيام فيه إلا بقيام جميعه وذلك يشق عليكم ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ رجع بكم إلى التخفيف برفع ما كان تركه معصية من قيام الليل ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ فى الصلاة بأن تصلوا ما تيسر وعن أبى هريرة : من قرأ مائة آية فى ليلة لم يكتب من الغافلين ، ومن قرأ مائتى آية كتب من القانتين . وقوله فاقرأوا أى فى صلاة الليل وأى وقت كان أمر ندب ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى ﴾ استئناف يبين حكمة أخرى مقتضية للترخيص والتخفيف ولذلك كرر الحكم مرتبا عليه بقوله ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ يسافرون ﴿ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ من رزقه بالتجارة وغيرها ﴿ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

إخبار عما يكون مستقبلا بالإعجاز على القول بأن الآية مكية وتسويته بين الضارب للتجارة والمجاهد فى سبيل الله دلت على أن طلب الرزق إذا قرن بالنية الصالحة له مكان عند الله كيف وقد قدمه على المجاهدة ولذا قال عبد الله بن عمر : ما من موتة أحب إلىّ بعد القتل فى سبيل الله من أن أموت بين شعبتى رحل أضرب فى الأرض ابتغاء فضل الله وكل من الفرق الثلاث يشق عليهم ما ذكر فى قيام الليل ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ كما تقدم وهو أيضاً أمر ندب فى قول الجمهور وقال بعضهم هو فرض لابد منه ولو خمسين آية وقال الحسن وابن سيرين قيام الليل فرض ولو قدر حلب شاة قال بعضهم والركعتان بعد العشاء مع الوتر كافيتان فى امتثال هذا الأمر ومن زاد زاده الله ثوابا قال فى الجواهر ينبغى للعاقل المبادرة إلى تحصيل الخيرات قبل هجوم صولة الممات ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ المفروضة ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ الواجبة ﴿ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ ﴾ بأن تنفقوا ماسوى الواجب من المال فى سبل الخير ﴿ قَرْضاً حَسَناً ﴾ عن طيب قلب وإخلاص ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً ﴾ مما خلفتم من متاع الدنيا أوما تؤخرونه إلى الوصية عند الموت ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ﴾ لما فرط منكم فى جميع أحوالكم لأن الاستقامة متعسرة أو متعذرة ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ للذنوب ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بالمؤمنين المستغفرين يجعل مكان الذنوب الحسنات

[تم تفسير سورة المزمل]

سورة المدثر

مكية ـ خمس وخمسون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ الملتف بالدثار وهو الثوب الذى فوق الشعار والشعار ما يلى الجسد والدثار ما فوقه أصله المتدثر فأدغم وأول هذه السورة أول ما نزل بعد فترة الوحى وأول اقرأ أول ما نزل مطلقاً لكنه نبوّة وهذا رسالة وفى البخارى ومسلم عن جابر أنه سمع رسول الله يحدث عن فترة الوحى قال : فبينا أنا أمشى سمعت صوتا فرفعت بصرى قبل السماء فإذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعدا على كرسىّ بين السماء والأرض فجئثت أى خفت وأرعبت منه حتى هويت إلى الأرض فجئت أهلى فقلت دثرونى فأنزل الله يأيها المدثر ﴿ قُمْ ﴾ من مضجعك أوقم قيام عزم وجد ﴿ فَأَنْذِرْ ﴾ قومك أو فافعل الإنذار من غير

تخصيص له بأحد على حذف المفعول للعلم به أو للتعميم وهو أبلغ أى ألق بالدثار واشتغل بالإنذار (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) صفه بالكبرياء ووحده وعظمه عن إشراك المشركين ، روى أنه لما نزل كبّر رسول الله فكبرت خديجة وأيقنت أنه وحى إذ الشيطان لا يأمر بالتكبير أى لا يكبر فى عينك غيره والفاء فيه وفيما بعده لإفادة معنى الشرط وكأنه قال ومهما يكن من شىء فكبر ربك (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) من النجاسة بغسلها منها وحفظها عنها بتقصيرها مخافة جر الذيول فى النجاسة لأن الصلاة لا تصح إلا بها طاهرة وهو أول ما أمر به من رفض العادات المذمومة ومخالفة قومه فإنهم كانوا يجرون الثياب على الأرض خيلاء فربما أصابتها نجاسة وقيل طهر أخلاقك عما يدنسها (وَالرُّجْزَ) العذاب أى ما يؤدى إليه وهو عبادة الأوثان كما فسره النبى بذلك (فَاهْجُرْ) دم على هجرانها وقرأ حفص بضم الراء فى الرجز لغة (وَلَا تَمْنُنْ) لا تعط شيئاً حال كونك (تَسْتَكْثِرُ) تعده على الله أو على الناس كثيراً لاحتقار متاع الدنيا وإن جل أو لا تعط طامعاً أن تعوض أكثر مما أعطيت وهو هبة الثواب حرم عليه صلى الله عليه وسلم خاصة لأنه مأمور بأجمل الأخلاق وأشرف الآداب وهو جائز لغيره والموهوب له مخير بين قبوله بقيمته أو رده ولا يلزم الواهب قبول مادونه ولا الموهوب له الزيادة على قيمته (وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) أى لوجهه أو لأمره ونهيه وعلى الأول أمر بالصبر على أذى الكفار فى التبليغ (فَإِذَا نُقِرَ) نفخ (فِى النَّاقُورِ) الصور النفخة الثانية سمى ناقوراً لما روى أن فيه بعدد كل روح نقرة : فاعول من النقر القرع الذى هو سبب الصوت وهو بناء مبالغة كالكابوس والفاء للسببية أى اصبر على أذاهم فبين أيديهم زمان صعب تلقى فيه عاقبة صبرك و « إذا » ظرف لما دل عليه قوله (فَذَٰلِكَ) أى وقت النقر (يَوْمَئِذٍ) بدل عما قبله المبتدأ والخبر (يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ) و « يومئذ » ظرف لهذا الخبر على تقدير فذلك الوقت وقت وقوع يوم عسير فلم يقع الزمان مظروف الزمان أى عسر الأمر على الكفار إذا نقر فى الناقور (غَيْرُ يَسِيرٍ) أبداً تأكيد يمنع أن يكون عسيراً عليهم من وجه دون وجه ويشعر بيسره على المؤمنين (ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ) حال كونه (وَحِيدًا) منفرداً بلا أهل ولا مال حال من مَن أو من ضميره المحذوف واتفقوا على أن المراد هنا الوليد بن المغيرة المخزومى وكان يلقب فى قومه بالوحيد فذمه الله به بأن خلقه منفرداً ثم أنعم عليه بقوله (وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا) مبسوطاً واسعاً نامياً متصلا من كل نوع من الزروع والضروع والتجارات كان له مائة ألف ألف دينار وبستان بالطائف لا ينقطع ثماره صيفاً وشتاء (وَبَنِينَ) عشرة أو أكثر (شُهُودًا) معه المجالس والمحافل يتمتع بهم ليلا ونهاراً لا يفارقونه لعدم ترددهم إلى الأسفار وأسباب المعاش استغناء بالخدم وتكبراً بالجاه أسلم منهم ثلاثة خالد وهشام وعمارة (وَمَهَّدْتُ لَهُ) الجاه والرياسة بتكثير أسبابهما (تَمْهِيدًا) كاملا بطول العمر (ثُمَّ) مع ذلك (يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ) له فوق ما هو فيه فى الدنيا ويقول إن كان محمد صادقاً فالجنة لى استبعاد لطمعه وحرصه مع عدم الشكر

﴿ كَلَّا ﴾ ردع له عن الطمع وعلله بقوله ﴿ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا ﴾ القرآن ﴿ عَنِيدًا ﴾ معانداً مكابراً من غير شبهة وذلك موجب لزوال النعم فكيف يجعل سبباً للزيادة ، قيل ما زال بعد نزول هذه الآية فى نقصان ماله حتى هلك ﴿ سَأُرْهِقُهُ ﴾ أكلفه ﴿ صَعُودًا ﴾ عقبة شاقة المصعد مثل لما يستقبل من العذاب الشديد ، وفى الحديث الصعود جبل فى النار طوله سبعون خريفاً يصعد فيه ثم يهوى أبداً إذا وضع يده عليه ذابت وإذا رفع عادت ﴿ إِنَّهُ ﴾ تعليل للوعيد أو بيان للعناد ﴿ فَكَّرَ ﴾ فيما يقول فى القرآن الذى سمعه من النبى صلى الله عليه وسلم وهو حمۤ السجدة فقال لقريش : سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس والجن إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه ليعلو ولا يعلى عليه . فقالوا : صبأ الوليد . فجاء إليه ابن أخيه أبو جهل وكلمه فى ذلك فقال له الوليد : تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق وتقولون كاهن فهل رأيتموه يتكهن وتقولون شاعر فهل رأيتموه يتعاطى الشعر ؟ فقالوا لا فما تقول فيه أنت؟ ففكر وقال : ماهو إلا ساحر ! أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ففرحوا بقوله وتفرقوا متعجبين منه وهو معنى إنه فكر ﴿ وَقَدَّرَ ﴾ فى نفسه ذلك وهيأه ﴿ فَقُتِلَ ﴾ لعن وعذب ﴿ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ مالا يصح تقديره أو على أى حال تقدير وعلى الأول تعجيب من فساد تقديره كقوله قاتلهم الله أنى يؤفكون أو حكاية لما قالوه لما سمعوا كلمته كما يقولون قاتله الله ما أشجعه يريدون الثناء ﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ كرر للتأكيد وثم يشعر بأن الدعاء الثانى أبلغ من الأول لأنه صدر عن روية بخلاف الأول فإنه نشأ عن النظرة الأولى وهى حمقاء وفى هذا الترقى غاية تهكم به وبمن اغتر بما تفوه به ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ فى وجوه قومه او فيما يقدح به فى القرآن أو الرسول ﴿ ثُمَّ عَبَسَ ﴾ قطب وجهه لما لم يجد طعنا شافيا ﴿ وَبَسَرَ ﴾ كالح وزاد فى القبض ضيقا بما يقول وهو من توابع «عبس» أو من بسر الرجل طلب الحاجة فى غير موضعها حيرة ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ ﴾ عن الإيمان ﴿ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ عن اتباع النبى والقرآن ﴿ فَقَالَ ﴾ فيه ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ ينقل من السحرة والفاء للدلالة على أنه لما خطرت هذه الكلمة بباله لم يتمالك أن تفوه بها من غير تثبت ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ كما قالوا إنما يعلمه بشر وهى كالتأكيد للجملة الأولى ولذا لم تعطف ﴿ سَأُصْلِيهِ ﴾ أدخله ﴿ سَقَرَ ﴾ جهنم بدل من سأرهقه صعودا ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾ تهويل لشأنها ﴿ لَا تُبْقِي ﴾ لحماً ولا عصباً ﴿ وَلَا تَذَرُ ﴾ عظما أو لا تبقى شيئاً بل تهلك كل رطب ويابس ثم يعود كما كان ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ محرقة لظاهر الجلد فتغيره من لوحته الشمس إذا غيرته ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ ملكا أو صنفاً من الملائكة خزنتها أو صفا أو نقيباً منهم قال أبو جهل لما سمع ذلك ثكلتكم أمهاتكم أيعجز كل عشرة منكم أن تبطش بواحد منهم فقال أبو الأشد كلدة بن خلف أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفونى أنتم اثنين وكان بلغ من قوته أنه يقف على جلد البقر ويجذبه عشرة فينخرق الجلد تحت رجليه ولا يقدرون على إخراجه ، دعا رسول الله إلى المصارعة وقال إن صرعتنى آمنت بك فصرعه النبى صلى الله عليه وسلم

مراراً فلم يؤمن قال تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴾ أى فلا يطاقون كما يتوهمون بسوق أحدهم أمة إلى النار على عاتقه جبل فإذا ألقاهم فى النار ألقى الجبل وراءهم ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ ﴾ ذلك ﴿ إِلَّا فِتْنَةً ﴾ إضلالا أو ابتلاء ﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ إذ يستهزئون به ويقولون لم كانوا تسعة عشر ؟ ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ صدق النبى فى كونهم تسعة عشر الموافق لما فى كتابهم ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ به إذا صدقوا به ورأوا تسليم أهل الكتاب لهذا العدد ﴿ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ من غيرهم فى عدد الملائكة تصريح بما علم ضمنا توكيدا ﴿ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ شك أو نفاق فيكون إخبارا بمكة عما سيكون فى المدينة بعد الهجرة لأن السورة مكية والنفاق إنما نجم بالمدينة ﴿ وَالْكَافِرُونَ ﴾ الجازمون بالتكذيب من كفار قريش وغيرهم ﴿ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا ﴾ العدد ﴿ مَثَلًا ﴾ سموه مثلا لغرابته عندهم تمييز أو حال إذ قيل لما استبعدوه حسبوه أنه مثل مضروب ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أى مثل إضلال منكرى هذا العدد وهدى مصدقيه والكاف فى محل النصب ﴿ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ من الكافرين ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ من المؤمنين ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ ﴾ الملائكة فى قوتهم وأعوانهم أو جموع خلقه على ما هم عليه ﴿ إِلَّا هُوَ ﴾ لفرط الكثرة فتخصيص الخزنة بهذا العدد لحكمة لا تعلمونها كعدد السموات والأرضين وحملة العرش ﴿ وَمَا هِيَ ﴾ أى سقر متصل بها وما بينهما اعتراض يؤكد بعضه بعضاً ﴿ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾ تذكرة لهم وفيه زيادة تهويلها أو الضمير للآيات التى ذكرت فيها ﴿ كَلَّا ﴾ ردعٌ لمن أنكرها أو إنكارٌ لأن يتذكروا بها ﴿ وَالْقَمَرِ ﴾ أقسم به لكثرة منافعه ﴿ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ بسكون الذال بعدها همزة قطع لنافع وحمزة وحفص أى مضى وبفتح الذال بعدها ألف للباقين أى أقبل وجاء بعد النهار ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴾ أضاء وجواب القسم ﴿ إِنَّهَا ﴾ أى سقر ﴿ لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴾ البلايا العظام التى لا يوجد لها نظير ﴿ نَذِيرًا ﴾ حال من إحدى وذكر لأنها بمعنى العذاب أو تمييز من النسبة أى إحدى الكبر إنذارا كقولك هى إحدى النساء عفافا ﴿ لِلْبَشَرِ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ ﴾ بدل من البشر ﴿ أَنْ يَتَقَدَّمَ ﴾ إلى الخير أو الجنة بالإيمان مفعول شاء ﴿ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ إلى الشر أو النار بالكفر ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ رهن مصدر بمعنى المفعول ولو كانت صفة لجردت عن التاء أى مأخوذة بعملها فى النار غير مفكوكة ﴿ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ فإنهم فكوا رقابهم بالأعمال الصالحة وقيل أطفال المسلمين لأنهم لا يرهنون بأعمالهم ﴿ فِي جَنَّاتٍ ﴾ حال من أصحاب اليمين والتنكير للتعظيم ﴿ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ بينهم ﴿ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ وحالهم يسأل بعضهم بعضا أو يسألون غيرهم ويقولون للمجرمين بعد إخراج الموحدين من النار ﴿ مَا سَلَكَكُمْ ﴾ أدخلكم ﴿ فِي سَقَرَ ﴾ والسؤال للتوبيخ ومن فسر أصحاب اليمين بالأطفال أيده بهذا السؤال لأن الأطفال لا يعلمون موجب ذلك ﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾ الداخلين فى عدادهم ﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴾ المحتاج ما يجب له دليل على أن الكفار مخاطبون بالفروع ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ ﴾ فى الباطل ﴿ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ القائلين الباطل فى الآيات

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ البعث والجزاء ﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ الموت ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ من الملائكة والأنبياء والصالحين إذ لا شفاعة لهم لأنها للمؤمنين دليل لثبوت الشفاعة للمؤمنين وفى الحديث « إن من أمتى من يدخل الجنة بشفاعته أكثر من ربيعة ومضر » رزقنا الله شفاعته ﴿فَمَا﴾ مبتدأ ﴿لَهُمْ﴾ خبره متعلق بمحذوف انتقل ضميره إليه ﴿عَنِ التَّذْكِرَةِ﴾ الاتعاظ بالقرآن ﴿مُعْرِضِينَ﴾ حال من المجرور المعنى أى شىء حصل لهم فى إعراضهم عن الاتعاظ ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ فى إعراضهم ونفارهم عن الذكر ﴿حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ وحشية نافرة ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ أسد أى هربت منه أشد الهرب فعولة من القسر وهو القهر قرأ نافع وابن عامر مستنفرة بفتح الفاء والباقون بكسرها ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ قراطيس تنشر وتقرأ كقوله « لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه » ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عما أرادوه ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ أى عذابها فلذا أعرضوا عن التذكرة لا لامتناع إيتاء الصحف ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن الإعراض أو بمعنى حقا ﴿إِنَّهُ﴾ القرآن ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ عظة ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ قرأه واتعظ به ﴿وَمَا تَذْكُرُونَ﴾ بالتاء لنافع التفاتاً وبالياء للباقين ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ذكركم ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ﴾ حقيق بأن يتقى عقابه ﴿وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ لعباده سيما لمن اتقاه .

[تم تفسير سورة المدثر]

سورة القيامة

مكية – وهى أربعون آية

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . لَا أُقْسِمُ﴾ « لا » صلة فى الموضعين لتأكيد القسم فى قراءة الجمهور ولابن كثير لأقسم بلام الابتداء أى لأنا أقسم ﴿بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ التى تلوم صاحبها على التقصير فى التقوى وإن اجتهد فى الإحسان وجواب القسم محذوف أى لتبعثن دل عليه ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ﴾ الكافر ﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ للبعث والإحياء بعد تفرقها . قيل نزلت فى عدى بن ربيعة ختن الأخنس بن شريق سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البعث فأخبره به فقال لو عاينت ذلك لم أو من بك ﴿بَلَىٰ﴾ نجمعها ﴿قَادِرِينَ﴾ مع جمعها ﴿عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ أصابعه نعيدها كما كانت مع صغرها ولطافتها فكيف بالعظام الكبار وفى تصدير الكلام بالقسم بيوم البعث وبالمبعوث فيه على تحقق البعث ثم إيثار الحسبان وهمزة الإنكار مسنداً إلى الإنسان والإتيان بحرف الإيجاب وإيقاع

« قادرين » حالا بعده من المبالغات فى تحقيق المطلوب وتهجين حال المعرض عنه مايبهر عجائبه فى البلاغة ثم زاده رونقا بقوله ﴿ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ يدوم على فجوره فيما يستقبل عطف على « أيحسب » للترقى فى الإنكار لدلالته على أن الحسبان لمجرد إرادة الفجور أو إضراب عن الإنكار عن حاله بما هو أدخل فى اللوم كأنه قال أنى يردع بالإنكار وهو يريد الدوام على الفجور . قال البخارى : ليفجر أمامه يقول سوف أتوب سوف أعمل يعنى حتى يأتيه الموت على شر أحواله وأسوإ أعماله أو المعنى يكذب بما هو أمامه من البعث والحساب دل عليه ﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ ﴾ متى ﴿ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾ سؤال استهزاء وتكذيب ﴿فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ﴾ بفتح الراء لنافع : لمع ، وكسرها للباقين : دهش وتحير ، كأنه نظر البرق لما رأى مما كان يكذب به وقيل هما لغتان بمعنى ﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ ذهب ضوءه أو غاب ولأبى حيوة ضم الراء . قال ابن أبى أويس : الخسوف ذهاب جميع الضوء والكسوف ذهاب بعضه ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ فى الطلوع من المغرب أو فى النار يوم القيامة وذكر الفعل لتقدمه أو تغليب المعطوف ﴿ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾ أى الفرار من النار ، وقرئ بكسر الفاء اسم مكان ﴿ كَلَّا ﴾ زجر عن طلب الفرار ﴿ لَا وَزَرَ ﴾ لا ملجأ يتحصن به وأصله الجبل لأنه يلجأ إليه فى الغارات واشتقاقه من الوزر : الثقل ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ خاصة ﴿يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ للخلائق لا ملجأ غيره أو إلى حكمه ترجع أمورهم أو إلى مشيئته استقرار فريق فى الجنة وفريق فى السعير ﴿ يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ ﴾ يخبر ﴿ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ بأول عمله وآخره أو بما تصدق من ماله وما خلفه أو بما عمل وما لم يعمل ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ حجة واضحة لايحتاج معها إلى أن يسأل لأنه الذى ينبئ نفسه بما قدم وأخر حين تنطق جوارحه أو شاهده ، والهاء للمبالغة فلابد من جزائه ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ اسم جمع أو جمع معذار أو معذرة على غير قياس أى ولو أتى بكل معذرة لاتقبل لأن الشاهد من نفسه لا يقبل الجرح . ولما كان عليه السلام يتعجل فى تلقى القرآن من جبريل بتحريك شفتيه به قبل فراغ جبريل نزل ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ ﴾ بالقرآن عند أخذه من جبريل ﴿لِسَانَكَ﴾ قبل فراغه ﴿ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ بحفظه مخافة أن ينفلت منك ثم علل النهى عن العجلة بقوله ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ فى صدرك ﴿ وَقُرْآنَهُ ﴾ قراءتك إياه أى جريانه على لسانك ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ ﴾ عليك بقراءة جبريل ﴿ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ استمع قراءته فكان صلى الله عليه وسلم يستمع ثم يقرؤه ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ بتفهيمك ما أشكل والمناسبة بين هذه الآية والتى قبلها أن تلك تضمنت الإعراض عن آيات الله بتعجيل شهوات الدنيا وهذه تضمنت المبادرة إليها لتعجيل حفظها فإذا ذمت العجلة فى أهم الأمور وأصل الدين فما بالك فى غيره ولذا زجر عن تعجيل حظوظ الدنيا بقوله ﴿ كَلَّا ﴾ ردع عن العجلة ثم بين أن بنى آدم خلقوا من عجل فى كل شىء فأضرب عن الردع إلى بيان ذلك بقوله ﴿ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴾ الدنيا ﴿ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴾ فلا تعملون لها لتأخرها بالتاء فى الفعلين لنافع والكوفيين والياء للباقين وهو تعميم إشعارا بطباع بنى آدم ورمز

لطيف لائق بشأنه صلى الله عليه وسلم لأن ذلك الطبع إنما حصل له فى حقوق ربه كقول موسى « وعجلت إليك رب لترضى » وحصل الردع فى الجبلي لأنه يقبل العلاج كسائر الملكات الرديه ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ بهية مضيئة عليها أثر السرور ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ فقط لا إلى غيره كالطالب رؤية الهلال بلا كيفية ولا جهة يرونه سبحانه فى الآخرة ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ كالحة أى شديدة العبوسة ﴿تَظُنُّ﴾ توقن ﴿أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ داهية عظيمة تكسر فقار الظهر وعبر بالظن لأنها متوقعة كما مر التنبيه عليه ﴿كَلَّا﴾ ردع عن حب العاجلة وإيثارها على الآخرة بذكر ما هو أوعظ شيء للإنسان وهو الموت بقوله ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ الروح ﴿التَّرَاقِيَ﴾ عظام الحلق أضمرت وإن لم يتقدم لها ذكر لأن قرينتها أظهر من نار على علم ﴿وَقِيلَ﴾ قال من حضر حوله من الأحباب بعضهم لبعض ﴿مَنْ رَاقٍ﴾ يرقيه ليشفى أو قالت الملائكة الموت من يرق بروحه : ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ؟ ﴿وَظَنَّ﴾ أيقن من بلغت نفسه ذلك أو الحاضر ﴿أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ الحقيقى للدنيا المحبوبة ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ إحدى ساقيه بالأخرى عند الموت لا يقدر على تحريكها أو التفت شدة فراق الدنيا بشدة إقبال الآخرة . جزع بعض المشايخ جزعا شديدا عند الموت فقال له بعض أصحابه : علام هذا الجزع ؟ قال باب أدقه سبعين سنة الآن يفتح ولا أدرى ما وراءه ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ السوق لا إلى غيره وهو عليم بذات الصدور ، وهذا يدل على العامل فى إذا ، المعنى إذا بلغت الحلقوم تساق إلى حكم ربها إلى الجنة أو النار ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ بقلبه أو بماله يعنى الإنسان الحاسب أن لن نجمع عظامه ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ لم يأت بالعبادات التى أشير إليها بالصلاة لأنها رئيسها ﴿وَلَٰكِنْ كَذَّبَ﴾ بالقرآن ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الإيمان ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ﴾ يتبختر افتخارا بذلك يعتقد أن أشنع المثالب أرفع المناقب ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾ فيه التفات عن الغيبة والكلمة اسم فعل واللام للتبيين أى وليك ما تكره ﴿فَأَوْلَىٰ﴾ أى فأولاك مرة بعد أخرى أوفهو أولى بك من غيره ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ تأكيد أو المعنى ويل لك يوم الموت فويل لك فى القبر ثم ويل لك فى البعث فويل لك فى النار ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ مهملا لا يكلف ولا يجازى أى لا يكون ما حسب لأن فيه بطلان الحكمة ﴿أَلَمْ يَكُ﴾ أى كان ﴿نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ تُمْنَىٰ﴾ بالتاء للجمهور والياء لحفص والضمير للمنى أى تصب فى الرحم ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ المنى ﴿عَلَقَةً فَخَلَقَ﴾ الله منها الإنسان ﴿فَسَوَّىٰ﴾ عدل أعضاءه ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ﴾ النوعين ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ﴾ يجتمعان تارة وينفرد كل منهما عن الآخر تارة ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ﴾ الفعال لهذه الأشياء ﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ كان عليه السلام إذا قرأها يقول « سبحانك بلى » رواه أبو داود .

[تم تفسير سورة القيامة]

سورة الإنسان

مكية ـ أو مدنية ـ إحدى وثلاثون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . هَلْ ﴾ قد ﴿ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ ﴾ أى جنسه بمعنى كل إنسان أو آدم عليه السلام ﴿ حِينٌ ﴾ طائفة محدودة ﴿ مِّنَ الدَّهْرِ ﴾ الزمان الممتد الغير المحدود وهذا الحين أربعون سنة على الثانى ومدة الحمل على الأول ﴿ لَمْ يَكُن ﴾ فيه ﴿ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ كان غير مذكور بالإنسانية والجملة حال من الإنسان أو وصف لحين بحذف الراجع كما قدرناه والاستفهام للتقرير والتقريب ولذا فسر هل بقد وأكثر المتأولين على أن الإنسان اسم جنس قال فى الجواهر وهو القوى إذ الآية جعلت عبرة لكل أحد من الناس ليعلم أن الخالق له قادر على إعادته انتهى ويؤيده قوله ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ إذ لا خلاف هنا فى إرادة الجنس والمعرفة إن تكررت هى عين الأولى وفى إيثار المظهر فضل تقرير ﴿ أَمْشَاجٍ ﴾ أخلاط أى من ماء الرجل وماء المرأة المختلطين أو ألوان أو أطوار جمع مشيج من مشج الشىء خلطه وجمع لأن المراد به مجموع ماء الرجل والمرأة والكل مختلف الأجزاء والخواص وقيل لفظه جمع ومعناه مفرد كبرمة أعشار ولذا وقع نعتا لنطفة أو بدلا منه ﴿ نَّبْتَلِيهِ ﴾ نختبره بالتكليف استئناف أو حال مقدرة أى مريدين ابتلاءه حين تأهله أو معناه ناقلين له من حال إلى حال فاستعير له الابتلاء لأن كل طور يظهر ظهورا آخر كظهور الممتحن ﴿ فَجَعَلْنَاهُ ﴾ بسبب ذلك ﴿ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ ليتمكن من استماع الآيات وشهود الدلائل والمعجزات مسبب عما قبله ولذا عطف بالفاء ورتب عليه قوله ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ بينا له طريق الهدى بإنزال الآيات ونصب الأدلة ﴿ إِمَّا شَاكِرًا ﴾ أى مؤمنا ﴿ وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ حالان من المفعول أى بينا له فى حالة شكره وكفره المقدرة و«إما» لتفصيل الأحوال أى هديناه فى حالتيه جميعا أو للتقسيم أى مقسوما إليهما بعضهم شاكر وبعضهم كفور وفى مقابلة الشاكر بالكفور إشارة إلى غلبة الكفران فى الإنسان ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا ﴾ هيأنا ﴿ لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا ﴾ بها يقادون ويسحبون فى النار ﴿ وَأَغْلَالًا ﴾ فى أعناقهم تشد فيها السلاسل ﴿ وَسَعِيرًا ﴾ نارا مسعرة أى مهيجة يحرقون بها وسلاسلا بالتنوين لنافع والكسائى وهشام وشعبة وتركه للباقين ، وتقديم الوعيد وقد تأخر الكفور لأن الإنذار أهم وأنفع ، وتصدير الكلام وختمه بالمؤمنين أحسن وأوقع ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ ﴾ جمع برّ أو بارّ وهم المطيعون وعن الحسن هم الذين لا يؤذون الذر ولا يرضون الشرّ ﴿ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ ﴾ خمر تسمية للحال باسم المحل ومن للتبعيض ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا ﴾ ما تمزج به ﴿ كَافُورًا ﴾

أى ماء كافور وهو عين فى الجنة وقيل تخلق فيها رائحة الكافور وبرده وقيل تمزج خمرهم بالكافور ﴿عَيْنًا﴾ بدل من كافورا على الأول وعلى الأخيرين من محل «من كأس» على تقدير مضاف أى خمر عين ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ يلتذ بها أو يشرب منها أو يمزجون الخمر بمائها كما تقول شربت الماء بالعسل ﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾ يقودونها حيث شاءوا من منازلهم ﴿تَفْجِيرًا﴾ كثيرا سهلا بلا تعب ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ فى طاعة الله استئناف لبيان ما رزقوا لأجله وفيه مبالغة فى الوفاء لمن أوفى بما أوجب على نفسه لله كأن أوفى بما أوجبه الله عليه ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ﴾ شدائده ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ منتشرا غاية الانتشار وهو أبلغ من طار: من استطار الفجر أو الحريق ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ أى الطعام وشهوتهم له وقيل على حب الله وفى قوله «لوجه الله» غنية عن هذا ﴿مِسْكِينًا﴾ فقيرا عاجزا عن الاكتساب ﴿وَيَتِيمًا﴾ صغيرا لا أب له ولا مال ﴿وَأَسِيرًا﴾ مسلما أو كافرا ويدخل فيه المحبوس بحق وهو الغريم والمملوك وفى الحديث «غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك» وكان يؤتى بالأسير إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فيدفعه إلى بعض المسلمين ويقول «أحسن إليه» مدح لهم على اختيار مواضع الصدقة فإنها كالبذر لا ينبت إلا فى أرض طيبة وعنه عليه الصلاة والسلام «لكل شىء مفتاح ومفتاح الجنة حب المساكين» وقال لعائشة «لا تردى المسكين ولو بشق تمرة أحبى المساكين وقربيهم فإن الله يقربك يوم القيامة» أخرجه الترمذى ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ ثوابه ﴿لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ شكرا فيه دفع للمن وتوقع المكافأة المنقصة للأجر، وهل تكلموا بذلك أو علمه الله منهم فأثنى عليهم به؟ قولان والأشبه الثانى والجملة الثانية تأكيد للأولى وكانت عائشة رضى الله تعالى عنها تبعث بالصدقة إلى أهل بيت ثم تسأل من بعثته ما قالوا فإذا ذكر دعاء دعت لهم بمثله ليبقى ثواب الصدقة لها خالصا عند الله وقال عليه السلام «طعامكم فى بطون الرجال خير من عبادتكم فى قرون الجبال» ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا﴾ فلذلك نحسن إليكم ولا نطلب المكافأة منكم ﴿يَوْمًا﴾ أى عذابه ﴿عَبُوسًا﴾ تعبس فيه الوجوه أو كريه المنظر لشدته ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ شديد العبوس كالذى يجمع ما بين عينيه من القطر والميم مزيدة يقال جمع فلان قطرته إذا اشتد تغيظه مغضبا ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ بسبب خوفهم وتحفظهم عنه ﴿وَلَقَّاهُمْ﴾ أعطاهم بدل عبوسة الكفار ﴿نَضْرَةً﴾ بهجة فى وجوههم ﴿وَسُرُورًا﴾ فى قلوبهم بدل حزن الكفار ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا﴾ بصبرهم على أداء الواجبات وترك المحرمات والإيثار بالأموال ﴿جَنَّةً﴾ أدخلوها ﴿وَحَرِيرًا﴾ ألبسوه ليأكلوا المنى ويلبسوا البهى ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ حال من «هم» فى وجزاهم ﴿فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ السرر فى الحجال ﴿لَا يَرَوْنَ﴾ لا يجدون حال ثانية ﴿فِيهَا شَمْسًا﴾ حرا ﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ بردا لاعتدال الهواء أو الزمهرير القمر والمعنى لا احتياج إلى الشمس والقمر لضياء الأضواء. وفى الحديث: «هواء الجنة سجسج لا حر ولا برد» ﴿وَدَانِيَةً﴾ قريبة عطف على محل «لا يرون» أى غير رائين لأن الجملة الحالية فى تأويل المفرد والواو للدلالة على اجتماع الأمرين لهم كأنه قيل جامعين فى الجنة بين

البعد عن الحر والقر ودنو الظلال أو عطف على جنة على أنهم وعدوا جنتين كقوله «ولمن خاف مقام ربه جنتان» أي وجزاهم جنة أخرى دانية (عَلَيْهِمْ) منها (ظِلَالُهَا) ظلال أشجارها (وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا) أدنيت ثمارها (تَذْلِيلًا) بنالها القائم والقاعد والمضطجع والجملة عطف على ماقبلها أو حال من ضميره وإيثار الفعلية لقصد التجدد لأن القطاف بحسب الحاجة (وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ) فيها (بِآنِيَةٍ) كؤوس الشراب (مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ) أقداح بلا عرى (كَانَتْ قَوَارِيرَا) في الصفاء والشفيف (قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ) والمعنى أنها من فضة صافية شفافة يرى باطنها من ظاهرها كالزجاج قال ابن عباس قوارير كل أرض من تربتها وأرض الجنة فضة وقواريرًا وقواريرًا بتنوينهما والوقف عليهما بألف بعد الراء لنافع والكسائي وشعبة وبتنوين الأول والوقف عليه بألف بعد الراء وترك تنوين الثاني والوقف عليه بإسكان الراء من غير ألف لابن كثير وبترك تنوينهما والوقف على الأول بألف بعد الراء وعلى الثاني بإسكان الراء من غير ألف لأبي عمرو وابن ذكوان وحفص وبترك تنوينهما والوقف عليهما بألف بعد الراء لهشام وبترك تنوينهما والوقف عليهما بسكون الراء من غير ألف لحمزة فهي خمسة أوجه (قَدَّرُوهَا) الطائفون (تَقْدِيرًا) على قدر ريّ الشاربين من غير زيادة ولا نقص وذلك ألذ الشراب أو قدرها الشاربون لجاءت على ما تمنوه أو قدروها بأعمالهم الصالحة لجاءت على حسبها (وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا) خمرًا (كَانَ مِزَاجُهَا) ما تمزج به (زَنْجَبِيلًا) والعرب يحبون الشراب الممزوج به وهو عروق تسري في الأرض ونباته كالقصب له قوة مسخنة يسيرًا وإن خلط برطوبة كبد المعز وجفف وسحق واكتحل به أزال الغشاوة وظلمة البصر قاله في القاموس (عَيْنًا) بدل من زنجبيلا (فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا) يعني أن ماءها كالزنجبيل الذي تستلذه العرب لكنه سهل المساغ في الحلق يقال شراب سلسل وسلسال وسلسبيل سهل الانحدار ولذا حكم بزيادة الباء والمراد به أن ينفي عنها لذع الزنجبيل وعن قتادة تمزج لهم تارة بالكافور البارد وأخرى بالزنجبيل الحاذ ليعتدل الأمر (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ) بصفة الولدان لا يشيبون ينشئهم الله تعالى لخدمة المؤمنين أو ولدان الكفرة يجعلهم الله خدمًا لأهل الجنة (إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ) لحسنهم وانتشارهم في الخدمة (لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا) من سلكه أو صدفه وهو أحسن منه في غيره (وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ) أي وجدت الرؤية منك في الجنة لا يقدر له مفعول لعمومه أي أينما وقع بصرك منها (رَأَيْتَ) جواب إذا (نَعِيمًا) لا يوصف (وَمُلْكًا كَبِيرًا) واسعا لا غاية له وفي الحديث إن أدنى أهل الجنة لمن ينظر في ملكه ألفي سنة ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه. وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن آخر أهل الجنة دخولا له مثل الدنيا عشر مرات (عَالِيهُمْ) بسكون الياء لنافع وحمزة مبتدأ خبره ما بعده وبالنصب للباقين على الحال من الضمير في عاليهم أو حسبتهم أو جزاهم أو على الظرف أي عاليا عليهم أو فوقهم (ثِيَابُ سُنْدُسٍ) رفيق الحرير (خُضْرٌ) بالرفع لنافع وأبي عمرو وابن عامر وحفص صفة ثياب وبالجر للباقين صفة سندس (وَإِسْتَبْرَقٌ) غليظ الحرير بالرفع

لنافع وابن كثير وعاصم عطفا على ثياب وبالجر للباقين عطفا على سندس ﴿وَحُلُّوا﴾ عطف على ويطوف ﴿أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ وفى موضع آخر من ذهب ولؤلؤ للإيذان أنهم يحلون بالجميع معا ومفرقا وعن ابن المسيب لا أحد من أهل الجنة إلا وفى يده ثلاثة أسورة واحد من فضة وآخر من ذهب وآخر من لؤلؤ ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾ مبالغة فى طهارته ونظافته طهر به باطنهم عن الغل والحسد كما زين ظاهرهم بالثياب والحلى وقيل هذا الشراب نوع آخر يفوق على النوعين المتقدمين ولذلك أسند سقيه إلى الله تعالى ووصفه بالطهورية فإنه يطهر شاربه عن الميل إلى اللذات الحسية والركون إلى ماسوى الحق فيتجرد لمطالعة جماله متلذذا بلقائه باقيا ببقائه وهى منتهى درجات الصديقين ولذلك ختم به ثواب الأبرار ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ النعيم ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ لأعمالكم ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾ محمودا مرضيا عندنا حيث قلتم للمسكين واليتيم والأسير لانريد منكم جزاء ولاشكورا ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ تأكيد اسم إن أو فصل ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً﴾ خبر إن أى فصلناه منجما لحكمة وتكرير الضمير وتأكيده بإن وإيثار التنزيل الدال على التفريق الذى هو مقتضى الحكمة ليدل على أن تأخير نصره لحكمة بالغة ولذا قال له ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بتأخير النصر أو بتبليغ الرسالة و حمل الأذى ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ﴾ أى الكفار ﴿آثِماً﴾ مرتكب الإثم يدعوك إليه ﴿أَوْ كَفُوراً﴾ متوغلا فى الكفر يدعوك إليه أى لاتطع كل واحد منهما ولذلك آثر «أو» ثلايتوهم وإن كانوا كلهم أئمة كفرة إلا أن منهم من يدعوه إلى الإثم ومنهم من يدعوه إلى الكفر قيل الآثم عتبة ابن ربيعة والكفور الوليد بن المغيرة والظاهر أن المراد كل آثم وكافر قال فى الجواهر واللفظ أيضاً يقتضى نهى الإمام عن طاعة كل آثم من العصاة أوكفور بالله ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ فى الصلاة أوصل له ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ طرف النهار لتنال به حلاوة تذهب عنك مرارة الصبر وخصهما لشرفهما وقيل دم على صلاة الفجر والظهر والعصر فإن الأصيل يتناولهما ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ أى بعضه ﴿فَاسْجُدْ لَهُ﴾ للاقتراب إليه أوصلّ المغرب والعشاء وتقديم الظرف لما فى صلاة الليل من مزيد الكلفة والخلوص اهتماما به ﴿وَسَبِّحْهُ﴾ صل التطوع ﴿لَيْلاً طَوِيلاً﴾ أو نزهه فيه ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ الذين يدعونك إلى الكفر والإثم ﴿يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ الدنيا وهو رأس كل خطيئة وفى الحديث «ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس» ﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ﴾ قدام ظهورهم أو أمامهم ﴿يَوْماً ثَقِيلاً﴾ شديداً لايعملون له هو يوم القيامة والآية كالتعليل لما أمر به ونهى عنه ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا﴾ قوينا ﴿أَسْرَهُمْ﴾ ربط مفاصلهم بالأعصاب والأسر الربط الوثيق بالإسار ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ بأن نهلكهم ونجعل بدلهم فى الخلقة مكانهم أو أهلكناهم وأنشأناهم نشأة أخرى فالتبديل فى الصفات ويدل عليه التعبير بإذا التى لما يقع أوجعلت موضع إن على الأول كقوله إن يشأ يذهبكم ﴿إِنَّ هَٰذِهِ﴾ السورة أو الآيات القريبة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ عظة للخلق ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ بالطاعة موصلا إليه ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ بالخطاب لنافع والكوفيين

والغيبة لغيرهم أى اتخاذ السبيل إلى الله ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ مشيئتكم وفى إثبات المشيئتين بطلان الجبر والقدر ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا ﴾ بكنه الاشياء يعلم مايستأهل كل أحد ﴿ حَكِيمًا ﴾ فى فعله لايشاء إلا مااقتضته الحكمة ﴿ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ وهم المؤمنون ﴿ فِى رَحْمَتِهِ ﴾ جنته بالهداية والتوفيق ﴿ وَالظَّالِمِينَ ﴾ ناصبه فعل مقدر أى أعد يفسره ﴿ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ لانهم وضعوا العبادة فى غير موضعها.

[تم تفسير سورة الانسان]

سورة المرسلات
مكية ــ خمسون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ وَالْمُرْسَلَاتِ ﴾ الملائكة المرسلة بأوامر الله أو الآيات المرسلة أو الرياح ﴿ عُرْفًا ﴾ متتابعة كعرف الفرس يتلو بعضه بعضا ونصبه على الحال أو عرفا ضد النكر فى الآيات أى المرسلة بكل عرف شرعا مفعول له ﴿ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴾ شديدات الهبوب فى المبادرة إلى امتثال أمر الله فى الملائكة أو العاصفات لباقى الشرائع بالنسخ فى الآيات أو فى إهلاك الكفار فى رياح العذاب ﴿ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴾ الملائكة تنشر الشرائع فى الأرض أو الآيات تنشر الهدى والحكم شرقا وغربا أو رياح الرحمة تنشر المطر ﴿ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴾ الملائكة أو الآيات تفرق بين الحق والباطل أو الرياح المفرقة للسحاب ﴿ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ الملائكة تنزل بالوحى إلى الانبياء وهم إلى الامم أو الآيات تلق الحق بين الحاكين أو الرياح تسبين للعاقل ذكر الله تعالى إذا هبت ﴿ عُذْرًا ﴾ إعذاراً للمحقين وهو مصدر عذره ﴿ أَوْ نُذْرًا ﴾ بضم الذال لنافع وابن كثير وابن عامر وشعبة وبسكونه للباقين وهو اسم مصدر وهو الإنذار أو مصدر نذر بمعنى أنذر أو جمع نذير بمعنى الإنذار أو المنذر وانتصابهما على العلية وأو للتنويع لا للترديد ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴾ لامحالة وهو قيام الساعة وهو جواب القسم ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ محيت وأعدمت أو أذهب نورها ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴾ فتحت فكانت أبوابا ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ تنسف الحب والرمل فكانت

كثيبا مهيلا وأصل النسف القلع بسرعة ﴿ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾ بالهمز للجمهور والواو لأبى عمرو والواو الأصل والهمز بدل منه أى عين لها وقتها الذى تحضر فيه للشهادة على الأمم ﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ ﴾ أى ليوم عظيم ﴿ أُجِّلَتْ ﴾ الرسل أى أمهلت للشهادة على أممهم بالتبليغ والتأجيل من الأجل كالتوقيت من الوقت ﴿ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴾ بين الخلائق بيان ليوم التأجيل ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ من أين تعلم كنهه ولم تر مثله بالغ فى تهويله بإبهامه أولا ثم بيانه بأنه يوم الحكم والقضاء ثم هول شأنه بأنك لم تحط بكنه ذلك ويؤخذ من قوله « ليوم الفصل » جواب إذا أى وقع الفصل بين الخلائق ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بذلك والويل الهلاك وأصله النصب على المصدر المنبر فعله لعدم استعماله والعدول إلى الرفع لكونه أبلغ فى الدعاء لدلالته على الدوام ويومئذ ظرفه أو صفته ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴾ بتكذيبهم أى أهلكناهم ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴾ ممن كذبوا ككفار مكة فنهلكهم ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل فعلنا بهم ﴿ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ بكل من أجرم فيما يستقبل فى كل عصر فنهلكهم ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى يوم إهلاكهم ﴿ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بذلك فليس فيه تكرار لأن الأول لعذاب الآخرة وهذا لعذاب الدنيا مع أن التكرير للتهويل له موقع حسن فى التأكيد ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ نطفة مذرة ذليلة ﴿ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ حريز هو الرحم تفصيل لكيفية الخلق ﴿ إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ له تعالى وهو وقت الولادة ﴿ فَقَدَّرْنَا ﴾ ه شقياً أو سعيداً بالتشديد لنافع والكسائى والتخفيف للباقين أى على ذلك ﴿ فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ نحن ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بقدرتنا على ذلك أو على الإعادة ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴾ اسم لما يكفت أى يجمع كالضمام اسم لما يضم أو مصدر نعت به لا جمع كافتة لإسناده إلى ضمير الأرض أى ضامة ﴿ أَحْيَاءً ﴾ على ظهرها ﴿ وَأَمْوَاتًا ﴾ فى بطنها فنتصبان على المفعولية وتنكيرهما للتفخيم الدال على كثرة لا تحصى أو على الحالية من مفعوله المحذوف للعلم به وهو الإنسان ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالا ثوابت ﴿ شَامِخَاتٍ ﴾ طوالا مرتفعات والتنكير للتعظيم أو للتبعيض لكون بعض الجبال فى السماء لقوله من جبال فيها من برد ﴿ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴾ عذباً وأى عذب صافياً أى صفاء بخلق الأنهار والمنابع فيها ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بأمثال هذه النعم ويقال للمكذبين يوم القيامة ﴿ انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ من العذاب ﴿ انْطَلِقُوا ﴾ تكرير للتوكيد ﴿ إِلَىٰ ظِلٍّ ﴾ لدخان جهنم ﴿ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴾ فرق إذا ارتفع لعظمته محيط بهم من فوقهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم كما ترى الدخان العظيم يتفرق ذوائب وقيل هى اللهب والشرر والدخان وخصوصية الثلاث لأن المؤدى إلى العذاب إما الوهم الذى فى الدماغ أو الغضب الذى فى يمين القلب أو الشهوة التى فى يساره ولذا قيل شعبة تقف فوق الكافر وشعبة عن يمينه وشعبة عن يساره ﴿ لَا ظَلِيلٍ ﴾ نعت ظل تهكما بهم ورداً لما أوهم لفظ الظل لا يكن من حر ذلك اليوم ﴿ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴾ النار ﴿ إِنَّهَا ﴾ أى النار ﴿ تَرْمِي بِشَرَرٍ ﴾ وهو ما تطاير منها كل شرارة ﴿ كَالْقَصْرِ ﴾ من البناء فى العظم أو الشجر الغليظ واحدها

قصرة ﴿ كَأَنَّهُ ﴾ أي الشرر حين الانتشار ﴿ جِمَالَتٌ ﴾ جمع جمالة جمع جمل ولحمزة والكسائي وحفص جمالة ﴿ صُفْرٌ ﴾ في هيئتها ولونها فالتشبيه الأول في العظم والارتفاع والثاني في اللون والكثرة والتتابع والاختلاط وسرعة الحركات في الجهات وقيل صفر سود لحديث شرر النار أسود كالقير ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بذلك اليوم ﴿ هَٰذَا ﴾ أي يوم القيامة ﴿ يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ فيه بشيء لفرط الحيرة في بعض مواقفه أو بما ينفع لأن غيره كلا نطق ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ ﴾ في العذر ﴿ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ عطف على يؤذن من غير تسبب عنه فهو داخل في حيز النفي أي لا إذن فلا اعتذار ولو جعل جواباً لدل على أن عدم الاعتذار لعدم الإذن فيوهم أن لهم عذراً لو يؤذن لهم وليس كذلك ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بهذا ﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ ﴾ أيها المكذبون من هذه الأمة ﴿ وَالْأَوَّلِينَ ﴾ من المكذبين قبلكم للحكم بين المحق والمبطل بيان للفصل ﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ ﴾ حيلة في دفع العذاب عنكم ﴿ فَكِيدُونِ ﴾ فاحتالوا على بتخليص أنفسكم من العذاب توبيخ لهم على ما كانوا يكيدون به المؤمنين وإظهار لعجزهم ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بهذا ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ من الشرك لأنه في مقابلة المكذبين ﴿ فِي ظِلَالٍ ﴾ أي تكاثف أشجار ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ جارية ﴿ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ كثيرة الأنواع والمعنى أنهم مستغرقون في أنواع الترفه مقولا لهم ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ ﴾ كما جزينا المتقين ﴿ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ المخلصين فأحسنوا تجزوا بهذا ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ به ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا ﴾ حال من المكذبين أي الويل ثابت لهم في حال ما يقال لهم ذلك في الدنيا تحسيراً لهم بإيثار الحقير على الخطير أو كلام مستأنف على وجه التهديد ﴿ إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ﴾ وعاقبة المجرم الهلاك الدائم ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بالمنعم ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا ﴾ تواضعوا لله بقبول وحيه واتباع دينه أو صلوا ﴿ لَا يَرْكَعُونَ ﴾ لا يتواضعون بذلك أو لا يصلون متصل بقوله «للمكذبين» كأنه قيل ويل يومئذ للذين كذبوا والذين إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون أو بالمجرمين كأنه قيل هم أحقاء بأن يقال لهم كلوا وتمتعوا قليلا لكونهم مجرمين ولكونهم إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بالأمر والنهي ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ ﴾ بعد القرآن ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ إذا لم يؤمنوا به وهو معجز في ذاته مشتمل على الحجج الواضحة والمعاني الشريفة فلا حديث يدانيه فضلا عن أن يساويه وفي الحديث «من قرأ: فبأي حديث بعده يؤمنون، فليقل آمنت بالله وبما أنزل».

[تم تفسير سورة المرسلات]

سورة النبأ

مكية ـ أربعون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ • عَمَّ ﴾ عن أى شيء أصله «عن ما» فاتصلت فى الخط وحذف الألف فرقا بينه وبين الخبرية وقرأ ابن كثير عمه بهاء السكت فى الوقف ﴿ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ يسأل بعض قريش بعضاً أو رسول الله والمؤمنين استهزاء استفهام تفخيم لشأن المسئول عنه ﴿ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ بيان للشأن المفخم أو صلة يتساءلون وعم متعلق بمضمر مفسر به والنبأ العظيم هو القرآن المشتمل على البعث وجميع الشرع ﴿ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ فالمؤمنون يثبتونه والكافرون ينكرونه أو الاختلاف بين الكفار فنهم من يشك فى البعث ومنهم من يقطع بإنكاره وعلى الأول فضمير يتساءلون شامل للمسلمين والكافرين فالمسلمون للاستعداد والكافرون للعناد ﴿ كَلَّا ﴾ ردع للتسائلين هزؤا وعناداً ﴿ سَيَعْلَمُونَ ﴾ ما يحل بهم على إنكارهم له أو سيعلمون أن ما يتساءلون عنه حق ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ تكرير للمبالغة و «ثم» للإشعار بأن الوعيد الثانى أشد وقيل الأول عند النزع والثانى فى القيامة أو الأول للبعث والثانى للجزاء. ثم أومأ تعالى إلى القدرة على البعث فقال ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴾ فراشاً فرشناها لكم حتى سكنتموها ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ تثبت بها الأرض كما يثبت الخباء بالأوتاد والاستفهام للتقرير أى أنتم لا تنكرون شيئاً من ذلك فإنكار البعث لماذا ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ ذكوراً وإناثاً ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ قطعاً عن الإحساس راحة لأبدانكم، والسبت القطع ومنه للمسبوت للميت ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ غطاء ساتراً بظلامه من أراد الاختفاء من طالب أو مطلوب ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ وقت معاشكم استدل بخلقهم ذكراً وأنثى واستوفى أحوالهم مفترقين ومقترنين ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا ﴾ سبع سموات ﴿ شِدَادًا ﴾ جمع شديدة أى قوية محكمة لا يؤثر فيها مرور الزمان ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا ﴾ منيرا وهو الشمس ﴿ وَهَّاجًا ﴾ وقاداً متلألئاً من وهجت النار أضاءت أو بالغاً فى الحرارة من الوهج وهو الحر ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ ﴾ السحابات التى شارفت أن تعصرها الرياح للمطر كالمعصر الجارية التى دنت من الحيض ﴿ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ صباباً بكثرة يقال ثجه وثج بنفسه ﴿ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا ﴾ يقتات به الإنس كالحنطة ﴿ وَنَبَاتًا ﴾ للدواب كالتبن والحشيش ﴿ وَجَنَّاتٍ ﴾ بساتين ﴿ أَلْفَافًا ﴾ ملتفة جمع لفيف كشريف وأشراف أو جمع لف ككف وأكفاف ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ ﴾ بين الخلائق ﴿ كَانَ ﴾ فى علم الله أو فى حكمه ﴿ مِيقَاتًا ﴾ وقتاً للثواب والعقاب ﴿ يَوْمَ

يُنْفَخُ فِي الصُّورِ) القرن بدل أو بيان من يوم الفصل والنافخ إسرافيل (فَتَأْتُونَ) من قبوركم إلى الموقف (أَفْوَاجًا) جماعات مختلفة والحديث المروى أن أمته عليه السلام تحشر عشرة أصناف موضوع قاله فى غاية الأمانى (وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ) بالتشديد للجمهور والتخفيف للكوفيين شققت لنزول الملائكة عطف على « فتأتون » وإيثار الماضى لتحقق الوقوع أو حال أى فتأتون والحال أنها قد فتحت والتشديد لكثرة الطرق والشقوق (فَكَانَتْ أَبْوَابًا) ذات أبواب وفيه مبالغة فى كثرة الشقوق حتى كأن الكل أبواب (وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ) ذهب بها عن أماكنها فى الهواء (فَكَانَتْ سَرَابًا) هباء أى مثله فى خفة السير ، قيل تصير أولا كثيباً مهيلا ثم كالعهن المنفوش ثم تمر مر السحاب ثم تصير هباء منثوراً ثم كالسراب لا حقيقة لها لتفتت أجزائها (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا) مكان رصد يرصد فيه خزنة النار الكفار كالمضمار المكان الذى تضمر فيه الخيل أو مجدة فى ترصد الكفار لئلا يشذ منهم واحد كالمطعان أى مرصدة أو راصدة (لِلطَّاغِينَ) الكافرين فلا يتجاوزونها (مَآبًا) مرجعاً لهم فيدخلونها (لَابِثِينَ) حال مقدرة أى مقدراً لبثهم (فِيهَا أَحْقَابًا) دهوراً لا نهاية لها جمع حقب بضم أوله وقرأ حمزة لبثين مقصوراً وهو أبلغ والحقب المدة الطويلة غير محدودة وقد أكثر الناس فى معناها قيل ثلاثون ألف سنة وقيل ثمانون ألف سنة . قال الحسن : ليس للأحقاب حد إلا الخلود فى النار (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا) الهواء يروحهم وينفس حر النار أو نوماً لأنه يبرد ثورة العطش (وَلَا شَرَابًا) يلتذ به (إِلَّا حَمِيمًا) ماء حاراً غاية الحرارة (وَغَسَّاقًا) بالتخفيف للجمهور والتشديد لحمزة والكسائى وحفص ما يسيل من صديد أهل النار ويحتمل أن يكون قوله « لا يذوقون » حالا من المستكن فى « لابثين » و « أحقابا » منصوب بـ « لا يذوقون » أى يلبثون فيها غير ذائقين إلا حميا وغساقا أحقاباً يبدلون جنساً آخر من العذاب وعلى كون الأحقاب لا نهاية لها فلا يذوقون استئناف (جَزَاءً) أى جوزوا جزاء (وِفَاقًا) موافقاً لأعمالهم فلا ذنب أعظم من الكفر ولا عذاب أشد من النار (إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا) لإنكارهم البعث بيان لموافقة الجزاء (وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) القرآن (كِذَّابًا) تكذيباً أى مبالغين فيه أى تكذيبا مفرطا (وَكُلَّ شَيْءٍ) من الأعمال (أَحْصَيْنَاهُ) ضبطناه (كِتَابًا) كتباً مصدر أحصيناه معنوى أى كتبناه فى اللوح أو صحف الحفظة لنجازى عليه ومن ذلك تكذيبهم للقرآن أو منصوب بفعله المقدر أو حال بمعنى مكتوباً والجملة اعتراض (فَذُوقُوا) أى فيقال لهم فى الآخرة عند وقوع العذاب عليهم ذوقوا جزاءكم والتفت إليهم فى مقام السخط زيادة فى العذاب (فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا) فوق عذابكم استثناء من الأعم أى شيئاً من الأشياء وفى الحديث «هذه أشد ما فى القرآن على أهل النار» (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا) فوزاً أو موضع فوز (حَدَائِقَ) بساتين بدل من مفازاً بدل اشتمال أو بعض أو بيان جمع حديقة روضة محوطة ذات أشجار مثمرة (وَأَعْنَابًا) أفردها لقلة وجودها فى أرض العرب أو عطف على مفازا (وَكَوَاعِبَ) جمع كاعب جوارى تكعبت

ثديهن ﴿ أَتْرَابًا ﴾ لدات ﴿ وَكَأْسًا ﴾ خمرا ﴿ دِهَاقًا ﴾ مالئة محالها ، دهق الحوض وأدهقه : ملأه أو أفرغه ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا ﴾ في الجنة عند شرب الخمر وغيره من الأحوال ﴿ لَغْوًا ﴾ باطلا من القول يتأذى به ﴿ وَلَا كِذَّابًا ﴾ بالتشديد للجمهور أي تكذيباً وبالتخفيف للكسائي مصدر كذب ككتب كتابا أو مكاذبة لا يكذب بعضهم بعضاً ﴿ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي جازاهم الله ذلك جزاء ﴿ عَطَاءً ﴾ بدل من جزاء أو مفعول به له أو لناصبه المحذوف ﴿ حِسَابًا ﴾ كافياً من أحسبه الشيء إذا كفاه حتى قال حسبي أو كثيراً ، من قولهم أعطاني فأحسبني أي أكثر علىّ حتى قلت حسبي ﴿ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ بالرفع لنافع وابن كثير وأبي عمرو مبتدأ خبره ﴿ الرَّحْمَنِ ﴾ وبالجر للباقين بدل من ربك وجر ابن عامر وعاصم الرحمن على أنه بدل من «رب» ورفعه حمزة والكسائي على أنه خبر محذوف أو مبتدأ خبره ﴿ لَا يَمْلِكُونَ ﴾ أي الخلق ﴿ مِنْهُ ﴾ تعالى ﴿ خِطَابًا ﴾ أي لا يملكون من عنده شيئاً من الخطاب لأن المملوك لا يملك شيئاً على مالكه وهذا لا ينافي الشفاعة بعد الإذن ﴿ يَوْمَ ﴾ ظرف للايملكون أو لما بعده ﴿ يَقُومُ الرُّوحُ ﴾ جبريل أفرده لشرفه أو نوع آخر من المخلوقات أعظم من الملائكة أو ملك لم يخلق الله بعد العرش أعظم منه موكل على الأرواح ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ﴾ حال أي مصطفين ﴿ لَا يَتَكَلَّمُونَ ﴾ أي الخلق ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ بالكلام من الأنبياء والملائكة والأولياء والصالحين بشرط الإذن تقرير وتوكيد لقوله « لا يملكون منه خطابا » ﴿ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ حقاً في الدنيا وعمل به كما في البخاري ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ﴾ الكائن لا محالة ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ ﴾ إلى ثوابه ﴿ مَآبًا ﴾ مرجعاً ومنزلا بالإيمان والعمل الصالح ﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ عذاب الآخرة فكل آت قريب ولأن مبدأه الموت ﴿ يَوْمَ ﴾ ظرف لعذاباً بصفته ﴿ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ﴾ كل امرئ ﴿ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ من خير أو شر ﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا ﴾ حرف تنبيه ﴿ لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ في الدنيا أي لم أخلق أو في هذا اليوم لما يرى سائر الحيوانات تصير تراباً بعد الاقتصاص من بعضها لبعض كما جاء في حديث . لكن قال في الجواهر : لم أقف على حديث صحيح في عودها تراباً . وقد نقل الشيخ أبو العباس القسطلاني عن الشيخ أبي الحكم بن أبي الرجال : إنكار هذا القول ؛ وقال : ما نفخ روح الحياة في شيء فنفى بعد وجوده ونقل الفخر هنا عن قوم بقاءها والمعولُ عليه في هذا النقلُ ، فإن صح فيه شيء عن النبي صلى الله عليه وسلم وجب اعتقاده وصير إليه وإلا فلا مدخل للعقل هنا . والله اعلم . اهـ .

[تم تفسير سورة النبأ]

سورة والنازعات
مكية : ست وأربعون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۞ وَالنَّازِعَاتِ ﴾ ملائكة الموت ينزعون أرواح الكفار من أبدانهم أو النجوم تنزع من الشرق إلى الغرب أو خيول الغزاة تنزع فى أعنتها أو نفوس السالكين تنزع عن الشهوات رأساً ﴿ غَرْقًا ﴾ نزعاً بشدة للنفوس أو الفلك أو الأعنة أو الشهوات ﴿ وَالنَّاشِطَاتِ ﴾ المخرجات لأرواح المؤمنين برفق أو الخارجات من برج إلى آخر أو من بلاد الإسلام إلى دار الكفر أو من عالم الملك إلى عالم الملكوت ﴿ نَشْطًا ﴾ من نشط الدلو أخرجها من البئر أو نشط الحبل حلها ﴿ وَالسَّابِحَاتِ ﴾ المسرعات فيما أمروا به فى السموات أو فى الفلك أو فى الميادين أو فى بحار المعارف ﴿ سَبْحًا ﴾ كسبح الغواص الذى يخرج الشىء من أعماق البحر ﴿ فَالسَّابِقَاتِ ﴾ بالأرواح إلى الجنة أو النار أو بقطع الفلك أو بالمسابقة إلى الغايات الحسية أو المعنوية ﴿ سَبْقًا ۞ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ بأمر ثواب الأرواح وعقابها أو بما نيط بها من المصالح فى العالم السفلى مجازاً أو بأمر الظفر مجازاً أو بأمر الرشد والتكميل وجواب هذه الأقسام محذوف أى لتبعثن يا كفار مكة دل عليه معموله وهو ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ وهى النفخة الأولى وصفت بما يحدث بحدوثها من رجف الأرض والجبال مبالغة ﴿ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ النفخة الثانية وبينهما أربعون سنة والجملة حال من الراجفة فاليوم واسع للنفختين وغيرهما فصح ظرفيته للبعث الواقع عقب الثانية وقيل الراجفة الأرض والجبال والرادفة السماء والكواكب وصف لأجرام رجفانها أمر عظيم ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ شديدة الاضطراب والقلق لشدة الخوف والوجيف والوجيب بمعنى ﴿ أَبْصَارُهَا ﴾ أبصار أصحابها ﴿ خَاشِعَةٌ ﴾ ذليلة لهول ما ترى والجملة خبر « قلوب » لأنها نكرة موصوفة بما بعده أو خبر بعد خبر لأن تنكير التنويع قائم مقام الوصف ﴿ يَقُولُونَ ﴾ أرباب القلوب والأبصار استهزاء وإنكاراً للبعث ﴿أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ فى الحالة الأولى يعنون الحياة بعد الموت من قولهم رجع فلان فى حافرته إذا رجع من حيث جاء أى طريقته التى حفرها أى أثر فيها بالمشى والأصل فى المحفورة فأسند الحفر إليها مجازاً كعيشة راضية وقيل الحافرة بمعنى المحفورة أى القبور أى لمردودون فى قبورنا أحياء ﴿ إِذَا كُنَّا ﴾ بالخبر لنافع وابن عامر والكسائى وبالاستفهام للباقين ﴿ عِظَامًا نَخِرَةً ﴾ بالقصر للجمهور والمد لحمزة والكسائى وشعبة بالية تنخر فيها الريح أى تصوت ؟ نحيا ﴿ قَالُوا تِلْكَ ﴾ أى رجعتنا إلى الحياة

﴿ إِذَنْ ﴾ إن صحت ﴿ كَرَّةٌ ﴾ رجعة ﴿ خَاسِرَةٌ ﴾ ذات خسران أو خاسر أصحابها قالوه استهزاء . قال تعالى ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ ﴾ أي الرادفة التي يعقبها البعث ﴿ زَجْرَةٌ ﴾ صيحة ﴿ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ ﴾ أحياء ﴿ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ بوجه الأرض بعد ما كانوا أمواتاً ببطنها والساهرة الأرض الخالية لأن الخائف لاينام فيها فأسند السهر إليها مجازاً ﴿ هَلْ أَتَاكَ ﴾ أي أليس قد أتاك يا محمد ﴿ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴾ المشتمل على نصره وقهر عدوه ففيه ما يسليك ثم فصله بقوله ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ ﴾ ظرف لحديث ﴿ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ ﴾ بالوحي وقد مر بيانه في سورة طه ﴿ طُوًى ﴾ عطف بيان أو بدل نونه الكوفيون وابن عامر بتأويل المكان فقال ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ تجاوز الحد في الكفر ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ ﴾ ميل ورغبة ﴿ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ ﴾ بالتشديد لنافع وابن كثير والتخفيف للباقين تتطهر من الكفر والطغيان بأن تشهد أن لا إله إلا الله ﴿ وَأَهْدِيَكَ ﴾ أدلك ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ إلى معرفته بالبرهان ﴿ فَتَخْشَىٰ ﴾ بأداء الواجبات وترك المحرمات إذ الخشية إنما تكون بعد المعرفة وهذا كالتفصيل لقوله «فقولا له قولا ليناً» ﴿ فَأَرَاهُ ﴾ أي فذهب وبلغ فأراه ﴿ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴾ من آياته التسع وهي العصا واليد ﴿ فَكَذَّبَ ﴾ فرعون موسى ﴿ وَعَصَىٰ ﴾ الله تعالى ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ ﴾ عن الطاعة أو هارباً من العصا لما انقلبت أو أقبل ﴿ يَسْعَىٰ ﴾ في الأرض بالفساد في دفع أمر موسى بالمكايد عبر عنه بالإدبار إشارة إلى أن ذلك الإقبال كان إدباراً وعليه دماراً ﴿ فَحَشَرَ ﴾ جمع السحرة أو جنوده ﴿ فَنَادَىٰ ﴾ في المجمع بنفسه أو بمن أمره به على أنه إسناد إلى السبب ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ لا رب فوق يلي أمركم ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ ﴾ أهلكه بالغرق ﴿ نَكَالَ ﴾ عقوبة ﴿ الْآخِرَةِ ﴾ بالإحراق ﴿ وَ ﴾ نكال ﴿ الْأُولَىٰ ﴾ أي الدنيا بالإغراق أو نكال كلمته الآخرة أنا ربكم الأعلى والأولى ماعلمت لكم من إله غيري وكان بينهما أربعون سنة ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ الذي حكى عنه وعن مآله ﴿ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ ﴾ لمن كان شأنه الخشية ﴿ أَأَنْتُمْ ﴾ الخطاب لمنكري البعث ﴿ أَشَدُّ خَلْقًا ﴾ أصعب خلقا ﴿ أَمِ السَّمَاءُ ﴾ ولا شك أن الثاني أصعب ثم شرع يبين كيفية إيجادها من غير آلة ومعين ليدل به على أن إنكار البعث إما عناد أو تعام أو تصامّ فقال ﴿ بَنَاهَا ﴾ خلقها على صورة القبة المبنية ثم بيّن البناء فقال ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا ﴾ جعل سمتها في جهة العلوّ رفيعاً وقيل سمكها سقفها ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ جعلها مستوية بلا عيب ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾ أظلمه أضافه إليها لأنه يحدث بحركتها ﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ أبرز ضوء شمسها والإضافة لما مر لأن الليل ظلها في المرأى وإن كان ظل الأرض حقيقة والشمس سراجها ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴾ بسطها وقد مر الكلام في سبق خلقها بما لا مزيد عليه ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا ﴾ بتفجير عيونها ﴿ وَمَرْعَاهَا ﴾ ما يرعاه من عليها من الأقوات والثمار والشجر والعشب ، وإطلاق المرعى على بعضه استعارة وهو تفسير للدحو بما لابد لتأتي السكنى منه من المأكل والمشرب ودل بالماء والمرعى على كل ما يرتفق به من أمر المعاش وهي من الآيات البالغات في الإعجاز ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ أثبتها على وجه الأرض كالأوتاد لتستقر الأرض ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ ﴾

مفعول له لمقدر أى فعل ذلك منفعة أو تمتيعاً لكم (وَلِأَنْعَامِكُمْ) مواشيكم (فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ) الداهية التى تطم أى تعلو على سائر الدواهى (الْكُبْرَىٰ) التى هى أكبر الطامات وهى النفخة الثانية أو الساعة التى يساق فيها الفريقان إلى دار الخلود (يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ) بدل من إذا أى يتذكر إذا رأى الكتاب منشوراً (مَا سَعَىٰ) فى الدنيا من خير وشر وكان قد نسيه من فرط غفلته وطول المدة و « ما » موصولة أو مصدرية (وَبُرِّزَتِ) أظهرت (الْجَحِيمُ) النار المحرقة (لِمَن يَرَىٰ) لكل راء لا تخفى على أحد وجواب فإذا جاءت دل عليه يوم يتذكر أو ما بعده من التفصيل فى قوله (فَأَمَّا مَن طَغَىٰ) حتى كفر (وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) فانهمك فى الشهوات ولم يستعد للآخرة بالعبادة وتهذيب النفس (فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ) مأواه و « هى » فصل أو مبتدأ وتقدير الجواب فالطاغى مأواه الجحيم (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ) قيامه بين يديه للحساب لعلمه بالمبدإ والمعاد (وَنَهَى النَّفْسَ) الأمارة (عَنِ الْهَوَىٰ) اتباع الشهوات لعلمه بأنه مُرْدٍ (فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ) مأواه لا غير (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا) متى إرساؤها أى إقامتها ووقوعها من أرسيت الشىء أثبته أو منتهاها ومستقرها من مرسى السفينة (فِيمَ) فى أى شىء (أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا) ذكر وقتها لهم أى ليس عندك علمها حتى تذكرها لأنها من أمهات الغيوب لا ينفذ فيها إلا علمه تعالى وقيل « فيم » إنكار لسؤالهم و « أنت » ابتداء كلام ، المعنى : فى أى شىء هم من سؤال الساعة أنت من علاماتها فإنك بعثت أمارة لها واسمك نبىّ آخر الزمان فقد دنت وقيل إنه متصل بسؤالهم والجواب (إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا) منتهى علمها لا يعلمها غيره (إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا) من يخاف هولها لأنه المنتفع بالإنذار وعن أبى عمرو منذر بالتنوين (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا) فى الدنيا والقبور (إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا) أى عشية يوم أو ضحاه وأضافه إلى ضمير العشية لما بينهما من الملابسة إيذاناً بأنهما من يوم واحد ، وزادها حسناً وقوع الكلمة فاصلة .

[تم تفسير سورة النازعات]

سورة عبس

مكية ـ إحدى، أو اثنتان وأربعون آية

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) لما جاء ابن أم مكتوم واسمه عمرو بن قيس أو عبدالله بن عمرو واسم أمه عاتكة بنت عبدالله المخزومية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده من يرجو إسلامه من صناديد قريش يدعوه إلى الله باهتمام وهو عتبة بن ربيعة أو الوليد بن المغيرة أو أمية بن خلف فقطع ابن أم مكتوم على الرسول كلامه وكرر عليه بقوله : علمنى مما علمك الله ، ولم يعلم تشاغله فكره النبى عليه السلام قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه نزل عتابا له فى ذلك (عَبَسَ) النبى صلى الله عليه وسلم تغير وجهه لأجل ما كره (وَتَوَلَّى) أعرض لأجل (أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى) عبد الله أو عمرو وكان النبى عليه السلام بعد ذلك يقول له إذا جاء مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى ويبسط له رداءه تنازع الفعلان فى أن جاءه وفى الوصف بالأعمى دون اسمه أو وصف آخر إشعار لعذره فى الإقدام على قطع كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ودلالة على أنه يناسب الرأفة والرفق لا الإعراض وإيماء إلى أن كل ضعيف داخل فى معناه (وَمَا يُدْرِيكَ) يعلمك (لَعَلَّهُ يَزَّكَّى) بإدغام التاء فى الأصل فى الزاى يتطهر من الذنوب بما يسمع منك لا من تطمع فى تزكيه والرجاء إما راجع إلى الأعمى أو إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وفيه إيماء بأن إعراضه عنه كان لطمع فى تزكية غيره (أَوْ يَذَّكَّرُ) بالإدغام يتعظ (فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى) العظة المسموعة منك وقرأ عاصم بالنصب جوابا لـ«لعلّ» (أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى) بالمال وهو الكافر الذى قدمنا قال ابن العربى فى الأحكام قول المفسرين هو أمية أو عتبة أو الوليد باطل من جهل المفسرين لأن هؤلاء كانوا بمكة وابن أم مكتوم كان بالمدينة ماحضر معهما ولا حضرا معه انتهى قلت : هذا لا يليق بمنصب ابن العربى كيف ينكر حضور ابن أم مكتوم مكة وهو مكى من مهاجريها والسورة مكية اتفاقا ، وقال فى غاية الأمانى : اتفق العلماء أنها نزلت فى ابن أم مكتوم والصواب مع المفسرين إن شاء الله ، والله أعلم (فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى) بتشديد الصاد للإدغام لنافع وابن كثير وبتخفيفه للباقين بحذف إحدى التاءين تقبل وتتعرض له (وَمَا عَلَيْكَ) عتب (أَلَّا يَزَّكَّى) بالإسلام إن عليك إلا البلاغ وهذا وأمثاله وإن كان عتابا فى الظاهر ففيه كمال مدح له باشتغاله بشأن ما أرسل به وبذل جهده فيه (وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى) حال من فاعل جاء أى يسرع إلى تعلم شرائع الإسلام (وَهُوَ يَخْشَى) الله أو إذاية الكفار فى إتيانك أو كبوة الطريق لأنه أعمى لا قائد له (فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى) بحذف إحدى

التأمين فى الأصل تتشاغل وقدم الضمير فى الموضعين للتقوى لا لتخصيص إنكار التصدى والتلهى به إذ غيره كذلك، قال فى الجواهر : وهذه الآية السبب فيها هذا ثم هى بعد تتناول كل من اتصف بهذه الأوصاف لحملة الشرع والعلم مخاطبون بتقريب الضعيف من أهل الخير وتقديمه على الشريف العارى من الخير بمثل ما خوطب به النبي عليه السلام فى هذه السورة اه قلت قد قلّ من يعمل بهذا والله المستعان . قال عياض وليس فى قوله عبس وتولى ما يقتضى إثبات ذنب للنبي عليه السلام وإنما فى الآية الإعلام بحال الرجلين وتوهين أمر الكافر والإشارة إلى الإعراض عنه اه قال السهيلى وانظر نزلت الآية بلفظ الإخبار عن الغائب ولم يقابله بالعتاب بقوله عبست وتوليت ثم أقبل عليه بمواجهة الخطاب فى «وما يدريك» علما منه أنه لم يقصد بالإعراض عن الأعمى إلا الرغبة فى الخير من دخول المشرك فى الإسلام تأنيسا له اه ﴿كَلَّا﴾ لا تفعل مثل ذلك ﴿إِنَّهَا﴾ أى السورة أو الآيات أو القرآن والتأنيث لتأنيث خبره وهو ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ عظة للخلق ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ حفظه واتعظ به ذكره لاعتبار المعنى وهو القرآن ﴿فِى صُحُفٍ﴾ خبر ثان لأنها وما قبله اعتراض أو صفة لتذكرة أو خبر محذوف ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ عند الله لأنها أوعية كلامه ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ قدراً ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ عن مس الشياطين ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ كتبة ينسخونها من اللوح المحفوظ أو يسفرون بالوحى بين الله ورسله أو الأمة أى يكشفونه جمع سافر من السفارة أو السفر بمعنى الكشف ﴿كِرَامٍ﴾ عند الله ﴿بَرَرَةٍ﴾ أتقياء مطيعين لله وهم الملائكة ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ﴾ الكافر دعاء عليه بأشنع الدعوات وفيه تعجب من إفراطه فى الكفر فى قوله ﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾ لأن القتل أعظم ما يخافه الإنسان فدعاء الله عليه يدل على سخط عظيم وذم بليغ قال مجاهد معناه لعن وقال ابن عطية هذا تحكم قال فى الجواهر ليس بتحكم فقد نقل عن غير واحد ومعنى ما أكفره يحتمل التعجب والاستفهام التوبيخى اه ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُ﴾ بيان لما أنعم به عليه من مبدإ حدوثه والاستفهام للتحقير ولذا أجاب عنه بقوله ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ﴾ ولا أقذر منها ﴿فَقَدَّرَهُ﴾ هيأه لما يصلح له من الأعضاء والأشكال إلى أن تم خلقه ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ﴾ إلى الخروج من بطن أمه ﴿يَسَّرَهُ﴾ بأن فتح له فم الرحم وألهمه بأن يتنكس فإنه فى البطن جالس وجهه إلى ظهر أمه فإذا حان وقت خروجه قدم رأسه وأخر رجليه على صفة الغواص، أو ذلل له سبيل الخير ولم يكلفه ما لا طاقة له به وفى هذا إشارة إلى أن الدنيا طريق الآخرة كسبيل المارة ونصب السبيل بما يفسره الظاهر للمبالغة فى التيسير وتعريفه باللام دون الإضافة إشعار بأنه سبيل عام ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ جعله فى قبر يستره : عدهما من النعم لأن الموت وسيلة إلى النعيم الأبدى والأمر بالقبر تكرمة ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ أحياه للبعث والجزاء وفيه إشعار بأن وقت النشور موكول إلى مشيئته لم يتعين فى نفسه ﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان عما هو عليه ﴿لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ به ربه أى لم يفعله جميعا إذ لم يخل أحد من نوع تفريط والضمير عائد إلى مطلق الإنسان المذكور فى ضمن المفيد ولذا أعاد ذكر الإنسان فى قوله ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ﴾ نظر اعتبار ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾

كيف قدر ودبر له اتباع للنعم الفانية بالنعم الخارجية ﴿ أَنَّا ﴾ بالكسر الجمهور استئناف لبيان كيفية إحداث الطعام و بالفتح على البدل منه بدل اشتمال الكوفيين ﴿صَبَبْنَا الْمَاءَ﴾ من السحاب ﴿صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿شَقًّا ۝ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ كالحنطة والشعير ﴿ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾ وهو القتّ الرطب سمى بمصدر قضبه إذا قطعه لانه يقطع مرة بعد أخرى فى العام وعن الحسن : كل علف يقطع ، قال فى الجواهر تفسيره بالفصفصة عندى ضعيف لأنها للبهائم داخلة فى الأبّ والذى أقول به أن القضب هنا هو كل مايقضب ليأكله ابن آدم غضًّا من النبات كالبقول والمليون ونحوه بأنه من المطعوم جزء عظيم ولا ذكر له فى الآية إلا فى هذه اللفظة . اه . ﴿ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ ﴾ بساتين أحدقت بالجدار ونحوه ﴿ غُلْبًا ﴾ غلاظاً متكاثفة الأوراق مستمار من وصف الرقاب لكثرة أشجارها ﴿ وَفَاكِهَةً ﴾ للناس ﴿وَأَبًّا﴾ مرعى للدواب أو هو للدواب كالفاكهة للإنسان وقيل التبن والحاصل أنه بحل ﴿ مَتَاعًا ﴾ منفعة أو تمتيعاً ﴿ لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴾ النفخة الثانية التى تصخ الآذان أى تصمها ﴿ يَوْمَ ﴾ بدل من إذا ﴿ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ ﴾ زوجته ﴿ وَبَنِيهِ ﴾ لاشتغاله بشأنه وعلمه بأنهم لا ينفعونه أو لخوف مطالبتهم إياه بما قصر من حقوقهم وتأخير الأحب فالأحب للترقى كأنه قيل يفر من أخيه بل من أبويه بل من زوجته بل من بنيه وجواب إذا دل عليه ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ﴾ حال ﴿يُغْنِيهِ﴾ يشغله عن شأن غيره أى اشتغل كل واحد بنفسه ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴾ مضيئة لسرور القلوب وقيل لصلاة الليل أو من آثار الوضوء أو من طول ما اغبرت فى سبيل الله ﴿ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴾ بما نالت من الربح والفوز برحمة الله ورضوانه وهم المؤمنون ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ غبار وكدورة ﴿ تَرْهَقُهَا ﴾ تغشاها ﴿ قَتَرَةٌ ﴾ سواد كالدخان ﴿ أُولَئِكَ ﴾ أهل هذه الحالة ﴿ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ أى الجامعون بين الكفر والفجور ؛ فالجزاء على وفق العمل .

[تم تفسير سورة عبس]

سورة التكوير
مكية - تسع وعشرون آية

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) أديرت ولففت من كورت العمامة إذا أدرتها ولففتها بمعنى أذهب ضوءها أو عينها لأن الثوب إذا أريد إذهابه لف وارتفاع الشمس بفعل يفسره كورت وكذا ما بعده (وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ) انقضت وانتثرت على الأرض وقيل أظلمت ، من كدرت الماء فانكدر وهو تفسير باللازم (وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ) عن وجه الأرض أو فى الجو فصارت هباء أو تمر مر السحاب (وَإِذَا الْعِشَارُ) النوق الحوامل جمع عشراء : التى أتى على حملها عشرة أشهر ويبق هذا الاسم بعد حملها أيضاً وهى أنفس ما عند العرب (عُطِّلَتْ) تركت بلا راع وبلا حلب لما دهم من الأمر (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) جمعت بعد البعث من كل حدب كما يحشر الإنس والجن ليقتص لبعضها من بعض (وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ) بالتشديد للجمهور والتخفيف لابن كثير وأبى عمرو أوقدت فصارت ناراً أو ملئت بأن يفجر بعضها إلى بعض حتى تعود بحراً واحداً (وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ) قرنت بأجسادها أو بأشكالها الأنبياء ثم الصديقون ثم الشهداء ثم الأمثل فالأمثل ، أو بأعمالها أو نفوس المؤمنين بالحور ونفوس الكافرين بالشياطين . قال فى الجواهر : وفى الآية حضٌّ على خليل الخير يعنى على ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أن معناها : يزوج كل شكل مع شكله ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : المرء مع من أحب ، وقال : فلينظر أحدكم من يخالل . وعبارة الثعلبى : زوجت الأضراب كل رجل مع قوم يعملون عمله (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ) المثقل عليها بالتراب حية وهى الجارية المدفونة حية خوف العار والحاجة (سُئِلَتْ) تبكيتاً لوائدها (بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ) على الإخبار وقرئ قتلت على الحكاية وجوابها أن تقول : قتلت بلا ذنب ، وليس فى الآية دليل على أنها فى الجنة لكن دلت الأحاديث على أن أطفال المشركين فى الجنة فهى من باب أولى ، قاله فى غاية الأمانى (وَإِذَا الصُّحُفُ) صحف الأعمال التى طويت عند الموت وقيل صحف غيرها تطير من تحت العرش فتقع على أيمان المؤمنين وشمائل الكفار (نُشِرَتْ) بالتخفيف لنافع وابن عامر وعاصم والتشديد للباقين للحساب أو للفرق بين أصحابها (وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ) أزيلت كما يكشط الإهاب عن الذبيحة (وَإِذَا الْجَحِيمُ) النار (سُعِّرَتْ) بالتشديد لنافع وابن ذكوان وحفص وبالتخفيف للباقين : أججت أى أوقدت إيقاداً شديداً (وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ) قربت لأهلها ليدخلوها وجواب إذا أول السورة وما عطف عليها (عَلِمَتْ نَفْسٌ) أى كل نفس وقت هذه المذكورات وهى اثنتا عشرة

خصلة: ستٌ منها فى مبادئ قيام الساعه قبل فناء الدنيا وستٌ بعده (مَا أَحْضَرَتْ) من خير وشرٍّ والمراد بوقتها زمان متسع شامل لكلها (فَلَا أُقْسِمُ) تقدم الكلام عليه (بِالْخُنَّسِ) بالكواكب الرواجع الدرارى من خنس إذا تأخر وهى ما سوى النيرين من السيارات ولذا وصفها بقوله (الْجَوَارِ) أى السيارات (الْكُنَّسِ) المختفية تحت ضوء الشمس من كنس الوحش دخل كناسه وهى زحل والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد: تخنس أى ترجع فى مجراها وراءها بينا نرى النجم فى آخر البرج إذ كرّ راجعاً إلى أوله وتكنس أى تدخل فى كناسها وتغيب فيها (وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ) أقبل بظلامه فى أوله أو أدبر فى آخره وعسعس من الأضداد وكلا المعنيين حسن (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) بانكشاف الليل عنه قليلا قليلا حتى امتد ضوءه وصار نهارا بينا إذ النهار يصير كالمكروب لغشيان الليل لجعل تخلصه منه كتنفس المكروب بعد زوال الكرب أو جعل نسيم الصباح لاشتماله له على الروح كالتنفس المفرج عن الكرب (إِنَّهُ) أى القرآن (لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) على الله تعالى وهو جبريل على الأصح وقيل النبى عليه السلام أضيف إلى الرسول لنزوله به (ذِى قُوَّةٍ) أى شديد القوى (عِندَ ذِى الْعَرْشِ) أى الله تعالى (مَكِينٍ) أى ذى مكانة متعلق به عند (مُطَاعٍ ثَمَّ) بين الملإ الأعلى والكروبيين (أَمِينٍ) على الوحى وتنفيذ الأوامر وثم يحتمل اتصاله بما قبله وما بعده (وَمَا صَاحِبُكُم) محمد صلى الله عليه وآله وسلم عطف على إنه إلى آخره المقسم عليه (بِمَجْنُونٍ) كما زعمتم وليس الكلام مسوقا لمفاضلة جبريل والنبى عليهما السلام حتى تدل صفات جبريل على فضله عليه بل المقصود حقية المنزل على النبى وتكذيب الكفار والحث على أتباعه وما فى الكشاف من إيهام تفضيل جبريل عليه خلاف الإجماع (وَلَقَدْ رَآهُ) أى رأى محمد جبريل على صورته عليهما السلام (بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ) البين بمطلع الشمس الأعلى (وَمَا هُوَ) أى ما محمد عليه السلام (عَلَى الْغَيْبِ) على ما يخبر به من المغيبات (بِضَنِينٍ) بالضاد لنافع وابن عامر وعاصم وحمزة أى ليس ببخيل فى تبليغه وبالظاء للباقين أى بمتهم فيه بنقص أو زيادة (وَمَا هُوَ) أى القرآن (بِقَوْلِ شَيْطَانٍ) مسترق للسمع (رَجِيمٍ) مطرد تصريح بما علم ضمنا ونفى الكهانة والتنجيم المقابل برسول كريم (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ) فى إنكار القرآن: تضليل لهم فيما يسلكونه فى ترك أمر الرسول والقرآن: شبه عدولهم عن الحق بالعدول عن الجادة إلى المهالك فى الفيافى كما تقول لتارك الجادة: أين تذهب (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ) عظة (لِّلْعَالَمِينَ) الإنس والجن (لِمَن شَاءَ مِنكُمْ) بدل من العالمين بإعادة الجار (أَن يَسْتَقِيمَ) باتباع الحق وإبداله من العالمين لأنه المنتفع بالذكر (وَمَا تَشَاءُونَ) الاستقامة على الحق (إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ) مشيئتكم (رَبُّ الْعَالَمِينَ) مالكهم والمتصرف فيهم فلا يكون شىء إلا بإرادته ومقتضى مشيئته. قال عليه السلام «من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ إذا الشمس كورت وإذا السماء انفطرت وإذا السماء انشقت» رواه الترمذى وقال حسن.

(تم تفسير سورة التكوير)

سورة الانفطار

مكية ـ تسع عشرة آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۞ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴾ انشقت ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴾ تساقطت متفرقة ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ فتح بعضها إلى بعض فصار الكل بحرا واحدا واختلط العذب بالملح ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ قلب ترابها وبعث موتاها وجواب إذا وما عطف عليها ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾ كل نفس وقت هذه المذكورات ﴿مَا قَدَّمَتْ﴾ من الاعمال ﴿وَ﴾ ما ﴿أَخَّرَتْ﴾ منها فلم تعمله أو ماقدمت ماعملت وما أخرت ماسنت من سنة حسنة أو سيئة ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ ﴾ الكافر ﴿ مَا غَرَّكَ ﴾ أىّ شىء جرأك على العصيان ﴿ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ ذكره مبالغة فى المنع عن الاغترار وإشارة إلى أن الباعث على ذلك تسويل الشيطان بأن ربك كريم يعفو ويغفر والإنسان خاص بالكافر لقوله بل تكذبون أو عام لقوله إن الابرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم ﴿الَّذِي خَلَقَكَ﴾ صفة ثانية مقررة للربوبية مبينة للكرم أى خلقك ولم تكن شيئا ﴿ فَسَوَّاكَ ﴾ جعلك سويا تام الأعضاء سالمها ﴿ فَعَدَّلَكَ ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف للكوفيين جعلك معتدل الخلق ليست يد أو رجل أطول من الاخرى ولا عين أوسع من أختها وكذا سائر الأطراف ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا ﴾ زائدة ﴿شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ وأى للصفة ولما أريد التعميم حذف موصوفها ويجوز تعلقه بـ«عدلك» أى عدلك فى صورة أى صورة حذف الموصوف لزيادة التفخيم والتعجيب ثم قال «ماشاء ركبك» أى تركيبا بديعا ﴿كَلَّا ﴾ ردع عن الاغترار بكرمه ﴿ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ الجزاء على الأعمال إضراب إلى ما هو السبب الأصلى فى الاغترار على أن الإنسان هو الكافر وعلى التعميم خوطب الكل بما وجد بينهم ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ من الملائكة لأعمالكم جملة حالية أى إنكم تكذبون بالجزاء والحال أن شأنه أمر خطير مع علمه الشامل قد وكل بكم من يحفظ عليكم النقير والقطمير ثم أثنى على الحافظين إشارة إلى عظم أمر الجزاء بقوله ﴿كِرَامًا ﴾ على الله ﴿كَاتِبِينَ ﴾ وفيه ردٌّ لما يتوهمون من التسامح والإهمال ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ جميعه ثم أشار إلى بيان ما يكتبون لأجله بقوله ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ جنة وهم الصادقون فى الإيمان ﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ ﴾ الكفار وأل للعهد أى الذين يكذبون بيوم الدين ﴿ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ نار محرقة ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ يقاسون حرها ﴿ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ الجزاء ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ بمخرجين صريح فى سرمدية العذاب ثم فخم شأن الجزاء بتفخيم يومه بقوله ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ أعلمك ﴿ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ

مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ) أبهم أمره وخاطب أعلم الخلق بأنه لم يحط بكنه ذلك اليوم وكرر ذلك وآثر «ثم» للتراخي رتبة إشارة إلى أنه مهما ترقى فى العلم لم يبلغ ذلك ثم أجمل بقوله (يَوْمَ) بالفتح للجمهور والرفع لابن كثير وأبي عمرو أى هو يوم (لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) لا أمر لغيره فيه تقرير لشدة هوله وفخامة أمره .

[تم تفسير سورة الانفطار]

سورة التطفيف

مكية أو مدنية ـ ست وثلاثون آية

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . وَيْلٌ) كلمة عذاب أو واد فى جهنم (لِلْمُطَفِّفِينَ) ناقصى الكيل والوزن قدم عليه السلام المدينة وهم أبخس الناس كيلا فنزلت فأحسنوا الكيل رواه النسائى وابن ماجه عن ابن عباس ثم بيّنهم بقوله تعالى (الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا) لأنفسهم مالهم (عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ) يأخذونه كاملا وقيل «على» بمعنى «من» (وَإِذَا كَالُوهُمْ) أى كالوا لهم (أَوْ وَزَنُوهُمْ) أى وزنوا لهم (يُخْسِرُونَ) ينقصون الكيل والوزن وقيل الضمير المنفصل راجع إلى المطففين وليس كذلك لأن المقصود بيان اختلاف حالهم فى الأخذ والدفع لا بيان المباشرة وعدمها ولم يذكر الاتزان مع الاكتيال اكتفاء به أو لاحتمال السرقة فيه عند الأخذ بأن تزعزع الكيل بخلاف الميزان فإنه لا يقبل ذلك (أَلَا) استفهام توبيخ (يَظُنُّ) يتيقن (أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ) أى فيه وهو يوم القيامة صدر الكلام بحرف التنبيه إيقاظاً وذكر الظن دلالة على أن الظان كاف فى الكف عن التطفيف كيف والفاعل قاطع متيقن ووصف اليوم بالعظم لعظم ما يقع فيه واسم الإشارة للشتم نحو ذلك اللعين وكل هذه التشديدات ليس من حيث التطفيف بل لأن الميزان قانون العدل الذى به قامت السموات والأرض (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ) على أقدامهم أو من قبورهم (لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) لحكمه وحسابه وجزائه نصب الظرف بمبعوثون

روى البخارى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يوم يقوم الناس لرب العالمين يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه يعنى لدنو الشمس منهم مقدار ميل . حكى ابن العربى أن كل أحد يقوم عرقه معه وهو خلاف المعتاد فى الدنيا ﴿ كَلَّا ﴾ ردع عن التطفيف والغفلة عن البعث والحساب ﴿ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ ﴾ أى كتاب أعمال الكفرة عقبه ذكر التطفيف تنفيراً عنه ﴿ لَفِى سِجِّينٍ ﴾ فعيل من السجن وهو الضيق سمى به الكتاب الجامع لأعمال الفجرة لأنه سبب للتضييق أو لأنه مطروح فى مكان مظلم تحت الأرض السابعة فيقدر مضاف أى موضع كتاب ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ • كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ مسطور بيّن الكتابة أو معلم بالختم يعلم من رآه أنه لا خير فيه وإن كان اسم موضع فالتقدير ما كتاب السجين أو محل كتاب مرقوم حذف منه المضاف ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالحق أو بذلك ﴿ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ الجزاء بدل أو بيان للمكذبين أو وصف مؤكد أو ذامّ لأن اللام فى المكذبين للعهد ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ ﴾ متجاوز عن الحد فى تقليد من لا يصح تقليده وقطع النظر عن الآيات والنذر ﴿أَثِيمٍ﴾ صفة مبالغة أى كثير الإثم بالانهماك فى الشهوات ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ من فرط جهله وعدم تأمله فلا تنفعه شواهد النقل كما لا تنفعه دلائل العقل ﴿ كَلَّا ﴾ زجر عن هذا القول ﴿ بَلْ رَانَ ﴾ غلب ﴿ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ فغشيها ﴿ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من المعاصى فهو كالصدإ على قلوبهم فلا يميزون الحق من الباطل . روى النسائى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا أذنب العبد ذنباً نكت نكتة سوداء فى قلبه فإن هو نزع واستغفر صقل قلبه وإن عاد ازدادت حتى تعلو القلب فهو الرين الذى قال الله تعالى « بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » ﴿ كَلَّا ﴾ ردع عن كسب الرين ﴿ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ لا يرونه بخلاف المؤمنين ، تمثيل لحالهم فى الإهانة بحال من استأذن على ملك فلم يأذن له ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴾ لداخلو النار المحرقة ﴿ ثُمَّ يُقَالُ ﴾ لهم ﴿ هَذَا ﴾ العذاب ﴿الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ • كَلَّا﴾ ردع عن التكذيب ﴿ إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ قيل كتاب جامع لأعمال الخير من الملائكة ومؤمنى الثقلين وقيل هو مكان فى السماء السابعة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ • كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ علم كتاب الأبرار أو موضع يكون فيه الكتاب جمع علىّ فى الأصل سمى به لأنه سبب العلو والارتفاع فى الجنة أو لأنه مرفوع إلى السماء السابعة ﴿ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ من الملائكة ليحفظوا منه المعارف أو ليشهدوا على ما فيه يوم القيامة ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ • عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ إلى ما شاءوا مما تستلذه الأعين من النعيم المقيم ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ بهجة التنعم ورونقه ﴿ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ ﴾ شراب خالص من كل دنس ﴿ مَخْتُومٍ ﴾ أوانيه بالمسك مكان الطين لا يفك ختمه غيرهم ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ مكان الطينة فى أباريق الدنيا وهذا غاية الإكرام وقرأ الكسائى خاتمه بفتح التاء وهو ما يختم به كالأول ، وقيل معنى الأول أن المسك سرى إلى آخره يفوح منه رائحة المسك ﴿ وَفِى ذَلِكَ ﴾

الرحيق أو النعيم ﴿ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ فليرتغب المرتغبون بالمبادرة إلى طاعة الله ﴿ وَمِزَاجُهُ ﴾ أى ما يمزج به ﴿ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴾ اسم عين وهو فى الأصل مصدر سنمه إذا رفعه إما لأنها أرفع شراب فى الجنة أو لأنها تجرى فى الهواء متسنمة فتنصب فى أوانيهم ثم فسره بقوله ﴿ عَيْنًا ﴾ نصب بأمدح مقدرا أو على الحال من تسنيم ﴿ يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ أى منها أو ضمن يشرب معنى يلتذ فالمقربون يشربونها صرفاً وتمزج لسائر أهل الجنة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ﴾ كأبى جهل ونحوه من رؤساء الكفر ﴿ كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ كعمار وبلال ونحوهما من فقراء المسلمين ﴿ يَضْحَكُونَ ﴾ استهزاء بهم ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ ﴾ بالمؤمنين ﴿ يَتَغَامَزُونَ ﴾ يشير بعضهم إلى بعض بالجفن والحاجب استحقاراً ﴿ وَإِذَا انْقَلَبُوا ﴾ رجعوا ﴿ إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَاكِهِينَ ﴾ مستلذين بما هم فيه من الحطام أو بالسخرية للمؤمنين وقرأ حفص فكهين بالقصر وعليه الرسم أى معجبين بذكرهم المؤمنين ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ ﴾ رأوا المؤمنين ﴿ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ طريق الرشاد فى اتباع محمد وترك دين الأشياخ قال تعالى ﴿ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ ﴾ على المؤمنين ﴿ حَافِظِينَ ﴾ لهم أو لأعمالهم حتى يردوهم إلى مصالحهم رد منه تعالى عليهم ﴿ فَالْيَوْمَ ﴾ أى يوم القيامة ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ حين يرونهم أذلاء مغلولين فى النار بدل ما كانوا يضحكون منهم فى الدنيا ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ فى الجنة ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ إلى الكفار حال من يضحكون ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ﴾ جوزى ﴿ الْكُفَّارُ ﴾ بـ ﴿ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ؟ نعم ، والتثويب الإثابة استعمل فى العذاب تهكما والمخاطب هم المؤمنون زيادة فى سرورهم .

[تم تفسير سورة التطفيف]

سورة الانشقاق

مكية ــ ثلاث أو خمس وعشرون آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ بالغمام تنزل فيه ملائكة العذاب ﴿وَأَذِنَتْ﴾ سمعت وأطاعت فى الانشقاق ﴿لِرَبِّهَا﴾ أو استمعت له بمعنى انقادت لتأثير قدرته فيها حين أراد انشقاقها انقياد المطواع إذا ورد عليه أمر من الآمر المطاع ﴿وَحُقَّتْ﴾ جعلت حقيقة جديرة بالانقياد يقال حق بكذا فهو محقوق وحقيق ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ بسطت أو مد الأديم بأن تزال جبالها وآكامها حتى لم يبق عليها بناء ولا جبل ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ من الموتى والكنوز إلى ظاهرها ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ عنه غاية الخلو لدلالة التفعل على التكلف كأنها تكلفت أن تبلغ فى ذلك غاية الجهد ﴿وَأَذِنَتْ﴾ سمعت وأطاعت كالسماء ﴿لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ ولا تكرار لأن الأول فى السماء وهذا فى الأرض وجواب إذا وماعطف عليها محذوف دل عليه مابعد تقديره: لقى الإنسان عمله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ جاهد فى عملك ﴿إِلَىٰ﴾ لقاء ﴿رَبِّكَ﴾ وهو الموت ﴿كَدْحًا﴾ جهدا يؤثر ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ ملاق ربك لامفر لك عنه أو عملك من خير أو شر يوم القيامة أى جزاءه كما فى الحديث إنما هى أعمالكم ترد إليكم ثم فصل ذلك بقوله ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ﴾ كتاب عمله ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾ هو المؤمن ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ سهلا من غير مناقشة بل بعرض عمله عليه كما فسر فى حديث الصحيحين وفيه «من نوقش الحساب هلك» وبعد العرض يتجاوز عنه ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ عشيرته أو المؤمنين أو إلى أهله فى الجنة من الحور والولدان ﴿مَسْرُورًا﴾ بذلك ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ بشماله هو الكافر تغل يمناه إلى عنقه ويجعل يسراه وراء ظهره فيأخذ بها كتابه ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟﴾ عند رؤية ما فيه ﴿ثُبُورًا﴾ ينادى هلاكه ياثبوراه بثمناه ﴿وَيَصْلَىٰ﴾ بضم الياء وفتح الصاد المشددة للجمهور وبفتح الياء وسكون الصاد وتخفيف اللام لأبى عمرو وحمزة وعاصم يدخل ﴿سَعِيرًا﴾ نارا ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ﴾ فى الدنيا ﴿مَسْرُورًا﴾ بطرا بالمال والجاه واتباع الهوى نابذا للآخرة ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن﴾ أى أنه ﴿لَّن يَحُورَ﴾ يرجع إلى ربه تعليل لذلك السرور ﴿بَلَىٰٓ﴾ يرجع إليه لا محالة ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ عالما برجوعه إليه فيجازيه على أعماله ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ هو الحمرة فى الأفق بعد غروب الشمس ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ جمع ما دخل عليه من الدواب وغيرها ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ اجتمع وتم نوره وذلك فى الليالى البيض ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ أيها الناس ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ حالا بعد حال مطابقة لأختها

فى الشدة أو مراتب من الشدة بعد المراتب كل مرتبة تجاوزت عن الأخرى فى الشدة وهى الموت وما بعده من الأهوال على أن الطبق جمع طبقة وعلى الأول هو ما يطابق غيره وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى «لتركبن» بفتح الباء خطاب للإنسان ﴿فَمَا لَهُمْ﴾ أى الكفار ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالبعث بعد ظهور دلائله ﴿وَ﴾ مالهم ﴿إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ لا يخضعون إكراماً له لدلالة إعجازه على أنه كلام الله واستدل به أبو حنيفة على وجوب السجود لأن الذم لا يكون إلا على ترك الواجب ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾ القرآن والدليل إنما ينفع المسترشد ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ يضمرونه من الكفر والرذائل أو يجمعونه فى صحائف أعمالهم ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ تهكم بهم ﴿إِلَّا﴾ لكن ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع ولا يمن به عليهم .

[تم تفسير سورة الانشقاق]

سورة البروج

مكية ـ ثنتان وعشرون آية

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ الكواكب المشهورة شبهت بالقصور لأنها ينزلها السيارات ويكون فيها الثوابت وتقدمت فى الفرقان أقسم بها لما نيط بها من المصالح ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ يوم القيامة ﴿وَشَاهِدٍ﴾ يوم الجمعة ﴿وَمَشْهُودٍ﴾ يوم عرفة كذا فسرت الثلاثة فى الحديث فالأول موعود به والثانى شاهد بالعمل فيه والثالث يشهده الناس والملائكة وفيها اختلاف ولوصح الحديث لوجب الوقوف عنده لكن روى عن ابن عباس أن الشاهد محمد وأمته والمشهود يوم القيامة أو كل شاهد ومشهود وجواب القسم محذوف صدره أى لقد ﴿قُتِلَ﴾ لعن ﴿أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ والاظهر أنه دليل جواب محذوف أى إن الكفار لملعونون كما لعن أصحاب الاخدود وهو الشق فى الأرض قيل كان طوله أربعون ذراعا فى عرض اثنى عشر وصاحب الاخدود حديثه فى مسلم مطول وهو ملك دعا المؤمنين بالله إلى الرجوع عن دينهم إلى دينه وخد لهم أخدودا أضرم فيه النار وجعل يطرح فيها من لم يرجع عن دينه حتى جاءت امرأة معها صبى فتقاعست فقال يا أمه اصبرى فإنك على الحق فاقتحمت فى النار ﴿النَّارِ﴾

بدل اشتمال من الأخدود ﴿ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ مايوقد فيها صفة لها بالعظمة وكثرة الوقود من الحطب والناس واللام للجنس ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا﴾ أى حولها على جانب الأخدود وعلى الكراسى ﴿قُعُودٌ﴾ ظرف لقتل أى لعنوا حين أحرقوا بالنار قاعدين حولها ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله من تعذيبهم بالإلقاء فى النار إن لم يرجعوا عن إيمانهم ﴿شُهُودٌ﴾ حضور أو يشهد بعضهم لبعض عند الملك أنه سعى فى إحراقهم ولم يقصر أو يشهدون ذلك على أنفسهم يوم القيامة. روى أن الله أنجى المؤمنين الملقين فى النار بقبض أرواحهم قبل وقوعهم فيها وخرجت النار إلى من ثَمَّ فأحرقتهم ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ماعابوا منهم إلا الإيمان لمن هذه صفاته من كونه غالباً على كل شىء منعماً محموداً على نعمه ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أعاد المظهر للدلالة على أن شمول العلم شأن الألوهية ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ بلوهم بالأذى من أصحاب الأخدود وغيرهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ لكفرهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ العذاب الزائد فى الإحراق لفتنتهم المؤمنين والمؤمنات ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ الذى يستحقر ملك الدنيا دونه ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾ بالكفار ﴿لَشَدِيدٌ﴾ مضاعف عنفه ثم قرر ذلك بقوله ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ فى الخلق فلا يعجزه ما يريد ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ للذنوب ﴿الْوَدُودُ﴾ لمن تاب ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ خالقه ومالكه ﴿الْمَجِيدُ﴾ بالرفع للجمهور صفة رابعة له ومجده عظمته وكبرياؤه، وبالجر لحمزة والكسائى: صفة للعرش والمراد عظمة جرمه واتساع الملك دلالة على كمال الاقتدار ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ لا يعجزه شىء خبر مبتدإ محذوف لدلالته على تحقق الوصفين البطش بالأعداء والمغفرة والود للأولياء ولو جعل خبر «هو» المذكور فاتت الدلالة ولا يخفى مافى التنكير وزيادة اللام من الفخامة ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ يامحمد ﴿حَدِيثُ الْجُنُودِ ۝ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ بدل من الجنود واستغنى بذكر فرعون عن أتباعه أى قد عرفت تكذيبهم وما حاق بهم فاصبر على أذى قومك وحذرهم مثل ما حاق بهم ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ فى الإضراب دلالة على أن حال هؤلاء أعجب من أولئك فإنهم سمعوا بأخبارهم وشهدوا آثارهم وهم مستغرقون فى التكذيب لا يرعوون عنه ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ علماً وقدرة لاعاصم لهم منه ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ شريف وحيد فى النظم إشارة إلى أن تكذيبه أعظم جرماً من تكذيب سائر الأدلة ﴿فِي لَوْحٍ﴾ هو فى الهواء فوق السماء السابعة ﴿مَحْفُوظٌ﴾ بالرفع لنافع من التحريف وبالجر للباقين أى من الشياطين ومن تغيير شىء منه طوله ما بين السماء والأرض وعرضه مابين المشرق والمغرب وهو من درة بيضاء، قاله ابن عباس.

[تم تفسير سورة البروج]

سورة الطارق

مكية ـ سبع عشرة آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ أصله كل آت ليلا ، من الطرق وهو القرع لأنه يحتاج إلى قرع الباب ومنه النجوم لطلوعها ليلا ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾ تعظيم لشأنه ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ المضيء كأنه يثقب الظلام بضوئه والمراد به الجنس أو الثريا أو زحل ، وجواب القسم ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ أي إن الشأن كل نفس لعليها حافظ و « ما » مزيدة ، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة لمّا بتشديد الميم بمعنى إلا على أنْ إنْ نافية والحافظ من الملائكة يحفظ عملها من خير أو شر ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ ﴾ نظر اعتبار ﴿ مِمَّ خُلِقَ﴾ من أي شيء ليعلم صحة إعادته فلا يُمْلِ على حافظه إلا ما يسره في عاقبته وجواب الاستفهام ﴿ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴾ ذي دفق وهو صب فيه دفع والمراد الممتزج من الماءين في رحم المرأة ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ ﴾ للرجل ﴿ وَالتَّرَائِبِ ﴾ للمرأة وهي عظام الصدر ﴿ إِنَّهُ ﴾ تعالى ﴿ عَلَىٰ رَجْعِهِ ﴾ رد الإنسان حيا بعد موته ﴿ لَقَادِرٌ ﴾ فإذا اعتبر أصله علم ذلك ﴿ يَوْمَ ﴾ منصوب برجعه والفاصل ليس بأجنبي لأنه متعلق الجار ﴿ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ أي تكشف وتظهر ضمائر القلوب في العقائد والنيات ، وروى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم أن السرائر التي يبتليها الله من العباد التوحيد والصلاة والزكاة والغسل من الجنابة . قال قتادة : الوجه في الآية العموم في جميع السرائر . اهـ . قال المروي جمع سريرة وهي الأعمال التي أسرها العباد ﴿ فَمَا لَهُ ﴾ للإنسان ﴿ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ يمتنع بها بنفسه من العذاب ﴿ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ يدفعه عنه ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ المطر سمي به تفاؤلا من عوده كل حين ، أو ذات الرجع في كل دورة إلى الموضع الذي تتحرك عنه ويجوز على الأول أن يراد بالسماء السحاب ﴿ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ الشق عن النبات والعيون ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي القرآن ﴿ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ فاصل بين الحق والباطل ﴿ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ فإنه جد كله ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أي كفار مكة ﴿ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾ في إبطاله وإطفاء نوره ﴿ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ أستدرجهم بإفاضة النعم عليهم والعافية في مقابلة ذلك ليزدادوا إثماً فأنتقم منهم من حيث لا يحتسبون ﴿ فَمَهِّلِ ﴾ يا محمد ﴿ الْكَافِرِينَ ﴾ إلى الوقت المضروب عليهم في علمه تعالى ولا تستعجل بإهلاكهم ﴿ أَمْهِلْهُمْ ﴾ تأكيد حسنه مخالفة اللفظ أي أنظرهم ﴿ رُوَيْدًا ﴾ إمهالا يسيراً وهو مصدر مؤكد لمعنى العامل مصغر رَوْدٍ أو إرواد على الترخيم وقد أخذهم الله ببدر والحمد لله .

[تم تفسير سورة الإنسان]

سورة الأعلى
مكية - تسع عشرة آية

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ • سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ الخطاب عام أو لنبينا وأمته تبع أي كما يجب أن تنزه ذاته عما لا يليق من الأوصاف فكذلك الأسماء الدالة عليه تحمل على معاني الكمال والجلال وتصان عن التأويلات الزائفة تأدبا بآداب الله وله الأسماء الحسنى وقيل «اسم» زائد ﴿الْأَعْلَى﴾ صفة للاسم أو للرب وفي الحديث لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم قال عليه الصلاة والسلام اجعلوها في ركوعكم «لما نزل سبح اسم ربك الأعلى قال اجعلوها في سجودكم وكان يقول سبحان ربي الأعلى ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ كل شيء ﴿فَسَوَّىٰ﴾ خلقه بأن جعله متناسب الأجزاء بحيث يتأتى كماله به ويتم معاشه ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ﴾ الأشياء أجناسا وأنواعا وأشخاصا وصفات وأفعالا وآجالا ﴿فَهَدَىٰ﴾ كل شيء إلى ماقدره له من خير وشر من الأفعال طبعا أو اختيارا بالإلهام والدلائل والآيات خفف الكسائي قدّر ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ﴾ أنبت مايرعاه الدواب ﴿فَجَعَلَهُ﴾ بعد خضرته ﴿غُثَاءً﴾ يابسا هشيما ﴿أَحْوَىٰ﴾ أسود لإصابة الأمطار والعفن وقيل حال من المرعى أي أخرجه أحوى من شدة الخضرة فجعله بعد ذلك غثاء مايحمله السيل ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ القرآن على لسان جبريل ﴿فَلَا تَنسَىٰ﴾ ما تقرأه ، لما أمره بتنزيه اسمه خاف النسيان فبشره بإكمال قوته الحافظة بأن لا ينسى شيئا ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن تنساه بنسخ تلاوته وحكمه وكان يجهر بالقراءة فيتعبه فقال له ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿يَعْلَمُ الْجَهْرَ﴾ من القول والفعل ﴿وَمَا يَخْفَىٰ﴾ منهما «فلا تتعب نفسك بالجهر بالقراءة ﴿وَنُيَسِّرُكَ﴾ نوفقك ولذا لم يقل نيسر لك ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ للشريعة السهلة وهي الإسلام الذي لا إصر فيه ولا أغلال كما قال عليه السلام «جئتكم بالحنيفية السمحاء، لو كان ابن عمران حيا لما وسعه إلا اتباعي» وهو عطف على سنقرئك وما بينهما اعتراض ﴿فَذَكِّرْ﴾ عظ بالقرآن بعد أن استتب لك الأمر ﴿إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ من تذكره اعتراض بين الكلامين للإشارة إلى توبيخ قريش بحصول اليأس من تذكرهم والإشعار بأنه إنما يجب إذا ظن نفعه وألا يتلهف على أهل الطبع وأنه ينفع المؤمنين المذكورين في قوله ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ بها ﴿مَن يَخْشَىٰ﴾ الله لأنه يتفكر في الآيات ويتعظ بالمواعظ ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ يتركها جانبا لا يلتفت إليها ﴿الْأَشْقَى﴾ الكافر الكامل في الشقاء أو أفعل للزيادة المطلقة لدخول الفاسق في السعداء في قوله «فمنهم شقي وسعيد» أو الأشقى من الكفرة المتوغل في الكفر ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ﴾ هي نار

الآخرة والصغرى نار الدنيا أو جهنم نار الفساق أو الكبرى الدرك الأسفل ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا ﴾ فيستريح ﴿ وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ حياة طيبة وثم للدلالة على أن كونه لاميتا ولا حيا أفظع من دخول النار روى مسلم عن أبي سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل النار الذين لا يريد الله إخراجهم لايموتون فيها ولايحيون والذين يريد إخراجهم يميتهم فيها إماتة ثم يخرجون فيلقون في أنهار الجنة . ذكره في غاية الأماني ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ فاز ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾ تطهر بالإيمان من أوضار الشرك والمعاصي أو تطهر للصلاة أو أدى الزكاة والرواية عن علي ـ أن المراد زكاة الفطر ـ لاتصح ، قاله في غاية الأماني ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ بقلبه ولسانه ﴿ فَصَلَّىٰ ﴾ الصلوات الخمس ولا دلالة فيه على تكبيرة الافتتاح وهذا طريق الفلاح في الآخرة لكنكم غافلون عنها ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ﴾ بالخطاب للجمهور والغيبة لأبي عمرو والخطاب عام أو خاص بالأشقين على الالتفات ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ على الآخرة فلا تعملون مابه فلاحكم فيها قال ابن مسعود عجلت لنا الدنيا فآثرناها وفي الآية إشارة إلى قلة النفوس الكمل ﴿ وَالْآخِرَةُ ﴾ المشتملة على الجنة ﴿ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ إذ نعم الدنيا لا تخلص من الغوائل مع سرعة الزوال ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي ذكر في هذه السورة أو في قد أفلح من تزكى أو ماهو خير وأبقى والأول أعم وأصح ﴿ لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴾ فهو جامع لخلاصة ما فيها ﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ وهي عشر صحف لإبراهيم والتوراة لموسى ، روى النسائي عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كلها صحف إبراهيم وموسى وفي حديث أبي ذر المشهور قلت يارسول الله ما كانت صحف إبراهيم قال كانت أمثالا كلها منها أيها الملك المغرور إني لم أبعثك لتجمع الدنيا ولكني بعثتك لترد عني دعوة المظلوم ، وعلى العاقل أن تكون له ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يفكر في صنع الله وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب وأن يكون بصيرا بزمانه مقبلا على شأنه حافظا لسانه اهـ .

[تم تفسير سورة الأعلى]

سورة الغاشية
مكية ـ ست وعشرون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ، هَلْ ﴾ قد ﴿أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ القيامة لأنها تغشى الخلائق بأهوالها أو النار من قوله وتغشى وجوههم النار ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ عبر بها عن الذوات في الموضعين ﴿ خَاشِعَةٌ﴾ ذليلة ﴿ عَامِلَةٌ ﴾ في الدنيا ﴿ نَاصِبَةٌ ﴾ تاعبة بلا نفع أو عاملة في النار بجر السلاسل والأغلال ناصبة في الصعود والهبوط في جبال النار وأوديتها وقيل هؤلاء نساك اليهود والنصارى كانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴿تَصْلَىٰ﴾ بفتح التاء للجمهور وضمها لأبي عمرو وأبي بكر : تدخل ﴿نَارًا حَامِيَةً﴾ متناهية في الحر ﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾ متناهية الحر ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ يابس الشبرق وهو شوك ترعاه الإبل مادام رطباً والرطب هو الشبرق وإذا يبس تحامته وهو سم قاتل ولا ينافيه «إلا من غسلين» لاختلاف طبقات الأكلة لبعضهم الغسلين ولبعضهم الضريع ولبعضهم الزقوم أو بحسب الأوقات ﴿ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ والمقصود من الطعام هو أحد الأمرين والجملة في محل جر صفة ضريع ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾ حسنة ذات بهجة ورونق ﴿ لِسَعْيِهَا ﴾ في الدنيا بالطاعة ﴿ رَاضِيَةٌ ﴾ في الآخرة لما رأت ثوابه ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ محلا وقدرا ﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾ نفس أو كلمة ذات لغو أو لغو على أنه مصدر بضم تاء التأنيث في تسمع ورفع لاغية لنافع وبضم ياء التذكير ورفع لاغية لابن كثير وأبي عمرو وبفتح تاء التأنيث أو الخطاب ونصب لاغية للباقين ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ بالماء بمعنى عيون والتنكير للتعظيم أو التكثير ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ ذاتاً وقدراً ومحلا ﴿ وَأَكْوَابٌ ﴾ أقداح لا عرى لها ﴿ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ بين أيديهم لا يحتاجون إلى الطلب أو على حافات العيون معدة لشربهم لأنها ألذ منظراً ﴿ وَنَمَارِقُ ﴾ وسائد ﴿ مَصْفُوفَةٌ ﴾ بعضها بجنب بعض ليجلس حيث اختار ويستند إلى ما شاء لا يحتاج إلى النقل وهي على السرر والسرر في الهواء إذا أراد ولى الله أن يجلس عليها تطامنت له فإذا استوى عليها ارتفعت إلى حيث شاء الله ليرى جميع ما أعطاه الله في الجنة من النعيم والملك ﴿ وَزَرَابِيُّ ﴾ بسط طنافس لها خمل جمع زربية ﴿ مَبْثُوثَةٌ ﴾ مبسوطة أو مفرقة في المجالس . ثم رجع إلى ما افتتح به السورة من ذكر القيامة بعد ما استطرد بما استطرد به وبدأ في الاستدلال عليها بخلق الإبل التي لا تفارق خيال العرب بقوله ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ ﴾ أي الكفار نظر اعتبار ﴿ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ خلقاً دالاً على كمال قدرة الله

وحسن تدبيره كيف خلقها لحمل الأثقال إلى البلاد النائية منقادة لمن قادها ، طوال الأعناق لرعى البعيد وتحمل العطاش إلى عشر فصاعداً ليتأتى لها قطع البرارى والمفاوز مع ما لها من منافع أخر وهى من أعجب الحيوانات ولذا خصها بالذكر مع كون الكلام مع العرب المفتنين بها لا تزال خيالاتهم فيها ثم فى المياه والمرعى ومأواها فى الجبال والبعد فى الأراضى لتلقى الغيث وعلى خيالاتهم ترتيب هذه الآيات فى قوله تعالى ﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ بلا عمد ﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ راسخة لا تميل بتطاول الأزمان ﴿ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ بسطت حتى صارت مهاداً سهلة التقلب عليها ، المعنى أفلا ينظرون إلى هذه الأنواع الدالة على القدرة فيتركون إنكار البعث وأمور المعاد ولذا رتب عليها الأمر بالتذكير بقوله ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ لهم نعم الله ودلائل توحيده ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ فلا عليك جناح إن لم ينظروا ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ بمتسلط : بالصاد للجمهور والسين لهشام وبإشمام الصاد زاياً لحمزة ﴿ إِلَّا ﴾ لكن ﴿ مَنْ تَوَلَّى ﴾ أعرض ﴿وَكَفَرَ﴾ بالقرآن ﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾ عذاب الآخرة والأصغر عذاب الدنيا بالقتل فالاستثناء منقطع وقيل متصل من « فذكر » أى إلا الكافر المدرض فإنك مسلط عليهم بالجهاد فبعد ذلك يعذب الله كلا منهم العذاب الأكبر ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ رجوعهم بعد الموت ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ جزاءهم لا نتركه أبداً وتقديم الخبر للتخصيص وفيه تسلية وتهديد لهم بالغ .

[تم تفسير سورة الغاشية]

سورة الفجر

مكية ــ أو مدنية ــ تسع وعشرون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ وَالْفَجْرِ ﴾ هو الصبح أى فجر كل يوم أو يوم النحر أو عرفة أقسم به أو بصلاة الصبح ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ عشر ذى الحجة أو رمضان وفى البخارى عن ابن عباس مرفوعا «ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من عشر ذى الحجة » والتنكير للتعظيم ﴿وَالشَّفْعِ﴾ الزوج ﴿وَالْوَتْرِ﴾ الفرد بفتح الواو للجمهور وكسرها لحمزة والكسائى أى الأشياء كلها شفعها ووترها أو شفع الصلوات ووترها روى مرفوعا ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ يمضى مدبرا كقوله والليل إذ أدبر بإثبات الياء فى الوصل فقط لنافع وأبى

عمرو وفى الوصل والوقف لابن كثير وبحذفها فى الحالين للباقين ﴿ هَلْ فِى ذَٰلِكَ ﴾ القسم والمقسم به ﴿قَسَمٌ﴾ عظيم فيه مقنع ﴿ لِذِى حِجْرٍ ﴾ عقل والاستفهام للتقرير وجواب القسم محذوف أى لتعذبن يا كفار مكة دل عليه ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ألم تعلم يامخاطباً والخطاب عام أو يامحمد ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ أى أولاده وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح : قوم هود سموا باسم أبيهم ﴿إِرَمَ﴾ عطف بيان لعاد على تقدير مضاف أى سبط إرم وهم عاد الأولى أو أهل إرم على أن إرم اسم بلدتهم وعلى الوجهين منع الصرف للعلمية والتأنيث وفى الجواهر قال ابن إسحاق إرم هو أبو عاد كلها وقال الجمهور إرم مدينة لهم عظيمة كانت على وجه البحر باليمن . اهـ . ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ الطول كان الطويل منهم أربعمائة ذراع أو ذات البناء الرفيع على أنها قرية . قال فى غاية الأمانى والظاهر أن إرم اسم بلدة وذات العماد صفتها لما تواتر وكثر فى الأخبار أن عادا كان له ابنان شداد وشديد ملكا الأرض وقهرا الملوك ثم مات شديد وخاص الملك لشداد فملك جميع المعمورة بلا منازع وسمع ذكر الجنة وعمره إذ ذاك ست مائة سنة فبنى مدينة عظيمة من الذهب والفضة والياقوت والزبرجد فى مدة ثلاثمائة سنة وأجرى جميع الأنهار التى سمع عنها فى الجنة فيها وغرس الأشجار وكانت بأرض عدن فلما تم بناؤها سار إليها بجميع من معه ليتمتع بتلك القصور والأنهار فلما كان بينه وبين المدينة مسيرة يوم صاح بهم ملك فهلكوا عن آخرهم فأعمى الله الأبصار عنها وحكى أن عبد الله بن قلابة خرج فى طلب إبل له فكشفت له فدخلها وحمل ماقدر عليه من لبنات الذهب وغيرها وأتى به معاوية فى خلافته وأخبره الخبر والله أعلم ﴿ الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلَادِ ﴾ فى بطشهم وقوتهم أو فيما بنى بها صفة أخرى لإرم تؤيد أنها اسم البلدة ولو كان اسم القبيلة لكان المناسب لم يخلق مثلها فى العباد ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا﴾ قطعوا ﴿الصَّخْرَ﴾ أى الصخور واتخذوا فيها بيوتا ﴿ بِالْوَادِ ﴾ وادى القرى قيل نحتوا من الجبال ألفا وسبعمائة مدينة فى ذلك الوادى ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى الْأَوْتَادِ﴾ سمى به لكثرة جنوده لأن الجنود كالأوتاد للأمير أو لكثرة خيامهم التى يتدونها إذا نزلوا أو لأنه كان يعذب بأوتاد أربعة يشد بها رجلى ويدى من يعذبه وهذا أشهر ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا ﴾ تجبروا ﴿ فِى الْبِلَادِ ﴾ صفة للمذكورين من عاد وثمود وفرعون مرفوع أو منصوب بالقطع ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ بالكفر والظلم والقتل وغيره تفسير لطغيانهم ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ ﴾ أى أدام عليهم ﴿ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ أليم على أن الصب كناية عن الدوام والسوط عن الألم وفيه إشعار بأن هذا باعتبار ماأعدلهم فى الآخرة من العذاب كالسوط إذا قيس بالسيف ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ المكان الذى يرقب فيه الرصد كناية عن عدم الفوت أى لا يفوت العصاة عذابه ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ﴾ متصل بالمرصاد أى إنه بالمرصاد للإنسان فى الآخرة فأما الإنسان فلا يهمه إلا الدنيا ولذاتها ﴿ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ ﴾ اختبره ﴿ رَبُّهُ ﴾ بالغنى ﴿ فَأَكْرَمَهُ ﴾ بالجاه والولد ﴿ وَنَعَّمَهُ ﴾ بالمال ﴿ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ ﴾ فضلنى بما أعطانى متخرا بذلك وهو خبر المبتدأ والفاء لما فى « أما » من معنى الشرط والظرف المتوسط فى تقدير

التأخير كأنه قيل فأما الإنسان فقائل ربى أكرمنى وقت ابتلائه بالإنعام ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾ بالفقر ﴿فَقَدَرَ﴾ ضيق ﴿عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ وشدد «قدر» ابن عامر ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ لقصور نظره إلى الحطام ولم يدر أن الدنيا لاتساوى عند الله جناح بعوضة وأن التضييق قد يؤدى إلى كرامة الدارين ولذا زواها عن أكثر أصفيائه أثبت الياء نافع فى الوصل والبزى فى الحالين ولأبى عمرو الوجهان وحذفها الباقون فيهما فى الموضعين ﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان عن قوله أى ليس الإكرام بالغنى والإهانة بالفقر وإنما هما بالطاعة والمعصية والكفار لا ينتبهون لذلك بل ركبوا ماهو شر من هذا القول كما قال ﴿بَلْ لَا تُكْرِمُونَ﴾ بالخطاب فيه وفى الثلاثة بعد للجمهور والغيبة لأبى عمرو ﴿الْيَتِيمَ﴾ بالإحسان إليه مع الغنى أولا تعطونه حقه فى الميراث ﴿وَلَا تَحُضُّونَ﴾ أنفسكم ولا غيركم ﴿عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ إطعامه لغاية الشح وقلة الشفقة وقرأ الكوفيون تحاضون تفاعل حذف منه إحدى التاءين أى لا يحث بعضكم بعضا على ذلك ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ﴾ الميراث أصله الوراث قلبت الواو تاء ﴿أَكْلًا لَمًّا﴾ أى ذا لم أى جمع بين الحلال والحرام بعدم توريث الإناث أو تأكلون ماجمعه الموروث من الحلال والحرام لا تميزون بينهما أو تسرفون فى أنواع المآكل والفواكه فيما ورثتم لعدم التعب فى تحصيله ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ كثيرا مع الشره ومنع الحقوق قال فى الجواهر هذا التوبيخ لجنس الإنسان إذ يقع بعض المؤمنين فى شىء من هذا المنزع ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن ذلك وما بعده وعيد عليه ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ﴾ زلزلت حتى ينهدم كل بناء عليها ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ دكا بعد دك حتى تصير هباء منبثا ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أى أمره ﴿وَالْمَلَكُ﴾ أى الملائكة ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ حال أى مصطفين بحسب منازلهم ومراتبهم تمثيل لظهور آثار قدرته وتوجه إرادته إلى الانتقام من المجرمين بحال ملك اعتنى بقهر أعدائه فلم يكتف بالعساكر بل باشر بنفسه على الاستعارة التخييلية ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ لها زفير وتغيظ . روى مسلم والترمذى عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «يؤتى بجهنم لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك» ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من إذا وجوابها العامل فيهما ﴿يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾ مافرط منه أو يتعظ بأن يعلم قبح عمله فيندم عليه ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ استفهام بمعنى النفى أى لاينفعه تذكره ذلك لفوات الوقت بانقطاع التكليف ﴿يَقُولُ﴾ مع تذكره ﴿يَا﴾ للتنبيه ﴿لَيْتَنِي قَدَّمْتُ﴾ صالحا فى الدنيا ﴿لِحَيَاتِي﴾ هذه أى حياة الآخرة أو وقت حياتى فى الدنيا وهذا من تمنى المحال ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ﴾ أى الله ﴿أَحَدٌ﴾ أى لا يكله إلى غيره ﴿وَ﴾ كذا ﴿لَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ أى لا يتولى عذابه للكافر ووثاقه له أحد ففيه تهويل ، نعوذ بالله من غضب الحليم أو الضمير للإنسان بإضافة المصدر إلى المفعول أى لا يعذب أحد من الزبانية أحداً من خلق الله مثل تعذيب هذا الإنسان وقرأ الكسائى بالبناء للمفعول فى «يعذب» و «يوثق» ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ فى الدنيا إلى ذكر الله أى المؤمنة أو الآمنة من الخوف والحزن أى يقال لها عند الموت أو البعث من القبور أو

دخول الجنة ﴿ ٱرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ إلى أمره وموعده ﴿ رَاضِيَةً ﴾ بما أوتيت من الثواب ﴿ مَّرْضِيَّةً ﴾ عند الله بعملك أى جامعة بين الوصفين وهما حالان ﴿ فَٱدْخُلِي فِي ﴾ زمرة ﴿ عِبَادِي ﴾ الصالحين ﴿ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴾ معهم .

[تم تفسير سورة الفجر]

سورة البلد
مكية - عشرون آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . لَا ﴾ زائدة ﴿ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ مكة : أقسم تعالى بالبلد الحرام الذى هو أشرف الأماكن على أن الإنسان خلوق فى كبد مستغرق فى الشدائد واعترض بين القسم والمقسم عليه بقوله ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ ﴾ أى حالٌّ ﴿ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ قيد القسم بالبلد بحلول الرسول فيه إظهاراً لمزيد فضله فإن شرف المكان لشرف أهله أو معنى حلٌّ استحل عرضك فيه دلالة على أن من الكبد الآتى كون مثلك مستحلا حرمته فى مثل هذا البلد الذى لا يجوز فيه التعرض لنباتها فضلا عن صيدها وفيه تسكين له بأن فعل الكفار بلغ الغاية فلا بد من إهلاكهم أو بمعنى حلال لك أن تفعل فيه ما تريد ساعة من نهار فيكون وعداً له بفتح مكة تسلية له بأن ما يقاسيه من الأذى عاقبته الظفر وحل البلد الذى لم يحل لأحد قبله ولا بعده وفيه إجلال قدره ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ آدم وذريته أو إبراهيم مؤسس البلد وذريته الطاهرة أو عام يدخل فيه جميع الحيوان والمدول إلى وما، للدلالة على الوصفية فيفيد فخامة على الأولين أو لتغليب غير العاقل على الثالث ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ ﴾ أى الجنس ﴿فِي كَبَدٍ ﴾ شدة لأن أول أحواله ضيق الرحم وآخره الموت وضيق القبر ومابعده فهو فى شدائد الدنيا مستقبلا شدائد الآخرة وهذا تسلية للرسول عليه السلام بما كان يكابده من الكفار ﴿ أَيَحْسَبُ ﴾ الإنسان الذى يكابد النبى منه الأذى أكثر من غيره لاغتراره بقوته إذ الآية نزلت فى أبى الأشد ابن كلدة قوىّ قريش كان يبسط تحت قدميه أديم ويجذبه عشرة فينقطع ويبق ما تحت قدميه لا يزيله أحد ﴿ أَن ﴾ أى أنه ﴿ لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ على إعادته والانتقام منه ﴿أَحَدٌ﴾ والله قادر عليه . قال السهيلى وهذه الآية وإن نزلت فى أبى الأشد فإن

الألف واللام للجنس فيشترك معه فى الخطاب كل من ظن مثل ظنه وعمل مثل عمله . اهـ . ﴿ يَقُولُ ﴾ الإنسان مفتخرا ﴿ أَهْلَكْتُ ﴾ أنفقت ﴿ مَالًا لُبَدًا ﴾ كثيرا بعضه على بعض يريد ما ينفقه رياء وسمعة فى الجاهلية أو فى معاداة النبى عليه السلام ﴿ أَيَحْسَبُ أَنْ ﴾ أى أنه ﴿ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ حين ينفق يعلم قدر ما أنفق رياء وفخرا والله عالم بقدره وأنه ليس مما يتكثر به ويجازيه على فعله السئ ثم بين أن ما فعله ليس بشىء فى مقابلة نعم الله عليه بقوله ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ ﴾ استفهام تقرير أى جعلنا له ﴿ عَيْنَيْنِ ﴾ يبصر بهما ﴿ وَلِسَانًا ﴾ يعرب به عن مقاصده ﴿ وَشَفَتَيْنِ ﴾ زينة واستعانة بهما على النطق والأكل والشرب وستر الفم عن المضار ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ بينا له طريق الخير والشر وأصل النجد ما ارتفع ففيه إشارة إلى غاية الإيضاح والبيان أو هما الثديان لأن البطن لهما كالغور ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ ﴾ أى ما دخل أو جاوز ﴿ الْعَقَبَةَ ﴾ الطريق الشديد فى الجبل : المعنى فلم يشكر تلك الأيادى باقتحام العقبة المستعارة للعمل الشاق على النفس بما يفسره بعد . قال فى الجواهر «فلا» عند الجمهور تحضيض بمعنى ألا اهـ . قلت وبه فسره الجلال المحلى فى المكمل ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ التى يقتحمها تعظيم لشأنها أبهمها على وجه الاعتراض ثم فسرها بقوله ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ من الرق بإعتاقها ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ مجاعة ﴿ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ قرابة ﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ افتقار كأنه التصق بالتراب قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة «فكّ» وإطعام مصدرين مرفوعين على الخبرية أضيف الأول إلى مفعوله ونون الثانى فيقدر قبل العقبة اقتحام والباقون قرأوهما فعلين بدلا من اقتحم و«لا» مكررة تقديرا أى ولا فكّ ولا أطعم على أن تكريرها غير لازم والمعنى أن الإنفاق عند الله هو هذا لا ما افتخر به ذلك المرائى وقدم فك الرقبة لأنه أقرب القربات . روى البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أعتق رقبة مسلمة كانت له فكاكا من النار عضوا بعضو وقال عليه السلام «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه وعن جسده فيما أبلاه وعن علمه فيما عمل فيه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه» أخرجه مسلم والترمذى وقال حسن صحيح . قال سفيان فى «ذا متربة» هو المطروح على ظهر الطريق قاعداً على التراب لا بيت له . وقال ابن عباس من يرجع إلى بيته مستيقناً أنه ليس فيه إلى التراب ثم بيّن الله القرابة المذكورة بقوله ﴿ ثُمَّ كَانَ ﴾ عطف على «اقتحم» أى ثم كان وقت الاقتحام ﴿ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وعطفه للشرف لا لخروجه وبثم للدلالة على إنافة محله ﴿ وَتَوَاصَوْا ﴾ وصى بعضهم بعضاً ﴿ بِالصَّبْرِ ﴾ على الطاعة وعن المعصية ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ الرحمة على الخلق أو موجبات رحمة الله ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ اليمين أو اليمن ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ الشمال أو الشؤم ولتكرير المؤمنين باسم الإشارة والكافرين بالضمير شأن لا يخفى ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ﴾ بالواو للجمهور والهمزة لأبى عمرو وحمزة وحفص مطبقة عليهم من أوصدت الباب وأصدته : أغلقته .

(تم تفسير سورة البلد)

سورة والشمس
مكية ـ خمس عشرة آية

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ ضوئها: أقسم بها لأن كلا منهما من بدائع صنعه والضحوة وقت ارتفاع النهار والضحى فوق ذلك قليلا والضحاء بالفتح والمد فوقه إلى قرب الزوال ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ تلا طلوعه طلوع الشمس أول الشهر أو غروبها ليلة البدر أو تلاها فى النور والكمال ليلة البدر تكون كوقت الضحى ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ أى الشمس أو الظلمة أو الدنيا أو الأرض وإن لم يجر ذكرها للعلم بها ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ يغشى الشمس بظلمته أو الآفاق أو الأرض، و «إذا» فى الثلاثة لمجرد الظرفية والعامل فيها فعل القسم قاله المحلى، والحق أن الظرف ليس متعلقاً بفعل القسم لأن التقييد بالزمان غير مراد لاحالا ولا استقبالا، بل المعنى وعظمة الليل وقت غشيانه لأن الإقسام بالشىء إعظام له، قاله فى غاية الأمانى ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ «ما» ليست مصدرية لقوله «فألهمها» بل موصولة أوثرت على مَن لإرادة الوصف فيفيد فخامة كأنه قال والسماء والقادر العظيم الذى بناها وكذا يقدر ما يناسب فى غيرها من قوله ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ بسطها ﴿وَنَفْسٍ﴾ بمعنى نفوس ﴿وَمَا سَوَّاهَا﴾ فى الخلقة فى أحسن تقويم بتعديل الأعضاء وإفاضة الروح والقوى ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أى بيّن لها طريق الخير والشر وجعل لها قوة يصح معها اكتسابهما بعد كمال التسوية بالبلوغ الذى منه تكامل القوى فلذا عطف بفاء التعقيب وقدم الفجور دلالة على غلبته عليها ورعاية لرءوس الآى وجواب القسم ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ حذف منه اللام لطول الكلام ﴿مَنْ زَكَّاهَا﴾ طهرها من الذنوب والأخلاق الذميمة بالأعمال السيئة ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ خسر ﴿مَنْ دَسَّاهَا﴾ أخفاها وأطفأ نور الفطرة بظلمات المعاصى أصله دسّس أبدلت الثانية ياء كأمليت تخفيفاً قيل قوله «قد أفلح» مستطرد لذكر بعض أحوال النفس والجواب محذوف تقديره ليدمدمن الله قريشاً بالتكذيب كما دمدم على ثمود دل عليه ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ صالحاً ﴿بِطَغْوَاهَا﴾ بسبب طغيانها وهو اسم بمعنى الطغيان ولذا قلبت ياؤه واواً فرقاً بينه وبين الصفة ﴿إِذِ انْبَعَثَ﴾ أسرع ظرف لكذبت أو طغواها ﴿أَشْقَاهَا﴾ أشقى ثمود وهو قدار بن سالف إلى عقر الناقة برضاهم ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ صالح ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ نصب بالتحذير والإضافة فيها وفى الرسول للتشريف وزاد تشريف صالح باسم الرسول لأنه أولى بالإجلال ﴿وَسُقْيَاهَا﴾ أى احذروا عقرها

واحذروا ذودها عن سقياها ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ فيما حذرهم به من نزول العذاب ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ قتلوها ليسلم لهم ما تشربه ﴿ فَدَمْدَمَ ﴾ أطبق ﴿ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم ﴾ العذاب وعمهم به ﴿ بِذَنْبِهِمْ ﴾ بسببه ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ أى الدمدمة عمهم بها فلم يفلت منهم صغير ولا كبير ، أو ثمود بالأرض ﴿ فَلَا يَخَافُ ﴾ بالفاء للعطف لنافع وابن عامر والواو للحال للباقين ﴿ عُقْبَاهَا ﴾ عقبى الدمدمة أو التسوية : أى تبعتها .

[تم تفسير سورة والشمس]

سورة والليل

مكية إحدى وعشرون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ بظلمته كل ما بين السماء والأرض ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ تبين وانكشف بانسلاخ الليل عنه وإذا هنا كما تقدم ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴾ أى والقادر الذى خلق الزوجين من كل نوع أو آدم وحواء ، ويجوز هنا أن تكون ما مصدرية وقرئ والذكر والأنثى وجواب القسم ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ جمع شتيت أى مساعيكم مختلفة الأغراض فعامل للجنة بالطاعة وعامل للنار بالمعصية كما فصله بقوله ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ ﴾ حق الله ﴿ وَاتَّقَىٰ ﴾ معصيته ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾ بالكلمة الحسنى لا إله إلا الله أو المثوبة الحسنى الجنة ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ للجنة أو للخلة التى تؤدى إلى اليسر والراحة ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ ﴾ بحق الله تعالى ﴿ وَاسْتَغْنَىٰ ﴾ عن ثوابه بالحطام الفانى ﴿ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾ بمدلول كلمة التوحيد أو بالمثوبة الحسنى وهى الجنة ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ ﴾ نهيئه ﴿ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ نخذله على الطريقة التى اختارها المؤدية إلى النار أو للنار ﴿ وَمَا ﴾ نافية ﴿ يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴾ سقط فى القبر أو النار أو هلك تفعل من الردى ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ للدلالة والإرشاد إلى طريق الصواب بتشريع الأحكام وبيان الحلال والحرام ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴾ الدنيا نعطى فيهما ما نشاء لمن نشاء فمن طلبهما من غيرنا فقد أخطأ ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ ﴾ خوفتكم يا أهل مكة ﴿ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ بحذف إحدى التاءين تتلهب ﴿ لَا يَصْلَاهَا ﴾ لا يدخلها ويقاسى شدائدها ﴿ إِلَّا الْأَشْقَى ﴾ بمعنى الشقى وتقدم ما فيه فى سورة الأعلى ﴿ الَّذِي كَذَّبَ ﴾ النبى ﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴾ عن الإيمان دليل على أن المراد بالصلى المؤبد ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ﴾ يبعد عنها ﴿ الْأَتْقَى ﴾ بمعنى

التقى أبي بكر رضى الله عنه إذ فيه نزلت كما نزل ما قبلها فى أمية بن خلف حين اشترى منه بلالا ببردة وعشر أواق فأعتقه لله كما قال تعالى ﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ ﴾ فى مصارف الخير ﴿ يَتَزَكَّىٰ ﴾ يطلب أن يكون زكياً عند الله لا رياء بدل من يؤتى داخل فى حكم الصلة أو حال من فاعله ولما قال الكفار إنما اشترى بلالا وأعتقه ليد كانت له عنده نزل رداً عليهم ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ ﴾ عند أبي بكر ﴿ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴾ يقصد مجازاتها ﴿ إِلَّا ﴾ لكن فعل ذلك ﴿ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴾ أى طلب ثواب الله ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ بما يعطى من الثواب فى الجنة ، والآية تشمل كل من فعل مثل فعله فيبعد عن النار ويثاب وهو وعد جميل فى إبهامه ما لا يخفى .

[تم تفسير سورة والليل]

سورة والضحى

مكية إحدى عشرة آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۔ وَالضُّحَىٰ ﴾ أول النهار إذ فيه يظهر سلطانه أو كله ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ غطى بظلامه متعد أو سكن من سجى البحر سكنت أمواجه وتقديم الليل فى السورة المتقدمة باعتبار الأصل وتقديم النهار هنا باعتبار الشرف ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ ما تركك يا محمد ترك المودع ﴿ وَمَا قَلَىٰ ﴾ ما أبغضك : نزل هذا لما قال الكفار عند تأخر الوحي عنه خمسة عشر يوماً إن ربه ودعه وقلاه ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ أى الأوقات المستقبلة خير لك من الأيام الماضية فإنه يعلو شأنك فيها ويظهر دينك على سائر الأديان أو الدار الآخرة لبقائها خالصة من الشوائب خير مما تعطى فى الدنيا ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ ﴾ فى الدارين غاية المنى ﴿ فَتَرْضَىٰ ﴾ بحيث لا يبقى لك طلب بعد تلك المعطية حذف المفعول لإرادة العموم فيدخل فيه مقام الشفاعة وسائر المزايا الخاصة به واللام للابتداء دخل الخبر بعد حذف المبتدإ والتقدير ولأنت سوف يعطيك لا للقسم لأنها لا تدخل على المضارع إلا مع النون وجمع مع سوف للدلالة على أن العطاء كائن لا محالة وإن تأخر لحكمة . قال عليه السلام لما نزلت : إذاً لا أرضى وواحد من أمتى فى النار . . الحديث ، إلى هنا تم جواب القسم بمثبتين بعد منفيين ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ ﴾ يعلمك

استفهام تقرير أى علمك (يَتِيمًا) بفقد أبيك قبل ولادتك أو بعدها بقليل (فَآوَىٰ) بأن ضمك إلى جدك عبد المطلب ثم بعده إلى عمك أبى طالب (وَوَجَدَكَ ضَالًّا) عما أنت عليه الآن من علم الشرائع المتوقف على الوحى (فَهَدَىٰ) هداك بأن علمك ذلك بالوحى (وَوَجَدَكَ عَائِلًا) عديم المال (فَأَغْنَىٰ) أغناك أولا بمال خديجة ثم بما قنعك به من الغنائم التى أحلها لك وغيرها . وفى الحديث : ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس . وكل هذا تقرير لقوله وللآخرة خير لك من الأولى على أول الوجوه (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ) بأخذ ماله وتتقلف عليه واذكر حالك فى اليتم (وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ) تزجره لفقره دخل فى الفقير المسترشد فى دينه (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ) عليك بالنبوة وغيرها (فَحَدِّثْ) فإن التحدث بها شكر لما من الله عليه بثلاث خلال أرشده وحثه على ثلاث فى مقابلتها ليكون متخلقاً بأخلاق الله ويقتدى به فى ذلك أمته ، ولما نزلت « والضحى » كبَّر صلى الله عليه وسلم فسن التكبير آخرها روعى الأمر به خاتمتها وخاتمة كل سورة بعدها وهو : الله أكبر ولا إله إلا الله والله أكبر . وعلى ذلك قراءة ابن كثير دون غيره من القراء .

[تم تفسير سورة والضحى]

سورة ألم نشرح
مكية ـ ثمان آيات

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۔ أَلَمْ نَشْرَحْ) استفهام تقرير أى شرحنا (لَكَ) يا محمد (صَدْرَكَ) نورناه بنور النبوة حتى وسع علم الأولين والآخرين وصلح لمناجاة الحق ودعوة الخلق فكان غائباً حاضراً وحديث شق صدره وامتلائه حكمة فى البخارى وغيره (وَوَضَعْنَا) حططنا (عَنكَ وِزْرَكَ) ثقلك من عدم العلم بالأحكام أو مالقى من برحاء الوحى خوفاً من فوت شىء منه فضمنا لك ذلك حتى سكن روعك (الَّذِي أَنقَضَ) أثقل (ظَهْرَكَ) كناية عن غاية الشدة ، من النقيض صوت الرحل من ثقل الحمل وقيل هو كقوله « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك » وقد مر بيانه (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) فى الدارين فإنك سيد المرسلين واسمك مقرون باسم رب العالمين فى الأذان والإقامة والتشهد والخطبة وغيرها فإذا كنت

بهذه الرتبة عندنا فلا تبال بأذى المشركين فيك وفى أصحابك فإن ذلك زائل عن قريب ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ ﴾ الشدة ﴿ يُسْرًا ﴾ أىّ يسر ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ والنبى صلى الله عليه وسلم قاسى شدة ثم حصل له اليسر بنصره عليهم تكرير للتأكيد أو استئناف لأن اليسر الثانى غير الأول على قانون النكرة المعادة ولترجيح التأسيس على التأكيد ولما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لن يغلب عسر يسرين » ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ من عبادة كالصلاة ﴿ فَانْصَبْ ﴾ فى أخرى كالدعاء ليكون شكرك على وفق النعم وأشار بلفظ النصَب وهو التعب إلى الترقى كما أشار إليه فى جانب النعم بقوله «وللآخرة خير لك من الأولى» قال عليه السلام حين رجع من الغزو : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ فى كل ما تطلب لا إلى غيره لملك تفرده بالتأثير فالكل منه وبه وإليه وتوكل عليه .

[تم تفسير سورة ألم نشرح]

سورة والتين
مكية ـ ثمان آيات

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ • وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ جبلين ببيت المقدس ينبتان المأكولين ويدل عليه ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ الجبل الذى كلم الله تعالى موسى عليه السلام فيه ، ومعنى سينين البركة أو الحسن بالأشجار المثمرة اسم الموضع الذى فيه الجبل ﴿ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ مكة لأمن الناس فيها جاهلية وإسلاماً وكأنه قال فى القسم بجبال الأرض المقدسة والأرض المباركة ديناً ودنيا والبلد الذى من دخله كان آمناً فى الدارين وفيه نهج الترقى إذ لا مطمح وراء أمن الدارين ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ الجنس ﴿ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ تعديل شكلا وصورة بانتصاب القامة وملاحة الصورة واستجماع خواص الكائنات ونظائر سائر الممكنات ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ ﴾ فى بعض أفراده ﴿ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ بتقوس الظهر وبياض الشعر وكلال السمع والبصر وتناقص القوى والعقل حتى يأنفه من كان يحبه ، أو رددنا الكافر فى الآخرة إلى أقبح صورة سيئة مثل أحد يجر شفتيه على الأرض والوجه أسود مظلم عافانا الله ﴿ إِلَّا ﴾ لكن ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ من الهرمى ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ مقطوع بل يجرى عليهم ثواب الأعمال

التي كانوا يعملونها وهم أقوياء استثناء منقطع على التأويل الأول في أسفل سافلين وأما على الثاني فتصل ظاهر الاتصال. وفي الحديث: إن المؤمن إذا رُدّ إلى أرذل العمر كتب له خير ما كان يعمل في قوته. ثم وبخ الله الإنسان الكافر على التكذيب بقوله ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ ﴾ أيها الكافر التفاتاً أي ما الذي يحملك على الكذب فإن مكذب الحق كاذب ﴿ بَعْدُ ﴾ بعد هذه الدلائل من خلق الإنسان ورده إلى أرذل العمر الدالة على القدرة على البعث ﴿ بِالدِّينِ ﴾ بالجزاء المسبوق بالبعث والباء للسببية أو ما يجعلك مكذباً بذلك ولا جاعل له، ويحتمل الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أي أيّ شيء كذبك يا محمد دلالة ونطقاً بعد هذه الدلائل ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ صنعاً وتدبيراً ومن كان كذلك كان قادراً على الإعادة والجزاء وهو تحقيق لما سبق. وفي الحديث: من قرأ بالتين إلى آخرها فليقل بلىٰ وأنا على ذلك من الشاهدين. أخرجه الترمذي لكنه ضعيف قاله ابن العربي.

[تم تفسير سورة والتين]

سورة اقرأ

مكية – تسع عشرة آية

[صدرها إلى مالم يعلم أول ما نزل من القرآن وذلك بغار حراء رواه البخاري]

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ● اقْرَأْ﴾ أوجد القراءة مبتدئاً ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أو مستعيناً به ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ كل شيء. ثم أفرد ما هو أشرف وأدل على وجوب العبادة المقصود من القراءة بقوله ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ الجنس ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ جمع علقة لأن الإنسان في معنى الجمع لجمعت باعتبار الأفراد ولما كان أول الواجبات معرفة الله بالبرهان نزل أولا ما يدل على وجوده وكمال قدرته وحكمته ﴿ اقْرَأْ ﴾ تأكيد للأول أو الأول لنفسه والثاني للتبليغ أو الأول خارج الصلاة والثاني فيها ﴿ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ الذي لا يوازيه كريم لأنه ينعم بلا عوض: حال من ضمير اقرأ ﴿ الَّذِي عَلَّمَ ﴾ الخط ﴿ بِالْقَلَمِ ﴾ لتقييد العلوم وإعلام البعيد دليل على أكرميته لأن كل عطية دون العلم كنقطة من المحيط، وقل رب زدني علماً، وفيه رمز إلى فضل الكتابة لأنها آلة التعليم وضابطة الحكم وأول من خط بالقلم إدريس عليه السلام ﴿ عَلَّمَ الْإِنسَانَ ﴾ الجنس ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ قبل تعليمه من

الهدى والكتابة والصناعة وغيرها ﴿ كَلَّا ﴾ ردع للإنسان الذى قابل هذه النعم بالكفر والطغيان ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴾ ليتجاوز عن حده ﴿أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ لأن رأى نفسه غنيا أى علم واستغنى، مفعوله الثانى ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ يا إنسان ﴿ الرُّجْعَىٰ ﴾ الرجوع التفت إليه تهديدا وتحذيرا من عاقبة الطغيان والآيات نزلت فى أبى جهل لما قال لو رأيت محمداً ساجداً لوطئت عنقه فجاءه ثم نكص على عقبيه فقيل له مالك قال إن بينى وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة قال تعالى فيه ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ فى مواضعها الثلاثة للتعجيب ﴿الَّذِي يَنْهَىٰ﴾ هو أبو جهل ﴿عَبْدًا﴾ هو النبى صلى الله عليه وسلم ﴿إِذَا صَلَّىٰ﴾ ولفظ العبد وتنكيره للمبالغة فى تقبيح النهى والدلالة على كمال عبودية المنهى ﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ ﴾ المنهى ﴿ عَلَى الْهُدَىٰ أَوْ ﴾ للتقسيم ﴿أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ﴾ وأرأيت تكرير للأول والشرط مفعول ثان حذف منه الجواب لدلالة قوله ﴿ألم يعلم﴾ عليه وحذف المفعول الأول لظهوره وكذا قوله ﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ ﴾ الناهى النبى صلى الله عليه وسلم ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الإيمان ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ يشاهد ماصدر منه فيجازيه عليه والمعنى أخبرنى عن حال من ينهى عبداً يصلى والمنهى على الهدى آمر بالتقوى والناهى مكذب متول : فما أعجب من ذا ﴿كَلَّا﴾ ردع للناهى ﴿لَئِن﴾ لام قسم ﴿ لَّمْ يَنتَهِ ﴾ عما هو عليه من الكفر ﴿ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ لنأخذن بناصيته ولنجرنه إلى النار والسفع القبض على الشىء وجره بعنف وكتب نون لنسفعا بالألف فى المصحف على حكم الوقف ﴿ نَاصِيَةٍ ﴾ بدل نكرة من معرفة حسّنه الوصف بقوله ﴿كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ إذ هذا الوصف أوفى بالمقصود أى الدلالة على علة السفع وإسناد الكذب والخطأ إلى الناصية مجاز حكمى وتخصيصها لأنها أشرف الأعضاء. ولما قال أبو جهل للنبى صلى الله عليه وسلم لما انتهره حيث نهاه عن الصلاة تهددنى يامحمد وقد علمت ما بالوادى رجل أكثر ناديا منى لأملأن عليك هذا الوادى إن شئت خيلا جردا ورجالا مُرْدًا ، قال تعالى ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ أهل ناديه ليعينوه وهو المجلس ينتدى أى يتحدث فيه القوم ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ جمع زابن أى دافع بعنف وهم الملائكة الغلاظ الشداد سندعوهم عن قريب لتجره إلى النار ، وفى الحديث لودعا ناديه لأخذته الزبانية عيانا ﴿كَلَّا ﴾ ردع أيضا للناهى ﴿ لَا تُطِعْهُ ﴾ يامحمد دم على عصيانه واثبت على طاعتك ﴿ وَاسْجُدْ﴾ لربك ﴿ وَاقْتَرِبْ ﴾ منه بطاعته وأحرى بالسجود .

روى مسلم عن أبى هريرة أنه عليه السلام قال « أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد » .

[تم تفسير سورة اقرأ]

سورة القــدر

مكية أو مدنية ـ خمس أو ست آيات

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أى القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا فكتبه السفرة ثم نزل منجما فى ثلاث وعشرين سنة ﴿فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ سميت بذلك لشرفها أولتقدير الآجال والأرزاق وحوادث العام كلها فيها ويرفع إلى الملائكة لتمتثله : فخّم شأن القرآن بأن خص إنزاله فيها وأسنده إليه وأضمر إشارة إلى أنه العلم الذى لا يذهب الوهم إلى غيره ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ أعلمك يا محمد ﴿مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ تعظيم لشأنها وتعجيب منه ثم بينه بقوله ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أى القيام بالعبادة فيها خير من القيام بالعبادة فى ألف شهر خالية عنها وهى ثلاث وثمانون عاماً وثلث عام وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم «من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ماتقدم من ذنبه» والأكثر على أنها فى أوتار العشرة الأخيرة من رمضان ومن علامتها أن ليلتها ساكنة لاحرولابرد ولا يرى فيها بكوكب صافية كأنها قمر وتطلع الشمس فى صبيحتها ليس لها شعاع ثم بين مافضلت به على ألف شهر بقوله ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ جميعا ﴿وَٱلرُّوحُ﴾ أى جبريل خص للتشريف أوخلق لاتراهم الملائكة إلا تلك الليلة ﴿فِيهَا﴾ فى الليلة إلى الأرض أو إلى السماء الدنيا ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ بأمره ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ لأجل كل أمر قضاه الله فيها بذلك السنة إلى قابل وإنما تنزل تعظيما لها ونشراً لخيرها وبركتها ﴿سَلَٰمٌ هِىَ﴾ خبر مقدم ومبتدأ أى ما هى إلا سلامة نحو تميمى أنا أى لا يقضى فيها إلا السلامة والخير لا يستطيع الشيطان فيها عمل سوء وقيل سميت سلاماً لكثرة سلام الملائكة فيها على المؤمنين والمؤمنات ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ بفتح اللام للجمهور وكسرها للكسائى : طلوعه أو وقته غاية للسلامة أو السلام .

[تم تفسير سورة القدر]

سورة لم يكن
مكية أو مدنية ـ تسع آيات

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ ﴾ للبيان ﴿ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ اليهود والنصارى ﴿ وَالْمُشْرِكِينَ ﴾ عبدة الأصنام ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ خبر « يكن » أى زائلين عما هم عليه من دينهم أو الوعد باتباع الحق إذا جاءهم الرسول الموعود ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ﴾ أى أتتهم ﴿ الْبَيِّنَةُ ﴾ الحجة الواضحة ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ بدل من البينة وهو النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ من الباطل ﴿ فِيهَا كُتُبٌ ﴾ أحكام مكتوبة ﴿ قَيِّمَةٌ ﴾ مستقيمة أى يتلو مضمون ذلك وهو القرآن فانفكوا وافترقوا بعد ذلك فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، ويحتمل أن المراد لم يكن هؤلاء منفكين من أمر الله ونظره لهم حتى يبعث إليهم رسولا تقوم عليهم به الحجة وتتم على من آمن به النعمة فكأنه قال ما كانوا ليتركوا سدى ذكره فى الجواهر ثم ذم أهل الكتاب لأنهم لم يتفرقوا فى أمر محمد إلا بعد ما علموا صحة نبوته بالآيات بقوله ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ فى الإيمان به صلى الله عليه وسلم ﴿ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ حسداً منهم توبيخ لهم بجعل ما يعدونه سبب الوفاق سبب الافتراق كقوله « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » وأفرد هنا أهل الكتاب لأنهم إذا تفرقوا مع علمهم فالمشركون أولى بذلك ﴿ وَمَا أُمِرُوا ﴾ فى التوراة والإنجيل ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ لا يشركون به ﴿ حُنَفَاءَ ﴾ مائلين عن الباطل أو مستقيمين على ملة إبراهيم ودين محمد إذا جاء فكيف كفروا به ﴿ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ﴾ الملة ﴿ الْقَيِّمَةِ ﴾ المستقيمة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ يوم القيامة أو فى الحال لملابستهم ما يوجب ذلك ﴿ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ بهمز لنافع وابن ذكوان والياء للباقين فى الموضعين أى الخليقة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ . جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ استئناف عما يكون لهم زيادة على جزائهم وهو رضى الله وهو فوق ذلك الجزاء ورضوان من الله أكبر ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ بما منحهم مما لا مزيد عليه ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ وامتثل أوامره : قال يونس : خالف أهل مكة العرب فهمزوا البريئة والنبيء وكذا عن سيبويه .

[تم تفسير سورة لم يكن]

سورة الزلزلة
مكية أو مدنية ــ تسع آيات

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ • إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ حركت لقيام الساعة ﴿ زِلْزَالَهَا ﴾ تحريكها الشديد المناسب لعظمها ﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ جمع ثقل متاع البيت أى ما فى بطنها من الموتى والكنوز ﴿ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ الكافر بالبعث ﴿ مَا لَهَا ﴾ إنكاراً لتلك الحالة أو جميع الناس تعجباً من ذلك ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ بدل من إذا وجوابها ﴿ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ ما لأجله زلزالها وإخراجها أو بكل ما عمل عليها من خير وشر ﴿ بِأَنَّ ﴾ بسبب أن ﴿ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ أمرها بذلك . قال عليه السلام : تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها تقول عمل على يوم كذا كذا فهذه أخبارها . رواه الترمذى وقال حسن صحيح ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ ﴾ ينصرفون من قبورهم إلى الموقف أو من موقف الحساب إلى الجزاء ﴿ أَشْتَاتًا ﴾ متفرقين فآخذ ذات اليمين إلى الجنة وآخذ ذات الشمال إلى النار كل مع إمامهم ﴿ لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ فى كتبهم أو جزاءها من الجنة والنار ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ زنة نملة صغيرة ﴿ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ير ثوابه ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ تفصيل لقوله « أشتاتاً » .

[تم تفسير سورة الزلزلة]

سورة العاديات
مكية أو مدنية ــ إحدى عشرة آية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ • وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ﴾ فى الكر والفر خيل الغزاة تضبح ﴿ ضَبْحًا ﴾ صوت أنفاسها أو أجوافها إذا عدت : نصب على المصدر من فعله المقدر أو بالعاديات لأنه يلازم العدو أو على الحال . ﴿ فَٱلْمُورِيَٰتِ ﴾ قادحات النار بحوافرها ﴿ قَدْحًا ﴾ إذا عدت فى أرض ذات حجارة ليلا يقال قدح الزند فأورى و « قدحاً » مصدر مؤكد لأن المورى هو القادح قاله أبو البقاء ﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ ﴾ على العدو ﴿ صُبْحًا ﴾

وقت الصباح بإغارة أصحابها (فَأَثَرْنَ) هيجن (بِهِ) بمكان عدوهن أو بذلك الوقت (نَقْعًا) غباراً بشدة حركتهن أو صياحاً من الذين أغير عليهم ويدل على الأول قوله :

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُءُوسِنَا • وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

(فَوَسَطْنَ بِهِ) بالنقع (جَمْعًا) من جموع الأعداء . أى صرن وسطه . روى أنه عليه السلام بعث خيلا فمضت شهراً لم يأته منهم خبر فنزلت ويحتمل أن يكون القسم بالنفوس العاديات فى طلب الكمال المتأوهات على الفرطات الموريات بإقداح الأفكار من صخور المسالك إلى أنوار المعارف المنيرات على جيش الهوى بالاستغفار فى الأسحار فأثرن به غبار الشوق فوسطن به جمعاً من جموع الملإ الأعلى ، وعطف الفعل على الاسم لأنه من تأويل الفعل أى واللاتى عدون فأورين فأغرن فأثرن (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) كفور جحود لنعمه تعالى يذكر المصائب وينسى النعم . وعنه عليه الصلاة والسلام : هو من يأكل وحده ويضرب عبده ويمنع رفده . قال فى الجواهر : قد يكون هذا فى المؤمنين (وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ) أى كنوده (لَشَهِيدٌ) يشهد على نفسه بصنعه . وعن الثورى : الضمير لله وفيه التنافر بين الضمائر فى قوله (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ) أى المال (لَشَدِيدٌ) أى شديد لحب المال الكثير لو كان له واديان من ذهب لابتغى ثالثاً ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب (أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ) بعث وأخرج (مَا فِي الْقُبُورِ) من الموتى وفى زيادة الراء مبالغة كبحث مع بحثر (وَحُصِّلَ) بين وأبرز (مَا فِي الصُّدُورِ) من الكفر أو الإيمان والسرائر (إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ) لعالم فيجازيهم ، آثر «ما» أولا ثم قال «بهم» لأنهم حال البعث تراب ورفاة والجملة دلت على مفعول «يعلم» أى إنا نجازيهم وقت ما ذكر وتعلق خبير بيومئذ وهو تعالى خبير دائماً لأنه يوم المجازاة .

[تم تفسير سورة والعاديات]

سورة القارعة
مكية ـ ثمان أو عشر آيات

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ • ٱلْقَارِعَةُ ﴾ القيامة التى تقرع القلوب بأهوالها وهى أبلغ من الحاقة ﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ • وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ سبق بيان إعرابه وما فيه فى سورة الحاقة ﴿ يَوْمَ ﴾ نصب بما دل عليه القارعة أى تقرع يوم ﴿ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ﴾ كغوغاء الجراد ﴿ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ المنتشر فى كثرتهم وانتشارهم واضطرابهم ودخول بعضهم فى بعض للحيرة إلى أن يدعوا للحساب ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ الصوف ذى الألوان ﴿ ٱلْمَنْفُوشِ ﴾ المندوف لتفرق أجزائها وتطايرها فى الجو منها بيض وحمر وسود حتى تستوى مع الأرض ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ بأن رجحت حسناته على سيئاته ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ ذات رضا أو مرضية وهى الجنة ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ بترك كلمة الإخلاص فيها فرجحت سيئاته على حسناته ﴿ فَأُمُّهُ ﴾ مسكنه ﴿ هَاوِيَةٌ ﴾ من أسماء النار لأنها تهوى بالداخل فيها سبعين خريفاً ، وسميت أمًّا له على التشبيه لأن الأم مأوى الولد ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ ﴾ أى ما هاوية : تعظيم لشأنها ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ شديدة الحرارة ، وهاء « هيه » للسكت تثبت وصلا ووقفاً .

(تم تفسير سورة القارعة)

سورة التكاثر
مكية ـ ثمان آيات

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ • أَلْهَاكُمُ ﴾ شغلكم عن طاعة الله ﴿ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ التفاخر بالأموال والأولاد والرجال ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ بأن متم فدفنتم فيها أى إلى حين الموت لم ترجعوا أو حتى عددتم الموتى تكاثراً ﴿ كَلَّا ﴾ ردع لهم عن مثله إذ لا يخلص من التفاخر إلا المتقون ، قاله الفخر : فالألف واللام فى التكاثر للمعهود فى الذهن وهو التكاثر فى الدنيا ولذاتها وعلاقتها المانعة عن طاعة الله فالآية

دالة على أن التكاثر فى ذلك مذموم ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ سوء عاقبة تكاثركم عند النزع ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ سوء فى القبر وفى « ثم » دلالة على أن الثانى أبلغ ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ أى علماً يقيناً عاقبة التفاخر ما اشتغلتم به والتكرير للتنبيه . قال عليه السلام : لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً ﴿ لَتَرَوُنَّ ﴾ بفتح التاء للجمهور وضمها لابن عامر والكسائى ﴿ الْجَحِيمَ ﴾ النار تأكيد للوعيد المتقدم وإيضاح لما أبهم منه تفخيما ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا ﴾ تكرير للتأكيد أو الأولى من بعيد والثانية من قريب إذا دخلوها ﴿ عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ مصدر لأن رأى وعاين بمعنى واحد أى رؤية هى نفس اليقين لأن علم المشاهدة أعلى مراتب اليقين ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ الذى ألهاكم أو الذى كنتم فيه من الصحة والفراغ والأمن والمطعم والمشرب وغير ذلك هل شكرتم أم لا ؟ وفى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر دخلوا حديقة أبى الهيثم أيام الرطب فذبح شاة وأطعمهم من الرطب والبسر وسقاهم ماء بارداً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا من النعيم الذى تسألون عنه يوم القيامة . رزقنا الله شكر هذه النعم التى نحن فيها .

[تم تفسير سورة التكاثر]

سورة العصر

مكية أو مدنية ـ ثلاث آيات

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ وَالْعَصْرِ ﴾ الدهر أو ما بعد الزوال إلى الغروب أو صلاة العصر ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ ﴾ الجنس ﴿ لَفِي خُسْرٍ ﴾ فى تجارته أىّ خسر والتنكير للتعظيم ، أى خسر فى أعماله لأن رأس مال الإنسان عمره وهو شىء لا أعز منه يشترى به النعيم المقيم فإذا ضيعه لا يكون أخسر منه ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فليسوا فى خسران بل ربحوا ما لا عين رأت فى جوار رب العالمين ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ وصى بعضهم بعضاً بالدين الثابت مرشداً له تكميلا كما كمل فى نفسه ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ عن المعاصى أو على الحق أو على البلايا من عطف الخاص على العام للمبالغة .

[تم تفسير سورة العصر]

سورة الهمزة
مكية أو مدنية ــ تسع آيات

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ كثير الغيبة والطعن فى أعراض الناس قولا وفعلا صريحاً وإشارة وتقدم التفصيل فى الهمز واللمز فى سورة الحجرات ، نزلت فى أمية بن خلف والوليد بن المغيرة ونحوهما ممن شأنه غيبة النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والحكم عام بدليل لفظ كل ﴿ الَّذِي جَمَعَ ﴾ بالتخفيف للجمهور والتشديد لابن عامر وحمزة والكسائى بدل من كل ﴿ مَالًا ﴾ كثيراً أو مذموماً يعذب به يوم القيامة ﴿ وَعَدَّدَهُ ﴾ أحصاه بعدّه وضبطه مرة بعد أخرى كما هو شأن البخلاء أو جعله عدّة وذخيرة لحوادث الدهر . قال الأخفش لموسر : ماتفعل بألوف المال ؟ قال أجعله عدّة لجفوة السلطان ونوائب الزمان . قال : إذاً تدعه لمن لا يحمدك وترد على من لا يعذرك ﴿ يَحْسَبُ ﴾ لجهله ﴿ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ جعله خالداً لايموت أبداً ، إذ حب المال أغفله عن الموت أو طوّل أمله حتى كان يعمل عمل من لا يظن الموت من تشديد الأركان وتشييد البنيان ﴿ كَلَّا ﴾ ردع له عن حسبانه ﴿ لَيُنبَذَنَّ ﴾ جواب قسم محذوف أى ليطرحن ﴿ فِي الْحُطَمَةِ ﴾ من أسماء النار أى التى تحطم أى تكسر كل ما ألقى فيها جزاء له على ذم أعراض الناس ، واستعير له النبذ الدال على غاية الحقارة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ ما النار التى لها هذه الخاصية ﴿ نَارُ اللَّهِ ﴾ تفسير لها والإضافة للتعظيم والتهويل ﴿ الْمُوقَدَةُ ﴾ التى أوقدها للانتقام وما أوقده لا يفتر ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ ﴾ تشرف ﴿ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴾ القلوب تستولى عليها بالإحراق وألمها أشد من ألم غيرها للطفها ، ولذا خصها بالذكر ولأنها معادن الذنوب ومصادرها ليكون العذاب على قدر ماتولد منها ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم ﴾ جمع الضمير رعاية لمعنى كل ﴿ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ بالواو والهمزة على مافى سورة البلد أى مطبقة ﴿ فِي عَمَدٍ ﴾ بفتح الحرفين للجمهور وضمهما لحمزة والكسائى وشعبة أى موثقين فى أعمدة ﴿مُّمَدَّدَةٍ﴾ ممدودة حال من المجرور أى تغلق عليهم الأبواب حال كونهم مسلسلين فى العمد كاللصوص فى المقاطر لأنهم سُرّاق الأعراض ، أو حال من ضمير «موصدة» والمعنى يغلق عليهم أبواب النار وتوثق بالأعمدة توكيداً ليأسهم من الخروج وعلى هذا تكون النار داخل العمد والله أعلم . قلت : المقاطر جمع مقطر خشبة فيها خروق على قدر سعة أرجل المحبوسين .

[تم تفسير سورة الهمزة]

سورة الفيل

مكية ـ خمس آيات

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ أَلَمْ تَرَ ﴾ استفهام تعجيب أى اعجب ﴿ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ ٱلْفِيلِ ﴾ أبرهة الأشرم والى اليمن من قبل النجاشي وجنوده ، بنى بصنعاء اليمن كنيسة ليصرف إليها الحاج عن مكة فغضب رجل من كنانة ولطخ قبلتها بالعذرات ليلا احتقاراً لها فحلف أبرهة ليهدمن الكعبة ؛ فأقبل إليها بجيوشه على أفيال مقدمها اسمه محمود فعارضه ذو نفر مع جيش من قومه بنى قحطان فلم يقدروا عليه فأسره ولما بلغ أرض خثعم قاتله نفيل بن حبيب الخثعمى فأسره أيضاً ولم يقتله ولما بلغ المغمس ـ هو موضع قرب مكة ـ فرت قريش إلى الجبال فأغار على إبلهم فأتاه عبد المطلب وكان وسيما فأكرمه أبرهة وسأله عن حاجته فقال إن جيشك أخذ لى مائتى بعير ، فقال أبرهة : إنى جئت لتخريب بيت هو شرفك وشرف آبائك فلم تذكره وتذكر الإبل ؟ فقال عبد المطلب : إنى رجل مضياف لا أقدر على الضيافة إلا بالإبل والبيت له صاحب ! أنت وذلك . فرد إبله ، فلما أصبحوا هيأوا الفيلة وكان أكبرها يسمى محموداً فقدموه فبرك فضربوه بالمعاول فلم يتحرك فوجهوه نحو اليمن فهرول ثم نحو مكة فبرك فذهب عبدالمطلب وأخذ بحلقة الكعبة وهو يقول :

لَا هُمَّ إِنَّ الْمَرْءَ يَمْـ ـنَعُ رَحْلَهُ فَٱمْنَعْ رِحَالَكْ

جَحَدُوا حِمَاكَ بِكَيْدِهِمْ جَهْلًا وَمَا رَقَبُوا جَلَالَكْ

فى أبيات ، فلم يتم كلامه إلا والطير قد أقبلت فأرسل الله عليهم ما قصه فى قوله ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ ﴾ فى هدم الكعبة ﴿ فِى تَضْلِيلٍ ﴾ خسارة وهلاك وخاطب الرسول بألم تر وإن لم يشاهد الواقعة لأنها وقعت فى السنة التى ولد فيها لأنه شاهد آثارها وتواتر عنده أخبارها فكأنه رآها وعبر بكيف دون «ما» لأن المراد تذكير ما فيها من وجوه الدلالة على كمال علم الله وقدرته وعزة بيته وشرف رسله لأنها من الإرهاصات له ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ جماعات قيل لا واحد له وهو الأصح وقيل واحده إبول أو إبال أو إبيل كعجول ومفتاح وسكين ، والإبالة الحزمة شبهت بها الجماعات ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ ﴾ كل حجر أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة يخرق البيضة والرجل والفيل ويصل إلى الأرض ﴿ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ طين مطبوخ وتقدم ﴿ فَجَعَلَهُمْ ﴾ الله ﴿ كَعَصْفٍ ﴾ ورق زرع يابس ﴿ مَّأْكُولٍ ﴾ أكلته الدواب وداسته وفتته

فأهلكتهم من عند آخرهم . وفى الجواهر : بلغنا من غير واحد من الصالحين أن من قرأ فى ركعتى الفجر فى الأولى الفاتحة وألم نشرح وفى الثانية الفاتحة وألم تر كيف قصرت يد كل عدو عنه ولم يجعل الله لهم إليه سبيلا . قال الإمام أبو حامد الغزالى : وهذا صحيح لا شك فيه .

[تم تفسير سورة الفيل]

سورة قريش
مكية أو مدنية ـ أربع آيات

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ) متعلق بجعلهم أو بقوله « فليعبدوا » والفاء جواب شرط أى إن لم يعبدوا الله لكل نعمة فليعبدوه لأجل (إِيلَافِهِمْ) تأكيد مصدر آلف بالمد (رِحْلَةَ الشِّتَاءِ) إلى اليمن (وَ) رحلة (الصَّيْفِ) إلى الشام فى كل عام يمتارون ويتجرون لا يتعرض لهم أحد وقرأ ابن عامر لإلاف بغير ياء بعد الهمز مصدر ألف وهذا الإيلاف هو العهد من ملوك البلاد أخذه لهم هاشم ، وقريش هم أولاد الفهر بن مالك بن النضر سموا باسم القرش دابة عظيمة فى البحر تعبس بالسفن لا تدفع إلا بالنار لشجاعتهم والتصغير للتعظيم وكانوا قبل سكان الحرم إذا أصابهم مجاعة خرجوا إلى البادية متفرقين فقام هاشم فيهم خطيباً وحضهم على التجارة وهيأ لهم الرحلتين لحسن حالهم وأثروا قيل كان هاشم يؤلف إلى الشام وعبد شمس إلى الحبشة والمطلب إلى اليمن ونوفل إلى فارس وهم إخوة فكان تجار قريش يختلفون إلى هذه البلاد بحبال هؤلاء الإخوة فلا يتعرض لهم أحد وكان كل أخ أخذ حبلا من ملك ناحية سفره والله أعلم (فَلْيَعْبُدُوا) بسبب ما ذكر (رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ) بالرحلتين أى من أجله (وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ) أى من أجله ، وكان الجوع يصيبهم بمكة لعدم الزرع وخافوا جيش الفيل فأمنوا بعد ذلك لا يتعرض لهم أحد .

[تم تفسير سورة قريش]

سورة الماعون
مكية أو مدنية ـ ست أو سبع آيات

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ • أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾ الجزاء أي هل عرفته استفهام تعجب وقرأ الكسائي بحذف الهمزة إلحاقاً له بالمضارع ، ولما كان في التعجيب تشويق إلى تعرف حاله رتب عليه قوله ﴿ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ يدفعه بعنف عن حقه وأحرى عن إطعامه والإحسان إليه إشارة إلى أن من كذب بالجزاء لا ينفك عن هذه الرذائل ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾ غيره ﴿عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ لا يفعل الخير ولا يأمر به ، قيل نزلت في أبي جهل أو الوليد بن العاص والحكم عام ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ غافلون يؤخرونها عن وقتها ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ في الصلاة وغيرها ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ كالزكاة فاعول من المعن وهو الهين اليسير والماعون هو المعروف وكل هين يسير يستعان به من فأس وقدوم وقدر وإبرة وقصعة ونحوها ، وفي الكلام ترق ولذلك زاد لفظ الويل أي إذا كان دع اليتيم وترك الإطعام من سمات المكذبين فالويل لمن ترك عماد الدين وهي الصلاة وقنطرة الإسلام وهي الزكاة وتلبس بالرياء الذي هو الشرك الخفي ليبعد كل مؤمن عن هذه الخصال بمراحل وكذا ما يخل بالمروءات من منع الماعونات .

[تم تفسير سورة الماعون]

سورة الكوثر
مكية أو مدنية ـ ثلاث آيات

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ • إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ ﴾ يا محمد ﴿ الْكَوْثَرَ ﴾ الخير الكثير في الدارين ، فوعل من الكثرة ومنه النهر أو هو المراد هنا لحديث البخاري ومسلم عنه عليه السلام : أتيت ليلة أسرى بي على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ فقلت ما هذا يا جبريل قال هذا الكوثر . ولما في مسلم أنه قرأ إنا أعطيناك

الكوثر إلى آخرها ثم قال أتدرون ما الكوثر قلنا الله ورسوله أعلم قال فإنه نهر وعدنيه ربي عليه خير كثير الحديث ، وفي ابن ماجه : أول من يرد على الحوض فقراء المهاجرين الدنس ثياباً الشعث رءوساً الذين لا ينكحون المنعمات ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ لا كالمرائين ﴿ وَٱنْحَرْ ﴾ له القرابين البدن التي هي خير أموال العرب شكراً لإنعامه عليك وصدقة على المحاويج خلافاً لمن يدعهم ويمنعهم الماعون فالسورة كالمقابلة للمتقدمة ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ ﴾ مبغضك ﴿ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ المنقطع عن كل خير أو المنقطع العقب . نزلت في العاص ابن وائل سمى النبي صلى الله عليه وسلم أبتر عند موت ابنه القاسم لأن الأبتر عندهم من ينقطع ذكره بموته لعدم النسل فرد الله عليه بأن النبي صلى الله عليه وسلم مرفوع الذكر على المنابر وغيرها إلى آخر الدهر والشانئ يدخل النار فينقطع ذكره .

[تم تفسير سورة الكوثر]

سورة الكافرون
مكية أو مدنية ـ ست آيات

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ • قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ الخطاب لرهط من قريش علم الله أنهم يموتون على الكفر دعوا النبي إلى عبادة أوثانهم ليعبدوا إلهه ﴿ لَآ أَعْبُدُ ﴾ فيما يستقبل ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ من الأصنام لأن «لا» لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الاستقبال كما أن «ما» لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الحال ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ أي فيما يستقبل لأنه في قران لا أعبد ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ أي في الحال أو فيما سلف ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ أي ما عبدت وأنا مستمر على عبادته ولذا لم يقابل الماضي بمثله ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ الشرك ﴿ وَلِيَ دِينِ ﴾ الإسلام لا أتركه . وليس فيه إذنٌ في الكفر ولا منع عن الجهاد حتى يكون منسوخاً كما ظنه بعضهم ، وحذف ياء الإضافة السبعة وصلا ووقفاً وأثبتها يعقوب في الحالتين .

[تم تفسير سورة الكافرون]

سورة النصر

مدنية ، ثلاث آيات

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ • إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ) نبيه على أعدائه (وَالْفَتْحُ) فتح مكة أو نصر الله المؤمنين وفتح البلاد لهم (وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا) جماعات بعد ما كانوا يدخلون واحداً واحداً ، وذلك بعد فتح مكة جاءه صلى الله عليه وسلم وفود العرب من أقطار الأرض طائعين لما رأوه فتح مكة ولم يصبه ما أصاب أصحاب الفيل وأعتق أهلها منّا منه (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) أى ملتبساً بحمده (وَاسْتَغْفِرْهُ) هضما لنفسك وليستن بك (إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) لمن استغفره . وكان صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه السورة يكثر من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه ، وعلم بها أنه قد اقترب أجله . قال ابن عمر : نزلت هذه السورة بمنى فى أوسط أيام التشريق فى حجة الوداع وعاش بعدها صلى الله عليه وسلم ثمانين يوماً أو نحوها .

[تم تفسير سورة النصر]

سورة تبت

مكية ـ خمس آيات

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ) لما دعا صلى الله عليه وسلم قومه على الصفا وقال إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد فقال عمه أبو لهب تبّاً لك ألهذا دعوتنا : نزل (تَبَّتْ) خسرت (يَدَا أَبِي لَهَبٍ) أى جملته وعبر عنها باليدين مجازاً لأنه رمى نحو النبى عليه السلام حجراً بين يديه ولأنهما كالجناحين للطائر فمن عدمنا منه فهو والهالك سواء (وَتَبَّ) هلك والتباب الهلاك أى حصل ذلك لأن الأول دعاء والثانى

خبر كقولهم أهلكه الله وقد هلك ، ولما خوفه النبي بالعذاب فقال : إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فإني أفتدي منه بمالي وولدي نزل ﴿ ما أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ وكسبه أي ولده و « أغنى » بمعنى يغني ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ تلهب وتوقد فهو تصوير للهلاك بما يظهر معه عدم إغناء المال والولد وجمع بين طريق التأكيد الماضي في تب لتحقق وقوعه والسين في « سيصلى » لتأكيد الوعيد ﴿ وَامْرَأَتُهُ ﴾ عطف على ضمير يصلى سوغه الفصل بالمفعول وصفته ، وهي أم جميل واسمها أروى بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان بن حرب عدل عن كنيتها لاتصافها بالضد ﴿ حَمَّالَةُ ﴾ بالرفع للجمهور نعت والنصب على الذم لعاصم ﴿ الْحَطَبِ ﴾ الشوك تلقيه ليلا في طريق النبي صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة ﴿ فِي جِيدِهَا ﴾ عنقها ﴿ حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾ أي ليف تربط به الشوك الذي تحمله إلى طريق النبي صلى الله عليه وسلم وفي ذلك تحقير لها في تصويرها بصورة حطابة لم تجد حولة فرجعت والحبل في عنقها الذي هو أشرف الأعضاء هذا وهي من الثروة وشرف النسب بمكان ولذا لما سمعته أخذت فهراً وجاءت أبا بكر وهو جالس مع النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد فأخذ الله بصرها وقالت يا أبا بكر بلغني أن صاحبك هجاني ولو وجدته لضربت فمه بهذا الفهر وإني لشاعرة قد قلت فيه مذمماً قلينا ودينه أبينا فرجعت فقال النبي صلى الله عليه وسلم حجبتني عنها ملائكة الله . ولله درّ البوصيري حيث قال في ذلك : ومن أين ترى الشمس مقلة عمياء !

[تم تفسير سورة تبت]

سورة الإخلاص

مكية أو مدنية ـ أربع أو خمس آيات

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه فنزل ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فضمير « هو » إن كان لما سألوا مبتدأ والله خبره و « أحد » بدل منه أو خبر ثان وإن كان للشأن فالجملة الخبر ولا تحتاج إلى رابط لأنها نفسه ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ مبتدأ وخبر أي المقصود في الحوائج على الدوام يستغنى عن غيره مطلقاً وكل ما عداه محتاج إليه في جميع جهاته ، وتعريفه لعلمهم بصمديته بخلاف أحديته وتكرير لفظ الله للإشعار بأن من لم يتصف به لم يستحق الألوهية ولم تعطف الجملة لأنها نتيجة الأولى إذ من كان أحديَّ الذات والصفات لا يكون إلا غنيًّا مطلقاً ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ لانتفاء مجانسه وعدم افتقاره إلى غيره

﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ لانتفاء الحدوث عنه والمماثل ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ من صاحبة أو ولد أو غيرهما « له » متعلق بـ « كفواً » وقدم عليه لأنه محط القصد بالنفي وأخر « أحد » وهو اسم يكن عن خبرها رعاية للفاصلة .

[تم تفسير سورة الإخلاص]

سورة الفلق
مكية أو مدنية ـ خمس آيات

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ نزلت هذه السورة والتي بعدها لما سحر لبيد اليهودى النبي صلى الله عليه وسلم في وتر به إحدى عشرة عقدة فأعلمه الله بذلك وبمحله فأحضر بين يديه وأمر بالتعوذ بالسورتين فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد خفة حتى انحلت العقد كلها وقام كأنما أنشط من عقال ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ الصبح فعل بمعنى مفعول من فلق شق يعم كل ما فلق من ظلمة العدم لكن خصه العرف بالصبح للاشعار بأن من قدر أن يزيل بالصبح ظلمة الليل قادر أن يزيل عن العالم ما يخافه ، ولفظ الرب هنا أوقع من سائر الأسماء لأن الإعاذة من المضار تربية ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ من حيوان مكلف وغير مكلف وجماد كالسم وغير ذلك فهو يعم شر الدارين في العالم العلوى والسفلى ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ ﴾ ليل عظيم ظلامه ﴿ إِذَا وَقَبَ ﴾ إذا أظلم أو القمر إذا غاب وتخصيصه لأن المضار فيه تكثر ويعسر الدفع ﴿ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ ﴾ السواحر تنفث ﴿ فِي الْعُقَدِ ﴾ التي تعقدها في الخيط تنفخ فيها بشيء تقوله من غير ريق أو معه كبنات لبيد المذكور . قال ابن عطية : وهذا الشأن في زماننا موجود شائع في صحراء المغرب وحدثني ثقة أنه رأى عند بعضهم خيطاً أحمر قد عقدت فيه عقد على فُصلان فمنعت بذلك من رضاع أمهاتها فكان إذا حل عقدة جرى ذلك الفصيل إلى أمه في الحين فرضع أعاذنا الله من شر السحر والسحرة . اه . ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ إذا تم حسده وعمل بمقتضاه وذكر الثلاثة الشامل لها ما خلق بعده لشدة شرها .

[تم تفسير سورة الفلق]

سورة الناس

مكية أو مدنية ست آيات

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ خالقهم ومالكهم خصهم هنا لأن الاستعاذة في هذه السورة إنما هي من المضار البشرية ، وفي السورة المتقدمة من المضار الكونية التي تعم الإنسان وغيره ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ عطف بيان على سبيل الترقي لأن الرب أعم من الملك كما هو أعم من الإله ﴿ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴾ وأظهر المضاف فيهما زيادة للبيان ﴿ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ ﴾ أي الشيطان سمي بالحدث لكثرة ملابسته له ﴿ الْخَنَّاسِ ﴾ الذي يخنس أي يتأخر عن القلب كلما ذكر الله وكأنه قال أعوذ من شر الوسواس إلى الناس بربهم الذي يملك أمورهم ويستحق عبادتهم ﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ قلوبهم إذا غفلوا عن ذكر الله ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ بيان للشيطان الموسوس أنه جني وإنسي أو من متعلق بيوسوس والناس يوسوسون بمعنى يليق بهم في الظاهر ثم تصل وسوستهم إلى القلب أعاذنا الله من شر الجن والإنس ووفقنا الله لما يحبه ويرضاه . وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته والحمد لله رب العالمين .

تم تفسير سورة الناس

قال المؤلف رحمه الله تعالى : قد يسر الله إتمام هذا التفسير يوم الثلاثاء بعد الظهر في شعبان لثلاث عشرة خلت منه سنة إحدى وثلاثين ومائتين بعد ألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام آمين

فهرس

الجزء الرابع

من ضياء التأويل في معاني التنزيل

الصفحة	السورة
٢	سورة يس
١١	» الصافات
٢٣	» ص
٣٥	» الزمر
٤٩	» غافر
٦٣	» فصلت
٧٣	» الشورى
٨٣	» الزخرف
٩٣	» الدخان
٩٨	» الجاثية
١٠٣	» الأحقاف
١١٢	» محمد ﷺ
١١٩	» الفتح
١٢٧	» الحجرات
١٣٤	» ق
١٣٩	» الذاريات
١٤٥	» الطور
١٤٩	» النجم
١٥٦	» القمر
١٦١	» الرحمن
١٦٧	» الواقعة
١٧٣	» الحديد
١٨٠	» المجادلة
١٨٥	» الحشر
١٩١	» الممتحنة
١٩٥	» الصف
١٩٨	سورة الجمعة
٢٠٠	» المنافقين
٢٠٢	» التغابن
٢٠٥	» الطلاق
١٠٩	» التحريم
٢١٢	» تبارك
٢١٧	» ن
٢٢٢	» الحاقة
٢٢٧	» المعارج
٢٣٠	» نوح عليه السلام
٢٣٣	» الجن
٢٣٧	» المزمل
٢٤٠	» المدثر
٢٤٤	» القيامة
٢٤٧	» الإنسان
٢٥١	» المرسلات
٢٥٤	» النبأ
٢٥٧	» النازعات
٢٦٠	» عبس
٢٦٣	» التكوير
٢٦٥	» الانفطار
٢٦٦	» التطفيف
٢٦٩	» الانشقاق
٢٧٠	» البروج
٢٧٢	» الطارق
٢٧٣	» الأعلى
٢٧٥	سورة الغاشية
٢٧٦	» الفجر
٢٧٩	» البلد
٢٨١	» والشمس
٢٨٢	» الليل
٢٨٣	» الضحى
٢٨٤	» الانشراح
٢٨٥	» التين
٢٨٦	» اقرأ
٢٨٨	» القدر
٢٨٩	» لم يكن
٢٩٠	» الزلزلة
٢٩٠	» العاديات
٢٩٢	» القارعة
٢٩٢	» التكاثر
٢٩٣	» العصر
٢٩٤	» الهمزة
٢٩٥	» الفيل
٢٩٦	» قريش
٢٩٧	» الماعون
٢٩٧	» الكوثر
٢٩٨	» الكافرون
٢٩٩	» النصر
٢٩٩	» تبت
٣٠٠	» الإخلاص
٣٠١	» الفلق
٣٠٢	» الناس

خاتمة الطبع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على سيدنا محمد المؤيد بباهر المعجزات وعلى آله وأصحابه الكرام البررة وكل من تبعه بإحسان من المؤمنين الخيرة .

أما بعد فقد تم طبع هذا التفسير الجليل . المسمى « ضياء التأويل : فى معانى التنزيل » للإمام العلامة السيد أبى محمد عبد الله بن محمد بن عثمان الملقب بفودى بن عثمان بن صالح رحمه الله تعالى بمطبعة الاستقامة بجد بعيد الله وعونه الصحة علامة ؛ فقد بذلنا فى مراجعته وتصحيحه كبير المجهود على النسخة الخطية التى قدمها لنا السيدان (أحمد أحمد أبو السعود ، عثمان الطيب) الناشران لهذا الكتاب . وقد وفقنا الله تعالى للاستعانة بمراجعة نصوصه على جملة من التفاسير المعتبرة فزالت عنه ربقة التحريف ، وتحرر من أسر التصحيف . فلله الحمد على توفيقه وله الشكر على نعمته .

ومن الجدير بالذكر أننا أثناء السير فى طبع الكتاب وفى تصحيحه ومراجعته كان التوفيق والتيسير حليفنا ، وما أظن ذلك إلا ببركة إخلاص المؤلف الذى ظهرت كراماته لنا واضحة ، فإننا ما توقفنا فيه فى أى مسألة إلا وجدنا لها حلاً فى حينه . ذلك فضلا عن تحرى المؤلف ، فما تجد فيه من الخرافات التى اشتملت عليها بعض التفاسير شيئاً ولا من دس اليهود والمغرضين أى كلمة ، وقد دافع المؤلف عن هذه الأشياء فى مواضعها حتى جاء نادرة فى التفاسير (جزى الله المؤلف خيراً) وأثاب كل من كان سبباً فى إظهار هذا الكتاب على هذه الصورة ورضى عن كل من حمله وقرأه وجعله عدة له ومرجعاً إنه جواد كريم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين ؟